أنيس المسافر وسلوة الحاضر

تأليف

الدكتور/ ناصر مسفر الزهراني

ⓒ ناصر بن مسفر الزهراني، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزهراني، ناصر مسفر

أنيس المسافر وسلوة الحاضر ـ الرياض.

٤٥٦ ص، ١٧ ×٢٤سم

ردمك ٤ ـ ٢٩٨ ـ ٣١ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الأدب العربي ـ مجموعات أ ـ العنوان

ديوي ٨١٠,٨ ١٦ / ٣٢٢٤

ردمك ٤ ـ ٢٩٨ ـ ٣١ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٦ / ٣٢٢٤

الطبعة الرابعة

الطبعة الأولى الخاصة بمكتبة العبيكان

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشـــر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

لماذا أنيس المسافر

١ـ **أنيس المسافر** لأننا في زمن كثرت فيها الأسفار، وتقاربت فيه الأقطار. والمسافرون آلاف مؤلفة، والمرتحلون أعداد هائلة، والمغتربون أرقام مذهلة، والمهاجرون كثرة كاثرة، حتى أصبح الأصل في الناس السَّفر، المطارات تغصُّ بالمسافرين، والخطوط البرية معمورة بالمهاجرين، والبحار تفيض بالمرتحلين؛ فقلْ لي بالله عليك أليس هذا الأمر لافتاً للنظر، ومثيراً لِلفِكر؟ أليس هذا الحدث محتاجاً إلى رعاية، وهذا الركب جديراً بالعناية؟ أليست هذه الفئام المسافرة، والأعداد المهاجرة، والنفوس المثابرة بحاجة إلى مُذْهِب لِلهمِّ والكدر، وأنيسٍ في الحضر والسفر؟

٢ـ **أنيس المسافر** لأنه لم يوجد كتابٌ في موضوعه ولا مثيلٌ في مشروعه، فاز في هذا الميدان بقصب السبق، ولبُّه الإخلاص وعنوانه الصدق، ونهجه الإسلام وأسلوبه الرفق.

وُجِدَتْ بعض الرسائل الفقهية، أو الكتيبات الوعظية، أو الفتاوى الشرعية، وذلك جهدٌ مشكور، وعمل مأجور؛ ولكن هنا الإحاطة والشمول ومخاطبة القلوب والعقول، هنا الآية والحديث، والقصة والقصيدة والطرفة والدعابة والابتسامة والموعظة، هنا أخبار المسافرين الشائقة، ورحلات المرتحلين العابقة، هنا فرح القلوب بلقاء الأحباب، وأنس المسافر بمنظر الطبيعة الخلاَّب، هنا دموع المودّعين، وآهات المغتربين، وعبرات المرتحلين، وعجائب المهاجرين. قَرَّبتُها لناظريك، وحَضَّرتها بين يديك وَزَفَفْتُها إليك.

طَرْحٌ جديد، ولونٌ فريد، وعرضٌ شيِّق، نهجٌ يناسب روح العصر، ويلائم

طبيعة الزمان ويساير ركب الحياة، على نور من الله، وأملٍ في نيل رضاه.

٣ـ **أنيس المسافر** يتناسب مع جوِّ السفر، وحقيقة الرحلة، وجوهر الغربة، حيث لا تقوى النفوس على الجدِّية المضنية، ولا تطيق القلوب الكلمة القاسية، والعبارة الجافية، السفر تسليةٌ وترويح، حداءٌ وتصديح، ورد بذلك الأثر الصريح، عن النبي العربي الفصيح، «**رفقاً بالقوارير يا أنجشة**» «**ألا رجلٌ يحدو بنا**»، «**ولكن ساعة وساعة**».

٤ـ **أنيس المسافر** أُلِّف من أجلك أيهاالمسافر، فإن نال رضاك فالحمدلله قدحصل المقصود، وهان المجهود، وإن كان الأمر على خلاف ماقصدتُّ وعلى غير ماأردتُّ، فالتمس لي العذر، وأنا أستغفر الله من الخطأ والزلل.

٥ـ **أنيس المسافر** على طريقة السلف في التأليف، ويحذو حذوهم في التصنيف، فلا حواشي ولا أرقام، ولا تحويلات ولا إيهام، لم أرد أن يقع القارىء في الملْ، ولا أُعَرِّض عينيه للحولْ، حيث يصبح همه متابعة الأرقام والإحالات من أعلى الصفحة إلى أدناها، ويشتت ذهنه في مطاردة المعلومات حتى يلقاها، فينتقل من الأناسة إلى التعاسة، ومن همِّ الأسفار إلى همِّ مطاردة الأفكار، فنرى كثيراً من الكتب إذا بدأت تعيش المعلومة وتنسجم معها إذا بك تصطدم بجدران من الأرقام، وحواجز من الأعداد، انتبه.. قف.. حاسب.. تحويلة.. انظر أسفل الصفحة!! ثم الله المستعان على ما ستجده من تحويلات أخرى في أسفل الصفحة وهكذا دواليك. ولكن مع ذلك أوردت من المراجع أتمّها، ومن المصادر أهمها.

فمن أراد التوسع والإتمام، أو التراجم للأعلام، فليعد إليها بنفسه، وليرتوِ من معينها بكأسه.

مقدمة الطبعة الرابعة

المسلم يُسَرُّ سروراً عظيماً وهو يرى ثمرةً لجهدٍ قدَّمه، أو علمٍ علَّمه، وإن الفرحة تملأ فؤاده، وتعمر قلبه، حينما يسمع عبارات الدعاء، وكلمات الثناء.

فهو يأمل أن يكون ذلك من عاجل البشرى، ومما يفيده في الدار الأخرى.

ولقد وجد هذا الكتاب ثناءً عاطراً، وجمهوراً شاكراً، ووجد من القبول والترحيب مايفوق التصور ويربو على الوصف ولا أدلّ على ذلك من نفاد الطبعة الأولى منه في أقل من شهرين فلله الحمد على إحسانه والشكر له على توفيقه وامتنانه.

والصلاة والسلام على محمدٍ الداعي إلى رضوانه.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، ذي القوة المتين، حبيب الطائعين، وأنيس الحاضرين والمسافرين، دليل الحائرين، وسلوة المؤمنين الموحدين، الحمد لله الواحد القهار، مكور النهار على الليل، ومكور الليل على النهار، خلق الأمصار وعمر الأرض بالديار، وباعد بين الأقطار، وكتب على الناس الأسفار.

الحمد لله العالم بهواجس النفوس وخفيات الأعماق، أوجد البشرية بعد أن أخذ عليهم الميثاق، ونثرهم في المعمورة، وقسّم عليهم الأرزاق، وحبّب كل أناس في أوطانهم فسبحان الواحد الخلاق.

الحمد لله العلي القدير، ذي اللطف والتدبير، الذي هون المسير، ومنَّ بالتيسير، وجاء بالرزق الوفير.

الحمد لله كاشف الهمِّ والباس، خالق الجن والناس، المغاير بين الألوان والأجناس، ومحصي الأعمال والأقوال والأنفاس.

والصلاة والسلام على أفضل من حلّ وارتحل، ومكث وانتقل، وسار ونزل، وأقام وسافر، وسكن وهاجر، أقام فكان النور والخير والبركة في إقامته، وسافر فكان الظفر والفلاح والنجاح في سفره، وهاجر فغير وجه الأرض بهجرته، قائد الغرِّ المحجلين، وأعظم المقيمين والمسافرين، وأصدق المرتحلين والمهاجرين، دلَّنا على الخير في سفرنا وحضرنا، وإقامتنا وظعننا، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديه وسار على أثره واقتدى به في حضره وسفره إلى يوم الدين.

إليك أخي المسافر فيض علمٍ وفنٍّ كان في صدري حبيسا
وكنت أقول هل سأراه يوماً يضيء بصدق لهجته الطروسا
فأمضى الله لي ما كنت أرجو فكان لقلب قارئه أنيسا

أنيس المسافر: أنسٌ للقلوب، وسلوةٌ للنفوس، وروضةٌ للعقول.

أنيس المسافر: رفيقٌ للطريق، وسميرٌ للوحدة، وبلسمٌ للهموم.

أنيس المسافر: روضةٌ فوّاحة، وحديقةٌ غنّاء، وبستانٌ جميل.

ألحاظه ترجمان منطقِهِ ووجهُهُ نُزْهةٌ لعاشقه
هذّبهُ الظُّرف والجمال فما يَمُرُّ عيبٌ على طرائقه

أنيس المسافر: ضياءٌ في الظلمات، وصديقٌ في الرحلات، ونزهةٌ في المتنزهات ومُخْتَصِرٌ للمسافات.

سلوة لمن فارق الأهل، وغاب عن الوطن، ومشى في مناكب الأرض. إن سافرت فهو أنيسك في الطريق، وإن أقمت فهو لك نعم الصديق.

أنيس المسافر: عزاءٌ لمن فارق وطنه، وحرَّك شجنه، واستثار حزنه.

يسامر من شطّ به المزار، وبعدت عنه الدار، وفقد القريب والجار.

إيْهِ يا طاويَ الربا والبيدِ هل لِمرآك في الدُّجى من مُعِيد
الطريقُ الطويل هدَّم جنبيـ ـك وعدو الهوى وشدو القصيد
سَفَرٌ شاسع كأن مداه رحلة الفكر في الفضاء البعيد

أنيس المسافر: آية تبث السكينة في قلب المسافر فإذا مؤذن الرعاية الربانية ينادي لا تحزن إنَّ الله معنا.

لو قيل للحسن احْتَكِمْ لَمْ يَعْدُها أو قيل خاطب غيرها لم ينطق

تبـدو فيهتـفُ للعيـون ضيـاؤهـا هـام الفـؤاد بهـا لحسـن المنطـقِ

وهو حديث لمن سافر أو أقام، ولمن حَلَّ أو ارتحل. فهو معك في إقامتك بين الأصحاب والأحباب، وهو رفيقك في مواطن الاغتراب.

إنه مزيـجٌ رائـع، وتنويـعٌ ماتـع، آيـةٌ وحديـث، عـبرةٌ وموعظـة، طـرفـةٌ ودعـابـة، قصـةٌ وقصـيدة، هـزجٌ ورجـز، يشـنّف الآذان بحـروف الأنـس، ويُتحـف القلـب بأذكـار الـرب، ويُمـتع النفـس بحـديـث الركـب.

نُظمتْ كما نُظِمَ السحابُ سطُورُهُ ولَكَمْ سهرتُ الليل في تأليفه
هَـذَّبتُـهُ، جَمَّلتُـهُ فـأمِنـتُ مـنْ تصحيفـهِ ونجـوتُ مـن تحـرِيفـهِ
أفـرغـتُ فيـه محبّتـي ومـودّتـي ومزجت إخلاصي بحبر حروفهِ

فيه قطعٌ متجاوراتٌ صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد من محبة الخير للناس، وإدخال الأنس على النفس، وملاحقة الأسى ومطاردة الغربة ووأد الوحشة.

حديثٌ جميلٌ كلمّا طال موجزٌ حبيبٌ إلى قلب المحدَّث سبّاق
معانٍ كأطواد الشّوامخ جزلةٌ تضمَّنَها عذبٌ من اللفظ برّاقُ
بـه حِكَـمٌ مستنبطـات غـرائـبٌ لهامن ذوي الآداب والفضل عشاقُ

أنيس المسافر: صارمٌ بتار يمزق جيوش الهموم وكتائب الأوهام ووساوس الآلام والغرام والهيام.

إنه دعوةٌ إلى رحاب المتعة والروعة، والاستمتاع بالحياة، والنظر إلى الدنيا نظرة جميلة. إنه يقول لك سافر في ملكوت الله ببدنك وقلبك وعقلك وروحك يدعوك إلى السياحة البريئة، والترويح المحتشم،

والرحلة الإيمانية، والمتعة الربانية. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠].

إن أنيس المسافر يقول لك: لا تحزن، لا تسأم، لا تهتم، لا تغتم. فوق غصن الشوك زهرة، وتحت دمعة اليأس بسمة، وخلف مرارة الشك برد اليقين، ومع زلزال المصيبة سكينة الثبات وروعة الصبر، وبعد مرارة الوداع روعة اللقاء، وعَقِبَ وحشة الاغتراب الأنس بلقاء الأحباب، وعند محنة الأيام منحة الملك العلاَّم، وإن مع العسر يسرًا. إنه يدعوك إلى الجانب المشرق في لوح الحياة وإلى الصفحة البيضاء في دفتر الوجود، ويدعوك إلى الاستمتاع بالطبيعة الخلابة ومناظرها الجذابة، ويقول لك:

أيُّهذا الشَّاكي وما بكَ داءٌ ... كيفَ تَغْدُو إذا غدوتَ عليلا؟
وترى الشّوكَ في الوُرودِ، وتَعْمَى ... أن تَرَى فَوْقَهَا النَّدَى إكليلا
والذي نفسُهُ بغيرِ جَمالٍ ... لا يَرى في الوُجودِ شيئاً جَميلاً
كلُّ مَنْ يَجمَعُ الهمومَ عليهِ ... أخذَتْهُ الهمومُ أخذاً وَبيلا

فهيا بنا أخي الحبيب ننصب شراع المحبة، ونمتط سفينة المودّة لنمخر عباب هذا البحر الهادئ والفرات السائغ، نسافر إلى أعماقه حيث اللآلئ والأصداف، والياقوت والمرجان، فبسم الله وعلى بركة الديان.

د. ناصر الزهراني

ملحوظة: تدخلت في بعض الأبيات الواردة في هذا الكتاب بالحذف أو التعديل أحيانًا وذلك إذا كان فيها خللٌ عقديٌ مثل سب الدهر أو التسخط على القدر أو كان فيها ما يخدش الحياء

أول سفر في تاريخ البشر

أبوالبشر أول من ابتدأ السفر، لقد سافر سفره الأول من الجنة إلى الأرض، من البقاء إلى الفناء، ومن الراحة إلى العناء، سافر من النعيم، وجوار الرب الكريم، إلى الكدح المستديم، سافر عن الأنهار والأشجار والظلال، إلى الصحاري والوهاد والجبال، كان ذلك السفر بداية التعب والشقاء، والكلفة والعناء، التي كتبت على آدم وذريته بجريرة الذنب وشؤم المعصية وتبعة الخطيئة، ونكد المخالفة ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾.

فلما استجاب آدم لمشورة إبليس ـ لعنه الله ـ وخالف أمر مولاه، حُكم عليه بمغادرة الجنة، في الحال، إلى دار الفناء والزوال، فأُهبط منها إلى الأرض ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

لقد صدرت الأوامر الربانية بمغادرة آدم وحواء وإبليس من الجنة، فأما آدم فقد تاب إلى ربه وأناب إليه، فتاب عليه، وعلى زوجه ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وأما إبليس فخرج منها مذؤوماً مدحوراً ملعوناً، لأنه أبىٰ السجود لآدم مع الملائكة، وأخذه الكبر والإعجاب بالنفس ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

ويروى أن آدم ـ عليه السلام ـ أُهبط بالهند وحواء بجدّة، وأنهما بعد ذلك تقابلا وتعارفا في عرفات.

ويروى أن آدم ـ عليه السلام ـ نزل من الجنة بالحجر الأسود، وبقبضةٍ من ورق الجنة فبثه في الهند فنبت شجرة الطيب هناك. وقيل: أُهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة.

وكان سفر آدم ـ عليه السلام ـ وهبوطه من الجنة في يوم الجمعة. قال ﷺ: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها**» [أخرجه مسلم].

وقد سافر آدم للحج كما في بعض الروايات التي تروى، وقد روي أيضاً في الحديث أن الله أخذ الميثاق عليه بنَعمان يوم عرفة. عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾**» [الصحيحة: ١٦٢٣].

وذكر ابن جرير عن ابن عباس: إن الله قال يا آدم إن لي حرماً بحيال عرشي، فانْطِلق فابن لي فيه بيتاً فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي، وأرسل الله له ملكاً فعرفه وعلمه المناسك.

وبعد أن سن لنا أبونا آدم عليه السلام السفر وبعد أن عُمِّر ألف عام سافر مرةً أخرى إلى المكان الذي قدم منه إلى ربه سبحانه وتعالى.

من فوائد السفر

للسفر فوائد عظيمة وآثار حميدة على الإنسان، ونذكر هنا طرفاً من تلك الفوائد، ودرراً من تلك الفرائد.

١ـ قراءة معاني الوحدانية في دفتر الكون، ودراسة براهين العظمة في سِفْر الحياة.

وكتابي الفضاء أقرأ فيه صوراً ما قرأتها في كتاب

يقرأ المسافر في دفتر الكون آيات البارئ، وحكمة الخالق، وبديع صنع المبدع.

فيا عجباً كيف يعصى الإلـ ـه بل كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

يقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠]

٢ـ اكتساب المعيشة والبحث عن أسباب الرزق الحلال. يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]

ويقول تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]

قال الشاعر:

وقفتُ وُقوفَ الشَّكِّ ثم استمرَّ لي يقيني بأن الموتَ خيرٌ من الفقر
فَوَدَّعتُ من أهلي وبالقلبِ ما بِهِ وسرتُ عن الأوطان في طلبِ اليُسرِ
وباكيةٍ للبين قلتُ لها: اصبري فَلَلْموْتُ خيرٌ من حياةٍ على عُسْرِ

سأكْسِبُ مالاً أو أموتُ ببلدةٍ يَقِلُّ بها فيضُ الدموعِ على قبري

وقال الآخر:

ليس ارتحالك في نفس الغنى سفراً بل المقام على فقر هو السفر

وقال الآخر:

صبر الأديب على الهوان مذلة ما للأديب يُرى بدار هوان
أرض الإله لخلقه مبسوطةٌ والرزق مقسومٌ بكل مكان

وقال الآخر:

وما طلبُ المعيشة بالتمني ولكن أَلْقِ دَلْوَكَ في الدِّلاءِ
يجيء بمائها طوراً وطوراً يجيء بحَمْأةٍ وقليلِ ماءِ
ولا تقعدْ على كسل التمنِّي تُحيلُ على المقدَّر والقضاءِ

وقال الآخر:

ألا خلّني أمضي لشأني ولا أكُنْ على الأهل كلاًّ إن ذا لشديدُ
تُهَيِّبني ريبَ المنون ولم أكن لأهرب مما ليس منه محيد
فلو كنتُ ذا مالٍ لَقرَّب مجلسي وقيل إذا أخطأتُ أنت رشيد
فدعني أجول الأرض عمري لعله يُسرُّ صديقٌ أو يغاظ حسود

وقال آخر:

وما هي إلاَّ بلدةٌ مثل بلدتي خيارهما ما كان عوناً على دهري

٣ـ مفارقة الديار التي لا يجد فيها الإنسان مكانه اللائق به، أو يرى في ساكنيها جفوة وتنكراً، وسوء معاملة، أو مذلة أو إهانة.

قال الشاعر:

إذا ما ضاق صدرك من بلادٍ ترحَّلْ طالباً أرضاً سواها

عجبتُ لمن يقيم بأرض ذلٍّ ... وأرض الله واسعةٌ فضاها
فنفسك فُزْ بها إن خفتَ ضيماً ... وخلِّ الدار تنعي من بناها
فإنك واجدٌ أرضاً بأرضٍ ... ونفسك لم تجد نفساً سواها

وقال آخر:

ومثلي إذا ما الدار يوماً نبتْ به ... تحوَّل عنها واستمرت سرائرهْ
إذا أنت لم تُغبط بدارٍ سكنتها ... فبعها بأخرى أو بجار تجاوره

وقال آخر، وياالروعة ما قال:

ارحل بنفسك من أرضٍ تضام بها ... ولا تكن لفراق الأهل في حُرَقِ
من ذلّ بين أهاليه ببلدته ... فالاغتراب له من أحسن الخُلقِ
الكحل نوعٌ من الأحجار منطرحاً ... في أرضه كالثرى يُرْأى على الطُّرقِ
لما تغرَّب نال العز أجمعهُ ... وصار يحمل بين الجفن والحدقِ

وقال الآخر:

فغرِّب ولا تحفل بِفُرقةِ موطنٍ ... تَفُزْ بالمنى في كلِّ ماشئتَ من حاجِ
فلولا اغترابُ المسكِ ما حلَّ مَفْرِقاً ... ولولا اغتراب الدُّرِّ ما حلَّ في التّاجِ

وقال الآخر:

بلادُ الله واسعةٌ فضاءً ... ورزق الله في الدنيا فسيح
فقل للقاعدين على هوانٍ ... إذا ضاقت بكم أرضٌ فسيحوا

٤ـ انفراج الهم وزوال الغم والتجديد على النفس وكسب الأصدقاء والتعرف على البلاد.

تنقل فَلَذَّاتُ الهوى في التنقِّلِ ... وَردْ كل صافٍ لا تقفْ عند منهلِ
ففي الأرض أحبابٌ وفيها منازلٌ ... فلاَ تَبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل

ولا تستمع قول امرئ القيس إنه مضلٌ ومن ذا يهتدي بمضلِّلِ

يقول الشافعي جامعاً لبعض فوائد السفر.

تغرّب عن الأوطان تكتسب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائدِ
تَفَرُّجُ همٍّ واكتساب معيشةٍ وعلمٌ وآدابٌ وصحبةُ ماجدِ

وقال آخر:

ما في المقام لذي عقلٍ وذي أدبٍ من راحةٍ فدع الأوطان واغتربِ
سافر تجد عوضاً عمن تصاحبه وانصبْ فإن لذيذالعيش في النصبِ
إني رأيت وقوف الماء يفسده إن سال طاب وإن لم يجرْ لم يطبِ
والأسدُ لولا فراق الغاب ما قنصت والسهم لولا فراق القوس لم يصبِ
والشمس لووقفت في الفلك دائمةً لملها الناس من عُجْمٍ ومن عربِ
والبدر لولا أفولٌ منه ما نظرت إليه في كل حينٍ عين مرتقبِ
والتِّبر كالتُرْب ملقىً في أماكنه والعود في أرضه نوعٌ من الحطب
فإن تغرَّب هذا عزّ مطلبهُ وإن أقام فلا يعلو على رُتبِ

٥ـ إذهاب الملل من طول المخالطة، والتلذذ بحلاوة اللقاء بعد طول الفراق.

وطول مقام المرء في الحي مُخْلِقٌ لديباجتيه فاغترب تتَجَدَّدِ
أَلَمْ تر أن الشمس زِيدتْ محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدِ

وقال آخر:

ألائمتي كُفِّي الملام من الذي أحاوله من رحلةٍ وسِفَارِ
فلولا سُرى البدر المنير لعاقَهُ عن التمِّ لبثٌ في مغيب سِرارِ

وهذا كعب بن مالك يقول:

إن كنت تعلم أن الأرض واسعة ... فيها لغيرك مرتادٌ ومرتحلُ
فارحل فإن بلاد الله ما خُلقتْ ... إلاَّ ليسلك منها السهل والجبلُ
إن ضاق بي بلد هيَّا له عوضاً ... وإن نأى منزلٌ بي كان لي بدلُ
وإن تغير لي عن وده رجلٌ ... أصفى المودة لي من بعده رجلُ
لم يقطعِ الله لي من صاحب أملاً ... إلاَّ تجدد لي من بعده أملُ
لا تمتهن أبداً خديك من طمع ... فما لوجهك نور حين يبتذلُ
وابغِ المكاسبَ من أزكى مطالبها ... من حيث تُحملُ حتى ينفذ الأجلُ

٦ـ أخذ العظة والعبرة من أحوال الأمم السابقة فإن الأمم والدول والبشر مهما عاشوا فإن مصيرهم إلى الزوال والفناء مهما اكتسبوا من القوة والبطش والحضارة ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]

فيكون في ذلك حافز للإنسان على استغلال الحياة فيما ينفعه ويقربه من ربه ويجعله مع الذين أنعم الله عليهم ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١]

٧ـ اكتساب الأصحاب واتخاذ الأصدقاء والتعرف على الوجوه الجديدة.

ففي الأرض أحبابٌ وفيها مناهلٌ ... فلا تبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

المسافر والطبيعة

تلك الطبيعة قف بنا ياساري ... حتى أُريكَ بديع صنع الباري
فالأرض حولك والسماء اهتزتا ... لـروائـع الآيـات والآثـار
ولقد تمرُّ على الغدير تخاله ... والنبتِ مِرآةً زهت بإطار
حلو التسلسل موجُهُ وخريرُه ... كأنامل سارت على أوتار
ينساب في مخضلَّةٍ مبتلَّةٍ ... منسوجة من سندس ونضار
وترى السماءضحى وفي جنح الدجى ... منشقةً عن أنهر وبحار
في كل ناحية سلكْتَ ومَذْهب ... جبلان من صخر وماءٍ جاري

ليس للحياة قيمةٌ إذا اقتصرت على المادّيات وانغمست فيها ولم تعبأ بروعة الطبيعة، وأسرار الكون، ولم تلتفت إلى جمال الأزهار، وتألق النجوم، وزينة السماء، وخرير الماء، وعظمة الجبال، وأسرار الوهاد. إن العاطفة هي ملح الحياة، وبها يدرك الإنسان أسرار الوجود، وباطن العالم.

الإنسان ينبغي أن يتجاوب مع الطبيعة ويشعر بها. يشعر بجمال السماء والأرض، وجمال الطيور والأزهار، والحدائق والأشجار، وشروق الشمس وغروبها، وعظمة الأنهار والبحار... كم في هذا الكون من الجمال الخلَّاب، ولكنه يحتاج إلى عينٍ تنظره، وقلوب تتأمله ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

إن من فوائد السفر التمتع بمظاهر الطبيعة الخلَّابة، ومباهجها الجذابة،

ومياهها المنسابة، فالمسافر يتأمّل الجبال الشاهقة، والأعلام الشامخة ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ فيخلب لبَّه تركيبها البديع، وشأوها الرفيع، يتأمل صخورها العملاقة، وتروقه ألوانها الزاهية ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر].

هذه جبال معمَّمة بالثلوج، وأخرى مكسوة بالأشجار، وتلك صخرية جرداء، جبالٌ تفتن النظر بجمالها وعظمتها، وتعاريجها وارتفاعها، في أعاليها يتعانق السحاب، وفي هيكلها تتلون الصخور، وفي باطنها المناجم تعجّ بالخير، وفي أسفلها الوديان تموج بالحياة، ثم هي تشمخ بقممها كأنما تريد أن تناطح السماء.

وبينا المسافر كذلك إذا به يتخطاها إلى سواها ويجاوزها إلى غيرها، يودعها ليمرَّ بالمروج الخضراء، والحدائق الغناء.

وأطلق الطير فيها سَجْع منطقه ... ما بين مختلف منه ومتفقِ
والظل يسرق بين الدوح خطوته ... وللمياه دبيب غير مسترق
وقد بدا الورد مفترا مباسمه ... والنرجس الغض فيها شاخص الحدق
والسحب تبكي وثغر البرق مبتسم ... والطير تسجع من تيهٍ ومن أنق
فالطير في طرب والسحب في حرب ... والماء في هرب والغصن في قلق

والمسافر يمتع ناظريه بالأشجار المثمرة، والورود المزهرة، يعبر الوادي الجميل، وقد اشتبكت أشجاره، ولاحت ثماره من أحمر وأصفر وأزرق وأخضر وغيرها، وبين ذلك أنواع الرياحين والزهور والورود ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا

﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام].

إن الثمار والأزهار عالم عجيب غريب، وهي عالم وحده، كعالم الطيور، وعالم الإنسان، تتعدد مناظرها، ويتنوع جمالها، وتتفاوت من حيث روائحها، ففيها قوي الرائحة كالفل والياسمين، ومتوسط الرائحة كبعض الورود والقرنفل، وضعيف الرائحة كالأقحوان، ومنها ما ليس له رائحة، وليس يتوقف جمال الأزهار والورود على الرائحة، فالرائحة تتصل بالشم، وهو أقل الحواس قيمة إذا قيس بالسمع والبصر، فهنالك من الأشجار والورود والأزهار ما تكمن قيمة المتعة بها في رؤيتها والتأمل في بديع ألوانها وأشكالها.

فما تقع العين إلاَّ علىٰ ... رياض تصنِّف أنوارها
يفتِّح فيها نسيم الصَّبا ... خباها ويهتك أستارها
ويدني إلى بعضِها بعضَها ... كضمِّ الأحبة زوَّارها
تغض لنرجسها أعيناً ... وطوراً تحدِّق أبصارها
إذا مزنةٌ سكبتْ ماءها ... علىٰ بقعة أشعلت نارها

وتشرق النفس ويهفو الفؤاد لمنظر الماء الرقراق وهو يختال من بين الأشجار والأزهار فيروي عطشها ويزيد رونقها ويتمم بهجتها.

وتنوَّعت بُسط الرياض فزهرها ... متباين الأشكال والألوان
من أبيض يققٍ وأصفر فاقعٍ ... أو أزرقٍ صافٍ وأحمر قانِ
والظل يسرع في الخمائل خطوه ... والغصن يخطر خطرة النشوانِ

والشمس تنظر من خلال فروعها نحو الحدائق نظرة الغيرانِ
والأرض تعجب كيف يضحك والحيا يبكي بدمع دائم الهملانِ
حتى إذا افترَّتْ مباسم زهرها وبكىٰ السحاب بمدمع هتانِ
طفح السرور عليَّ حتى إنه من عظم ما قد سرَّني أبكاني

* * *

انظر إلى زهر الربيع وما جلت فيه عليك طرائفُ الأنوارِ
أبْدَتْ لنا الأمطارُ فيه بدائعاً شهدتْ بحكمة مُنْزِل الأمطارِ

* * *

ألستَ ترى وَشْي الربيع المنمنما وما رَصّع الربعي فيه ونَظَّما
فقد حَكَتِ الأرضُ السماء بنورها فلم أدر في التشبيه أيهما السما
فَخَطْرَتُها كالجو في حسن لونه وأنوارُها تحكي لعينيكَ أنجما
فمن نرْجِس لما رأى حسن نقشه تداخله عُجْبٌ به فتبسما
وأبدى على الورد الجني تطاولاً فأظهرَ غيظ الورد في خدِّه دما
وزهر شقيقٌ نازعَ الوَرْدَ فضله فزاد عليه الورد فضلاً وقدما
وظلَّ لفرط الحزن يلطمُ خَدَّه فأظهر فيه اللطمُ جمراً مضرماً
ومن سوسن لما رأى الصبغ كله على كل أنوارِ الرياض تقسما
تجلْببَ من زرْقِ اليواقيتِ حُلَّةً فأغرب في الملبوس منه وأحكما
وأنوار منثور تخلف شكلها فصار بها شكل الربيع متمما

ثم يجاوز المسافر ذلك ليمر بالصحاري الواسعة، والوهاد الشاسعة، يتسلَّىٰ بمطاردة السراب حين يتراءى أمامه على بعد وكأنه الماء الزلال حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فيثير عنده ذلك المثل العجيب الذي ضربه الله

تعالى لأصحاب الأعمال الخاسرة الذين عملوا أعمالاً كثيرة فظنوا أنها تنفعهم فلم تُغن عنهم من الله شيئاً لأنهم كفروا بالله ورسوله ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

وللصحراء جمالها الساحر، سكون عميق يهدِّىء الأعصاب، وصفاء جو ينعش النفس، وأُنسٌ بالطبيعة كما خلقت، وجوٌّ فسيح طليق تتجاوب فيه الرياح، فلا يحبسها بناء، وشمس تسطع فلا يقيدها قيد، وللهواء وللشمس طعم ولون ورائحة غير ما لها في الحاضرة والمدينة، يشعر الإنسان فيها بقربه من الطبيعة وقربه من ربه، الخالق الكريم، التواب الرحيم، الذي يفرح بتوبة عبده إليه أشد من فرح إنسان كان بصحراء شاسعة، وفلاة موحشة ومعه راحلته وعليها طعامه وشرابه فانفلتت منه فأيس منها، فجلس إلى جذع شجرة ينتظر الهلاك فأخذته إغفاءة ثم أفاق فإذا بها واقفة عند رأسه فقام إليها وأمسك بزمامها ثم صاح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح.

فالصحراء تذكر المرء بهذا المثل الرائع والخبر الماتع الذي أخبرنا به ﷺ.

الصحراء:

يقول عبدالرحمن شكري:

أرَحْبُكِ أم صمتٌ على الأرض غالب ... غدا مُصْحِراًمن روعه وهو هائب

كصمت الخشوع المطرقين تروعهم ... مقابرُ صرعى للردى وخرائب

حكى خدعة الآمال آلك رافعاً ... على الأفق بُشْرى كذَّبتها العواقب

سراب الأماني في الحياة خديعةٌ ... وقد تُهلكُ المرء المنى والرغائب

ومن ضل في خرق من العيش لبه ... كمن خذلته في الفيافي المذاهب
تفتَّح أبواب الجحيم عن اللظى ... كأن شواظ القيظ يسفيه دائب
سموم كدُفَّاع البراكين أو لظى الـ ... ـحرائق يصلاه الحصا والنجائب
أما يخشع السُّمَّار من كثرة الدنا ... ويذهل من رحب الفضاء المراقب
يبيت يناجي النجم والنجم سامر ... فتُفْضي إليه بالحِوارِ الكواكب
كأن لحاظ النجم من لحظ عاقل ... وأن رقيباً في السماء يراقب
يسائله عن عيشه أين سِرُّهُ ... كأن وراء النجم ما هو طالب
إذا خط فيك الدهر سطراً محوتِه ... كذا اليَمّ، لا يقوى على اليَمِّ كاتب
وتُرْقل فيك اليعملات وإنما ... سفائن لج البيد تلك الركائب
وللبحر أمواج وللبيد مثلها ... إذا هب إعصارٌ على الركب كارب
فيغرق في لجٍ من الترب حائنٌ ... كما احتشدت فوق السفين السوارب
ورحبك رحْبُ البحر يطويك هائب ... ويركبه ذو مطلب وهو هائب
بأفقكما للشهب رهب وروعة ... جلالكما شِبْهٌ وشِبْهٌ مقارب
وذي دولةٍ في اليمِّ قد دال أمره ... وآخر أردته لديك المطالب
ويصغر عيش المرء في اليم مثلما ... تضاءل فيك عيشه والرغائب
لِمَحْلِكِ يلقى مكرم الضيف ضيفه ... بخير، وأما خصمه فهو سالب
وتشحذه الأخطار حتى كأنما ... بنُوك سيوف ينتضيها المحارب
لقد صقلتها نار قَيْنٍ وصيقل ... كما صقلتهم في الحياة النوائب
تَنَسَّكْتِ في بُرْدِ التقشف لم يَلِنْ ... معاشٌ ولا ترجى لديك الأطايب

وهكذا يظل المسافر يتنقل في رحلته بين فنون متباينة وأشكال متغايرة، جبال ووهاد، عيون وأنهار، بساتين وأشجار، مزارع وقفار، جداول

وخمائل ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

وصاحب القلب الحي يجيد التعامل مع الطبيعة يعرف سرها، ويَسْبُر غورها، ويشكر من خلقها وأوجدها، وذوو الإيمان الصادق يزدادون إيماناً مع إيمانهم، وإحساناً مع إحسانهم، وإذعاناً مع إذعانهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

ولايزال المسافر الواعي صاحب الضمير الحي والخيال الواسع، والأفق البعيد، يتنقَّل في سفره بجسمه وروحه، وقلبه وعقله، فقد يكون مسافراً من طريق البحر، فيتأمل عظمته، ويتدبر هيبته، ويتفكر في عجائبه، ويتعوذ من مخاطره، ويتأمل في المخلوقات التي تعيش فيه، والسفن والبواخر التي تمخر عبابه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وقد يكون السفر عن طريق الجو، وما أدراك ما الجو. وما أدراك ما السفر في الطائرة.

المسافر في الجو يساومه الموت، ويداعبه الهلاك، ينظر في الأرض فإذا هي في نظره أبعد من السماء، وينظر في السماء فإذا هو قد جاوز السحاب. مصيره فوق قطعة من حديد، ونهايته في هزّة مسمار، إن وقع صار شذر مذر لا جبل يحمله، ولا نهر يزفّه، ولا رابيةٌ تقلّه. إذا سمع قوّة

الريح ارتبك وخاف، وإذا حدث في الطائرة صوتٌ قال هذا آخر المطاف.

ويتمتع المسافر بجمال الصباح وانبثاق الضوء، وبزوغ الشمس.

الصبح ينثر فوق مسـ ـك الليل كافور الضياء

* * *

وكأنما الشمس المنيرة إذْ بدت والبدر يجنح للغروب وما غربْ
متحـاربـان لـذا مِجـنٌّ صـاغـه من فضة ولذا مجنٌّ من ذهبْ

هذه الشمس الجميلة القوية تفعل أفاعيلها العجيبة في أرضنا: تبخر الماء وترفعه غيومها في السماء وتنزله ـ بأمر الله تعالى ـ أمطاراً تجري به بحاراً وأنهاراً، ويسقى به الزرع فينمو ويهيج، والأزهار فتنضج وتتفتح.

ويشعر المسافر بالرهبة والسكون عند قدوم الليل ويتأمل في عظمة العزيز الجليل ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ويتلذذ المسافر السائح في الكون، والمنطلق في الفضاء الرّحبْ، يتلذذ بمنظر الغروب، وجمال الشمس، وهي تودع الأرض وتتوارىٰ عن الأعين شيئاً فشيئاً. ثم يبدأ البدر يطل علينا في لونه العجيب، وثوبه القشيب:

وكأن البدر لما لاح من تحت الثريّا
مَلِكٌ أقبل في التَّا جِ يُفـدَّىٰ ويُحَيّـا

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

يقول أحد الشعراء المتأملين في جمال الطبيعة وقد رأى الشمس وهي تغرب لاسيما منظرها لمن كان يرقبها من على شاطىء البحر، فهو منظر عجيب بديع، ثم منظر الهلال حين يعقبها ويحتل مكانتها:

كأن الشمس إذْ غربتْ غريقٌ هوى في البحر أو وافىٰ مَغَاصَا
فَأتْبعها الهلال على غروبٍ بزورقه يريد لها خلاصا

ويقول آخر:

وليل ترىٰ الفجر في عِطْفهِ كما شاب بعضُ جناح الغرابْ
يغارُ الظلام على شمسه إلى أن يواريها بالحجابْ

ويقول أحد الكتاب عن الشمس:

كل شيء في الطبيعة جميل، وأجمل ما فيها شمسها. وهي في شتائنا أجمل منها في صيفنا، ولها في كلٍّ جمال.

فلها ـ صيفاً ـ جمال القوة، وجمال القهر، وجمال السفور الدائم، نُعْظِمُها ونجلها؛ ونهربُ منها ولكن نحبها؛ تقسو أحياناً ولكنا نرى الخير في قسوتها، فهي كالمربي الحكيم، تقسو وترحم، وتشتد وتلين، تلفحنا بنارها، ولكنها نار كنار الحب يكتوي بها قلب العاشق، ثم هو يرجو بقاءها ويخشى زوالها، ترسل علينا شُواظاً من نار، فتسفع جلودنا، وتكوي جباهنا، حتى إذا غلىٰ جوفنا، ووغر صدرنا، غابت عنا، وأرسلت رسولها اللطيف الوديع (القمر) فخفف من حدَّتنا، ولطَّف من سَورتنا، وأصلح ما أفسدَت، وضمَّد ما جرحت؛ فإذا خشيَتْ أن نطمئن إليه، أدركتها الغيرة منه فغيبته، وطلعت علينا ببهائها وجمالها وجلالها، وهكذا دواليك.

وهي ـ شتاءً ـ تطلع علينا بوجه آخر، ترينا فيه جمال الحنو، وجمال الدعة، وجمال الرحمة والعطف، وجمال الغادة اللعوب، تشاغلك فتظهر وتختفي، وتسفر وتحتجب، وتخرج من قناعها ثم تتقنع.

وتنتقم من رسولها الذي غارت منه صيفاً، فتطلعه علينا في جو بارد لا نطيقه حتى لا نفكر إلاَّفي دفئها ونعمتها، ولا نشتاق لشيء شوقنا لرؤيتها.

فما أجملها قاسية وراحمة! وما أجملها واصلة وهاجرة!

تتلون بشتى الألوان فتسحر العقول، وتبهر العيون؛ فهي تارة بيضاء، وتارة صفراء، وتارة حمراء؛ ثم لا تستطيع أن تحكم هي في أيها أبهى وأجمل، فهي تزين ثيابها بأكثر مما تزينها ثيابها.

وقال أحد الشعراء، يصف الشمس:

مُخَبَّأةٌ، أما إذا الليلُ جنها ... فتخفى، وأما بالنهار فتظهرُ
إذا انشق عنها ساطع الفجر وانجلى ... دُجى الليل وانجاب الحجاب المستَّرُ
وألبسَ عرضُ الأرض لوناً كأنه ... على الأفق الشرقي ثوبٌ معصفر
تحلّت، وفيها حين يبدو شعاعها ... ولم يحل للعين البصيرة منظر
بلون، كدرع الزعفران يشوبهُ ... شعاعٌ تلألأ، فهو أبيض أصفر
إلى أن عَلَتْ وابيضَّ منهااصفرارها ... وجالت كما جال المهيج المسهر
وجللت الآفاق ضوءاً ينيرها ... فخرَّ لها صدر الضحى يتَسعَّر
ترى الطلَّ يطوى حين تعلو وتارة ... تراه إذا مالت إلى الأرض ينشر
وتدنفُ حتى ما يكاد شعاعها ... يبين إذا غابت لمن يتبصر
كما بدأتْ، إذ أشرقتْ، في مغيبها ... تعود كما عاد الكبير المعمَّرُ
فَأفنتْ قروناً، وهي في ذاك لم تزل ... تموت وتحيا كل يوم وتُنشرُ

استراحة المسافر (١)

أخي المسافر أدعوك الآن لقليل من الراحة والترويح عن النفس. أدعوك إلى محطة من محطات السفر الترفيهية لتستعين بها على وعثاء السفر ومشقة الطريق. فإننا بحاجة إلى ساعة وساعة، ساعة للجد والحيوية، وساعة للراحة والترويح عن النفس خشية الملل والسآمة فإن القلوب إذا ملَّت كلّت وإذا كلّت عميت. لذلك سيكون لنا بعد كلِّ مرحلةٍ من رحلتنا مع «أنيس المسافر» استراحة ترويحية ووقفة ترفيهية.

* قال أبوالأسود لابنه: يا بني إن ابن عمك يريد أن يتزوج ويحب أن تكون أنت الخاطب فَتحفَّظ خطبة.

فبقي الغلام يومين وليلتين يدرس خطبة، فلما كان في الثالث قال أبوه: ما فعلت؟ قال: قد حفظتها. قال: وما هي؟ قال: الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوكل عليه، ونشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الفلاح. فقال أبوه: صبراً لا تُقِمْ الصلاة فإني على غير وضوء.

* يقال إن الأعمش ـ رحمه الله ـ كان له ولدٌ مغفل فقال له: اذهب فاشتر لنا حبلاً للغسيل. فقال: يا أبَه، كم طوله؟ قال: عشر أذرع. قال: في عرض كم؟ قال: في عرض مصيبتي فيك.

* سأل رجلٌ الشعبي عن المسح على اللحية فقال: خلّلها. قال الرجل: أتخوّف أن لا نبلّها. فقال الشعبي: إن تخوّفتَ فانقعها في الماء من أوّل الليل!

* لقيَ رجلٌ الشعبي، وهو واقفٌ مع امرأته، فقال الرجل: أيّكما الشعبي؟ فأومأ الشعبي إلى المرأة وقال: هذه!
* وسأله رجل فقال: هل يجوز للمُحْرِم أن يحكَّ بدنه؟ قال: نعم. فقال الرجل: مِقْدار كَمْ؟ قال: حتَّى يبدوَ العظم!

شهيد الحب:

قال محمد بن الحجاج، راوية بشار بن برد: مات لبشارٍ حمارٌ، فقال: رأيت حماري البارحة في النوم فقلت له: ويلك متَّ؟ قال: إنك ركبتني يوم كذا فمررنا على باب الأصبهاني، فرأيت أتاناً عند بابه فعشقتها، فمتُّ وأنشد:

سيدي خذ لي أمانا ... من أتان الأصبهاني
إن بالباب أتاناً ... فَضَلَتْ كلّ أتانِ
تَيّمَتْني يوم رحنا ... بثناياها الحسانِ
وبحسـن ودلالٍ ... سَلَّ جسمي وبراني
ولهـا خـدٌّ أسيـلٌ ... مثل خد الشنفراني
فَبِها متُّ ولو عشـ ... ـتُ إذاً طال هواني

فقال رجل: يا أبا معاذ، ما الشنفراني؟ قال: هو شيء يتحدث به الحمير، فإذا لقيت حماراً فاسأله.

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن

يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

[سورة النمل]

من أخبار المسافرين (١)

أبونواس يسافر إلى مصر

الشاعر العباسي الشهير ـ أبونواس ـ الحسن بن هانئ المتوفى عام ١٩٥هـ سافر من بغداد إلى مصر ليمدح أبانصر الخصيب بن عبدالحميد صاحب ديوان الخراج بها، وذلك جرياً على عادة الشعراء في رحلاتهم للملوك والأمراء والكبراء بحثاً عن المال والعطايا والهبات.

وهذه القصيدة تعتبر من أروع القصائد في الأدب العربي وقد شرَّقتْ وغرَّبتْ وحفظها الناس وأعجبوا بها أيّما إعجاب قديماً وحديثاً. قيل عنها: والله ما تصلح هذه إلاَّ في الرسول ﷺ. وقد وصف فيها رحلته وصفاً عجيباً وألبس ممدوحه ثوباً قشيباً. وحتى لا أطيل عليك أخي المسافر فقد اخترت بعضاً من أبيات هذه القصيدة وهي أجمل شيء فيها:

أجـارةَ بيْتَيْنـا أبُـوكِ غَيُـورُ ... وميْسُورُ ما يُرْجَى لديكِ عسِيرُ
وإن كنتِ لا خِلْماً، ولا أنت زوجَة ... فلا برحَتْ دوني عليكِ سُتورُ
وجاوَرْتُ قوْماً لا تزاوُرَ بينهمْ ... ولا وَصْلَ إلاَّ أنْ يكونَ نُشورُ
فما أنا بالمشْغُوفِ ضَرْبةَ لازِبٍ ... ولا كـلُّ سلْطـانٍ عليَّ قـديـرُ
تقولُ التي عن بيتها خفَّ مرْكبي ... عـزيـزٌ علينـا أن نـراكَ تسيـرُ
أما دون مصْرٍ للغنىٰ مُتَطلّبٌ ... بلى إن أسْبابَ الغِنَى لكثيرُ
فقلتُ لها واستَعْجَلْتها بوادِرٌ ... جرتْ فجرَى في جرْيهنَّ عبيرُ
ذريني أكَثِّرْ حاسديكِ برحْلةٍ ... إلى بلدٍ فيه الخصيبُ أميرُ
إذا لم تزُرْ أرْضَ الخصيبِ ركابُنا ... فأيَّ فتىً بعدَ الخصيبِ تَزورُ

فتىً يشْتري حسْن الثناء بماله ... ويعْلَمُ أنَّ الدائراتِ تدورُ
فما جازَه جُودٌ ولا حَلَّ دونَه ... ولكنْ يصيرُ الجودُ حيث يصيرُ
فلم ترَ عيني سؤدداً مثلَ سؤدَدٍ ... يحِلُّ أبُونصْرٍ به ويسيرُ
فمنْ يكُ أمْسَى جاهلاً بمقالتي ... فإن أميرَ المؤمنين خبيرُ
زهَا بالخصيب السَّيْفُ والرُّمح في الوغَى ... وفي السِّلْمِ يزْهُو منْبَرٌ وسريرُ
جوادٌ إذا الأيْدي كفَفْنَ عن النّدى ... ومن دُونِ عَوْراتِ النساءِ غَيُورُ
له سَلَفٌ في الأعجَمين كأنهم ... إذا اسْتُؤْذِنُوا يوْمَ السلامِ بدُورُ
وإني جديرٌ إذ بلغْتُكَ بالمُنَى ... وأنتَ بما أمّلْتُ منكَ جديرُ
فإنْ تُولِني منك الجميلَ فأهْلُهُ ... وإلاَّ فإنّي عاذرٌ وشَكورُ

* * *

ويقال إن أبانوس لما عاد إلى بغداد مدح الخليفة، فقيل له: وأي شيء تقول فينا بعد أن قلت في بعض نُوَّابنا:

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابُنا ... فأي فتىً بعد الخصيب تزور

فأطرق أبونواس ساعةً ثم رفع رأسه وقال:

إذا نحن أثنينا عليك بصالحٍ ... فأنت كما نُثني وفوق الذي نُثني
وإن جَرَت الألفاظ منا بمدحةٍ ... لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

ابن دراج يعارض أبانواس

ذكرنا الشهرة البعيدة التي حظيت بها قصيدة أبي نواس، مما جعل الشعراء يحاولون معارضتها ومحاكاتها، وهذا الشاعر ابن درّاج القسطلي المتوفى سنة ٤٢١هـ يطلب منه المنصور بن أبي عامر أن يعارض قصيدة

أبي نواس فيستجيب لذلك ويقول قصيدة رائعة في نظري أنها لا تقل في روعتها وجمالها عن قصيدة أبي نواس بل ربما فاقه في بعض أبياتها. وإليك جملة من أبياتها فهي قصيدةٌ طويلة وقد استهلَّها بالحوار مع زوجته كما فعل أبونواس، فقال:

ألم تعلمي أن الثَّواءَ هُو التَّوَى ... وأن بيوتَ العاجزين قُبورُ
تُخوِّفني طول السِّفار، وإنه ... لِتقبيل كفِّ العامريِّ سفيرُ
دعيني أردْ ماء المفاوز آجناً ... إلى حيثُ ماءُ المكرُمات نمير
فإنَّ خبيرات المهالك ضُمَّنٌ ... لراكبها أن الجَزاءَ خطير

ومنها في وصف وداعه لزوجته وولده الصغير:

ولما تَدانتْ للوَداع وقد هَفا ... بصَبْريَ منها أنَّةٌ وزفيرُ
تُناشدُني عَهْدَ المودَّة والهوى ... وفي المهد مَبْغُوم النداءِ صَغير
عَييٌّ بمَرْجوع الخطاب ولحظُه ... بمَوْقع أهواء النفوس خَبير
تبوَّأ مَمنُوعَ القلوب وَمُهِّدَتْ ... له أذرُعٌ محفوفةٌ ونحُور
فكل مُفدَّاة الترائِب مُرْضِع ... وكل مُحَيَّاةِ المحاسِن ظِير
عَصيْتُ شفيعَ النفس فيه وقادني ... رَواحٌ لتَذْآب السُّرى وبُكور
وطار جَناحُ البَين بي وهَفَتْ بها ... جَوانحُ من ذُعْرِ الفِراق تطير
لئِنْ ودَّعَتْ منِّي غيُوراً فإنّني ... على عَزْمتي من شَجْوِها لغيُور
ولو شاهدتني والهواجرُ تَلْتَظي ... عليَّ ورقْراقُ السَّراب يمُور
أُسلِّطُ حرَّ الهاجراتِ إذا سَطا ... على حُرِّ وجهي، والأصيلُ هَجير
وأستنشقُ النكْباءَ وهي لوافحٌ ... وأستوْطئُ الرَّمضاءَ وهي تفور
وللموْتِ في عين الجَبان تلوُّنٌ ... وللذُّعْر في سمع الجريء صَفِير

لَبَانَ لها أني من البيْن جازعٌ ... وأني على مضِّ الخُطوبِ صَبُور
أميرٌ على غوْل التَّنائِف ما لهُ ... إذا رِيع إلاَّ المشرفيُّ وَزير
ولو بصُرَت بي والسُّرى جُلُّ عزمتي ... وجَرْسي لِجِنّان الفلاة سمير
وأعتسِفُ الموْماة في غسق الدُّجى ... وللأسْد في غيل الغياضِ زَئير
وقد حوَّمتْ زهرُ النُّجوم كأنها ... كواكبُ في خُضر الحَدائق حُور
ودارت نجُومُ القطْب حتى كأنها ... كـؤوسُ مهـاً والـى بهـن مُـدير
وقد خَيَّلَتْ طُرْقُ المَجرَّة أنها ... علـى مَفـرق الليْـل البَهيـم قَتير
وثـاقـبُ عَـزْمـي والظـلامُ مُـرَوِّعٌ ... وقد غضَّ أجْفانَ النُّجوم فُتور
لقد أيقَنَتْ أنَّ المنىٰ طَوْعُ همَّتي ... وأنـي بعَطـفِ العـامـريّ جَـديـر

وهي طويلة، وفي هذا القدر منها كفاية.

مسافر في القطار

يقول إيليا أبوماضي:

سَرى يَطوي بنا الأميالَ طَيًّا ... كما تَطوي السِّجلَّ أو الإزارا
فلَم نَدرِ وجُنحُ اللَّيلِ داجٍ ... أَبرقًا ما ركِبنا أم قِطَارا
بنـا وبِـهِ حَنيـنٌ واشتيـاقٌ ... وَلَولا ذانِ مَا سِرنا وَسَارا
ولَكنَّا وَسعنا الشَّوقَ ذرعًا ... وَضَاقَ بهِ فَصَعَّدَهُ بُخارا
وسَمَّينا الَّذي نُخفيهِ وَجدًا ... وَسَمَّينا الَّذي يُخفيهِ نارا
غفا صَحبي وبَعضُهم تَغافى ... ولَم أَذُقِ الكَرى إلاَّ غِرارا
جلَستُ أُراقِبُ الجَوزاءَ وَحدي ... كما قَد يَرقُبُ السَّاري المَنارا
يسيرُ بنا القِطَارُ ونَحنُ نَرجُو ... لَو اختَصَرَ الطَّريقَ بنا اختِصَارا
وأُقسِمُ لَو أُحَدِّثهُ بما بي ... لَحلَّقَ في الفَضَاءِ بنا وطَارا
إلى البَلدِ الأمينِ إلى كرامٍ ... يُراعونَ المَوَدَّةَ والجِوارا
إلى المُزدادِ ودّهم لَدينا ... إذا زدْنا صِفاتهمُ اختِبارا
إذا سَتَرتْ مَحَبَّتَها قُلُوبٌ ... فَحُبي لا أطيقُ لَهُ استِتارا
فيا إخوانَنا في كلّ أَمرٍ ... أصيخوا كي أُخَاطِبَكُم جِهارا
طويناهَا سباسِبَ شَاسِعات ... تَسيرُ الواخِداتُ بها حَيارى
ولَولا أنْ تسِير بنا إِلَيكُم ... ركـائِبُنـا مَشينـاهَـا اختِيـارا

ويقول الشاعر محمد يوسف مقلد في قصيدته :

ديار وقطار

ألا ودِّع، فقد صفر القطار ... وبانت عن نواظرنا الديارُ
فما في القلب غير سعير شوق ... وما في الفكر إلاَّ الإدْكارُ!
هما في كل آونة وأرض ... رفيقانا إذا شط المزار
وهل بعد النوى والحب إلاَّ ... هما، أم هل خبا لهما أوارُ
فأي صبابة عاشت، وأبقتْ ... على كبدٍ، وأي حشاً تجار
وأي نوى تصان من الرزايا ... ويؤمن في نواحيها العثار؟
ذر الجمرات تحلم في حشانا ... فقد قرَّت، وطاب لها القرار!
غنينا بالعواطف في هوانا ... هي السلوى لنا، وهي اليسار
إذا استعرت، فقل تلف المعنى ... وإن غنَّت فقل أين الهزار
حنيني في صميمي ذو جناح ... يرفرف في ضلوعي وهو نار
نجوم الليل وهي معلقات ... يطير من الحنين لها شرار
وعين الشمس، وهي تغيب عنا ... يبين من الفراق بها احمرار
ولو سمع الزمان أنين ثكلى ... لعاجله من الحزن انتحار
تساورنا على من ودعونا ... هواجس حولها نشأ الحوار
تركناهم على شوق حيارى ... يُصان إلى الأسى عنهم شعار
نود لو أن يكون لنا إليهم ... جوانح للقاء بها يُطار!

* * *

لقد شهد القطار أسى وداع ... فلم يخطر له إلاّ الفرار
ترفق يا بعاد بقلب أم ... وهيفاء براها الانتظار
لتلك، وهذه داران: دارٌ ... بقلبي، أختها في الشمس دار
فأنّى سرتُ كان القلب بعضاً ... وأنّى كنت للشمس انتشار؟

القروي والقطار

وهذا الشاعر القروي رشيد سليم الخوري يصف قطاراً أقلّه بين بيروت وزحلة في عام ١٩١١م.

وناقلي حيث تحلو في الهوى نُقَلُ ... يمشي به الدافعان الشوق والأمل
كأنه جبلٌ يمشي على جبل ... يرسو إذا شاء طوراً ثم ينتقل
ما عاقه في السُّرى بردٌ ولا مطرٌ ... كأن لطم الحيا في وجهه قُبَل
يمشي الهوينى كخودٍ ناعس نهضت ... عند الضحى لم يزل في جفنها ثقل
ما سار نحو الشآم الميلَ مكتملاً ... إلاّ وجفن الدجى بالفجر مكتحل
طوراً تخفّ إلى استقباله قُلَلٌ ... وتارة تنثني من دربه قللُ

الترامواي في الآستانة

الشاعر معروف الرصافي يسطّر نقدَه وسخريته بالترامواي في الآستانة وذلك في عام ١٩٠٩م.

مرَّ الترام فقيلَ اركب فقلت لهم ... ذلَّ امرؤ كانَ مركوباً له الكسلُ
أما ترى وضِعافُ الخيل تسْحبه ... كأنه جبل في الأرض ينتقل

يحكي السُّلَحْفاة في عَرض الطريق وقد ... أمستْ بها في التأني يُضرب المثل
ترى به أوجُهَ الرُّكاب عابسة ... من فوقها شجر من تحتها مَلَل
في جانبيه وفي أعلاه قد كتبوا ... بيتاً تمثل في إنشاده الأوَل
«قد يدرك المتأني بعضَ حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلَلُ»

من أقدم أسفار البشرية

سفرٌ من الأسفار البعيدة الأمد، في مرضاة الواحد الأحد، سفرٌ يضرب بجذوره في أعماق التاريخ، مهمٌ أهمية البيت المجيد، مباركٌ بركة زمزم والمقام، وطاهرٌ طهارة البيت الحرام، يتصدر الأسفار الإيمانية، ويرسم طريق الرفعة للإنسانية، وتتجلّى فيه آثار الرحمة الربانية، خبره عجيب، نبأه غريب، أحداثه مثيرة، عظاته كثيرة، فائدته كبيره.

إنه سفر أبي الأنبياء وإمام الحنفاء، خليل رب العالمين، عدو الشرك والمشركين، رسم الطريق للهداة بعده، وكان أمة وحده ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ له عند رب العالمين أعظم الحظوة ولجميع المؤمنين فيه أسوة ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

وإبراهيم عليه السلام هو من أول المسافرين الذين تنقلوا في البلدان فراراً بالدين من عباد الأوثان، وأعداء الواحد الديان. فقد سافر من أرض الكلدانيين (بابل) إلى أرض الكنعانيين وهي بلاد بيت المقدس، وسافر إلى مصر، ثم عاد إلى بيت المقدس ثم سافر بعد ذلك إلى مكة. وحديثنا هنا عن سفره من بيت المقدس إلى مكة المكرمة.

فتعال معي نتأمل أحداث هذا السفر العظيم لهذا النبي الكريم.

ونترك الحديث الآن لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حبر الأمة، وترجمان السنة، ليحدثنا عن هذا السفر، كما سمعه من سيد البشر ﷺ.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء إبراهيم عليه السلام بأمِّ إسماعيل وبابنها إسماعيل وهي تُرْضِعه حتى وضعها عند البيت ـ أي الكعبة ـ عند دوحةٍ ـ أي: شجرة كبيرة ـ فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ وليس بها ماء، فوضعهما هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماء، ثم قَفَّى ـ أي: ولَّى ـ إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: ياإبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيءٌ؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفتُ إليها، قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فانْطَلَقَ إبراهيم ﷺ، حتى إذا كان عند الثنية حيثُ لا يَرَوْنَهُ، استَقْبَلَ بوجْهِهِ البيتَ، ثُمَّ دَعَا بهؤلاء الدعواتِ، فَرَفَعَ يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ وجعلت أم إسماعيل تُرضِعُ إسماعيل، وتشربُ من ذلك الماء، حتى إذا نفدَ ما في السِّقاء، عطشتْ، وعطش ابنُها، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال: يَتَلَبَّطُ ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصَّفَا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم ترَ أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً؟ فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال النبي ﷺ: «**فذلك سعي**

الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صهْ ـ تريد نفسها ـ ثم تسمَّعَتْ، فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعْتَ إن كان عندكَ غواثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُهُ ـ أي تجعله مثل الحوض ـ وتقول بيدها هكذا، وجعلت تَغْرُفُ. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال النبي ﷺ: «**رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تَغْرف من الماء، لكانت زمزم عيناً معيناً**» قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضَّيْعَة فإن ههُنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلامُ وأبوه، وإن الله لا يضيِّعُ أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السُّيولُ، فتأخُذُ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رُفْقة من جُرْهُم، أو أهل بيت من جُرْهُم مُقْبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً ـ أي يحوم على الماء ـ فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماءٍ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريًّا أو جريَّيْن ـ أي رسولاً ـ، فإذا هُمْ بالماء. فرجعوا، فأخبرُوهم، فأقبلوا وأمُّ إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزلَ عندكِ؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم. فنزلوا، فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات، وشبَّ الغلام وتعلَّم العربية منهم وأنفسَهُم وأعجبَهُمْ حين شبَّ، فلما أدرك، زوجُوه امرأة منهم، وماتت أمُّ إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوَّج إسماعيل يطالعُ تِركَتَهُ فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا ـ وفي رواية: يصيدُ لنا ـ ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرٌ، نحن في ضيقٍ

وشدَّةٍ، وشكتْ إليه، قال: فإذا جاء زوجك، اقْرئي عليه السلام، وقولي له يُغيِّر عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألنا عنك، فأخبرتُهُ، فسألني: كيف عيشنا، فأخبرتُهُ أنَّا في جهدٍ وشدةٍ. قال: فهل أوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غيِّر عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الْحَقي بأهلِكِ. فطلَّقها، وتزوَّج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعدُ، فلم يجدْهُ فدخل على امرأته، فسأل عنْهُ، قالت: خَرَج يبتغي لنا. قال: كيف أنتُم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخيرٍ وسعة وأثنَتْ على الله تعالى، فقال: ما طعامُكُم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابُكُم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «**ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ ولو كان لهم دعا لهم فيه**» قال: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلاَّ لمْ يُوافقاهُ. معنى لا يخلو: لا يخلط بهما غيرهما.

وفي رواية فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيدُ. فقالت امرأته: ألا تنزلُ، فتطعم وتشرب؟ قال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم، وشرابنا الماء. قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم ـ قال: فقال أبوالقاسم ﷺ: «**بركةُ دعوة إبراهيم عليه السلام**» قال: فإذا جاء زوجُكِ، فاقرئي عليه السلام ومريه يُثَبِّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنَّا بخير، قال: فأوصاكِ بشيءٍ؟ قالت: نعم، يقرأُ عليك السلام،

ويأمُرُكَ أن تُثبتَ عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة أمرني أن أُمْسِكَكِ، ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نبلاً له تحت دوحةٍ قريباً من زمزم، فلما رآهُ، قام إليه، فصنع كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، قال: ياإسماعيل إن الله أمرني بأمرٍ، قال: فاصنع ما أمركَ ربُّك؟ قال: وتُعينُني، قال: وأُعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبْني بيتاً ههُنا، وأشار إلى أكمةٍ مرتفعة على ما حوله. فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يُنَاولُه الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبَّل منا إنك أنت السميع العليم. [رياض الصالحين: ١٨٧٦].

من أخبار المسافرين (٢)

بلقيس تسافر إلى سليمان

وهذه قصة لإحدى المسافرات اللواتي كان لهن صيت ذائع وشهرة بعيدة تناقلتها الأجيال عبر التاريخ، إنها مسافرة أمْتَعنا القرآنُ الكريم بالحديث عنها وأخبرنا الله تعالى خبرها، وقصّ علينا أمرها، وإن الآثار التاريخية لاتزال إلى اليوم ناطقة بمآثر هذه الملكة العظيمة العاقلة الأريبة الأديبة، وكانت لها منجزات عظيمة من أبرزها ترميمها لسدِّ مأرب بعد انهدامه.

وتعال معي أخي القارىء في وقفة سريعة نتأمل خلالها تلك القصة الرائعة التي أوردها القرآن الكريم في أجمل أسلوب وأعظم عبارة، ولنقف على أحداث السفر الذي بدأته بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس:

كتب سليمان كتاباً إلى بلقيس ـ ملكة سبأ ـ وقومها، وأعطاه الهدهد فحمله وذهب به إلى بلادهم، فألقاه إليها فأخذته ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها ثم قالت لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ ثم قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ فقالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ فقال الرب عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ثم قالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فبعثت إليه بهدية عظيمة فلم ينظر سليمان إلى ما جاؤوا به

بالكلية ولا اعتنى به بل أعرض عنه وقال منكراً عليهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وأما أنا فلا أقبل منكم إلاَّ الإسلام أو السيف ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي مهانون مدحورون، فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: إني قادمة عليه بملوك قومي لأنظر ما أمره وما يدعو إليه من دينه ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه فجعل في سبعة أبيات ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ولايَرَيَنَّهُ أحد حتى آتيك ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألفاً فلما بلغ سليمان أنها جائيةٌ وكان قد ذُكِرَ له عرشها فأعجبه وكانت عليه تسعة مغاليق فكَرِه أن يأخذه بعد إسلامهم وقد علم نبي الله أنه متى أسلموا تَحرم أموالهم ودماؤهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي مارد من الجن ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي قوي على حمله أمين على ما فيه من الجواهر، وقال سليمان عليه السلام: أريد أعجل من ذلك. ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو آصف كاتب سليمان عليه السلام ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي ارفع بصرك وانظر فإنه لا يكل بصرك إلاَّ وهو حاضر عندك فلما عاين سليمان ومَلَؤُهُ ذلك ورآه مستقراً عنده ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ أي هو غني عن العباد وعبادتهم كريم في نفسه وإن لم يعبده أحد؛ فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد. فأمر بعرشها أن يُغير بعض صفاته

ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي عرض عليه عرشها وقد غيّر ونُكّر وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لبٌّ ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن غُيّر وبُدّل ونُكّر، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ أي يشبهه ويقاربه وهذا غاية في الذكاء والحزم، فقال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ثم ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصراً عظيماً من قوارير - أي زجاج - وأجرى تحته الماء الذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه، ثم قال لها: ادخلي الصرح ليريها ملكاً هو أعز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها، فلما رأته حسبته لجة، وكشفت عن ساقيها، أي لم تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله وحده وعاتبها في عبادة الشمس من دون الله. ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ فأسلمت وحسن إسلامها.

ويقال إن سليمان عليه السلام تزوجها وأقرّها على مملكة اليمن وردّها إليها وكان يزورها في كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على بساط الريح!!

أدعية السفر

ما أعظم هذا الدين، وما أكمله وأجمله، وأسعدنا به! تَحُفُّ بك تعاليمه الرائعة، ويغمرك بآدابه الجامعة؛ فما من أمر من أمور الإنسان ولا شأن من شؤون حياته إلاَّ وقد اهتم به الإسلام وبيَّن آدابه وأحكامه مهما كان ذلك الأمر صغيراً أم كبيراً، عظيماً أم حقيراً، ومن ذلك السفر فالمرء يسافر إما طلباً للعلم، وإما فراراً بالدين، وإما سياحة في الأرض، وإما تجارة وإما إلى غير ذلك من أغراض السفر. ومع ذلك يعطيه دينه آداباً جامعة ووصايا نافعة وكلمات ماتعة، فيسافر المسلم وكأنه في صلاة منذ أن يضع قدمه على راحلته يبدأ بذكر الله ثم إذا انطلق دعا بدعاء السفر، ثم في رحلته إذا صعد جبلاً كبر وإذا نزل وادياً سبح ثم إذا نزل منزلاً استعاذ بالله. . . الخ.

والمتأمل في أدعية السفر وآدابه يجد لها من الروعة، والأثر في النفس الشيء العجيب، فهي ذات مذاق متميز، وطابع خاص، وأسلوب مؤثر يقوي صلة العبد بربه، ويدعم اعتماده على خالقه، ويؤكد فقره واحتياجه إلى حفظه، ويذكره بنعمته عليه وبسفره الأخير إليه.

١ـ دعاء الركوب والسفر:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ كان إذا استوىٰ على

كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضىٰ اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا واطوِ عنا بُعده اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد» وإذا رجع قالهنَّ وزاد فيهنَّ: **«آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون»** [رواه مسلم]

وعن علي بن ربيعة قال: شهدت عليَّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أُتي بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوىٰ على ظهرها قال: الحمد لله الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم قال: الحمد لله، ثلاث مرات، ثم قال: الله أكبر، ثلاث مرات، ثم قال: سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، ثم ضحك. فقيل: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ قال: رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك. فقلت: يارسول الله من أي شيء ضحكت؟ قال: **«إن ربك سبحانه يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري!»** [رواه أبوداود والترمذي]

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا إذا صعدنا كبَّرنا، وإذا نزلنا سبَّحنا. [رواه البخاري].

٢ـ الدعاء إذ خاف ناساً أو غيرهم:

عن أبي موسى الأشعري؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: **«اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم»** [رواه أبوداود]

٣ـ ما يقول إذا نزل منزلاً:

عن خولة بنت حكيم ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق لم يضرّه شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» [رواه مسلم]

٤ـ ما يقول إذا أقبل الليل:

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل، قال: «يا أرضُ ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خُلق فيك، وشر ما يدب عليك، وأعوذ به من شر أسدٍ وأسود ومن الحية والعقرب ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد» [رواه أبوداود]

من أخبار المسافرين (٣)

مسافرون صدقوا ما عاهدوا الله عليه

وذكَّرني حُلْو الزمان وطِيبَهُ مجالسُ قومٍ يملؤون المجالِسا
حديثاً وإيماناً وفقهاً وحكمةً وبِرّاً ومعروفاً وإلفاً مؤانِسَا

هذا غيضٌ من فيض، وقطرةٌ من بحر، وقصةٌ من آلاف القصص التي سطرها العظماء بدمائهم على جبين التاريخ، وخبر من آلاف الأخبار التي رواها الدهر لأساطين الحق، وحملة المبدأ، وحرَّاس العقيدة، هذه قصة من قصص المسافرين العظماء، والأبطال النجباء، وصُحبة سيد الأنبياء، اخترتها لما فيها من العبر العظيمة، والصفات الكريمة، والتضحيات الجسيمة، لما فيها من حبٍّ لدين الله ونصرة لرسوله، وكرامات لأوليائه، سفرهم كان طاعة لله، وجهاداً في سبيله، وامتثالاً لأمر رسوله ﷺ.

موعدُ السفر في شهر صفر، السنة الرابعة للهجرة، الانطلاق من المدينة المنورة والوجهة إلى مكة المكرمة، فإلى القصة:

بعث رسول الله ﷺ إلى أهل مكة سَرِيَّةً عَيْناً، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدْأة، بينَ عُسْفَان ومكَّةَ، ذُكِرُوا لحيٍّ من هُذَيْلٍ يُقالُ لهم: بنو لحيان، فنفروا لهم بقريب من مائة رجلٍ رامٍ، فاقتصُّوا آثارهُمْ، فلما أحسَّ بهم عاصمٌ وأصحابه، لجؤوا إلى موضعٍ، فأحاط بهم القومُ، فقالوا: انزلوا، فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً، فقال عاصم بن ثابت: أيُّها القوم أما أنا، فلا أنزل على ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، ﷺ، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد

والميثاق، منهم خبيب، وزيد بن الدَّثِنةِ، ورجلٌ آخر. فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسِّيهمْ، فربطوهم بها، قال الرجل الثالث: هذا أولُ الغدر والله لا أصحبكم، إن لي بهؤلاء أسوة، يُريدُ القتلى، فجرُّوه وعالجوه، فأبى أن يصحبهم، فقتلوه، وانطلقوا بخُبَيْب، وزيد بن الدثنة، حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف خُبَيْباً، وكان خُبَيْب هو قتَلَ الحارث يوم بدر، فلبث خبيبٌ عندهم أسيراً حتى أجمعوا على قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث مُوسَى يستحدُّ بها، فأعارته، فدرج بُنيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاهُ، فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده، ففزعت فزعة عرفها خُبَيْبٌ، فقال: أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك! قالت ـ أي فيما بعد وقد أسلمت ـ: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، فوالله لقد وجدتُهُ يوماً يأكل قِطْفاً من عنب في يده وإنه لموثوقٌ بالحديد وما بمكة من ثمرةٍ، وكانت تقولُ: إنه لرزقٌ رزقه الله خبيباً، فلما خرجوا به من الحرم ليقتُلُوه في الحلِّ، قال لهم خبيبٌ: دعُوني أُصلي ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تَحْسَبُوا أنَّ ما بي جزَعٌ لزِدْتُ: اللهم أحْصِهِمْ عدداً، واقتلُهم بدداً، ولا تُبْقِ منهم أحداً، وقال:

فلستُ أبالي حين أُقتلُ مُسْلماً ... على أي جَنْبٍ كان لله مصْرَعي
وذلك في ذات الإلهِ وإنْ يشَأْ ... يُبَارِكُ على أوْصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثم إن النبي ﷺ أخبر أصحابه يوم أُصيبوا خبرهم.

وقد بعث ناسٌ من كفار قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُدثوا أنه قُتل

أن يأتوا بشيء منه يُعْرَف، وكان قتل رجلاً من عظمائهم، فبعث الله لعاصم مثل الظُّلَّة من الدَّبْرِ ـ يعني: النحل ـ فحمَتْهُ من رُسُلِهِمْ، فلم يَقْدِرُوا أن يقطعوا منه شيئاً.

قالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه الدبر، فبعث الله الوادي بالسيل، فاحتمل عاصماً فذهب به.

وقد كان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشركٌ، ولا يمس مشركاً أبداً تنجساً، فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدبر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً في حياته. فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع منه في حياته.

وأما زيد بن الدثنة، فابتاعه صفوان بن أمية، ليقتله بأبيه، فبعثه مع مولى له إلى التنعيم وأخرجه من الحرم ليقتله، واجتمع رهطٌ من قريش فيهم أبوسفيان بن حرب فقال له أبوسفيان حين قدم ليقتل: أنشدك بالله يازيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي. قال أبوسفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً. ثم قتله مولى صفوان بعد ذلك، فلحق بإخوانه الشهداء. رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم، وجمعنا بهم في جنات النعيم إنه سميع مجيب.

استراحة المسافر (٢)

* قال بعضهم: رأيت رجلاً محموماً ومصدّعاً يأكل التمر ويجمع النوى فقلت: ويحك أنت بهذه الحال وتأكل كُلّ هذا التمر؟ فقال: يا مولاي عندي شاةٌ ترضع وما لها نوى فأنا آكل هذ التمر مع كراهيتي له لأطعمها النوى. فقلت له: أطعمها التمر والنوى. قال: أوَيجوز ذلك! قلت: نعم. قال: والله لقد فرّجتَ عني. لا إله إلاّ الله ما أحسن العلم.
* قيل لمغفَّل: قد سُرق حمارك فقال: الحمد لله الذي ما كنتُ عليه.
* سمع أعرابي أبا المكنون النحوي في حلقته وهو يقول في دعاء الاستسقاء: اللهم ربنا وإلهنا ومولانا صلّ على محمد نبينا؛ اللهم ومن أراد بنا سوءاً فأحِط ذلك السوءَ به كإحاطة القلائد على تَرَائب الوَلاَئد، ثم أَرْسِخْه على هَامَته كرُسُوخ السِّجِّيل، على هَام أصحاب الفيل، اللهم اسقنا غَيْثاً مغيثاً مَريئاً مريعاً مجلجلاً مسحنفراً هزجاً سحًّا سفُوحاً طَبَقاً غَدَقاً مُثْعَنجِراً. فقال الأعرابي: يا خليفة نوح هذا الطوفان ورب الكعبة، دعني آوي إلى جبل يعصمني من الماء.

السجيل: حجارة كالمدر، وقيل هو حجر من طين. المجلجل من السحاب: الذي فيه صوت الرعد. المسحنفر: الكثير الصب الواسع. الهزج: صوت الرعد. طبق: عامٌّ واسع. الغدق: المطر الكثير. المثعنجر: السيل الكثير.

* كان غلامٌ يُقَعِّر في كلامه، فأتى أباالأسود الدؤلي يلتمس ما عنده؛ فقال له أبوالأسود: ما فعل أبوك؟ قال: أخذته الحمَّى فَطَبَخَتْه طَبْخاً

وفَضَخَتْه فَضْخاً وفَنَخَتْه فَنْخاً فتركته فَرْخاً. قال أبوالأسود: فما فعلت امرأته التي كانت تُجارُّه وتُشَارُّه وتُزارُّه وتُهارُّه. قال: طلقها فتزوجت غيره فرَضِيت وحَظِيَت وبَظِيت، قال أبوالأسود: قد عرفنا حظيت، فما بظِيَت؟ قال: حرف من الغريب لم يبلغك. قال أبوالأسود: يابن أخي، كلّ حرف من الغريب لم يبلغ عمَّك فاستُره كما تستر السِّنَّوْرُ خُرْأَها.

فنخته: أوهنته وأضعفته. الفرخ: الضعيف المنهوك. تُجارّه: تطاوله. وتُشاره: تخاصمه. وتُزارّه: تعضّه. وتُهارُّه: تَهِرّ في وجهه كما يهر الكلب.

الحمار المسروق:

كان للأستاذ عثمان لبيب حمار يركبه في ذهابه إلى المدارس بالقاهرة فسرقه اللصوص وبلغ الخبر محمود سلامة صاحب جريدة الواعظ فرثى الحمار المسروق، وواسى صاحبه بقوله:

قف بسوق الحمير وانظر مليّا ... هل ترى أدهماً أغرَّ المحيّا
خلسته يد اللصوص صباحاً ... موكفاً مُلجماً معدّاً مهيّا
فخلا اصْطَبله وأصبح قاعاً ... صفصفاً خاوي العروش خليّا
كان يا حسرتا عليه صبوراً ... قانع النفس راضياً مرضياً
كم ليالٍ على الطوى قد طواها ... حامداً شاكراً ولم يشك شياً
لا لِفقرٍ وضيق عيشٍ ولكنْ ... كان في الزهد راغباً وتقيا
ليت شعري أين الأمان وهذا ... جحش عثمان قد عُدِمناه حيّا
كان عوناً له إذا رام ظعناً ... وخليلاً لدى المقام صفيّا

كان إن قلت (هشْ) أجابك طوعاً وإذا قلت (حا) انتضى سمهريّاً
لـك فيـه العـزاء عثمـان أمـا سـالبـوه فسـوف يلقـون غيّـا

الخيبة الكبرى :

حَضَر فريق كلية اللغة العربية لكرة القدم لمباراة فرقة المعهد، وكان أن تسبب أفراد فريق المعهد الديني ـ في مصر ـ في هزيمة منكرة لهم، وذلك بسبب تهاونهم وغرورهم، فنظم الشاعر هاشم الرفاعي ـ رحمه الله ـ هذه القصيدة تخليداً لهذه الهزيمة وسخرية من أفراد فريق المعهد المنهزم. . وذلك في عام ١٩٥٣م.

يـا خيبـةً قَـدّروهـا بـالقنـاطيـر جاءت لنا في نهارٍ كالدياجير
إني ذهبتُ إلى النادي فطالعني مقطِّب الـوجـهِ مُغبرُّ الأسـاريـر
يبكي ويندبُ من خابوا بملعبه وفي المباراة صاروا «كالطراطير»
من كلِّ «شحطٍ» أطال الله قامتَهُ يكادُ يَصلُحُ في جرِّ «الحناطير»
ما كانَ مُنتَظراً هذا المُصاب لكمْ يا فرقةً كوّنوها من «خناشير»
مـا للغبـيِّ «ولِلْفُتْبُـول» يلعبُهـا يا ليتهم عَلَّقوكم في الطنابير
أخزاكم الله قد جئتم لمعهدنا بالعار يا فتيةً مثلَ «المواجيرِ»
في «الماتش» لم تَلْعبوا لكنْ رأيتكمو في البرتقال نزلتم كالمناشيرِ
لو كنتُ أعلمُ أن الخيبةَ انقسمت من حظِّكم في سِجلاَّتِ المقادير
لكنـتُ جئـتُ «بطبـالٍ» يـزفكـمُ ورحتُ أتلو على لحن المزاميرِ
«لا بأس بالقوم من طولٍ ومن غلظٍ جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ»

من وصايا المسافرين

إليك بعض الوصايا الخلَّابة، والكلمات الجذابة، والدعوات المستجابة التي كان يوصىٰ بها بعض المسافرين، وإن أجمل وصية وأعذب كلمة وأروع عبارة وأصدق موعظة هي ما نطقت به شفتا أعظم إنسان عرفته الدنيا فاستمع إلى هذه الدرر من سيد البشر:

جاء رجلٌ إلى الرسول ﷺ فقال: يارسول الله إني أريد سفراً فزودني فقال له: «**زوَّدك الله التقوى**» قال: زدني قال: «**وغفر ذنبك**» قال: زدني. قال: «**ويسَّر لك الخير حيثما كنت**» [صحيح الجامع].

كان هذا الرجل يريد زاد الدنيا فذكَّره ﷺ بزاد الآخرة فلما ذاق السائل حلاوة الزاد ونزل على قلبه كالماء البارد على الظمأ طلب الزيادة وطمع في البركة. فما أعظم الموصِي وما أسعد الموصَىٰ.

وجاء رجل إليه ﷺ فقال: يارسول الله إني أريد أن أسافر فأوصني. قال: «**عليك بتقوىٰ الله، والتكبير على كل شرف**» فلما ولّىٰ الرجل قال ﷺ: «**اللهم اطو له البُعد وهوّن عليه السفر**» والشرف: المكان العالي المرتفع. [صحيح الجامع].

وقال ﷺ: «**عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوىٰ بالليل**» [الصحيحة: ٦٨١]. الدلجة: السفر في الليل.

وكان ﷺ إذا ودَّع الجيوش قال: «**أستودع الله دينكم وأماناتكم وخواتيم أعمالكم**» [الصحيحة: ١٤].

أراد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ السفر للعمرة فجاء يودِّع

الرسول ﷺ فقال له: «**لا تنسنا من دعائك يا أخي**» قال عمر: كلمة ما أريد أن لي بها الدنيا وما فيها. يقصد قوله ﷺ: «**لا تنسنا من دعائك يا أخي**».

وقال مطرِّف بن عبدالله بن الشخير لابنه: الحسنة بين السيئتين وخير الأمور أوساطها وشر السير الحقحقة. والحقحقة: السير بسرعة فائقة.

جاء رجلٌ إلى هشام أخي ذي الرمة الشاعر فقال له: إني أريد السفر فأوصني قال: صلِّ الصلاة لوقتها فإنك مصلِّيها لامحالة فصلِّها وهي تنفعك، وإياك وأن تكون كلب رفقتك، فإن لكل رفقة كلباً ينبح دونهم، فإن كان خيراً شركوه فيه، وإن كان عاراً تقلَّده دونهم.

وقصده من قوله: «ينبح دونهم» أي أن بعض الناس من بين تلك الرفقة تجده دائماً هو الذي يكثر الكلام والاعتراض والانتقاد والخلاف.

ومن أجمل ما رأيته من وصايا المسافرين وأبلغه وأجمعه وأحسنه وأتمه ما روي من أن لقمان قال لابنه: يا بني إذا سافرت وإذا بعدت عليك المنازل فعليك بالدلجة فإن الأرض تطوىٰ بالليل، وإذا أردت النزول فلا تنزل على قارعة الطريق فإنها مأوى الحيات والسباع، ولكن عليك من بقاع الأرض بأحسنها لوناً وألينها تربة، وأكثرها كلأ فانزلها، وإذا نزلت فصلِّ ركعتين قبل أن تجلس وقل: «**رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين**» وإذا أردت قضاء حاجة فأبعد المذهب في الأرض، وعليك بالسترة، وإذا ارتحلت من منزل فصلِّ ركعتين، وودِّع الأرض التي ارتحلت عنها وسلِّم عليها وعلى أهلها؛ فإن لكل بقعة من الأرض أهلاً من الملائكة، وإذا مررت ببقعة من الأرض أو وادٍ أو جبلٍ فأكثر من ذكر الله، فإن الجبال والبقاع ينادي بعضها بعضاً: هل مرَّ بكن اليوم ذاكر لله؟ وإن

استطعت أن ألاَّ تطعم طعاماً حتى تتصدق منه فافعل. وعليك بذكر الله جلَّ وعزَّ مادمت راكباً، وبالتسبيح مادمت صائماً، وبالدعاء مادمت خالياً. وإياك والسير في أولَّ الليل وعليك بالتعريس ـ النزول ليلاً ـ والدلجة من نصف الليل إلى آخره، وإياك ورفع الصوت في سيرك إلاَّ بذكر الله، وسافر بسيفك وقوسك، وجميع سلاحك وخُفِّك وعمامتك وإبرتك وخيوطك، وتزوَّد معك الأدوية تنتفع بها وتنفع من صحبك من المرضى والزَّمْنىٰ، وكن لأصحابك موافقاً في كل شيء يقربك إلى الله ويباعدك من معصيته، وأكثر التبسم في وجوههم وكن كريماً على زادك بينهم، وإذا دعوك فأجبهم، وإذا استعانوك فأعنهم، وإذا استشهدوك على الحق فاشهد لهم، واجتهد رأيك، وإذا رأيتهم يمشون فامش معهم، أو يعملون فاعمل معهم، وإن تصدَّقوا أو أعطوا فأعط. واسمع لمن هو أكبر منك، وإن تحيَّرتم في طريق فانزلوا، وإن شككتم في القصد فتثبتوا وتأمَّروا، وإذا رأيتم خيالاً واحداً فلا تسألوه عن طريقكم فإن الشخص الواحد في الفلاة هو الذي حيَّركم، واحذروا الشخصين أيضاً إلاَّ أن تروا ما لا أرىٰ فإن الشاهد يرىٰ ما لا يرىٰ الغائب، وإن العاقل إذا أبصر شيئاً بعينيه عرف الحق بقلبه.

من أخبار المسافرين (٤)

الفضيل ينصح الرشيد

هارون الرشيد: هذا الخليفة العادل، والإمام الصالح الذي أُفتريَ عليه افتراءات كثيرة وهو منها براء. هارون الرشيد الخليفة العابد العادل الذي كان يحج سنة ويغزو سنة، إليك هذه القصة الجميلة المؤثرة والموعظة البالغة التي تهز الوجدان وتنفذ إلى أعماق القلوب والتي وُعِظَ بها هارون الرشيد من العالم العابد الواعظ الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ.

يقول الفضل بن الربيع ـ حاجب الرشيد ـ سافر أمير المؤمنين للحج فأتاني فخرجت إليه مسرعاً. فقلت له: هاهنا الفضيل بن عياض هل لك في زيارته؟ فقال الرشيد: امض بنا إليه، فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها، قال: اقرع الباب، فقرعته، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: مالي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله! أوما عليك طاعته؟ فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة وأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كفُّ هارون قبلي إليه. فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله! فقلت في نفسي: ليكلمنَّه الليلة بكلام نقي من قلب تقي. فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله. فقال: إن عمر بن عبدالعزيز لما وُلي الخلافة دعا سالم بن عبدالله، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حَيْوَةَ فقال لهم: إني قد ابتُليتُ بهذا البلاء، فأشيروا عليَّ، فعد الخلافة بلاءً، وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبدالله: إن أردتَّ النجاة من عذاب الله عز وجل فصم

عن الدنيا وليكن إفطارك منها الموت.

وقال له محمد بن كعب القرظي: إن أردت النجاة من عذاب الله غداً ليكن كبيرُ المسلمين عندك أباً، وأوسطهم أخاً، وأصغرهم ولداً، فوقّر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحبُّ لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت.

وإني أقول لك إني أخاف عليك أشد الخوف من يوم تزلّ فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟

فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غشي عليه؛ فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين. فقال: تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا! ثم أفاق. فقال له: زدني رحمك الله، فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني أن عاملاً لِعُمر بن العزيز شُكِيَ إليه، فكتب إليه عمر: ياأخي، أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن يُنْصَرف بك من عند الله ـ عز وجل ـ فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء.

فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعتَ قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل. فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال: زدني رحمك الله، فقال: ياأمير المؤمنين، إن العباس عمَّ المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله أمّرني على إمارة، فقال له: «**إن الإمارة حسرةٌ وندامة يومَ القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل**».

فبكى هارون بكاءً شديداً، فقال له: زدني رحمك الله.

فقا له: يا حسن الوجه! أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غشٌّ لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «**من أصبح لهم غاشّاً لم يَرِحْ ريح الجنة**». فبكى هارون وقال له: عليك دين؟ قال: نعم، دينٌ لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم أُلهم حُجّتي.

قال: إنما أعني من دين العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

فقال له: هذه ألف دينار، خذها فأنفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادتك. فقال: سبحان الله! أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا! سلّمك الله ووفقك. ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب قال هارون: إذا دللتني على رجل فدُلّني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين.

الغربة والحنين إلى الأوطان

جـوى أودىٰ بقلبـك أم وجيـبُ غَداةَ حدا بك الحادي الطروبُ
بَعُدتَ عن الديار وصرت تدعو على البعـد الـديـار ولا مجيـبُ
وأصبـو للحمـىٰ بجميـع قلبـي كـذا فليصـبُ للـوطـن الغـريـبُ

مفارقة الإنسان لوطنه الذي ترعرع فيه ودرج عليه أمرٌ ليس باليسير بل هو من أشق الأمور على النفس، إن مفارقة ملاعب الطفولة ومراتع الصبا أمرٌ عظيم، وخطبٌ جليل، ومصابٌ رهيب. يقول أبوتمام:

البيـن جـرّعنـي نقيـع الحنظـل البيـن أثكلنـي وإن لـم أثكـلِ
ما حسرتي أن كدتُ أقضي إنما حسـرات نفسـي أنني لـم أفعـلِ
نَقِّلْ فؤادك حيث شئت من الهوىٰ مـا الحـبُّ إلاَّ للحبيـب الأولِ
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتىٰ وحنينـــهُ أبـــداً لأول منـــزلِ

أُخرج المصطفى ﷺ من مكة وقد ناله فيها أشدّ العذاب، وأقسى العنت، وأمرّ الإيذاء، ومع ذلك قال وهو يودعها: «**والله إنك لأحب البقاع إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت**» [انظر: صحيح الجامع: ٧٠٨٩].

فبـالله يـا ريـح الحجـاز تنفسـي على كبد حرّى تذوب من الوَجْدِ

* * *

يا نسيم الحجاز لولاك تطفي نار قلبي أذاب جسمي اللهيب

* * *

ريـح الحجـاز بحـقّ مـن أنشـاكِ رُدّي السـلام وحـيِّ مـن حيَّـاكِ
هبِّي عسى وجدي يخفُّ وتنطفي نيـران أشـواقـي ببـرد هـواكِ

يـا ريـح لـولا أن فيـك بقيـةً من طيب مكة متُّ قبل لقاكِ

لذلك يبقى الإنسان يحنُّ إلى أيامه الأولى ومنازله القديمة فقد ينزل بلاداً غير بلاده، ويجاور أناساً غير جيرانه وذوي قرابته، وقد يأنس بذلك، ويألفه ويسعد به لكن حنينه إلى منزله الأول لا ينقطع وشوقه لدياره الأولى لا ينتهي. يقول البهاء زهير:

سقىٰ الله أرضاً لستُ أنسى عهودها ويا طول شوقي نحوها وحنيني
بلادٌ إذا شارفتُ منها نجومَها بدا النُّور في قلبي وفوق جبيني
منـازل كـانـت لـي بهـنَّ منـازلٌ وكان الصِّبا إلفي بها وقريني
تذكرت عهداً بالمحصب من منى ومـا دونـه مـن أبطـح وحجـون
وأيـامنـا بيـن المقـام وزمـزم وإخـواننـا مـن وافـدٍ وقطيـنِ

الإنسان يرتبط ببيئته ارتباطاً وثيقاً وقد التفت الباحثون في الأجناس البشرية إلى أثر البيئة وصلة الإنسان بها فقالوا: إن صلة الإنسان ببيئته وأرضه أكثر ارتباطاً وتعقيداً من صلة الحيوانات والنباتات بالبيئة والأرض. والحنين إلى الوطن ظاهرة إنسانية عامة لا يستطيع المرء التخلي عنها، وليس الحنين أمراً معيباً بل هو أمر محمود ومحبوب عند الأمم ودلالة على العقل والرشد. قالت العجم: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها تواقة. وقال حكماء الهنود والفرس: من أمارات العاقل: برّه بإخوانه وحنينه إلى أوطانه.

قال ابن خلّكان:

أيُّ ليلٍ على المحبِّ أطاله سائق الظَّعْن يوم زمّ جماله
يا ديار الأحباب لازالت الأد مع في ترب ساحتَيْك مذاله

وتمشّى النسيمُ وهو عليلٌ في مغانيك ساحباً أذياله
أين عيشٌ مضى لنا فيك ما أسْـ ـرع عنا ذهابه وزواله
حيث وجه الشباب طلقٌ نضيرٌ والتصابي غصونه مياله
ولنا فيك طيبُ أوقات أنسٍ ليتنا في المنام نلقى مثاله

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وُعِكَ أبوبكر وبلال، فكان أبوبكر إذا أخذته الحمَّى يقول:

كلُّ امرىءٍ مُصَبَّحٌ في أهلِهِ والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمَّى يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ
وهل أردِنْ يوماً مياه مجنَّةٍ وهل يبدُوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ

وقال: اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء. ثم قال ﷺ: «**اللهم حبِّب إلينا المدينة كحُبِّنا مكة أو أشدَّ، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدِّنا وصحِّحْها لنا، وانقل حُمَّاها إلى الجحفة...**» [رواه البخاري]

شامة وطفيل: جبلان على نحو ثلاثين ميلاً من مكة.

الغريب ليله طويل، وقلبه عليل، وهمّه ثقيل، إذا أوى إلى فراشه فكأنما يتقلب على شوك القتاد، وإذا أراد النوم جفت عيناه الرقاد، وإذا هدأت العيون فهو سمير السهاد، ساهر لا ينام، متيّمٌ مستهام، لا يلذُّ له شراب، ولا يُستساغ له طعام.

يا نسيم الجنوب بالله بلِّغ ما يقول المتيّم المستهامُ
قل لأحبابه فداكم فؤادٌ ليس يسلو ومقلةٌ لا تنامُ

بنتمُ فالرقاد عندي سهادٌ مُذْ نأيتم والعيش عندي لمامُ
يا ديار السرور لازال يبكي بك في مضحك الرِّياض غمامُ
ربَّ عيشٍ صحبته فيك غضٌّ وجفون الخطوب عني نيامُ
في ليالٍ كأنهن أمانٍ من زمانٍ كأنه أحلام
كلُّ أنسٍ ولذّة وسرورٍ بعدما بنتُمُ عليَّ حرامُ

وهذا مسافر آخر يبلغ به الحنين مبلغاً عظيماً، ويشتد شوقه وحنينه حتى إنه لو مرَّ بالحصى لفلقها أو بالرياح لأسكتها فكيف بقلبه المسكين هل يطيق هذا الحنين؟

أحنُّ إلى الرمل اليماني صبابةً وهذا لعمري لو رضيتُ كئيبُ
ولو أن ما بي بالحصى فَلَّق الحصىٰ وبالريح لم يُسمع لهن هبوبُ

وهذا أبوتمام يشتكي ويبكي غربته بنيسابور ويحن إلى البلاد التي أحبها وتعلق قلبه بها وهي بلاد الشام:

صريع هوىً تغاديه الهموم بنيسابور ليس له حميمُ
غريبٌ ليس يؤنسه قريبٌ ولا يأوي لغربته رحيمُ
فقد فارقت بالغربيّ داراً بأرض الشام حفّ بها النعيمُ
هي الوطن الذي فارقتُ فيه وفارقني المساعد والنديمُ

وقال الآخر:

يا سائلي كيف حالي بعد فرقته حاشاك مما بقلبي من تنائيكا
قدأقسم الدمعُ لايجفوالجفون أسىً والنـــوم لا زارهـــا حتى ألاقيكـــا

وقد تألَّم العلماء، وتأوَّه الشعراء، وتحسَّر الأدباء، على مفارقتهم لأوطانهم، وبكوا غربتهم، وأفعمت مقالاتهم، وقصائدهم وآدابهم

بالحنين إلى الأوطان، والبكاء على مفارقة الأهل والجيران، والأحبَّة والخلاَّن، فيالله كم من قصيدة في الحنين رائعة، وكم من أبيات في ألم الغربة ذائعة.

هل يعلم الصَّحْبُ أني بعد فرقتهم ... أبيتُ أرعىٰ نجوم الليل سهرانا
أقضي الزمان ولا أقضي به وطراً ... وأقطع الدهر أشواقاً وأشجانا
ولا قريب إذ أصبحت في حزنٍ ... إن الغريب حزينٌ حيثما كانا

يقول أبوتمام مشتكياً ألم الغربة، ومتبرماً بلوعة الأسفار:

ما اليوم أوّل توديع ولا الثاني ... البَيْنُ أكثر من شوقي وأحزاني
دع الفراق فإن الدهر ساعده ... فصار أملك من روحي بجثماني
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا ... بالرقتين وبالفسطاط جيراني
وما أظن النوىٰ ترضىٰ بما صنعت ... حتى تُطَوِّح بي أقصىٰ خراسانِ
خلَّفتُ بالأفق الغربي لي سكناً ... قد كان عيشي به حلواً بحلوانِ
وليس يعرف كنه الوصلِ صاحبه ... حتى يُغادى بنأيٍ أو بهجرانِ

يروون أن أفلاطون قال: غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها. وقال: يداوى كل عليلٍ بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع لهوائها، وتنزع إلى غذائها. ومعنى ذلك أن الإنسان إذا أصابته العلة والمرض وهو في ديار غربة ونازح عن وطنه فإن حصوله على شيء من وطنه قد يعافيه من مرضه.

يقول جالينوس: يتروح العليل بنسيم، أرضه كما تنبت الحبة ببلّ القطر. يقال إن اسفنديار وهو قائد من قواد الفرس لما غزا بلاد الخزر اعتلّ بها فقيل له: ما تشتهي؟ قال: شربة من ماء دجلة، وشميماً من تراب إصطخر، فأتي بعد أيام بماء وقبضة من تراب وقيل له: هذان ماء دجلة

ومن تراب أرضك فشرب واشتمَّ بالوهم فبرىء من علته.

وهذا شاعر آخر يشتكي ألم الغربة وكثرة الترحال وأن ظروف الحياة وحوادث الأيام هي التي ألجأته إلى ترك أوطانه ومفارقة عياله:

إلى كم فرقتي وكم ارتحالي ... فلا أشكو لغير الله حالي
تجدِّد لي الحوادث كلَّ يومٍ ... رحيلاً قطُّ لم يخطر ببالي
وما كان التغرب باختياري ... ولا قلبي عن الأوطان سالي
وما عيش الغريب بلا عيالٍ ... كعيش القاطنين ذوي العيالِ

* * *

وهذا أحد الشعراء يحن إلى بلده نَجْد حنيناً عظيماً ويتألم من الفراق ويتساءل متى يستريح قلبه:

أكَرِّرُ طرفي نحو نجدٍ وإنني ... إليه وإن لم يُدْرِكِ الطرفُ أنظرُ
حنيناً إلى أرضٍ كأن ترابَها ... إذا أمطرتْ عودٌ ومسكٌ وعنبرُ
بلادٌ كأنَّ الأقحوانَ بروضها ... ونورَ الأقاحي وشيُ بردٍ محبَّرُ
أحنُّ إلى أرض الحجازِ وحاجتي ... خيامٌ بنجدٍ دونها الطرفُ يقصرُ
وما نظري من نحو نجدٍ بنافعٍ ... أجل ـ لا ـ ولكني إلى ذاك أنظرُ
أفي كلِّ يومٍ نظرةٌ ثم عبرةٌ ... لعينيك مجرى مائها يتحدَّرُ
متى يستريحُ القلبُ إمَّا مجاورٌ ... بحربٍ وإما نازحٌ يتذكرُ

وقال آخر، ولله درّهُ فما أحسن ما قال:

ومشتت العزمات لا يأوي إلى ... سكنٍ ولا أهل ولا جيران
ألِفَ النوى حتى كأن رحيله ... للبين رحلته إلى الأوطان

إن هنالك أناساً قد ابتلوا بكثرة الأسفار، وعذاب الترحال، فطال

اغترابهم، وكثر انتحابهم، وتعذب أحبابهم، لا تأنس بهم دار، ولا يقرُّ لهم قرار.

لا يستقرُّ بأرضٍ أو يسير إلى أخرى لشخصٍ قريبٍ عزمُهُ نائي
يوماً بِحزْوَى ويوماً بالعقيق ويوْ ماً بالعُذيبِ ويوماً بالخُلَيْصاءِ
وتارةً ينتحي نجداً وآونةً شعْبَ الحزُونِ وحيناً قَصْرَ تيماءِ

من أشد أنواع الفرقة وأعظمها حرقة، مفارقة الأهل والأولاد، فإنها تفتت الأكباد، وتبعث على السّهر والسُّهاد. ولذلك نجد أن بعض الآباء يرفض السفر ويصبر على ضيق العيش وشظفه كي يبقى بجوار أبنائه وبنياته. يقول حطان بن المعلى في قصيدة رائعة تمثل صدق الأبوة الحانية:

لولا بُنَيَّاتٌ كزغب القطا رُدِدْنَ من بعض إلى بعض
لكان لي مضطربٌ واسعٌ في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشي على الأرضِ
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض

عزيزٌ على الإنسان أن يعيش في غيبة طويلة وهو يعلم أن خلفه أبناء صغاراً يتمنون رؤيته ويبكون غيبته، ويحتاجون إلى رعايته. فهم يتألمون كلما رأوا غيرهم من أترابهم وقد سعدوا بآبائهم، وأنسوا بقربهم منهم يعطفون عليهم، ويروحون عنهم، ويقضون حوائجهم بينا هم يتلفتون يمنة ويسرة فلا يجدون آباءهم، ولا يتحقق مناهم وكأنهم أيتام. والأب المسكين كذلك لا يفتأ يذكرهم ولا يرقأ عليهم دمعه، ولا يأنس لفراقهم قلبه ولكن ظروف الحياة، وأحداث الدنيا، حكمت عليه بالغياب عن

أنظارهم وربما كان ذلك الغياب يشقى به ليسعدهم، ويتجرع مرارته ليكرمهم، فهو يكدح لتأمين لقمة العيش لهم، ويسعى لجلب الرزق لأجلهم. يقول أحد الآباء باكياً على فراق ابنه الصغير.

ولي واحدٌ مثل فرخ القطا صغير تخلّف قلبي لديهِ
نأت عنه داري فيا وحشتا لذاك الصبي وذاك الوجيهِ
تشوّقني وتشوّقتهُ فيبكي عليَّ وأبكي عليهِ
لقد تعب الشوق ما بيننا فمنه إليَّ ومني إليهِ

وقال آخر ويا لروعة ما قال:

أفي كل يوم غربةٌ ونزوحُ أما للنوى من أوبة: فتروحُ
وأرّقني بالرَّيِّ نوح حمامةٍ فَنحتُ وذو الشجو القديم ينوحُ
على أنها ناحت ولم تذر دمعة ونحتُ وأسراب الدموع سفوحُ
ونامت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخي مهامهُ فِيحُ

وقال عنترة:

أحرقتني نارُ الجوى والبعادِ بعد فقد الأوطان والأولادِ
شاب رأسي فصار أبيض لوناً بعد ما كان حالكاً بالسواد

ويقال إن من أحسن ما قيل في الغربة هذين البيتين وهما لعلي بن الجهم حيث قال:

يا رحمتا للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

الفراق نار تكوي الفؤاد، وتلهب القلوب، الفراق مُبكي العيون، ومقرِّح الجفون، أمرُّ طعماً من الحنظل، وأمضى فتكاً من الخنجر. فإن

الإلف متى فارق أليفه فقد حكم على عينيه بالسهر المؤبد، ومن بان عن حبيبه فقد قضى على قلبه بالهموم الشاقة، سهرٌ وألمٌ، بكاءٌ وندم، ليلٌ بلا رقاد، وجسمٌ بلا فؤاد، أرقٌ وآهات، أنين وعبرات، تململٌ وحسرات، الساعة كاليوم، واليوم كالشهر، والشهر كالسنة.

امسحوا عن ناظري كحل السُّهاد ... وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
أو خذوا منّيَ ما أبقيتمُ ... لا أُحب الجسم مسلوب الفؤاد
فعلى الأيام من بعدكُمُ ... ما على الثاكل من لبس الحداد

قال الجاحظ معقباً على النصوص التي تواترت عن حكماء اليونان وملوكهم وفلاسفتهم في حنينهم إلى أوطانهم وشدة شوقهم إليها قال: «فهؤلاء الملوك الجبابرة الذين لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة، ولا غادروا في أسفارهم شهوة، حنوا إلى أوطانهم، ولم يؤثروا على تربهم، ومساقط رؤوسهم شيئاً من الأقاليم المستفادة بالغزو ولا المدن المغتصبة من ملوك الأمم» اهـ.

فهذا أكبر دليل على أن عاطفة الحنين إلى الوطن عاطفة جياشة لا تقف أمامها أية عاطفة أخرى.

وما سرّ قلبي منذ شطت بي النوى ... نعيمٌ ولا لهوٌ ولا متَصَرَّفُ
ولا ذقتُ طعم الماء إلاَّ وجدتُه ... سوى ذلك الماء الذي كنتُ أعرفُ
ولم أشهدِ اللذات إلاَّ تكلفاً ... وأيّ سرورٍ يقتضيه التكلّفُ

مرارة الفراق ولوعته هي التي جعلت الشاعر يبالغ هذه المبالغة العجيبة فيقول:

أحبابنا لو لقيتم في إقامتكم ... من الصبابة ما لاقيتُ في ظعني

لأصبح البحر من أنفاسكم يبساً والبرُّ من أدمعي ينشقُّ بالسُّفنِ!!

وقال آخر:

كلُّ سحابٍ أمطرتْ أرضكم حاملةٌ للماء من أدمعي
وكلّ ريحٍ زعزعت تربكم فإنها الزفرة من أضلعي

وهذا أبوالدر ياقوت الرومي يشكو فراق الأحبة وينثر الدمع لغيابهم ويحاول أن يبرز لنا شدة اللوعة وحرارة الفراق ومرارة البين فيقول في قصيدة رائعة امتلأت بالمبالغات الطريفة:

إن غاض دمعك والأحبابُ قد بانوا فكل ما تدَّعي زورٌ وبهتانُ
وكيف تأنسُ أو تنسى خيالهمُ وقد خلا منهمُ ربعٌ وأوطانُ
لا أوحش الله من قومٍ نأوا فنأى عن النواظر أقمارٌ وأغصان
أجرى دموعي وأذكى النَّارَفي كبدي غداة بينهمُ همٌّ وأحزانُ
طوفانُ نوحٍ ثوى في مقلتيّ وفي طيّ الحشا لخليل الله نيران
لو كابد الصخرُ ما كابدْتُ من كمدٍ فيكم لجاد له أُحْدٌ ولُبنان
وذاب يذبلُ من وجدي ورضّ على رَضْوَى ولان لما ألقاه ثَهْلانُ
يا من تملك رقي حسنُ بهجته سلطان حسنك مالي منه إحسانُ
كن كيف شئتَ فما لي عنك من بدلٍ أنت الزلالُ لقلبي وهو ظمآن

* * *

وبالرغم من أن العالم اليوم أصبح كما يقال قرية مفتوحة، فلم يعد المسافر والمغترب يعاني ما كان يعانيه المسافرون في العصور القديمة فقد أصبح بإمكان الإنسان اليوم أن يصل في يوم واحد إلى البلد التي كان يحتاج المسافر إلى عدَّة أشهر كي يصل إليها، وأصبح بإمكان المسافر أن

يناجي أهله ويتمتع بصوت أبنائه ويأنس بأخبار أحبابه في كل لحظة، وفي أي وقت شاء، عبر وسائل الاتصال الحديثة حتى ولو كان بينه وبينهم آلاف الأميال. فما أعظمها من نِعَمٍ ينعم بها إنسان العصر، ولكن قلَّ الشاكرون لها. ومع ذلك كله فيبقى السفر هو السفر، والمعاناة هي المعاناة، والغربة هي الغربة، والحنين إلى الوطن هو الحنين إلى الوطن.

يقول الشاعر اللبناني وديع عقل:

أمسى يعذّبني ويضنيني ... شوقٌ طغى طغيان مجنونِ
أبغي الهدوء ولا هدوء وفي ... صدري عبابٌ غير مأمون
يهتاج إن لجّ الحنين به ... ويئن فيه أنين مطعون
ويظل يضرب في أضالعه ... وكأنها قضبان مسجون
ويح الحنين! وما يجرعني ... من مُرِّه ويبيت يسقيني

وهذا رشيد أيوب من شعراء المهجر يقول:

تذكرت أوطاني على شاطىء النهر ... فجاش لهيبُ الشوق في مطلع السِّرّ
وأرسلت دمعاً قد جنته يد النوى ... عليَّ فأمسى فيَّ منتحب القطرِ
عَدوّان منذ البدء لكن لشقوتي ... قد اتفقا أن أقضي العمر بالقهر
فلا النار في صدري تجفف أدمعي ... ولا عبراتي تطفئ النار في صدري
يروّعني بالهجر دهري كأنه ... عليمٌ بأني لست أخشى سوى الهجر

وإليك مقطوعة لمصطفى الرافعي يقول فيها:

سهرت والليل أمسى للورى سكنا ... فمن يدل على أجفاني الوسنا
أرعى كواكبها حتى إذا أفلتْ ... ألقيت للطير في تحنانها الأذنا

وأسأل الحب عن روحي وعن بدني فلا أرى فيه لي روحاً ولا بدنا
وما نظرتُ لأعضائي وقد بليَتْ إلاَّ حسبت ثيابي فوقها كفنا

* * *

وحينما نفي شوقي إلى الأندلس اشتعلت نيران الحنين إلى مصر بقلبه فنادى بأعلى صوته قائلاً:

ياساكني مصر إنا لانزال على عهد الوفاء وإن غبنا مقيمنا
هلاَّ بعثتم لنا من ماء نهركِمُ شيئاً، نَبُلّ به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنةٌ ما أبعد النيل إلاَّ عن أمانينا

وهذا الشاعر «مؤمنة أديب صالح» يشكو ألم الغربة ومرارة الفراق ويحنّ إلى موطنه الذي اضطر للنأي عنه فتدمع عينه ويهفو قلبه لبلده «الشام» بلد الطبيعة الخلاَّبة، والجمال الساحر، والخير الوافر، فيقول في قصيدته التي بعنوان «ياشام»:

شامٌ لها تهفو القلوبُ وترتجي عوْداً لسحر نسيمها المتمهلِ
تـأوي إليـك قلـوبُنـا لكنمـا تشكو العيون من ابتعاد المنهلِ
يا شام دمعك مالح في وجنتي وجراح عشقك شعلة في مرجلي
أنـىٰ لمثلـي أن يـروم تـأسِّيـاً بعد الشآم فلا نعمتُ بموئِل
بعد الشآم أرى الفؤادَ مشَرداً وأرى الجروحَ تكاثرت في مقتلي
طال النوى والعمرُ يسرع بالفتى والتيهُ يقطع في الفؤادِ كمنجلِ
ستطول ساعاتي بأرضِ تغربي ويمل دمعي تحت جفنٍ مسبلِ
قالوا حرامٌ أن تموتَ مشرداً عـدْ للشـآم وللـزمـان الأولِ
فأقول ماتت في الشآم يمَامتي والقلبُ ينكرُ للرجوعِ توسلي

ما هذه شامُ الطفولة والهوى شامُ الأصالَةِ طيرها يشتاق لي

وهذا شاعر يحن إلى بلدته الجميلة «أبها» ويتألّم لفراقها فيقول:

فؤادٌ بنار البعد محترقٌ يُكْوىٰ ونفسٌ أُسلِّيها ولم تعرف السّلوى
أحن إلى أبها و«أبها» بعيدةٌ على ناظري لكن قلبي لها مأوى
حنيني وقد ودَّعتُ «أبها» لغيرها أشدّ من الثكلى تحيط بها البلوى
إلى الله أشكو لوعة الوجد إنني أناجيه من قلبي وأمحضه الشكوى

وهذه من قصائد الحنين الرائعة للشيخ أحمد آل عبدالقادر من شعراء الأحساء وعلمائها توفي حوالي ١١٩٤هـ. وإنك لتشعر بأنين الشاعر وحنينه من خلال هذه القافية النونية.

ساجعُ الورقِ على الأغصانِ غنَّى أطربَ الخالي واجتاحَ المُعنَّى
صادحاً يمرحُ في أفْنانِه كُلّما زاد غراماً زاد فنَّا
ألهب الشوق بأحشائي وما فارقَ الرَّبْعَ ولا الإلْفَ الأغنَّا
أذكر الصَّبَّ عهوداً بالْحمَى ولُيَيْلاَتٍ بها قلبي تَهَنَّى
ونـدامَى كأساطين لهمْ سمرٌ يحلو إذا ما الليل جنَّا
لهمُ في العلم أقدامٌ رستْ وعليهم باهرُ الفضلِ أبَنَّا
ليتَ شعري والأمانيُّ رُقىً هل تراهُمْ مقلتِي بالقرب مِنَّا
أو ترى مَنْ قد رآهمْ لحظةً إنَّني أرضَى بما منهمْ تَسَنَّى
كلَّما لاحَ بريق نحوهمْ جذبَ القلبَ هوى الربع فحنَّا
يا أصيْحاباً بهَجْر خيَّمُوا لم أُبِنْ من بعدكم للضِّحْك سِنَّا
إن تغيبُوا عن عيوني فلَكُم في سُوَيْدَا القلب قد شيَّدتُ كِنَّا
أو يحولَ القفرُ من دونِكُمُ فخيالٌ منكمُ يمسِي لَدُنَّا

صار شُغْلي بعدكم همًّا رَسَا ... لـم يُـزَايلْنـي وإن بنتُـم وبنَّـا
أتمنَّـاكُـمْ وهيهـاتَ المُنـى ... عزّ ما أرجُوه من دهري وأنَّى
ما لِقلبي لم يفارقْه الجَوَى ... وعُيـونـي دمعُهـا لـم يتـأنَّـى
وفُـؤادي كلَّمـا هبَّـتْ صبَـا ... فرَّحتْني خِلتُه في الحال جُنَّا
أغـرامـاً وبعـاداً وضنـىً ... يا لقومِي لفتىً لم يطمئنَّا!
خـانـهُ الصبرُ وأعيـاهُ الهـوى ... فـإذا اللّيـلُ دَجَـى حـنَّ وأنَّـا

ويظهر شعر الحنين ناراً مشتعلة، وعاطفة جياشة عند الذين طردوا من ديارهم واغتصبت بلادهم وأراضيهم كما يحدث في كثير من بلدان العالم وأهمها فلسطين المغتصبة، فهاهم أهلها قد ذابت قلوبهم من حرارة الشوق إلى القدس، وحيفا، ويافا، والخليل، وغيرها فها هو ذا محمود الحوت يخاطب يافا ويتساءل عن شقيقاتها:

يافا، لقد جفّ دمعي فانتحبت دماً ... متى أراك؟ وهل في العمر من أمدِ
كيف الشقيقات، وأشواقي لها مُدُناً ... كـأنهـا قطـع مـن جنـة الخلـد
ماحالها اليوم يايافا وهل نعمتْ ... من بعد أن سُلِّمتْ أمساً يداً بيد
وكيف من قد تَبقَّى في مرابعها ... وقد تركناه فيها ترك ملتحد
تعبتُ لكنني مازلت في تعبي ... أشكو إلى الله، لا أشكو إلى أحد

من أخبار المسافرين (٥)

الغريب

أبوعبدالله الكُلْثُوميُّ النَّحويُّ من الفضلاء الكبراء علاَّمةٌ في الإعراب واللغة والحساب ومعرفة الأيام والنجوم والأنساب، كان في سفرٍ من أسفاره، فدخل خُوَارَزْمَ مع عدَّةٍ من الأدباءِ والشعراء حين ضاقَ بهم الحالُ فأثرت في قلبه الغربة، وهاج في صدره الحنين فقال:

تقول سعادٌ ما تغرَّدَ طائرٌ ... على فَنَنٍ إلاَّ وأنتَ كئيبُ
أجارَتَنَا إنَّا غَرِيبَانِ ههُنَا ... وكُلُّ غريبٍ للْغَرِيبِ نَسيبُ
أجارَتَنَا إنَّ الغَرِيبَ وإنْ غَدَتْ ... عليهِ غَوَادي الصَّالِحاتِ غَرِيبُ
أجارَتَنَا مَنْ يَغْتَرِبْ يَلْقَ لِلأَذَىٰ ... نوائِبَ تُقْذِي عَيْنَهُ فَيَشِيبُ
يحِنُّ إلى أوطانه وفؤادُهُ ... لهُ بين أحنَاءِ الضُّلُوعِ وجِيبُ
سقى الله ربْعاً بالعراق فإنه ... إلـيَّ وإنْ فـارَقْتُـهُ لَحبيـبُ
أحنُّ إليهِ من خُرَاسَانَ نازِعاً ... وهيْهَاتَ لو أنَّ المَزَارَ قَرِيبُ
وإن حنيناً من خُوارزمَ ينتهي ... إلى مُنتَهى أرضِ العراقِ عجيبُ

البارودي والغربة

البارودي ذلك الشاعر العظيم يقول حينما نُفي إلى سرنديب:

لبيك يا داعي الأشواق من داعي ... أسمعتَ قلبي وإن أخطأت أسماعي
ويلاه من حاجة في النفس هام بها ... قلبي وقصّر عن إدراكها باعي
أسعىٰ لها وهي مني غير دانيةٍ ... وكيف يبلغ شأوَ الكوكب الساعي
يا حبذا جُرعةٌ من ماء مَحْنِيَة ... وضجعةٌ فوق بَرْد الرمل بالقاعِ
يا من تراني بذاك الحيِّ مجتمعاً ... بأهل ودِّيَ من قومي وأشياعي
لا في «سرنديب» خلٌّ أستعين به ... على الهموم إذا هاجت ولا راعي
أظلُّ (فيها) غريب الدار مبتئساً ... نابي المضاجع من همٍّ وأوجاعِ
أكفُّ غرْبَ دموعي وهي جارية ... خوف الرقيب وقلبي جدُّ ملتاعَ

وهذه مقطوعة أخرى من روائع البارودي البكائية:

فيا دموع القطر سيلي دماً ... ويا بنات الأيك نوحي معي
وأنت يا عين إذا لم تفي ... بذمة الدمع فلا تهجعي
صبابةٌ أغرت عليَّ الأسىٰ ... ودلّت السُّهْدَ على مضجعي
ويلاه من نار الهوى إنها ... لولا دموعي أحرقت أضلعي
أبيت أرعىٰ النجم في سدمةٍ ... ضلّ بها الصبح فلم يطلعِ
طوراً أداري لوعتي بالمنى ... وتارة يغلبني مدمعي
فهل إلى الأشواق من غايةٍ ... أم هل إلى الأوطان من مرجع
لا تأس يا قلبُ علىٰ ما مضىٰ ... لابدّ للمحنة من مقطعِ

وانظر إلى قوله في هذه المقطوعة الرائعة والأبيات الناصعة والكلمات الخاشعة:

سَلْ مالكَ الملك فهو الآمرُ الناهي ... ولا تخفْ عادياً فالحكم لله
هو الذي ينعشُ المظلومَ إن عَلِقتْ ... به الرّزايا، ويجزي كلَّ تياه
فاسجد له واقترب، تبلغ بطاعته ... ما شئت في الدهر من عزٍّ ومن جاهِ
ياربِّ قد طال بي شوقي إلى وطني ... فاحلل وثاقي وألحقني بأشباهي
وامنن عليَّ بفضلٍ منك يعصمني ... من كلِّ سُوءٍ فإني عاجزٌ واهي
هذا دعائي وحسبي أنتَ من حكمٍ ... يعنو له كلّ شاهٍ أو شَهِنْشَاهِ

وقد استجاب الله لكلمات البارودي هذه وسمع دعوته فألهم الولاة في مصر أن يفكوا أسره وعاد إلى مصر في اليوم السادس من جمادى الأولى سنة ١٣١٧هـ بعد نَفْي وغربة عن بلده بلغت أكثر من سبعة عشر عاماً!!.

ومن أعذب ما سمعت، وأجمل ما قرأت، وأعجب ما رأيت من قصائد الغربة والحنين والتألم من الفراق هذه القصيدة الساحرة، التي إذا قرأها صاحب الضمير المتوقد والعاطفة الجياشة فإنه ينثر الدموع مدراراً ويلتهب فؤاده ناراً، ففيها من صدق العاطفة، واستجاشة المشاعر ما يبكي العيون ويهز القلوب. لقد قرأت القصيدة أول ما قرأتها، فوضعتُ يدي على قلبي أتلمّسُ مكانه، وأتفقّدُ نبضاته، الفؤاد يخفق، والعين تدمع، والأحشاء تلتهب، لا إله إلاَّ الله، إن من البيان لسحراً، القصيدة يرويها إسحاق الموصلي عن أحد الأعراب:

أَلاَ سامح الله الحمَامَةَ غُدْوَةً ... على الغُصْنِ ماذا هَيَّجَتْ حِينَ غَنَّتِ
تَغَنَّتْ بِصَوتٍ أعْجَمِيٍّ فَهَيَّجَتْ ... مِنَ الوَجْدِ ما كانَتْ ضُلُوعِي أَجَنَّتِ

فَلَوْ قَطَرَتْ عَيْنُ امرئ مِنْ صَبَابَةٍ ... دَماً قَطَرَتْ عَيْنِي دَماً وأَبَلَّتِ
فَمَا سَكَتَتْ حَتَّى أَوَيْتُ لِصَوْتِهَا ... وَقُلتُ أَرَى هَذِى الحمَامَة جُنَّتِ
وَلِي زَفَرَاتٌ لَوْ يَدُمْنَ قَتَلْنَني ... بِشَوْقٍ إلى هَاتِي الَّتِي قَدْ تَوَلَّتِ
إِذَا قُلْتُ هَذِي زَفْرَةُ اليَوْمِ قَدْ مَضَتْ ... فَمَنْ لي بِأُخْرَى فِي غَدٍ قَدْ أَظَلَّتِ
فَيَا مُنْشِرَ المَوْتَى أَعِنِّي عَلَى الَّتي ... بِهَا نَهَلَتْ نَفْسِي سِقَاماً وَعُلَّتِ
لَقَدْ بَخِلَتْ حَتَّى لَو انِّي سَأَلْتُهَا ... قَذَى العَيْنِ مِنْ سَافِي التُّرَابِ لَضَنَّتِ
فَقُلْتُ ارْحَلاَ يَا صَاحِبَيَّ فَلَيْتَني ... أَرَى كُلَّ نَفْسٍ أُعْطِيَتْ مَا تَمَنَّتِ!
حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ مَا أُمُّ وَاحِدٍ ... إِذَا ذَكَرَتْهُ آخِرَ اللَّيْلِ أَنَّتِ
ولاَ وَجدُ أَعْرَابِيَّةٍ قَذَفَتْ بِهَا ... صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَّتِ
إِذَا ذَكَرَتْ مَاءَ الْعُذَيْبِ وَطيبَه ... وَبَرْدَ حَصَاهُ آخِرَ اللَّيلِ حَنَّتِ
بِأَكْثَرَ مِنِّي لَوْعَةً غَيْرَ أَنَّنِي ... أُطَامِنُ أَحْشَائِي عَلَى مَا أَجَنَّتِ

وبين الغرباء والحَمَام صلة ونسب:

فمن أكثر قصائد الغربة أثراً وتفجعاً تجد أن الذي أثار الشاعر فترنم بها هو نَوْح الحمام وصدوحه. فهناك قصائد كثيرة في غاية من الحسن والجمال، ومن أعذبها لحناً، وأجملها نظماً، وأبعدها أثراً قصيدتان حائيتان الأولى منهما للشاعر المسمى فخر الدين صاحب تكريت، وهي التي سأوردها الآن والأخرى لابن محلّم وسوف ترد معنا في أخبار المسافرين.

واختيار الحاء قافيةً لهاتين القصيدتين له دلالة معينة، وأثرٌ متميز، فهو يرمز للنوح والصدوح، وهو خير معبِّرٍ عن الحرارة التي تسكن الفؤاد، وعن نار الغربة التي تحرق الأحشاء.

يقول فخر الدين:

وما ذات طوقٍ في فروع أراكةٍ لها رنةٌ تحت الدجى وصدوحُ
ترامت بها أيدي النوى وتمكّنتْ بها فرقة من أهلها ونزوح
فحلَّت بزوراء العراق وزُغْبُهَا بعُسفان ثاوٍ منهم وطليحُ
تحنُّ إليهم كلما ذرّ شارقٌ وتسجع في جُنْح الدجى وتنوح
إذا ذَكَرَتهُم هَيّجتْ ذا بلابلٍ وكادتْ بمكتوم الغرام تبوحُ
بأبرحَ من وجدي لذكراكُمُ متى تألّق برْقٌ أو تنسَّم ريحُ

وهذا شاعرٌ آخر يخاطب الحمام فيقول:

حمام الآراك ألا فاخبرينا لمن تندبين ومن تُعْوِلينا
فقد شُقتِ بالنوح منَّا القلوب وأبكيتِ بالندب منَّا العيونا
تعالَيْ نُقمْ مأتماً للهموم ونعولُ إخواننا الظاعنينا
ونسعدكنَّ وتسعدننا فإن الحزين يُواسي الحزينا

وهذا أبوفراس الحمداني ابن عمّ سيف الدولة قال هذه القصيدة وهو في السجن أَسَرَهُ الرومُ في إحدى الحروب فنامتْ حمامةٌ بالقُرب منه فأثارت مشاعره وهزّت وجدانه فقال:

أقول وقد ناحت بقربي حمامةٌ أيا جارتا هل بات حالك حالي
معاذ الهوى ماذقتِ طارقة النوى ولا خطرت منكِ الهمومُ ببالِ
أتحمل محزونَ الفؤاد قوادمٌ على غُصُن نائي المسافة عالي
أيا جارتا ما أنصف الحظ بيننا تعالي أُقاسِمْكِ الهموم تعالي
تعالي ترَيْ روحاً لديَّ ضعيفةً تردَّدُ في جسمٍ يُعَذَّبُ بالي
أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقةٌ ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالي

لقد كنتُ أولى منكِ بالدمع مقلةً ولكنَّ دمعي في الحوادث غالي

وإليك رائعة أخرى من روائع الشعراء والحَمَام:

ذكر الأحباب والوطنا والصبا والإلف والسكنا
فبكى شجواً وحُقّ له مدنفاً بالشوق حلفَ ضنى
أبْعَدَتْ مرمىً به رجمتْ من خراسان به اليمنا
مـن لمشتـاق تُمَيِّلـه ذاتُ سجـع مَيَّلـتْ فننـا
لم تُعرِّض في الحنين بمن مسعـد إلا وقلـت أنـا
لك يا ورقاء أسوة من لم تذيقي طرفه الوسنا
بك أنسي مثل أنسك بي فتعـالـي نبـد مـا كمنـا
نتشـاكـى مـا نجـن إذا بُحْتِ شكوى صِحتُ واحزنا
أنا لا أنت البعيد هوى أنا لا أنت الغريب هنا
أنا فرد يا حمام وها أنت والإلف القرين ثنا
اسرحا رأد النهار معاً واسكـنا جنح الدجى غصنا
وابكيا يا جارتيَّ لما لعبت أيدي الفراق بنا
أين قلبي ما صنعت به ما أرى صدري له وطنا
كان يوم النفر وهو معي فأبى أن يصحب البدنا
أَبِهِ حادي الرفاق حدا أم له داعي الفراق عنا

وهذا الشاعر عبدالله بن الدمينة المتوفى عام ١٤٢هـ على التقريب، يغترب عن وطنه، ويخاطب الحمامات في غربته، ويدعوهن إلى الهديل لأنه يريد أن يسمع أصواتهن. فلما استجبن له، كاد يموت، وكاد يفضح أسراره، لأن حاله من حالهن، فهو مغترب وبعيد عن أهله ووطنه، وهن

كن بنعمة، إلى أن نالتهن يد الفراق، وهو يستغرب منهن إذ يبكين بدون دموع! قال:

ألا يا حمامات اللِّوى عُدْنَ عودةً ... فإني إلى أصواتكُنَّ حزينُ
فَعُدْنَ فلما عدنَ كِدْنَ يُمِتْنَني ... وكِدْتُ بأسراري لهن أَبينُ
وعدن بقرقارِ الهديرِ كأنما ... شربنَ حُمَيّا أو بهنَّ جنونُ
ولم تَرَ عيني قبلَهُنَّ حمائِماً ... بكينَ ولم تَدْمَعْ لهنَّ عيونُ
فكنَّ حماماتٍ جميعاً بنعمةٍ ... فأصبحنَ شتى ما لهنَّ قرينُ
فأصبحنَ قد فرَّقْنَ غيرَ حمامةٍ ... لها عند عهدٍ بالحمامِ رنينُ

الأصبهاني وحَمَام الأيك

وهذه رائعة أخرى من روائع شعراء الغربة والحنين للشاعر الحسين بن علي الأصبهاني الطغرائي يخاطب فيها حمامة من حمام الأيك، أثارت شجنه، وجدَّدت حزنه، فلله درّها من حمامة، أثارت الحسين فأحسن كل الإحسان وأمتع غاية الإمتاع، وأطرب القلوب والأسماع، فقال:

أَيْكِيَّةٌ صَدَحَتْ شَجْواً عَلَى فَنَنِ ... فَأَشْعلتْ مَا خَبَا مِنْ نَارِ أَشْجَانِي
نَاحَتْ وَمَا فَقَدَتْ إِنْساً وَلاَ فُجِعَتْ ... فَـذَكَّـرَتْنِـيَ أَوْطَـارِي وأَوْطَـانِـي
طَلِيقَـةٌ مِـنْ إِسَـارِ الهَـمِّ نَـاعِمَـةٌ ... أَضْحَتْ تُجَدِّدُ وَجْدَ المُوثَقِ العَانِي
تَشَبَّهَتْ بِيَ في وَجْدٍ وَفِي طَرَبٍ ... هيْهَاتَ مَا نَحْنُ في الحَالَيْنِ سِيَّانِ
مَافِي حَشَاهَا وَلاَ فِي جَفْنِهَا أَثَرٌ ... مِنْ نَارِ قَلْبِي وَلاَ مِنْ مَاءِ أَجْفَانِي
يـارَبَّـةَ البَـانَـةِ الغَنَّـاءِ تَحْضُنُهَـا ... خَضْراءَ تَلْتَفُّ أَغْصَاناً بِأَغْصَانِ
إِنْ كَانَ نَوْحُكِ إِسْعَاداً لِمُغْتَرِبٍ ... نَـاءٍ عَـنِ الأَهْـلِ مَمْنِـيٍّ بِهِجْـرَانِ
فَقَارِضِيني إِذَا مَا اعْتَادَنِي طَرَبٌ ... وَجْداً بِوَجْدٍ وَسُلْوَاناً بِسُلْوَانِ
مَا أَنْتِ مِنِّي وَلاَ يَعْنِيكِ مَا أَخَذَتْ ... مِنِّي اللَّيَالِي وَلاَ تَدْرِينَ مَا شَانِي
كِلِي إِلَى السُّحْبِ إِسْعَادِي فَإِنَّ لَهَا ... دَمْعاً كَدَمْعِي وإِرْنَاناً كَإِرْنَانِي

* * *

وقبل أن نطوي صفحة المساجلة بين الشعراء والحمام، وحتى لا تغضب منا بقية الطيور الصدَّاحة، وتحمل في قلبها علينا وعلى الحَمَام نختم هذه الجولة المؤثِّرة بهذه القصيدة لأحد الشعراء قالها في سفر من أسفاره يخاطب فيها طائراً سمعه يصيح ببغداد، والشاعر هو الأمير علي

ابن منقذ أخو الأمير الشهير أسامة بمن منقذ:

يا طائراً لَعِبَتْ أيدي الفراقِ بهِ مِثْلي فأصبحَ ذا همٍّ وذا حزَنِ
داني الأسَى، نَازِحَ الأوطَانِ مُغْتَرباً عن الأحبَّةِ مَصْفُوداً عن الوطنِ
بـلا نـديـمٍ ولا جـارٍ يُسَـرُّ بـهِ ولا حميـمٍ ولا دارٍ ولا سكـنِ
لكن نَطَقْتَ فزالَ الهمُّ عنك وَلِي هَمٌّ يُقَلْقِلُ أحْشَائي ويُخْرِسُنِي
وَكُـلُّ من بَـاحَ بالشَّكْـوَى اسْـتَراحَ وَمَنْ
أخْفَـى الجَـوَى بَـثَّ عَـنْهُ شَـاهِـدُ الـبَدَنِ
أرّقتَ عيني بنوحٍ لستُ أفهمه مَعْ ما بقلبيَ من وجدٍ يؤرِّقُني

المرأة والحنين إلى الأوطان

تمتاز المرأة برقة الإحساس، ورهافة الشعور، وشدة العاطفة، وهي كثيرة البكاء شديدة الحزن إذا ما فجعت بفقد حبيب أو قريب، حريصة كل الحرص على البقاء عند أهلها وبالقرب منهم، تكره البعد عنهم والاغتراب عن أراضيهم ولئن كان الرجل يحن إلى وطنه، وعشيرته وأهله، فيقف على أطلالهم ويبكي ويستبكي فإن المرأة أعنف شعوراً بالحنين إلى الوطن، فهي أرق عاطفة وأرهف إحساساً من الرجل، لذلك حينما ننظر إلى الشعر الذي هو المترجم الحقيقي لما في نفس قائله من عواطف وانفعالات نجد أن شعر المرأة رقيق سهل، وأن حنينها إلى أوطانها وأهليها حنين مليء باللوعة والأسى. ففي جميع النصوص الشعرية للمرأة نرى أنها تحن إلى الوطن حنيناً كبيراً مفضلة إياه على الزوج أحياناً كثيرة وعلى الديار التي تسكنها معه والمرأة لم يرد في شعرها حث على السفر والاغتراب والتحول عن الديار أبداً، على خلاف ما عند بعض الرجال من حب لذلك. ولعل موقفها هذا يعود بالدرجة الأولى إلى قوة الرابطة التي تشدها بوالديها، وعائلتها، وعشيرتها.

وإليك الآن بعض القصائد والقصص عن المرأة حينما تحن إلى الأوطان وتبكي للأهل والجيران.

١ـ رامة بنت حصين الأسدية :

يلومها الحضر إذ تساكنهم رغم حنينها المتكاثر إلى نجد، فتعجب أن تلام على حنينها وترى أن كل شيء تساكنه يذكرها بنجد ويزيد حنينها إليه

وتذكر ـ الخوّ ـ الموضع الذي عاشت فيه، تذكره وهو ممرع، مثمر بالأشجار، وتذكر المكاكي، وهو طائر صغير، تذكره وقد تردد صوته بعد منتصف الليل فتقول:

أُلامُ على نجد ومن يكُ ذا هَوَىً ... يهيِّجه للشوق شيءٌ يرابعه
تُهجْهُ الجنوبُ حين تغدو بنشرها ... يمانيةً والبرق إن لاح لامِعُهْ
ومن لامني في حبِّ نجدٍ وأَهْلِهِ ... فَلِيم عَلَى مِثْلِي وأَوْعَبَ جادِعُهْ
لعمركَ للغمران غمرا مقلَّدٍ ... فذو نَجَبٍ غُلاَّنُهُ فدوافعه
وخوٌّ إذا خوٌّ سقته ذهابه ... وأمرعَ منه تينه وربائعه
وصوتُ مكاكيٍّ تجاوبَ موهِناً ... من الليل من يأرق له فهو سامعُه
أحبُّ إلينا من فراريجَ قريةٍ ... تزاقي ومن حيَّ تَنِقُّ ضفادعُه

أوعب جادعه: قطع لسانه. الغمران: تثنية الغمر، وهو الماء الكثير المغدق، وهو اسم موضع في بلاد بني الأسد.

٢ـ زينب الضبيّة:

تتزوج فيحملونها من البادية إلى الحضر، وتُسأل يوماً: أليس هذا الحضر أطيب مما كنت فيه في البادية؟ فتنكر ذلك وتفضل مظاهر البداوة الخشنة، ورياح نجد على حياة الحضر وملاعبه. وتقسم أنها مهما طال بها المدى فلن تنسى أبداً ديارها في البادية:

أقول لأدنى صاحبيَّ أُسِرُّهُ ... وللعين دمعٌ يحدِر الكحلَ ساكبه
لعمْري لَنَهرٌ باللِّوى نازح القذى ... نقيُّ النواحي غيرَ طَرْقٍ مشاربه
أَحَبُّ إلينا من صهاريج مُلِّئَتْ ... للعبٍ ولم تملُح لديَّ ملاعبه
وريحُ صبا نجدٍ إذا ما تنسَّمَتْ ... ضحىً أوسرت جُنْحُ الظلام جنائبه

فيا حبذا نجدٌ وطيبُ ترابه ... إذا هضبته بالعشيِّ هواضبُه
وأُقسم لا أَنساه مادمت حيةً ... ومادام ليلٌ من نهارٍ يعاقبُه
ولازال هذا القَطْرُ يسفر لوعة ... بذكراه حتى يترك الماء شاربه

٣ـ وجيهة بنت أوس :

لامتها إحدى العاذلات على ما يبدو منها من شوق وصبابةٍ لوطنها، فتستغرب هذا العذل وتظهر حنينها وحبها لأهلها وأرض عشيرتها وتذكر أن الرياح لو كانت تعقل وتفهم لخاطبتها وناجتها وحَمَّلتها تحيتها وطلبت إليها أن تبقي هذه التحية نقية خالصة نابعة من القلب غير مختلطة بتراب الريح. تقول:

وعاذلةٍ تغدو عليَّ تَلُومُني ... على الشَّوْقِ لم تَمْح الصَّبابةَمن قلبي
فماليَ إن أحببْتُ أرضَ عَشِيرَتي ... وأبْغَضْتُ طَرْفَاءَ القصَيْبةِ من ذَنْبِ
فلو أنَّ ريحاً بَلَّغَتْ وَحْيَ مُرْسِلٍ ... حَفِيٍّ لناجَيْتُ الجنُوبَ على النَّقْبِ
فقُلتُ لها أدّي إليهم رسالتي ... ولا تخْلِطِيها طال سعْدُك بالتُّرْبِ
فإني إذا هَبَّت شمالاً سألتُها ... هل ازداد صُدَّاحُ النُمَيْرَة مِنْ قُرْبِ

٤ـ ميسون بنت بحدل الكلابية :

يروى أنه تزوجها معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ ونقلها من البادية وأسكنها في دار الخلافة في الشام، وجعلها في قصر منيف مع ناعم المأكل والملبس والحيوانات الأليفة، والعيش الطريف، ولكنها لا تعجبها كل مظاهر الحضارة هذه، بل تحن إلى الخشونة في حياة البادية التي أشربتها في دمها وأحاسيسها وكانت تكثر الحنين وتتذكر مسقط رأسها

فأنصت لها معاوية ـ رضي الله عنه ـ في يوم من الأيام فسمعها تنشد الأبيات التالية:

لَبَيْتٌ تخفُقُ الأرْواحُ فيه ... أحبُّ إليَّ من قصرٍ مُنِيْفِ
وبَكْرٌ يَتْبَعُ الأظعانَ سَقْباً ... أحبُّ إليَّ من بَغْلٍ زَفُوفِ
وكلبٌ ينْبَحُ الطُّراقَ عني ... أحبُّ إليَّ من قِطٍّ أليفِ
ولُبْسُ عباءةٍ وتَقَرَّ عيني ... أحبُّ إليَّ من لُبْسِ الشُّفُوف
وأكلُ كُسَيْرةٍ في كِسْرِ بيتي ... أحبُّ إليَّ من أكلِ الرَّغيفِ
وأصواتُ الرياحِ بكُلِ فَجٍّ ... أحبُّ إليَّ من نَقْرِ الدُّفُوفِ
وخِرْقٌ من بني عمي نَحيفٌ ... أَحَبُّ إليَّ مِنْ عِلْجٍ عَلِيفِ
خشُونَةُ عِيشَتي في البدو أشْهَى ... إلى نَفْسِي من العَيشِ الطَّرِيفِ
فما أبْغِي سوى وطني بَدِيلاً ... فَحَسْبي ذاكَ مِنْ وطَنٍ شَرِيف

فقال لها معاوية: ما رضيت يابنة بحدل حتى جعلتني علجاً عليفاً، فالحقي بأهلك، وطلقها.

٥ـ أسماء المرية:

تزوجها رجل من تهامة ونقلها إليها، فحنَّت إلى أهلها حنيناً عظيماً ثم خاطبت جَبليْ نعمان أن يخليّا نسيم الصّبا يصل إليها، فإن نسيم الصبا إذا هبّ على قلب محزون، تخف همومه وأحزانه كما أنها تجد في ريح الصبا ما يشفي حرارة كبدها ويبرد لوعتها:

أيا جَبَلَيْ نَعْمانَ باللهِ خَلّيا ... نَسِيمَ الصَّبا يَخْلُصْ إليَّ نَسِيمُهَا
فإنَّ الصَّبا ريحٌ إذا ما تَنَفَّسَتْ ... على قَلْبِ مَحْزُونٍ تَجَلَّتْ هُمُومُها
أجِدْ بَرْدَهَا أو تَشْفِ مِنّي حَرارَةً ... على كبدٍ لمْ يَبْقَ إلاَّ صَمِيمُهَا

أيـا جَبَلَـيْ وادي عُـرَيْعِـرةَ التـي ... نأتْ عن نَوى قَوْمٍ وَحُمَّ قُدُومُهَا
ألا خَلّيـا مَجْـرَى الجَنُـوب لَعَلَّـهُ ... يُدَاوي فُؤادي مِنْ جَواهُ نَسيمُهَا
وَكَيْفَ تُدَاوي الريحُ شَوْقاً مُمَاطَلاً ... وَعَيْناً طويلاً بالدُّمُوعِ سُجُومُها
وَقُـولا لِـرُكْبَـانٍ تميميَّـةٍ غَـدَتْ ... إلى البَيْتِ تَرْجُو أن تُحَطَّ جُرومُهَا
بـأنَّ بـأكْنـافِ الـرُّغـام غَـرِيبَـةً ... مُـولَّهَـةً ثَكْلَـى طَـويـلاً نَئيمُهَـا
مُقَطَّعَةً أحْشَاؤهَا مِنْ جَوَى الهَوَى ... وَتَبْرِيح شَوْقٍ عَاكِفٍ ما يَرِيمُهَا

[راجع كتاب شاعرات العرب/ عبدالبديع صقر، وكتاب الحنين إلى الوطن حتى العصر الأموي/ محمد إبراهيم حُوَّر]

الإبل تشارك في الحنين

باتت تشوقني برجع حنينها وأزيدها شوقاً برجع حنيني
نضوين مغتربين بين تهامة طويا الضلوع على هوىً مكنونِ
لو سُوئلَت عنها القلوص لأخبرتْ عن مستقَرِّ صبابةٍ وشجونِ

كانت الإبل أهم وسيلة من وسائل التنقل لدى القدماء فعليها يسافرون وبها يرتحلون ويغتربون، وكان العربي يُشْرك راحلته معه في مشاعره وأحاسيسه فيجعلها كأنها تحس بأحاسيسه وتشتاق لشوقه، وتحن لحنينه، وتفرح لفرحه، وتحزن لحزنه، ولذلك كانت مقدمات القصائد في الغالب تبدأ بالحديث عن الأطلال والمقدمات الغزلية ثم يتحدث الشاعر عن راحلته، ويصفها وصفاً دقيقاً ويضفي عليها من النعوت والصفات الشيء الكثير ويذكر معاناتها في الرحلة وما لاقته من تعب المسير ومشقة الرحلة، خاصة إذا كانت رحلة الشاعر إلى أحد الأمراء أو الأغنياء ليكون ذلك أكثر قبولاً وأعظم تأثيراً في نفسه فيجـود عليه بالعطايا والهبات الكثيرة. والذي يعنينا هنا هو مشاركة هذه النوق لأصحابها فى الحنين إلى الأوطان.

هذا الشاعر الأموي عودة بن حزم من الشعراء العذريين، كان يحب عفراء ابنة عمه حبّاً عظيماً، يصور لنا أن ناقته أيضاً تحب وتحن ولكنها تحن إلى اليمن بينما هو يحن إلى العراق لأن حبيبته فيه وقد رحل عنها ليأتي بمهرها وهو يصور لنا أن ناقته أحسن حظًّا منه لأنها تحن وتبدي حنينها أما هو، فيحن ويخفي حنينه الذي يكاد يقضي عليه لولا تأسيه بغيره

من العشاق الذين رحلوا عن أحبابهم يقول:

فمن يكُ لم يقرِضْ فإني وناقتي ... بحجرٍ إلى أهل الْحمى غَرِضانِ
هوى ناقتي خلفي وقُدَّاميَ الهوى ... وإنـــى وإيَّـــاهـــا لمختلفـــانِ
تَحِنُّ فتُبدي ما بها من صبابةٍ ... وأُخفي الذي لولا الأسى لقَضَاني
فيا كبدينا أَجملا قد وجدتما ... بأهل الْحمى ما لم يَجِدْ كَبدانِ
إذا كبدانا خافتا وشكَ نِيَّةٍ ... وعـاجـلَ بَيْـنٍ ظلَّتـا تجبـانِ

وهذا الفرزدق يحن إلى أهله ووطنه حينما كان يبيت مع صَحْبٍ له بدير حسان ويتوهم أن ناقته تبكي حنيناً إلى الوطن ويهيجه حنينها، فيذكِّره دياره وأهله فيحن حنيناً صادقاً حتى يضنيه السهر، فتنهل دموعه ولديه من دواعي الحنين ما ينوف على دواعي حنين ناقته فما أروع ما قال:

وليلـة بتنـا ديـرَ حسَّـانَ نبَّهـتْ ... هُجُوداً وعيساً كالخَسِيَّات ضُمَّرا
بَكتْ ناقتي ليلاً فهاج بكاؤها ... فؤاداً إلى أهلِ الوريعةِ أصورا
وحنت حنيناً منكراً هيَّجت به ... على ذي هوى من شوقهِ ما تنكرا
فبتنـا قعـوداً بيـن ملتـزم الهـوى ... وناهي جمان العين أن يتحدَّرا
ترومُ على نعمانَ في الفجرِ ناقتي ... وإن هي حنَّت كنتُ بالشوق أعذرا

الخسيات: القسي. أَصورا: أَمْيَل.

وهذا جرير يغترب فيحن إلى أهله وتحن قلوصه فيطلب منها أن يكون حنينها رويداً رويداً لكي لا تهيج حنينه وأشواقه:

تحن قلوصي بعد هدءٍ وهاجها ... وميضٌ على ذات السلاسل لامعُ
فقلـت لهـا حنِّـي رويـداً فـإننـي ... إلى أهل نجدٍ من تهامة نازعُ

وهذه أم المثلم الهذلية بعد هدوء صبابتها تحن قلوصها فيرتاع قلبها

كما يرتاع قلب قلوصها ولكنها تحاول أن تعزيها وتعزي نفسها بأن كل قرينة لابد أن تفارق قرينها، ولكن هذه القلوص لا ترعوي عن الحنين:

وحنَّت قلوصي بعد هدءٍ صبابةٍ ... فيا روعةً ما راع قلبي حنينها
حنَتْ في عقاليها وشبَّ لعينها ... سنى بارقٍ يسري فجُنَّ جنونها
فقلت لها صبراً فكلُّ قرينةٍ ... مفارِقُها لابد يوماً قرينُها
وما برحت حتى ارعوينا لصوتِها ... وحتى انبرى منا معينٌ يعينها
وقلت لها حِنِّي رويداً فإنني ... وإياك مبدي لوعةً سنبينها

وقال الشريف الرضي:

أقول وقد حنت بذي الأثل ناقتي: ... قرى لا ينل منك الحنين المرجّعُ
تحنين إلاَّ أن بي لا بك الهوى ... ولي لا لك اليوم الخليط المودّع
وباتت تشكي تحت رجلي ضمانة ... كلانا إذاً يا ناقُ نِضْوٌ مفجّعُ
أحسّت بنار في ضلوعي فأصبحت ... يخبُ بها حر الغرام ويوضعُ

وقال أبوعبدالله البارع المتوفى سنة ٥٢٤هـ:

دع المطايا تنسّم الجنوبا ... إن لها لنبأً عجيبا
حنينها وما اشتكت لغوبا ... يشهد أن قد فارقت حبيبا
رأتْ بنجد بارقا كذوبا ... أذكرها عهد هوى قريبا
فغادر الشوق لها حنيناً ... يضرم في فؤادها لهيبا
تروم لمَّا استشرفت كثيبا ... كأن بالرمل لها سقوبا
يمسي إذا حنت لها مجيبا ... لو غادر الشوق لنا قلوبا
إذاً لآثرنا لهن النيبا ... إن الغريب يسعد الغريبا

ذم السفر والاغتراب

ذكرنا في فوائد السفر أن كثيراً من الشعراء امتدحوا الأسفار ورحَّبوا بالاغتراب ورأوا فيه فوائد عظيمة، ومصالح كبيرة، وخاصة إذا كان لطلب الرزق واكتساب المعيشة، إلاَّ أننا نجد أن هنالك عدداً من الشعراء شنَّعوا على الغربة، ورفضوا مفارقة الأوطان، والبعد عن الأهل والجيران ورأوا أن في ذلك مذلَّة للإنسان، وعبئاً وهماً وأحزاناً:

إن الغريب ولو يكون ببلدةٍ ... يجبى إليه خراجُها لغريبُ
وأقل ما يلقى الغريب من الأذى ... أن يستذلَّ وقولهُ مكذوبُ

وقال ابن الهبارية:

قالوا أقمتَ وما رُزقت وإنما ... بالسير يكتسب اللبيبُ ويرزقُ
فأجبتهم ما كل سيرٍ نافعٌ ... الحظ ينفعُ لا الرحيل المقلقُ
كم سفرةٍ نفعت وأخرى مثلها ... ضرَّت ويكتسب الحريصُ ويخفقُ
كالبدر يكتسبُ الكمالَ بسيره ... وبه إذا حرم السعادة يمحقُ

وقال الآخر:

وإن اغترابَ المرءِ من غير فاقةٍ ... ولا حاجة يسمو لها لعجيبُ
فحسب الفتى ذلاً وإن أدرك الغنى ... ونال ثراءً أن يقال غريبُ

وانظر إلى الطرافة العجيبة في قول ابن الدهان:

قالوا: اغترب عن بلاد كنت تألفها ... إن ضاق رزقٌ تجد في الأرض منتزحا
قلت: انظروا الريق في الأفواه مختزناً ... عذباً فإن بان عنها صار مطَّرحا

ويقول الآخر:

ويحَ الغريب على الأشواك مضجعهُ ... وخبزهُ من عجين الهم والنصب
يعيشُ عن ربعه بالجسم مغترباً ... وقلبُه وهواه غيرُ مغتربِ
يستقبلُ الليلَ لا تغفو هواجسهُ ... ويوقظ الفجر في جيشٍ من الكربِ
موزعُ الروح إحساساً وعاطفةً ... مقسمُ الفكر في بعدٍ وفي قُرُبِ

وقال الزركلي:

العينُ بعد فراقها الوطنا ... لا ساكناً ألفت ولا سكنا
ليت الذين أحبهم علموا ... وهم هنالك ما لقيتُ هنا
إن الغريبَ معذبٌ أبداً ... إن حل لم ينعمْ وإن ظعنا

وهذا عائض القرني يصيح بالأسفار فيقول:

تخلف عن الأسفار إن كنت عاقلاً ... بصيراً ففي الأسفار عشر مصائب
تحمُّلُ همٍّ واختفاء أحبةٍ ... وإهمالُ أبناءٍ وتعطيل واجبِ
وإتعاب جسم ثم فرقة موطن ... وتضييع مالٍ وانتظار نوائبِ
ووحشة بَيْنٍ واختلاف طبائعٍ ... حكمت بهذا بعد طول التجاربِ

معاناة مسافر

* القصيدة للمؤلف

مضيت مشتاقًا لجو السفر ... لـم أستشـر قلبـي ولا حبـي
أمنيتي أن أنبري سائحًا ... أطوف من شرق إلى غرب
ظننتُ أني سوف أسلوبما ... ألقى من الإسعاد في دربي
ودعت من أهديته مهجتي ... لـم أستمـع للـوم والعتـب
ودعتها لم يثنني حزنها ... أو دمعها المنهل كالغرب
تـرفـع كفيهـا إلـى ربهـا ... امنن بحسن الصبر يا رب
مضيتُ مسرورًا بما نلته ... من فيض ذاك المشرب العذب
ودعتها والفكر يرنو إلى ... أنسٍ مع الإخوان والصحب
فسلَّ قبطان الأسى سيفه ... وقاد جيش الهم للحرب
واستأسروني لم يبالوا بما ... فاديتُ من دمعي ومن رُعبي
وكلُّ حُلْوٍ عاد مرًّا فما ... ألتـذُّ فـي زادٍ ولا شُـرْبِ
والمنظر الخلاب في ناظري ... أراه مثـل القفـر والجـدب
لو حِيْزت الدنيا بأفنانها ... وأُهْدِيتْ للعاشِق الصَّبِّ
فـإنهـا تبـدو لـه علقمًـا ... يُذكي ضرام الهم والكرب
لا يسعد الولهان إلاَّ بما ... يحظى به من روعة القُرب
لو نال من محبوبه نظرة ... فـإنهـا مـن أعظـم الكسـب
إني كرهتُ البعد مهما يكن ... فيـه مـن الغـايـات والإرب
شربتُ في بعدي كؤوس الأسى ... حسبـيَ مـا لاقيتـه حسبـي

وظلَّ تفكيري بمحبوبتي مستولياً مني على لبي
وحين رُمْتُ الوصلَ أضحى الرضا يضيء في الأجواء كالشهب
يممت وجهي نحوها فانتشى فكري وبات الأنس من حِزْبي
طارت همومي حين أبصرتها وأزهر السلوان في دربي

* * *

من أخبار المسافرين (٧)

أشعر الناس

سافر عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير الشاعر الأموي المشهور، سافر إلى بغداد، فاجتمع الناس إليه، فكتبوا شعره وشعر أبيه، وعرضوا عليه الأشعار. فقال بعضهم: هاهُنا شاعر يزعم قوم أنه أشعر الناس طُرّاً، ويزعم غيرهم ضد ذلك ـ يقصدون أباتمام ـ. فقال: أنشدوني من شعره. فأنشدوه:

غَدَتْ تستجيرُالدمعَ خوفَ نَوَى غَدِ ... وعـاد قَتـاداً عنـدهـا كـلُّ مَـرقَـدِ
وأنقذها من غَمرة الموت أنَّهُ ... صُـدودُ فـراقٍ لا صـدودُ تَعَمُّـدِ
فأجرَى لها الإشفاقُ دمعاً مُورَدًّا ... من الدم يجري فوق خد مُوَرَّدِ
هِـيَ البـدرُ يغنيهـا تـودُّدُ وجهِهـا ... إلى كلِّ من لاقتْ وإن لم تَوَدَّدِ

ثم قطع المنشد. فقال له عُمارة: زدنا من هذا. فوصل نشيدَه وقال:

ولكنني لم أحوِ وَفْراً مُجَمَّعا ... ففزْتُ به إلاَّ بَشمْل مُبَدَّدِ
ولم تُعْطني الأيام نوماً مُسَكِّنا ... ألَـذُّ بـه إلاَّ بنـوم مُشَـرَّدِ

فقال عُمارة: لله دَرُّه! لقد تقدم في هذا المعنى على كل من سبقه إليه، على كثرة القول فيه، حتى لقد حَبَّب إليَّ الاغتراب، هِيه ـ يعني زِدْ ـ فأنشده:

وطولُ مُقام المرء في الحيّ مُخْلقٌ ... لـديبـاجتيـه فـاغتـربْ تتجـدَّدِ
فإني رأيتُ الشمسَ زيدت محبَّةً ... إلى الناسِ أنْ ليستْ عليهمْ بسرْمَدِ

فقال عُمارة: كَمُلَ والله، لئن كان الشعر بجودة اللفظ، وحسن المعاني واطراد المراد، واتساق الكلام، فإن صاحبكم هذا أشعر الناس.

المبرّد يحكم بين الشعراء

قال محمد بن عبدالله الكاتب: كنت يوماً عند المبرّد فأنشدنا قول الشاعر:

جسْمي مَعِي غَيْرَ أنَّ الرُّوحَ عنْدَكُمُ ... فَالجِسْمُ في غُرْبَةٍ والرُّوح في وَطَنِ
فَلْيَعْجَبِ النَّاسُ مِنِّي أَنَّ لِي بَدَناً ... لاَ رُوحَ فِيهِ وَلِي رُوحٌ بِلاَ بَدَنِ

ثم قال: ما أظنُّ الشعراء قالوا أحسن من هذا. قلت: ولا قَوْلَ الأخْرَقِ؟ قال: هيه ـ يعني زدْ ـ قلتُ الذي يقولُ:

فارَقْتُكُمْ وَحَبِيتُ بَعْدكُمُ ... مَا هَكَذَا كَانَ الَّذي يَجبُ
فالآن أَلْقَى النَّاسَ مُعْتَذِراً ... من أنْ أعيشَ وأنتُمُ غُيُبُ

قال: ولا هذا. قلتُ: ولا قولَ خالدٍ الكاتب؟

روحَانِ لي رُوحٌ تَضَمَّنَهَا ... بلدٌ وأُخْرَى حازَهَا بَلَدُ
وأظُنُّ غَائِبَتي كَشَاهِدَتِي ... بِمَكَانِهَا تَجِدُ الَّذي أجِدُ

قال: ولا هذا. قلتُ: أنت إذا هويتَ شيئاً ملتْ إليه ولم تعدل إلى غيره، قال: لا ولكنَّه الحقُّ، فأتيتُ ثعلباً ـ من علماء الأدب واللغة ـ فأخبرتُهُ، فقال ثعلبٌ: ألاَ أنشدتَهُ:

غابُوا فصار الجسمُ من بعدهِمْ ... ما تَنْظُرُ العَيْنُ لَهُ فيَّا
بأيِّ وَجْهٍ أَتَلَقَّاهُمُ ... إِذَا رَأَوْنِي بَعْدَهُمْ حَيَّا؟
ياخَجْلَتِي مِنْهُمْ وَمِنْ قَوْلِهِمْ ... مَا ضَرَّكَ الفَقْدُ لَنَا شَيَّا

قال: ثم ذهبت إلى إبراهيم الحربي فأخبرته فقال: ألا أنشدته:

يَاحَيَائِي ممَّن أُحبُّ إِذَا مَا ... قُلْتُ بعدَ الفِرَاقِ إِنِّي حَيِيتُ

لوْ صَدَقْتُ الهَوَى حَبِيباً على الصِّحَّـ ـــةِ لَمَّـا نَـأَى لكُنْـتُ أَمُـوتُ

قال: فرجعت إلى المبرِّد فقال: أستغفر الله إلاَّ هذين البيتين، يعني بيتي إبراهيم الحربي.

السياحة في القرآن

معنى السياحة: كلمة سياحة كلمة عربية معروفة عندالعرب منذ القِدم، وهي تدل على هذا المعنى المتعارف عليه اليوم من المسير في الأرض والتنقل في أرجائها، وهي مأخوذة من ساح الماء، بمعنى جرى على وجه الأرض، وقد تحدث ابن منظور في لسان العرب عن هذه الكلمة فقال: سيح: السيحُ الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، وفي التهذيب: الماء الظاهر على وجه الأرض، وجمعه سيُوح.

وقد ساح يسيح سيحاً وسيحانًا إذا جرى على وجه الأرض، وماءٌ سيحٌ وغيْلٌ إذا جرى على وجه الأرض، وجمع أسياح.

وأساح فلان نهرًا إذا أجراه؛ قال الفرزدق:

وكم للمسلمين أسحتُ بحري بإذن الله من نهر ونهر

وفي حديث الزكاة: «**ما سُقي بالسيح ففيه العُشر**» أي الماء الجاري.

وفي حديث البراء ـ رضي الله عنه ـ في صفة بئر: فلقد أُخرج أحدنا بثوب مخافة الغرق، ثم ساحت ـ أي جرى ماؤها وفاضت ـ.

والسياحة: الذهاب في الأرض للعبادة والترهب؛ وساح في الأرض يسيح سياحة وسيوحاً وسيحاً وسيحاناً أي: ذهب.

وفي الحديث: «**لا سياحة في الإسلام**»أراد بالسياحة مفارقة الأمصار، والذهاب في الأرض، وأصله من سيح الماء الجاري.

قال ابن الأثير: أراد مفارقة الأمصار، وسُكْنى البراري، وترك

شهود الجمعة والجماعات؛ قال: وقيل أراد الذين يسعون في الأرض بالشر والنميمة والإفساد بين النَّاس؛ وقد ساح، ومنه المسيحُ بن مريم عليه السلام في بعض الأقاويل: كان يذهب في الأرض، فأينما أدركه اللَّيل صفَّ قدميه وصلَّى حتى الصباح؛ فإذا كان كذلك فهو مفعول بمعنى فاعل.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ وقال تعالى ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ السائحون والساحات: الصائمون.

قال الزجاج: السائحون في قول أهل التفسير واللغة جميعًا الصائمون، قال: ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض؛ وقيل: إنَّهم الذي يديمون الصيام، وهو ما في الكتب الأول؛ وقيل: إنما قيل للصائم سائح لأنَّ الذي يسيح متعبدًا يسيح ولا زاد معه، إنما يطعم إذا وجد الزاد، والصائم لا يطعم أيضًا فلشبهه به سمي سائحاً.

وسئل ابن عباس وابن مسعود عن السائحين فقال: هم الصائمون [لسان العرب ٢/ ٤٩٢].

السياحة في القرآن:

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن في ثلاثة مواطن، اثنان منها في سورة التوبة، والثالث في سورة التحريم.

أما في سورة التوبة فقد وردت في الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ ومعنى الآية هنا خطاب للمشركين بأن يسيروا في الأرض آمنين خائفين لمدة أربعة أشهر، ثم بعد ذلك إما أن يؤمنوا، وإما أن يخرجوا من الجزيرة، وإما أن يُعْمَل فيهم السيف ويقتلوا؛ لأنَّ الأرض

أصبحت دار سلم وإسلام، وليس فيها للشرك وأهله مكان، مع تنبيههم إلى أمرين:

الأول: أنهم مهما ساروا وتنقلوا في جنبات الأرض فإنهم غير معجزي الله تعالى، وغير مفلتين من قبضته.

والثاني: أنَّ الخزي والذلَّة والصغار هي مآل الكافرين، فالأولى لهم أن يسلكوا طريق العزَّة والإيمان.

وهٰذه الآية تأتي بعد إعلان البراءة من المشركين في يوم الحج الأكبر، وذٰلك في السنة السابقة للسنة التي حجَّ فيها، حيث بعث أبابكر أميرًا على الحج، وأرسل بعده علي بن أبي طالب وبعض الصحابة، وذٰلك في سنة تسع ليقرؤوا على النَّاس آيات البراءة: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ فقرؤوا على النَّاس ذٰلك، وبيَّنوا لهم أنَّ من كان له مع المسلمين عهد مطلق غير محدد بشهر أو سنة مثلاً، أو كان له عهد أقل من أربعة أشهر، أو كان له عهد فوق أربعة أشهر، تبدأ من يوم النَّحر، فإن أسلموا بعدها فهو خير لهم، وإن خرجوا من الجزيرة فلهم ذٰلك، وإن بقوا كافرين فسوف يؤخذون ويقتلون حيثما وجدوا، فلا بقاء لهم في دار الإسلام.

ووردت كلمة السياحة في سورة التوبة أيضًا في الآية الثانية عشرة بعد المائة في قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

ووردت في سورة التحريم بالمعنى نفسه، وذلك في وصف المؤمنات، حيث قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

أقوال المفسرين في معنى السياحة:

اختلف المفسرون اختلافًا كثيرًا في تفسير كلمة السياحة في القرآن الكريم، وهو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، ومن العجيب أنَّ أغلبهم فسروا معنى السائحين والسائحات؛ بالصائمين والصائمات، وهم في ذلك يعتمدون على تفسير عدد من علماء الصحابة بهذاالمعنى، مثل أبي هريرة، وابن عباس، وابن مسعود، وعائشة ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ وقد رُويت بعض الأحاديث عن النَّبي ﷺ لكنه لم يصح منها شيء، مثل قوله: «**سياحة هذه الأمة الصيام**»، وقوله: ﴿السائحون﴾ هم الصائمون.

وقد فسر الكلمة بهذا المعنى عدد من التابعين، وكذلك ساد هذا المعنى عند أغلب المفسرين، مع أنهم أوردوا الاحتمالات الأخرى.

ومن المفسرين من قال بأنَّ المقصود بالسياحة: الجهاد؛ اعتمادًا على ما روي عن النَّبي ﷺ أنَّ رجلاً جاءه فقال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال له: «**سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله**». [أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذَّهبي ٣/ ٧٣]

ومن المفسرين من قال: المراد بالسياحة والسائحين: المهاجرون، ومنهم من قال: طلبة العلم، ومنهم من قال: بل هي بمعناها المفهوم من اللَّفظ مباشرة، وهم السائرون في الكون، المتأملون في خلق الله، المتفكرون في دلائل عظمته وتوحيده.

الرأي المختار:

ليس لنا أن نعترض أو نخالف كلام الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم، في تفسيرهم للسياحة بمعنى الصوم، ولكن الذي يفهم من قولهم هذا أنهم يذكرون الصوم على أنه نوع من أنواع السياحة أو بديل لها إذا لم تتيسر؛ لأنَّ بين الصوم والسياحة وجوه شبهٍ كثيرة سنذكرها لاحقًا، فهم إذًا لا يريدون قصر معنى السياحة على الصوم؛ لأنَّ ذٰلك لا يتفق ، ولماذا يصرف اللَّفظ عن حقيقته دون سبب معقول من إرادة المعنى الأصلي، فالظاهر أنَّ القرآن يريد بالسياحة معناها العام والله تعالى أعلم وأحكم. وذٰلك لأمور عدة؛ منها:

استخدام القرآن نفسه للكلمة بمعنى السير في الأرض بحرية وأمان، فقوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لا يمكن بحال من الأحوال أن يقال إنَّها هنا بمعنى الصيام فما الذي جعلها هنا بمعنى السير وهناك بمعنى الصيام، ثمَّ إنَّ الصوم ورد الحديث عنه صراحة في آيات كثيرة، ولو كان مقصودًا هنا لنصَّ عليه مباشرة، والله أعلم.

ثمَّ إنَّ المعنى اللغوي للكلمة يوحي بالمعنى الاصطلاحي لها، فهي ساح الماء، أو ساح النهر؛ أي: سال ومشى في الأرض، والمعنى الاصطلاحي مأخوذ من هذا المعنى، وليس بين الصيام والمعنى اللغوي للكملة مناسبة، إلاَّ عن طريق التشبيه والمجاز كما سيأتي.

ثم إنَّ أغلب ا لمفسرين إن لم يكونوا جميعًا قد ذكروا الاحتمالات الأخرى للكلمة، وأهمها السير في الأرض لأغراض سامية، ومن أولـئك:

الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ فهو بعد أن ذكر تفسير الكلمة بالصوم

قال: «فهـٰذا أصح الأقوال وأشهرها، وجاء ما يدل على أنَّ السياحة الجهاد».

وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال عبدالرَّحمن بن زيد ابن أسلم: هم المهاجرون. [تفسير بن كثير ٤/ ١١٢].

وقال الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن، وقوله ﴿السائحون﴾ أي: الصائمون، وقال: ﴿سائحات﴾: أي صائمات، ثم قال: وقيل: السائحون هم الذين يتحرون ما اقتضاه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ بل لقد ذكر السياحة بهذا المعنى في موطن آخر، حيث يقول: وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ فقد قيل: حث على السياحة في الأرض بالجسم، وقيل: حث على إجالة الفكر ومراعاة أحواله. [مفردات القرآن ص ٤٣١ ـ ٤٣٣].

وقال الزمخشري: ﴿والسائحون﴾: الصائمون، شبهوا بذوي السياحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم، وقيل: هم طلبة العلم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه. [٢/ ٢١٦].

وقال الشيخ أبوبكر الجزائري في تفسير: ﴿السائحون﴾: أي: الصائمون، والخارجون في سبيل الله لطلب علم أو تعليمه أو جهاد لأعدائه.

فهـٰذه الأقوال بمجموعها قد ذكرت المعاني الأخرى لكلمة السياحة، ولم تقصرها على الصيام، لذٰلك فإنَّ الذي تطمئن إليه النفس أنَّ المراد بالسائحين والسائحات في القرآن الكريم هو المعنى اللغوي الحقيقي للكلمة، وهو يضفي معنى جديدًا في الآية الواردة في وصف المؤمنين والمؤمنات في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾؛

لأنَّ الصائمين يدخلون ضمنًا في وصف العبَّاد والحامدين، ومن فسرها بالصيام فلعله يقصد بذٰلك أنَّ الصيام هو نوع من أنواع السياحة، وقد ألمح الزمخشري إلى ذٰلك بقوله: الصائمون شبهوا بذوي السياحة في الأرض، أي أنَّ الكلمة لا تعني الصائمين حقيقة، وإنما على سبيل المجاز والتشبيه.

وقد ذكرنا أنَّ بين الصيام والسياحة وجوه شبه كثيرة، ومن ذٰلك التشابه في المشقة. والتشابه في ترقب قطع المسافة، والظفر بالمطلوب، والتشابه في الحرمان من كثير من الشهوات، وأهم من ذٰلك كله التشابه بينهما في أنَّ كلاً منهما سفر؛ وأمارات الوحدانية، مما يرتقي بالإنسان في مدارج التقوى والخشوع والخضوع والإيمان والتسليم، فكذٰلك الصوم إنه سفر روحي إلى أفنان الجلال والكمال، إنه تخفف من الأحمال الأرضية، والأثقال الدنيوية، والشهوات المادية، إنَّه هجرة بالروح في ملكوت الواحد الأحد، وتنقل بالوجدان في مراتع الطاعة ومغاني العبادة، ومراقي الكمال، إنَّه غياب عن الملهيات والمغريات والملذات، وهجر لها جميعًا، طمعًا في القرب من الحبيب المنتظر، وأملاً في الفوز باللقاء المرتقب في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، لذٰلك لا عجب من أولـٰئك العظماء العلماء الأولياء أن يفسروا السياحة بالصيام، نظرًا منهم إلى هـٰذا الترابط الوثيق، والسر الدقيق، فلا شكَّ أنَّ الصوم سياحة؛ وأي سياحة!!

تفسير السياحة بالمعنى الحقيقي:

واختيارنا لتفسير كلمة السياحة بمعناها الحقيقي، وهو السير في الأرض، ورد في كلام عددٍ من العلماء والمفسرين قديمًا وحديثًا ما يؤيده

وينصره، بل إنَّ بعض العلماء أنكر تفسير السائحين بالصائمين ، ورأى عدم الضرورة للجوء إلى ذٰلك لاعتبارات كثيرة سنذكرها في حينها.

ومن أبرز العلماء الذين اختاروا تفسير السائحين بمعناها الحقيقي المتعارف عليه ما يلي:

١ـ الإمام الطاهر بن عاشور في تفسيره:

حيث قال: ﴿والسائحون﴾: مشتق من السياحة، وهي السير في الأرض، والمراد به سير خاص محمود شرعًا، وهو السفر الذي فيه قربة لله وامتثال لأمره، مثل سفر الهجرة من دار الكفر، أو السفر للحج، أو السفر للجهاد. [تفسيرالتحرير والتنوير ١٠/ ٤١].

٢ـ الإمام عبدالرّحمن بن ناصر السعدي:

يقول: ﴿السائحون﴾: فسرت السياحة بالصيام أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أنَّ المراد بالسياحة، السفر في القربات كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب ونحو ذٰلك. [تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٣٠٤].

٣ـ العلامة محمَّد جمال الدين القاسمي:

يقول: «ذهب كثير من المفسرين إلى أنَّ المراد من سائحات: صائمات أو مهاجرات، وقد قدمنا في سورة التوبة في تفسير السائحون: أنَّ الحق فيه هو المعنى الحقيقي لعدم ما يمنع منه، ولا يصار إلى المجاز إلاَّ لمانع. [تفسيرالقاسمي ٩/ ٢٢٤].

وقد أورد القاسمي في تفسيره لـ﴿سائحات﴾ كلامًا نسبه لأحد المحققين، وفيه رد على تفسير السائحين بالصائمين، حيث يقول: ولذا

قال بعض المحققين: إنَّه يستفاد من هذه الآية مشروعية السياحة للنساء، كما هي كذلك للرجال، فمعنى قوله تعالى: ﴿سائحات﴾ مسافرات سواء كان السفر لهجرة أو اعتبار أو اطلاع على آثار الأمم البائدة، وقد خصصت السنة عموم سفرهن بكونه مع زوج أو محرم لهنَّ، حفظًا لهن، ثم قال: كأنَّ الذي دعا البعض لتفسير السائحات بالصائمات، أو بخصوص المهاجرات، تصوره أنَّ السياحة في البلاد لا تناسب طبيعة النساء المأمورات بالحجاب، وكأنه يفهم من الحجاب أنه الحبس المؤبد، أو كأنَّ الهواء نعمة مخصوصة بغير النساء، أو كأنهن لم يخلقن إلاَّ لسجون البيوت التي ربما تكون أنكى من أعمق سجون الجناة، أو كأنهن لم يخلق لهنَّ من هذه الدنيا الرحيبة سوى بيت واحد!!

وأما قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، فكأنَّه مخصوص بالرجل، أو كأنَّ الآيات الآمرة بالسير للنظر والعبرة والإحاطة والخبرة نازلة من السماء ليس للأمة جميعًا، بل للنصف منها، وهو الرجال، وحاشا أن يكون ذٰلك، أين هديه في سفره مع أزواجه؟ فقد كان يقرع بينهن، فأيتهن خرجت قرعتها خرج بها، وسافرت معه، وقد صار ذٰلك شريعة معمولاً بها في الدين، وهٰكذا صحَّ أنَّه لما قدم بصفية أردفها خلفه وهو مع الركب. [محاسن التأويل ١٦/ ٢٢٤].

٤ـ الأستاذ محمَّد رشيد رضا:

يقول السائحون في الأرض لغرض صحيح من علم أو عمل كالجهاد في سبيل الله، وروي عن عطاء: وللهجرة حيث تشرع الهجرة.

وروي عن عبدالرَّحمن بن زيد قال: ﴿السائحون﴾ هم المهاجرون، ليس في أمة محمَّد سياحة إلاَّ الهجرة، أو لطلب العلم النافع

للسائح في دينه أو دنياه، أو النافع لقومه وأمته.

وروي عن عكرمة وخصه بعضهم بطلب الحديث؛ لأنَّهم كانوا يسافرون من مصر إلى آخر للرواية، أو للنظر في خلق الله وأحوال الشعوب والأمم للاعتبار والاستبصار ومعرفة سنن الله تعالى وحكمه وآياته، وهـٰذا ما تدل عليه الآيات المتعددة في الحث على السير في الأرض. [تفسير المنار ١١/ ٢٥].

٥ـ الأستاذ سيد قطب:

يقول: ﴿السائحون﴾ وتختلف الروايات فيهم، فمنها ما يقول: إنَّهم المهاجرون، ومنها ما يقول: إنَّهم المجاهدون، ومنها ما يقول: إنَّهم المتنقلون في طلب العلم، ومنهم من يقول: إنَّهم الصائمون، ونحن نميل إلى اعتبارهم المتفكرين في خلق الله وسننه، ممن قيل في أمثالهم في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ فهـٰذه الصفة أليق هنا بالجو بعد التوبة والعبادة والحمد، فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر في ملكوت الله على هذا النحو الذي ينتهي بالإنابة إلى الله، وإدراك حكمته في خلقه، وإدراك الحق الذي يقوم عليه الخلق، لا للاكتفاء بهـٰذا الإدراك وإنفاق العمر في مجرد التأمل والاعتبار، ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذٰلك على أساس هذا الإدراك. [في ظلال القرآن ٣/ ٧١٩].

ونحن هنا لم نورد كل هذه الآراء لمجرد التأكيد على التفسير الذي اخترناه، فهو ليس بحاجة إلى كل هذا، ولكن حرصت على إيراد أقوال المفسرين لما في كثير منها من فائدة وطرافة.

من لطائف المفسرين في السياحة

١ ـ القاسمي:

لقد أتى بعض المفسرين في هٰذا المعنى بفوائد كثيرة، ولطائف مثيرة، ومن أولٰئك الإمام القاسمي، حيث أورد كلامًا جميلاً نسبه لأحد المحققين، فيقول: «وقد رأيت لبعض المحققين مقالة في تأييده ـ أي في تأييد المعنى الحقيقي للسياحة ـ يجدر بالمحقق أن يقف عليها، وهاك خلاصتها:

قال: الكتاب الحكمي يأمر الإنسان كثيرًا بأن يضحي قسمًا من حياته في السياحة والتسيار لأجل اكتشاف الآثار، والوقوف على أخبار الأمم البائدة، ليكون ذٰلك مثال عظة واعتبار، يضرب على أدمغة الجامدين بيد من حديد، ولا أريد أن أحشر للقارىء تلك الآيات، فإنَّ ذٰلك يؤدي إلى التطويل، بل أريد أن أجتزئ منها بما يكفل ثبوت الدعوى، وذٰلك في قوله تعالى: ﴿السائحون﴾، ولم يقع لفظ سائحون في القرآن الكريم إلاَّ هذه المرة الفذة، ومع ذٰلك فقد تغلب عليها أهل التفسير، فمنهم من قال: هم الصائمون، ومنهم من قال غيره، والصحيح فيها، هٰذه المادة تشعر بالانتشار، يقال: ساح الماء أي جرى وانتشر، والسيح أيضًا: الماء الجاري الذاهب بالأرض، ويطلق السائح على معنى يضاد الجامد، وهو المائع المسفوح، لأنَّه بانمياعه ينتشر في وعائه، وقد عهدنا بألفاظ القرآن أنها يجب حملها على ظواهرها وعلى معانيها الحقيقية، اللَّهم ما لم يمنع مانع عقلي، ولا مانع هنا من إرادة الحقيقة،

وعليه فيجب حمل لفظ السائحون على معناه الظاهر الحقيقي، وهو السائرون الذاهبون في الديار، لأجل الوقوف على الآثار، توصلاً للعظة بها والاعتبار ولغير ذلك من الفوائد التي عرفها التاريخ، وكذلك عهدنا بالمعنى المجازي أنه لا تجوز إرادته إلاَّ عند قيام القرينة على منع المعنى الحقيقي، في حال أنَّ الأمر هنا بالعكس، لكثرة القرائن التي تطالب بإرادة المعنى الحقيقي، دون المجازي، وذلك مثل آية ﴿سِيرُواْ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ ﴿فَسِيرُواْ﴾، ﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ﴾، ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهذه الآيات هي قرائن نيِّرة تؤذن بأنَّ السيح معناه السير، فإنَّها وإن تكن من مادة أخرى، إلاَّ أنَّ معناها يلاقي معنى السيح، على أننا لا نعدم قرينة على ذلك من المادة نفسها، وذلك كآية: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فكلمة ﴿سيحوا﴾ هنا تفسر ﴿السائحون﴾، وهم يقولون: خير ما فسَّرته بالوارد، وبالجملة، فصرف هذا اللَّفظ عن ظاهره تكسيل للأمة، وتدبير على فتور همتها، وضعف نشاطها، وحيلولة بينها وبين سعادة الإحاطة بآثار الأمم البائدة، ورؤية عمران المسكونة، الأمر الذي هو الآن الضالة المنشودة عند الغربيين، وفيه ستر لنور الكتاب الذي هو أول مرشد للعالم، ألا يألو جهدًا في السير والسياحة، وأن ينقب في البلاد أي تنقيب، وسيأتي تتمة لهذا في تفسير آية ﴿سائحات﴾ في سورة التحريم إن شاء الله. [محاسن التفسير ٨/ ٣٣٦].

وإليك كلام القاسمي الذي يقصده في سورة التحريم، وقد عزاه أيضًا إلى بعض المحققين، يقول: وبالجملة فالسياحة في القرآن الكريم ليست ترمي إلى غاية واحدة، بل إلى عدَّة غايات وفوائد:

أولاً: إدراك المعقولات، والإحاطة بعظات المسموعات، كما

نتعلمه من آية: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

ثانيًا: الوقوف على أحوال الأمم البائدة، وما لهم من جليل الآثار الداعية للاعتبار، كما نتعلمه من قول الكتاب الحكيم: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

ثالثًا: البحث والتنقيب في أنحاء المسكونة بالنظر في الكون، وفي الفنون، للوصول إلى معرفة مبدع هذا العالم تعالى، كما يحثنا الكتاب الكريم على تسنم هذا المرتقى العالي بقوله: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾.

رابعًا: الحصول على ربح التجارة، كما نتعلم ذٰلك من قول الكتاب الكريم: ﴿ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾.

فهل ترى هذه الفوائد ذات البال مختصة بالرَّجل دون الأنثى، حتى يكون السير خاصًا بالرَّجل؟ كلا! وقد امتنَّ الله على أهل سبأ بما حكاه بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ وامتنَّ على جميع عباده بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾، فهل يجوز أن نذهب إلى أنَّ هذه المنن هي من مخصوصات الرجال دون النساء؟ كلا! بل الكل مغمور بمحاسن هذه المنَّات، كما هو مقتضى عموم الآيات. [محاسن التأويل ١٦/ ٢٢٥].

٢ـ الإمام محمَّد رشيد رضا:

وهـٰذه فائدة أخرى من روائع العلماء في السياحة والسفر، وهي للإمام محمَّد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ ذكرها في تفسيره، وذٰلك في نهاية سورة الأنعام، حين ذكر في ختامها الأصول العلمية في السورة، وهي واحد وعشرون أصلاً، والذي يهمنا منها، الأصل الثالث عشر والرابع عشر، فاستمع إلى ما قال، ويا لروعة ما قال:

الأصل الثالث عشر: السياحة والسير في الأرض، فاتنا أن نذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنه يدل بعمومه على وجوب السياحة، وإن جعل الزمخشري والبيضاوي الأمر فيه للإباحة، وإنما يجب بالقصد المنصوص في الآيات كما يأتي تفصيله في الأصل التالي لهـٰذا.

نعم إنَّ الخطاب في هذه الآية للمشركين المكذبين، وإنَّ الغرض منه الدلالة على مصداق الآية التي قبلها الناطقة بما حل من عقاب الله بالساخرين من الرسل والمستهزئين بهم من قبلهم، ولكن العبرة بعموم اللَّفظ دون السبب الخاص لنزوله والاحتجاج به.

وقد تكرر الأمر في الكتاب العزيز بالسير في الأرض والحث عليه، فمنه ماجاء في خطاب المشركين كآية الأنعام، ومثلها في النحل والنمل، والعنكبوت، ويوسف وفاطر، وغافر، ومنه ما جاء في خطاب المؤمنين كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ ومثلها في سورة الروم، ومنه ما يحتمل العموم والإطلاق، ويؤيد ذٰلك وصف المؤمنين والمؤمنات في القرآن بالسائحين، والسائحات، في سورتي التوبة والتحريم، وإن فسَّرها بعضهم فيهما بالصيام وهو تأويل بعيد، وكذا تخصيص سهم من مال

الزكاة لأبناء السبيل، وهم الرحالون الذين ينقطعون بالأسفار عن أوطانهم ومعاهد كسبهم حتى كأنَّ السبيل لكل منهم أبوه وأمه، لأنَّه لا يكاد يفارقه، وانظر أحكام السفر وفوائده في الأصل التالي:

الأصل الرابع عشر: النظر في أحوال الأمم وعواقب الأقوام التي كذبت الرسل في أثناء السير في أرضها، ورؤية آثارها، وسماع أخبارها.

وهٰذا النظر والاعتبار لا خلاف بين العلماء في وجوبه شرعًا، وكونه مطلوبًا لذاته، ومقصودًا من السياحة والسير في الأرض، وإنما اختلفوا في السفر نفسه إذا لم يقصد به ذٰلك.

فذهب بعضهم إلى إباحته كماتقدم، وبعضهم إلى وجوبه، والحق أنَّ القرآن قد بيَّن للسفر فوائدأخرى علل بها الأمر به والحث عليه، وأنَّ الأصل فيه الإباحة، وقد يكون واجبًا إذا كان لأمر واجب كالحج والجهاد الشرعي، والنظر والاعتبار الذي هو موضوع هذا الأصل من أصول فوائد سورة الأنعام، وقد يكون مندوبًا إذا كان لطلب التوسع في العلوم، وأما العلم الذي هو فرض عين فالسفر لطلبه إذا تعذر تحصيله بغيره يكون فرض عين، والسفر لطلب العلم الذي هو فرض كفاية، ومنه الفنون والصناعات التي يتوقف عليها حفظ البلاد وشؤون المعاش والصحة، تأثم الأمة كلها إذا لم يقم به من تحصل بهم كفاية الأمة والبلاد، وقد يكون محرَّمًا أو مكروهًا إذا قصد به عمل محرَّم أو مكروه، كالذين يسافرون لأجل الفسق.

وأجمع الآيات لتكميل النفس بالسفر من طريق الدراية المستفادة بالنظر والاكتشاف والاعتبار وطريق الرواية والتلقي عن أهل العلم والبصيرة، والاختبار قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

وقد نبهت آية آل عمران إلى أصل من أعظم أصول العلم التي تستفاد من السياحة واختبار أحوال الأمم، وهو العلم بسنن الله في شؤون البشر العامة المعبر عنه في هٰذا العصر بعلم الاجتماع، وهي قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

وقد نبهت آية العنكبوت إلى أصل آخر، وهو البحث فيما يتعلَّق ببدء الخلق من الآثار ليكون من فوائده قياس النشأة الآخرة على النشأة الأولى، وذٰلك قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾.

ونبهت الآية الأولى من آيتي سورة الروم إلى النظر في أحوال الأمم وآثارها الخاصة بالقوة الحربية وموارد الثروة الزراعية وسائر شؤون العمران، وكيف كان عاقبة ذٰلك وأسبابه، ليعلم أنَّ القوَّة والثروة لا تحول دون هلاك الأمة إذا استحقت ذٰلك بالظلم وكفر النعمة، وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ وهي خاصة بمسألة القوة، ولكنها جاءت بعد بيان سنة الله في الأوَّلين، وأنَّ سنن الله لا تبديل لها ولا تحويل، فهي ترشد بموقعها إلى البحث عن تلك السنن.

وفي معناها آيتا سورة غافر، وهما قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ فهما ترشدان إلى الاعتبار بقوة الأمم وآثارها في الأرض، فتزيد على ما قبلها الإرشاد إلى الاستفادة من صناعات الأوَّلين وطرق كسبهم والاعتبار بكونها لم تكن واقية لهم مع قوتهم الحربية من عذاب الله إياهم بذنوبهم وكفرهم.

وقد ذكرنا هذه الأمهات من أصول علوم الاجتماع والعمران على سبيل الاستطراد اختصارًا، وهو كاف لتذكير مسلمي هذا العصر بأنَّ القرآن قد أرشد البشر إلى جميع وسائل سعادة الأمم والأفراد في أمري المعاش والمعاد. [تفسير المنار ٨/ ٢٩٠].

السياحة في السنة:

وردت كلمة السياحة في بعض الأحاديث النبوية الشريفة، وما ورد منها فإنما أريد به المعنى الحقيقي لكلمة السياحة، وهذا يؤيد رأي من قال بأنَّ المقصود بالسياحة في القرآن الكريم معناها الحقيقي، ومما جاء من أحاديث نبوية عن المصطفى، وفيه كلمة السياحة ما يلي:

جاء في صحيح البخاري في باب الهجرة، فلما ابتلي المسلمون خرج أبوبكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة حتى بلغ بَرْكَ الغِمَاد لقِيَه ابن الدُّغُنَّة، وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبابكر؟ فقال: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. [البخاري ٣٩٠٥]

قال ابن حجر: حقيقة السياحة أن لا يقصد موضعًا بعينه يستقر فيه. [الفتح: ٧/ ٢٧٤].

وفي حديث أبي أمامة أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي بالسياحة قال النَّبي: «**إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عزَّ وجل**».

قال صاحب بذل المجهود في حل أبي داود: قال: يا رسول الله: ائذن لي بالسياحة، أراد مفارقة الأمصار، وسكنى البراري، وترك الجمعة والجماعات، قال النَّبي ﷺ: «**إنَّ سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عزَّ وجل**»، وإنما لم يأذن له لما فيه ترك تعلم العلم وترك الجهاد، وإنما دله على الجهاد؛ لأنَّ الجهاد في ذٰلك الزمان، ـ وكذا في أكثر الأزمان ـ ذروة سنام الإسلام وفيه كبتُ الكفر والضلال. [بذل المجهود ١١/ ٣٨٣]

وفي عون المعبود شرح سنن أبي داود: كأنَّ هذا السائل استأذن النَّبي في الذهاب قهرًا لنفسه بمفارقة المألوفات والمباحات واللذات، وترك الجمعة والجماعات، وتعليم العلم ونحوه، فرد عليه ذٰلك كما رد على عثمان بن مظعون في التبتل [عون المعبود ٧/ ١٣٣].

وفي الترمذي عن ابن عمر قال: كان النَّبي ﷺ إذا قفل من غزوة أو حج أو عمرة، فعلا فدفداً من الأرض أو شرفاً كبَّر ثلاثًا ثم قال: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون سائحون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده [الترمذي كتاب الحج: ٩٥٠]

قال صاحب تحفة الأحوذي: ﴿سائحون﴾ أي سائرون لمطلوبنا ودائرون لمحبوبنا قاله القاري في المرقاة. [تحفة الأحوذي ٣/ ٦٢١].

وفي سنن النسائي في حديث طويل: فلما بعث الله النَّبي ﷺ لم يبق منهم إلاَّ قليلٌ، فانحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته، وصاحب الدير من ديره، فآمنوا به. [سنن النسائي ٨/ ٢٣٣].

قيل: السياحة هنا هي الضرب في الأرض تعبدًا لله، وهذا كان فيمن كان قبلنا كما هو ظاهر الحديث، وقد نهينا عن التعبد بمثل هذا لما فيه من تضييع الجماعات ونحوها.

من نفائس أقوال العلماء في السياحة والسفر

الإمام الغزالي رحمه الله:

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ في كتابه إحياء علوم الدين في أول حديثه عن السفر وآدابه: الحمدلله الذي فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر، واستخلص همهم لمشاهدة عجائب صنعه في الحضر و السفر، فأصبحوا راضين بمجاري القدر، منزهين قلوبهم عن التلفت إلى متنزهات البصر إلاَّ على سبيل الاعتبار بما يسبح في مسارح النظر، ومجاري الفكر، فاستوى عندهم البر والبحر، والسهل والوعر، والبدو والحضر، والصلاة على محمَّد سيد البشر، وعلى آله وصحبه المقتفين لآثاره في الأخلاق والسير وسلم كثيراً.

أما بعد:

فإنَّ السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه، والسفر سفران:

سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحاري والفلوات.

وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات.

وأشرف السفرين الباطن، فإنَّ الواقف على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد، لازم درجة القصور، وقانع بمرتبة النقص، ومستبدل بمتسع فضاءِ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ظلمة السجن، وضيق الحبس، ولقد صدق القائل:

ولم أر في عيوب النَّاس عيبًا كنقص القادرين على التمام

إلاَّ أنَّ هذا السفر لما كان مقتحمه في خطب خطير، لم يستغن فيه عن دليل وخفير، فاقتضى غموض السبيل، وفقد الخفير والدليل، وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل، اندرست مسالكه، فانقطع فيه الرفاق، وخلا عن الطائفين متنزهات الأنفس والملكوت والآفاق وإليه دعا الله سبحانه بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وعلى القعود عن هذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ وبقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ فمن يسَّر له هذا السفر: «أي سفر الفكر والقلب» لم يزل في سيره متنزهًا في جنة عرضها السموات والأرض، لا يضر فيه التزاحم والتوارد، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه، وتتضاعف ثمراته وفوائده؛ فغنائمه دائمة غير ممنوعة، وثمراته متزايدة غير مقطوعة إلاَّ إذا بدا للمسافر فترة في سفره، ووقفة في حركته فإنَّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، وإذا زاغوا أزاغ الله قلوبهم، وما الله بظلاَّم للعبيد، ولكنهم يظلمون أنفسهم، ومن لم يؤهل للجولان في هذا الميدان، والتطواف في متنزهات هذا البستان، ربما سافر بدنه في مدة مديدة فراسخ معدودة مغتنمًا بها تجارة للدنيا أو ذخيرة للآخرة، وكان له في سفره شروط وآداب، إن أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان، وإن واظب عليها لم يخل سفره من فوائد تلحقه بعمال الآخرة. وإنما السفر هو الذي يسفر عن أخلاق الرجال، وبه يخرج الله الخبء في السموات والأرض.

وإنما سمي السفر سفرًا لأنه يسفر عن الأخلاق، ولذلك قال عمر ـ رضي الله عنه ـ للذي زكى عنده بعض الشهود: هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم أخلاقه؟ فقال: لا، فقال: ما أراك تعرفه، وكان بشر يقول: يا معشر القرَّاء سيحوا تطيبوا فإنَّ الماء إذا ساح طاب، وإذا طال مقامه في موضع تغير.

وبالجملة فإنَّ النفس في الوطن مع مواتاة الأسباب لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة، فإذا حملت وعثاء السفر وصرفت عن مألوفاتها المعتادة، وامتحنت بمشاق الغربة، انكشفت غوائلها، ووقع الوقوف على عيوبها، فيمكن الاشتغال بعلاجها.

وأما آيات الله في أرضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر، ففيها قطع متجاورات، وفيها الجبال والبراري والبحار، وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيء منها إلاَّ وهو شاهد لله بالوحدانية ومسبح له، وأما الجاحدون والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فإنهم لا يبصرون ولا يسمعون لأنَّهم عن السمع معزولون وعن آيات ربهم محجوبون: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ وما أريد بالسمع الظاهر فإنَّ الذين أريدوا به ما كانوا معزولين عنه، وإنما أريد به السمع الباطن، ولا يدرك بالسمع الظاهر إلاَّ الأصوات، ويشارك الإنسان فيه سائر الحيوانات، فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذي هو نطق وراء نطق المقال، وما من ذرَّة في السموات والأرض إلاَّ ولها أنواع شاهدات لله تعالى بالوحدانية هي توحيدها، وأنواع شاهدات لصانعها بالتقدّس هي تسبيحها ولكن لا يفقهون تسبيحها، لأنَّهم لم يسافروا من مضيق سمع

الظاهر إلى فضاء سمع الباطن، ومن ركاكة لسان المقال إلى فصاحة لسان الحال، ومن يسافر ليستقرئ هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلـهية على صفحات الجمادات لم يطل سفره بالبدن، بل يستفز في موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرَّات، فماله وللتردد في الفلوات ، وله غنية في ملكوت السموات؟ فالشمس والقمر والنجوم بأمره مسخرات، وهي إلى أبصار ذوي البصائر مسافرات في الشهر والسنة مرات، بل هي دائبة في الحركة على توالي الأوقات.

وقد قال بعض السلف: إنَّ الله تعالى قد وكلَّ بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطى كل واحد على قدر نيته، فمن كانت نيته الدنيا أعطي منها ونقص من آخرته أضعافه؛ وفرَّق عليه همه وكثر بالحرص والرغبة شغله، ومن كانت نيته الآخرة أعطي من البصيرة والحكمة والفطنة وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته، وجمع له همه، ودعت له الملائكة، واستغفرت له.

ثم ذكر الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ آدابًا للمسافر، ومنها:

الأول: أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة اللازمة لمن تلزمه نفقته، وبرد الودائع إن كانت عنده، ولا يأخذ لزاده إلاَّ الحلال الطيب، وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه.

قال ابن عمر ـ رضي اللهعنهما ـ من كرم الرَّجل طيب زاده في سفره، ولا بد في السفر من طيب الكلام، وإطعام الطعام، وإظهار مكارم الأخلاق في السفر، فإنَّه يخرج خبايا الباطن، ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر، وقد يصلح في الحضر من لا يصلح في السفر؛

ولذلك قيل: إذا أثنى على الرَّجل معاملوه في الحضر ورفقاؤه في السفر فلا تشكوا في صلاحه.

والسفر من أسباب الضجر، ومن أحسن خلقه في الضجر فهو الحسن الخلق، وإلاَّ فعند مساعدة الأمور على وفق الغرض قلما يظهر سوء الخلق.

وقد قيل: ثلاثة لا يلامون على الضجر:

الصائم والمريض والمسافر، وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكاري، ومعاونة الرفقة بكل ممكن، والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلاَّ بالإعانة بمركوب أو زاد أو توقف لأجله، وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ومطايبة في بعض الأوقات من غير فحش ولا معصية، ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه.

الثاني: أن يختار رفيقًا فلا يخرج وحده، فالرفيق ثم الطريق، وليكن رفيقه ممن يعينه على الدِّين فيذكره إذا نسي، ويعينه ويساعده إذا ذكر، فإنَّ المرء على دين خليله، ولا يعرف الرَّجل إلاَّ برفيقه، وقد نهى ﷺ عن أن يسافر الرَّجل وحده، وقال: «**الثلاثة نفر، وقال أيضًا: إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمروا أحدكم**»، وكانوا يفعلون ذلك ويقولون: هٰذا أميرنا أمره رسول الله ﷺ.

وليؤمروا أحسنهم أخلاقًا، وأرفقهم بالأصحاب، وأسرعهم إلى الإيثار وطلب الموافقة، وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطريق، ومصالح السفر، ولا نظام إلاَّ في الوحدة، ولا فساد إلاَّ في الكثرة، وإنما انتظم أمر العالم لأنَّ مدبر الكل واحد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ومهما كان المدبر واحدًا انتظم أمر التدبير،

وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور في الحضر والسفر، إلاَّ أنَّ مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام كأمير البلد، وأمير خاص، كرب الدار، وأما السفر فلا يتعيَّن له أمير إلاَّ بالتأمير، فلهـٰذا وجب التأمير ليجتمع شتات الآراء.

ثم على الأمير أن لا ينظر إلاَّ لمصلحة القوم، وأن يجعل نفسه وقاية لهم، كما نقل عن عبدالله المروزي أنه صحبه أبوعلي الرباطي فقال: على أن تكون أنت الأمير، أو أنا، فقال: بل أنت، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي علي على ظهره فأمطرت السماء ذات ليلة فقام عبدالله طول اللَّيل على رأس رفيقه وفي يده كساء يمنع عنه المطر، فكلما قال له عبدالله: لا تفعل، يقول: ألم تقل إنَّ الإمارة مسلمة لي؟ فلا تتحكم علي ولا ترجع عن قولك، حتى قال أبوعلي، وددتُ أني مت ولم أقل له أنت الأمير، فهـٰكذا ينبغي أن يكون الأمير.

الثالث: أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء، وليدع عندالوداع بدعاء رسول الله ﷺ.

قال بعضهم: صحبت عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ من مكة إلى المدينة حرسها الله، فلما أردت أن أفارقه شيَّعني، . وقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قال لقمان إنَّ الله تعالى إذا استودع شيئًا حفظه، وإني أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك. [إحياء علوم الدِّين ٢/ ٢٣٠]

وصايا للسُّيَّاح

الإجازة هي الوقت الذي يحلو فيه السفر، وتعذب فيه الرحلات ويجمل فيه المسير، وتلذ فيه السياحة، ولقد سبق لنا الحديث عن السفر، وبيان حاجة المرء إلى الترويح، ورغبة الإنسان في الترفيه، وسبق التذكير بخطورة السفر إلى البلدان الكافرة، أو الدول السافرة، وأنَّ الأهل والأبناء، والبنات أمانة عظيمة يجب المحافظة عليهم مما يخل بدينهم، ويشوش على أذهانهم، ويفسد أخلاقهم، أما السفر المحتشم، والرحلات المؤمنة الآمنة التي تروح عن النفس بما لا يضر دينها، وتبهج القلب بما لا يبغض خالقه، فهي أمر مطلوب، وعمل محمود.

ولكنني أحببْتُ في هذه العجالة أن أذكِّر نفسي وإخواني في الحل والترحال، والمكوث والانتقال ببعض الفوائد النافعة، والوصايا الماتعة، واللفتات الرائعة، إنها بعض الفوائد التي يجب أن يستفيدها المسافر في سفره، والمرتحل من رحلته.

الوصية الأولى: دعاء السفر:

لا تنس دعاء السفر، فهو دعاء عظيم، وحديث جميل، ينزل على القلب بردًا وسلامًا، ويضفي على النفس طمأنينة وهناء... إنه من كلام المصطفى ﷺ الذي يبهر النفس ببلاغته، ويطرب القلوب بروعته، إنه من الموجز المعجز، فهو على قصر ألفاظه، وقلة كلماته، جمع كل ما يهم المرء في دينه ودنياه، فهو دعاء بكل أبواب الحفظ والسعادة، واستعاذة من كل أسباب الشر والإخافة، وفيه من تسليم لأمر الله، والتوكل عليه،

والتفويض والانطراح على أعتابه، ما يجعل المرء يمضي في سياحته، وقد شعر بالبرد والسلام يخيم على قلبه، ويتربع في وجدانه.

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبَّر ثلاثًا، ثم قال: «**سبحان الَّذي سخَّر لنا هذا وما كنَّا له مقرنين، وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون، اللَّهمَّ إنَّا نسألك في سفرِنَا هذا البر والتَّقوى، ومن العملِ ما ترضى، اللَّهمَّ هوِّن علينا سفرنا هذا واطو عنَّا بُعده، اللَّهمَّ أنت الصَّاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللَّهمَّ إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظرب، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد**»

الوصية الثانية: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

يجب أن يكون المؤمن كالغيث الهنيء، أينما حل حلَّ الأنس والرضا والنماء، فإن لم يصل الأرض منه وابل فطل، المؤمن نور يضيء الطريق وهادٍ يهدي السبيل، وعبير يزكو شذاه، وفيض يعم نداه أينما ذهب، وحيثما انتقل، فهو يحمل قلبًا مؤمنًا، ونفسًا خيِّرة، وفكرًا نيِّرًا، وفؤادًا غيورًا، يأمر بالمعروف قدر طاقته، وينهى عن المنكر ما أمكنه، يغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذٰلك أضعف الإيمان، أما الذي ينطلق في الدنيا، ويسيح في الأرض، فيرى المنكرات العظيمة، والمعاصي الكبيرة، والمخالفات المتعددة، ثم لا قلب ينكر، ولا لسان ينطق، ولا وجه يتمعر، فأي مؤمن هذا.

صحَّ عنه ﷺ قوله: «**والَّذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهون**

عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله إن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم» [صحيح الجامع: ٧٠٧٠].

الوصية الثالثة: شكر النعم:

نعم الله كثيرة وآلاؤه كبيرة، وعطاؤه عظيم، وكرمه عميم: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤]

وإنَّ من أعظم النعم التي يجب أن يتذكرها المسافر ما أفاء الله على عباده من أسباب الراحة، ووسائل السفر، كان الآباء والأجداد يقطعون بعض المسافات في شهر أو أشهر مع ما يلحقهم من النصب ويعتريهم من التعب، ونقطعها نحن في ساعات معدودة، في جوٍّ آمن، وظل ظليل، وأكل لذيذ، وشراب سائغ، يحدثني بعض كبار السن في مخيَّم من مخيَّمات الحج، كان ينظر إلى ما يرفل فيه الحجاج من نعم، وما يهنؤون به من راحة، ثم دمعت عيناه، وأجهش بالبكاء، فسألته عن سبب بكائه، فقال: يا ولدي تذكرتُ حالنا في العصور الخالية، والأيام الماضية، ثم نظرتُ إلى ما نحن فيه اليوم، أذكر أنني في سنة من السنوات قدمت إلى مكة مع بعض رفقتي فمكثنا أيامًا طويلة ونحن نمشي على أقدامنا، فلما بقي بيننا وبين مكة مسيرة يوم تقريبًا، كدنا نهلك من الجوع، وكاد يقتلنا الظمأ، فأخذنا نتلمس الأخبار، ونتأمل في الديار لعلنا نجد ماء، أو نعثر على بئر فلم نجد شيئًا فمضينا نجتر الخُطَا، وقد كادت تزهق أرواحنا من الظمأ، فإذا بنا نرى الطير تحوم على مكان علمنا أنَّ فيه ماء، فلما أتيناه وجدنا بئرًا عميقة مخيفة مظلمة، تنبعث منها رائحة كريهة، فربطنا ما معنا من ملابس وأردية ربطناها بعضها ببعض في دلو معنا، وأنزلناه في البئر فلما نزعناه فإذا به ماء أسود كريه الرائحة، قد اختلط بالضفادع والهوام

والطين، والله لو رآه أهل هذا المخيم لانقلبت نفوسهم جميعًا ولكننا تسابقنا في شربه وكأنه الماء الزلال، فانظر اليوم إلى هـٰذا النعيم العظيم، فالحمدلله على نعمه، والشكر له على إحسانه وكرمه.

الوصية الرابعة: توثيق المودة.

لا تنسَ أخي المسافر صلة الأرحام، والسؤال عن الأقارب، وعيادة المرضى، والجود والإحسان إلى من تجده من الفقراء، وزيارة الإخوان في الله، الصلة والزيارة اللَّطيفة الخفيفة الهانئة المسعدة، ليست زيارة الإثقال والإرهاق والكلفة والعنت والمشقة، والأرحام من وصلهم وصله الله، ومن قطعهم قطعه الله.

والمريض من سافر لزيارته، وذهب لعيادته فله الأجر العظيم، يقول ﷺ: «**من عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله ناداه منادٍ أن طبتَ وطاب ممشاك، وتبوَّأت من الجنَّة منزلاً**» [صحيح الجامع: ٦٣٨٧]

والأخ الذي يزور أخاه في الله زيارة ليس وراءها منفعة، ولا يقصد بها مصلحة، وإنما هي المحبَّة في الله، فإنَّ الله تعالى يحبه كما أحبَّ أخاه في الله.

الوصية الخامسة: إدخال السرور على الأهل:

من أجمل ما يوصى به السائحون اصطحاب الأهل، والتنفيس عنهم، وطرد الملل والسآمة من نفوسهم، وليس هناك أجمل ولا أفضل ولا أمتع و لاأروع من الأب الذي يصطحب أفراد أسرته في نزهة بهية نقية تقية، يضاحكهم ويلاعبهم، ويسامرهم ويداعبهم، ويمازحهم ويلاطفهم ليدلوا بمشاركاتهم، ويهتفوا بأناشيدهم، ويلاطفوا بنكاتهم وممازحتهم، وهـٰكذا تعبر قاطرة السياحة في جو من الأنس، وفنون من الرضا، وألوان

من السرور. . . أما أن يظن الأب أنَّ السياحة مجرَّد أن يحمل أهله وأبناءه وينتقل بهم بين الجبال والأودية، والمدن والقرى، ثم هو معهم بجسمه مسافر بروحه، لا يعطيهم وجدانه ولا يعيرهم انتباهه، إما سارحًا بفكره وإما مشتغلاً بجواله، فتلك سياحة باهتة، ونزهة قاتمة. . أو أن يظن أنَّ إدخال السرور عليهم هو في المرور بهم على المطاعم، وملء بطونهم بأنواع الأرز واللحوم والدجاج!! إنَّهم بحاجة إلى ملء فراغهم، وإشباع عواطفهم، وإرواء مشاعرهم، وذٰلك كله في حبك لهم، واندماجك بهم، وإشراقك في وجوههم، وابتساماتك في طريقهم، شاركهم، لا عبهم، داعبهم، واملأ حياتهم بوجودك، كن حاضرًا في أفكارهم، في قلوبهم، في ضمائرهم، وإلاَّ تخطفتهم شياطين الإنس والجن من بين يديك.

إذا نزلت في مكان للعب فالعب معهم، لا أسعد و لا آنس لدى الأبناء من لعب والدهم معهم، سواء بالكرة أو غيرها. . . إذا دخلت مكانًا للترفيه أو للألعاب فلا تكتف بصرف التذاكر لهم ثم تعود أدراجك، أو تبقى في سيارتك، بل انزل معهم، وأشعرهم بوجودك، بتعاطفك، بانفعالك بألعابهم، صاحب الأولاد وعلمهم الرجولة، صادق البنات وعلمهن الحشمة، والله الله في البنات. . . واحرَّ قلباه على البنات، واحسرتاه على البنات، إنَّهن دائمًا المظلومات في الأسفار، في السياحة، في الألعاب، دائمًا الحظ والحظوة للأولاد، إنَّ البنات وبالذات من بعد سن العاشرة، تبدأ ألوان المرح والسرور تغلق في وجوههن، إلاَّ في بعض المتنزهات النسائية البحتة، وقليل ماهي؛ لأنَّهنَّ أصبحن في سن الحياء والخجل والحجاب وارتداء الجلابيب التي بلا شك فيها من التعب والمعاناة الشيء الكثير، ولكنه عين السرور والسلوة والسياحة في رياض

الجنة إن شاء الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ، ويمشين في ركاب الحشمة والوقار والطهر والنضار، ثم هن سيجتنين ثمرة ذٰلك في جنان الخلد، ويكشف لهن من أفنان النعيم وألوان السرور ما ينسي عناء الدنيا ووصب الحياة.

لو طلب من أحد الرجال أو الشباب أن يغطي وجهه، ويلتف في عباءة لمدة ساعتين لاختنق، ولخرج من ملابسه، فكيف بمن تمر بهن الساعات الطوال في هذه الحال، ولكن الله جلَّ وعلا يجعلها سهلة يسيرة للمؤمنات الصادقات.

وأعود مرَّة أخرى إلى البنات. . .إنَّني رجل لديَّ أبناء وبنات، فيا ألله كم يتمزق قلبي، وتدمع عيني، وأنا أرى الأولاد يهنؤون بالألعاب، ويتسابقون إلى فنون الملاهي، والبنات محرومات من ذٰلك كله، بل يبقين لساعات طوال لمجرد انتظار انتهاء الأولاد من ألعابهم، لذٰلك يجب أن نعوض البنات عمَّا يمكن أن يشعرن بالحرمان منه، فنبتكر لهن من صفوف التسالي والترفيه والألعاب ما يناسب طبيعتهن وحشمتهن، وعدم اختلاطهن بالرجال والشباب.

ويجب أن نلتفت لهن لفتة حنان وعطف، وحب وشفقة، وأن نعدل بينهن وبين الأولاد، فإذا ما صرفت على الأولاد مائتي ريال أو ثلاثمائة أو أكثر، أو أقلَّ، فيجب أن تسترضي البنات بمثلها إما بإعطائهن في أيديهن، وإما بشراء ما تتوق له أنفسهن من أنواع الحلي والملابس والزينة، فالتمس ولو خاتمًا من ذهب.

إنَّ كثيرًا من الآباء يصرف وقت السياحة وأموالها للأولاد في فنون الألعاب، والملاهي والكُرات وغيرها، أما البنات فلا يُعيرهن أدنى

اهتمام، وكأنَّه كتب عليهنَّ الحرمان، إنها مسائل نفسية هامة وخطيرة.

إنَّ العناية بالبنات والاهتمام بهنَّ يجب أن لا يقل عن العناية بالأبناء الذكور، إن لم يكن أضعافها؛ لأنَّ البنات من السهولة اللَّعب بعواطفهنَّ، والتحايل على مشاعرهن، إذا تركن للإهمال، وهمشن من العناية، إنَّ الأولاد يتاح لهم فرص كثيرة لا يتيسر للبنات مثلها، كاصطحابهم للمساجد، والولائم، والنوادي، والمتاجر... وغيرها، لذلك أرى أنه من العدل أن تُخصص للبنات أوقات للتنزه بهن، أو الترويح عنهن، مع الآباء بمفردهن دون صحبة الأولاد كي يشعرن بقيمتهن واحترامهن، حتى ولو كان لمسافات قصيرة، أو أمكنة قريبة، وأن لا يحشرن دائمًا في زمرة الأولاد، إضافة لما يتاح للأولاد من متنفسات كثيرة، علمًا أنَّ بعض البنات قد يطرح فيهنَّ من البركة أضعاف ما يكون للأولاد، ولا شكَّ أنَّهنَّ أكثر حبًّا للوالدين وأكثر شفقة وأكثر رحمة، وأكثر رقة وعطفًا وامتثالاً وطاعة.

إننا بحاجة إلى ترميم حبال المودة، وتقوية جسور المحبة مع أبنائنا وبناتنا ونسائنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

رسائل المحبين

قبل وسائل الاتصال الحديثة التي أنعم الله بها على الناس كانت الرسالة فيما مضى هي البلسم الذي يلطف حرقة المغتربين، وهي الأمل الذي يبرق في دُجىٰ المحبين، وهي السلوة للمحزونين، ومع هذه الوسائل فليس عن الرسائل بدائل. إن الرسالة لها طعمها الخاص ومذاقها المتميز، ووقعها الفريد، كان الغائب عن أهله وأحبته يترقب في لهفة وشوق رسالةً تأتيه من محبيه، وكتاباً يصله من أهله وذويه، فإذا ما وقعت في يده رسالةٌ طار بها فرحاً، وقبلها جذلاً وحيّاها قائلاً: إني لأجد ريح أحبيتي لولا أن تفندون. فالرسالة دليل على دوام المحبة واستمرار المودة، وتأكيد العهد، وتجديد الولاء، وترسيخ الحب.

الغائب عن أحبته يترقب أخبارهم ورسائلهم مع كل صباح طالع، وضياء شارق، ونجم طارق، فإذا ما ظفر منهم بكتاب، أو حصل على خطاب، فإنه يقرؤه وخيالهم يرتسم أمامه على صفحاته، ويلهج بعباراته، ونغماتهم تداعب سمعه، يتلمس ريحهم في ثناياه، ويجد طيفهم في حروفه.

فاللفظ يقرب فهمه في بعده ... منا ويبعد نيله في قربه
فكأنها والسمع معقود بها ... شخص الحبيب بدا لعين محبه

قال أحد المحبين حينما وقعت رسالة أحبابه في يده:

وافى الكتابُ فأوْجَبَ الشُّكرا ... فَضَمَمْتُـهُ وَلَثَمْتُـهُ عَشْـرَا
وفَضَضْتُـهُ وَقَـرَأْتُـهُ فـإذا ... أغْلَى كِتَابٍ فِي الوَرَى يُقْرا
فمَحَاهُ دَمْعِي مِنْ تَحَدُّرِهِ ... شَوْقاً إلَيْكَ فَلَمْ يَدَعْ سَطْرا

وانظر إلى روعة ما قال الآخر:

لمَّا وضَعْتُ صحيفَتِي في بطن كفِّ رَسُولِهَا
قَبَّلْتُهَا لِتَمَسَّهَا يُمْنَاكَ عِنْدَ وُصُولِهَا
وتَوَدُّ عَيْنِي أنّها اقْـ ـتَرَنَتْ ببَعْضِ فُصُولِهَا
حَتَّى تَرَىٰ في وجهك الـ ـمَيْمُونِ غَايَةَ سُؤْلِهَا

وقال الآخر:

ورَدَ الكتابُ مبشراً نفسي بأنواع السُّرورِ
وفضضته فوجدته ليلاً على صفحات نورِ
مثل السوالف والخُدو د البيض زينت بالشفورِ
أنزلتُه مني بمنـ ـزلة القلوب من الصدورِ

وقالت التنوخي يصف مكتوباً أتاه من أحبته:

وصحيفة ألفاظها في النظم كالدُّرِّ النثيرِ
جاءت إليَّ كأنها التو فيقُ في كل الأمورِ
بأرق من شكوى وأحـ ـسن من حياة في سرورِ
لو قابلت أعمى لأصبـ ـح وهو ذو طرف بصيرِ
وكأنها أملٌ تحقق بعـ ـد يأس في الصدورِ
أو كالفقيد إذا أتت بقدمه بُشْرَى البشيرِ
أو كالمنام لساهر أو كالغنى عند الفقيرِ
أو كالشفاء لمدنِف أو كالأمان لمستجيرِ
وكأنما هي من وصا ل أو شباب أو نشورِ
لفظ كأسر معاند أو مثل إطلاق الأسيرِ

وكـأنـه إذ لاح مـن فوق المهارق والسُّطورِ
وردُ الخدود إذا انتقلـ ـت به على راح الثغورِ
غررٌ عدَت وكأنها من طلعة الظبي الغريرِ
من كل معنى كالسلا مة أو كتيسير العسيرِ

من أخبار المسافرين (٦)

المتنبي يسافر إلى شيراز

هذا المسافر الذي سنذكر خبر إحدى رحلاته هو مسافرٌ شهير ونابغةٌ خطير، وشاعر قدير أشهر من أن يعرّف به، وأعظم من أن يترجم له، إنه شاعر العربية العملاق أبوالطيب المتنبي.

ورحلات أبي الطيب كثيرة، وسفراته عديدة، ولكننا سنختار منها هذه الرحلة لأن القصيدة التي قالها فيها من أجمل قصائده بل من أجمل الشعر العربي على الإطلاق، وهي من آخر قصائده، وقد قالها في أحد الوزراء الذين كان لهم شأن كبير وتسابق إليهم الشعراء، وخطب ودَّهم الخطباء والبلغاء، ويقال إن المتنبي قتل أثناء عودته من هذه الرحلة فهي خاتمة رحلاته ونهاية حياته، وكان ذلك في شعبان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

سافر شاعرنا العملاق ـ رحمه الله ـ إلى «عضد الدولة» أبي شجاع فنّاخسرو بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بُوَيْه الديلمي. وقد قصَدَه فحول الشعراء في عصره، ومدحوه بعدة مدائح، وكان ممن سافر إليه وألقى الشعر بين يديه أبوالطيب المتنبي. ترنّم بمدحه بعدة قصائد، وبالغ في شعره مبالغات مذمومة ولكن القصيدة الرائعة التي سنذكرها هي التي قالها حينما أراد أن يودّع عضد الدولة ويرجع إلى بلده، فإليك جملة من أبياتها:

فدىً لك مَنْ يقصِّر عن مَدَاكا ... فـلا مَلِـكٌ إذن إلاَّ فـداكـا
أروح وقد ختمتَ على فؤادي ... بحبِّك أن يحُلّ به سواكا
وقد حَمَّلتني شكْراً طويلاً ... ثقيلاً لا أطيقُ به حراكا

أُحاذِر أن يشق على المطايا ... فلا تمشي بنا إلاَّ سواكا
لعــلّ الله يجعلــه رحيــلاً ... يُعين على الإقامة في ذراكا
ولو أني استطعت غَضضتُ طرفي ... فلم أبصر به حتى أراكا
أرى أَسَفي وما سرنا بعيداً ... فكيف إذا غدا السيرُ ابتراكا
إذا التَّوديعُ أعرض قال قلبي ... عليك الصمت لا صاحبتُ فاكا
ولـولا أن أكثـر مـا تمنّـى ... معـاودةٌ لقلـت ولا مُنَـاكـا
قد استشفيتَ من داءٍ بداءٍ ... وأقتلُ ما أعلَّك ما شفاكا
وفي الأحباب مختصٌ بوجْدٍ ... وآخرُ يدّعي معه اشتراكا
إذا اشتبهت دموعٌ في خُدودٍ ... تبين مَنْ بكى مِمّن تباكي
فزُلْ يا بعد عن أيدي ركابٍ ... لها وقع الأسنة في حشاكا
وأيَّا شئت يا طُرُقي فكوني ... أذاةً أو نجـاةً أو هــلاكــا
ومن أعتاض عنك إذا افترقنا ... وكُلُّ الناس زورٌ ما خلاكا
وما أنا غيرُ سهمٍ في هواءٍ ... يعود ولم يجدْ فيه امتساكا
حييٌّ من إلـهي أن يراني ... وقد فارقت دارك واصطفاكا

* * *

وفي أثناء عودة المتنبي من سَفْرته هذه قتل في الطريق فلم تغنِ عنه تلك المدائح شيئاً وأفضى إلى ملك الملوك سبحانه وتعالى فالله يغفر لنا وله ولجميع المسلمين.

استراحة المسافر (٣)

* قال بعض الأذكياء: إذا رأيت رجلاً من صلاة الغداة على باب داره وهو يقول: (وما عند الله خيرٌ وأبقىٰ) فاعلم أن عند جيرانه وليمة ولم يُدع إليها، وإذا رأيت قوماً يخرجون من مجلس القاضي وهم يقولون: (وما شهدنا إلاَّ بما علمنا) فاعلم أن شهادتهم لم تُقبل، وإذا تزوج الرجل فسئل عن حاله وزواجه فإن قال: (ما رغبنا إلاَّ في الصلاح والدين) فاعلم أن زوجته قبيحة.
* قال رجل لرجل: إنْ لطمتك أوصلتك المدينة، فقال له: فأحب أن تردفها بأخرى لعل الله تعالى أن يرزقني الحج على يديك.
* قال أحدهم يصف ثقيلاً:

وعـائـد هـو سُقْـمٌ لكلِّ جسمٍ صحيحِ
لا بـالإشـارة يـدري ولا الكلامِ الصريحِ
وليـس يخـرجُ حتّى تكادَ تخرجُ رُوحي

* قال رجلٌ لسعيد بن عبدالملك الكاتب: تأمر بشيئاً؟ قال: نعم، بتقوى الله، وبإسقاط أَلِف شيء!

الدخان في دورة المياه:

هذه القصيدة قالها الشاعر مصطفى حَمَام في زميل له كان يُدخِّن حتى في نهار رمضان والعياذ بالله كان يتسلل بعد كلِّ برهة من الزمن إلى دورات المياه ليشرب لفافة، وكان اسمه محمد ثعلب، فبعد خروجه مرة من

المرَّات من دورة المياه وجد هذه الورقة من الشاعر:

يا صديقي ويا زميلي وجاري ... أنتَ ضيفُ الكنيف طولَ النهار
أرهين الإسهال في رمضانٍ ... ورهين الإمساكِ في الإفطارِ؟
أنت تخلو إلى السجارةِ كالعا ... شقِ في معزلٍ عن الأنظارِ
تغلق البابَ دونها وتناجي ... منية النفس مسرحَ الأفكارِ
فيشيع الدخانُ في الأفق كالوا ... شي الذي لا يضنُّ بالأسرارِ
أخْيبُ العاشقين أنت وإن سُمِّيتَ ... ظُلْماً بالثعلب المكارِ
إنما المفطر المدخنُ مفضوحُ ... النوايا مُهتَّكُ الأستار

التشاؤم في السفر

من المظاهر الجاهلية التي كانت سائدة عند العرب قبل الإسلام التشاؤم والتطير والكهانة والعرافة، وكانت تلك الخرافات معشعشة في أذهانهم ويحسبون لها حساباً، ويقيمون لها وزناً، فكان الرجل منهم إذا أراد سفراً فعرض له غراب ينعق تشاءم ورجع عن سفره، وإذا طار أمامه طائر فأخذ جهة اليسار تشاءم وترك السفر، فإن طار جهة اليمين تفاءل بذلك.

وكانوا يستقسمون بالأزلام وهي عبارة عن ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الآخر: «لا تفعل»، والثالث ليس عليه شيء، فإذا طلع له سهم الأمر فعل ما يريد من سفرٍ وغيره، وإذا طلع النهي تركه وإذا طلع الفارغ أعاد الاستقسام.

وكان بعضهم إذا أراد سفراً أو عملاً من الأعمال ربما ذهب إلى كاهن أو عراف أو ساحر فأخذ بما يمليه عليه.

فجاء الإسلام فاجتث هذه الخرافات من أصولها ونسف بنيانها وحطم أركانها وأقام مكانها التوكّل على الله تعالى والاستعانة به، وحذَّر منها أشد الحذر وبيَّن أن من أتى كاهناً أو ساحراً وصدَّقة وأخذ بقوله فقد كفر، وحذر من الاستقسام بالأزلام وبيَّن أنه فسق وأنه أمرٌ محرم ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾، وكان رسول الله ﷺ يحب التفاؤل ويكره التشاؤم، وقد

علَّمنا ﷺ مكان هذه العقائد الباطلة، والأوهام الزائغة علمنا دعاء الاستخارة، وهو دعاءٌ جميل رائع ينزل على القلوب برداً وسلاماً ويشعر الإنسان وهو يردده بالطمأنينة تملأ قلبه وبالراحة تعمر فؤاده فيتعلق القلب بمولاه وينصرف عمن سواه فإليك هذا الدعاء فاحفظه ورددده في سفرك وفي حضرك وفي كل أمرٍ يشكل عليك:

عن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، ويقول: إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاَّم الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ـ ويسميه باسمه ـ خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: ـ عاجل أمري وآجله ـ فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفني عنه واصرفه عني واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضّني به» [أخرجه البخاري].

كذب المنجمون ولو صدقوا:

جاء أحد المنجمين إلى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عندما أراد أن يسير لقتال الخوارج فقال له: ياأمير المؤمنين، لا تسافر فإن القمر في العقرب، فإنك إن سافرت والقمر في العقرب هزم أصحابك، فقال علي رضي الله عنه: بل نسافر ثقة بالله، وتوكلاً عليه، وتكذيباً لك، فسافر فبورك له في ذلك السفر، حتى قتل عامة الخوارج، وكان ذلك من أعظم ما سُرَّ به رضي الله عنه.

وحينما صرخت امرأة مسلمة وهي أسيرة في أيدي الروم صرخت مستنجدة بالخليفة المعتصم رحمه الله، قال لها: لبيك وحلف أن يجيش جيشاً يكون أوله عندها وآخره في بغداد، فقام أصحاب الخرافات والشعوذة والتنجيم وقالوا: إن المعتصم لن يستطيع فتح عمورية ولن ينتصر إلاَّ في وقت نضوج التين والعنب، فضرب بقولهم عرض الحائط، وجيَّش الجيوش وخرج بها فنصره الله نصراً عظيماً، وفتحت عمورية؛ فقام أبوتمام ليعطر أرجاء الدنيا، ويتوج هذا النصر العظيم بقصيدة ما سمع الدهر بمثلها ورائعة من روائع الدنيا، فجزاه الله خير الجزاء وغفر له. وقد افتتحها بالثورة العارمة على أصحاب التنجيم فيما زيفوه ونمقوه ثم مضى يسجل وقائع الفتح في أجمل بيان وأنصع عبارة، وكان مما قال في قصيدته:

السَّيفُ أصدَق أنباءً من الكُتُبِ ... في حدِّهِ الحدُّ بَيْنَ الجدِّ واللَّعبِ
بيضُ الصَّفائحِ لاسُودُالصَّحائِفِ في ... مُتونِهِنَّ جِلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ
والعلمُ في شُهُب الأرْمَاحِ لامِعَةً ... بيْنَ الخَمِيسَيْنِ لافي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغُوه من زُخْرُف فيها ومن كَذِبِ
تَخَرُّصاً وأحَادِيثاً مُلَفَّقَةً ... لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ
عَجَائباً زَعَمُوا الأيَّامَ مُجْفِلَةً ... عَنْهُنَّ في صَفَرِ الأصْفَار أوْ رَجَبِ
وخَوَّفُوا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَةٍ ... إذا بَدَا الكَوْكَبُ الغَرْبِيُّ ذُو الذَّنَبِ
وصَيَّرُوا الأبْرُجَ العُلْيَا مُرَتِّبَةً ... ما كان مُنْقَلِباً أوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ
يَقْضُونَ بالأمْرِ عَنْها وهِي غَافِلَةٌ ... ما دارَ في فَلَكٍ مِنْها وفي قُطُبِ
فَتْح الفُتوحِ تَعَالَى أنْ يُحيطَ بهِ ... نَظْمٌ من الشِّعْرِ أوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

يا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرَفَتْ مِنْكَ المُنَىٰ حُفّلاً مَعْسُولَةَ الحَلَبِ
أبقَيْتَ جَدَّ بَنِى الإِسلامِ في صَعدٍ والمشركين وَدارَ الشِّرْكِ في صَبَبِ
رَمَىٰ بكَ الله بُرْجَيْهَا فَهَدَّمَهَا ولَوْ رَمَى بِكَ غَيْرُ الله لَمْ يُصِبِ
لَبَّيْتَ صوْتاً زِبَطْرِيّاً هَرَقْتَ لَهُ كأْسَ الكَرَى ورُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ
أَجَبْتَهُ مُعْلِناً بالسَّيْفِ مُنْصَلِتاً ولَوْ أَجَبْتَ بغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجبِ
حتى تركتَ عمود الشرك منعفراً ولا تُعَرِّج على الأوتاد والطُّنُبِ
خليفةَ الله جازَى الله سعْيَكَ عَنْ جُرْثُومَةِ الدِّينِ والإِسْلَامِ والحَسَبِ
بصُرْتَ بالرّاحَةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَها تُنَالُ إلاَّ على جِسْرٍ من التَّعبِ
إن كان بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ من رَحِمٍ مَوْصُولَةٍ أوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ
فبَيْنَ أَيَّامِكَ اللَّاتي نُصِرْتَ بِها وبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ
أَبْقَتْ بَنِي الأَصْفَرِ المِمْرَاضِ كاسِمِهم صُفْرَ الوجُوهِ وجَلَّتْ أَوْجُهَ العَرَبِ

المملكة العربية السعودية في سطور

أتيتُـك مـاشيـاً وودِتُ أنّـي ملكـتُ سـوادَ عينـي أمتطيـهِ
وما لي لا أسِيرُ على المآقي إلـى بلـدٍ، رسـول الله فيـهِ

آثرت هذه البلاد بالحديث، لما لها في قلوب المسافرين من المنزلة الرفيعة، والأهمية البالغة، فهي البلد الذي يقصده أكثر المسافرين، ويأوي إليه أغلب المهاجرين، ويهرع إليه الذين يحبون الحياة آمنين مطمئنين، أكرمها الله بالبيت الحرام، وزمزم والمقام ومسجد خير الأنام، فهي معقل الإسلام، ومهبط الوحي من الملك العلاَّم، أسأل الله تعالى أن يديم عليها أمنها، وإيمانها، وأن يوفِّق للخير حُكَّامها ويرفع على طريق الحق أعلامها ويُطَيِّب بالإسلام أيّامها.

١ـ **الاسم الرسمي**: المملكة العربية السعودية.

٢ـ **المؤسس**: مؤسس المملكة العربية السعودية هو الملك عبدالعزيز ابن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي آل سعود رحمه الله.

٣ـ **تاريخ التوحيد والتأسيس**: توحدت المملكة العربية السعودية تحت هذا الاسم وهذه المساحة في ٢١ جمادى الأولى عام ١٣٥١هـ الموافق ٢٣ أيلول/ سبتمر عام ١٩٣٢، والذي وحَّدها تحت هذا الاسم هو الملك عبدالعزيز.

٤ـ **الموقع**: تقع المملكة العربية السعودية جنوب غرب قارة آسيا، وتحتل معظم مساحة شبه الجزيرة العربية، وتقع بين قارات العالم القديم الثلاث: آسيا وأفريقيا وأوروبا. وهذا الموقع الممتاز سهَّل عملية

انتشار الإسلام، كما زاد النمو الاقتصادي، وجعلها مركز اتصال بين قارات العالم القديم.

٥ـ **الحدود**: يحد المملكة العربية السعودية من الشمال العراق والأردن، ومن الشمال الشرقي الكويت، ومن الجنوب الجمهورية اليمنية وعُمان، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق الخليج العربي والإمارات وقطر والبحرين.

٦ـ **عاصمة الدولة**: مدينة الرياض.

٧ـ **عملة الدولة**: الريال السعودي، ويساوي بالدولار الأمريكي ٣,٧٥ ريالات.

٨ـ **المناخ**: مناخ المملكة مختلف؛ نظراً لاختلاف الظروف الطبيعية، ففي فصل الصيف تشتد الحرارة في كل أنحاء المملكة ماعدا المرتفعات مثل الطائف والباحة وعسير، وفي الشتاء تشتد البرودة، فمناخ المملكة قاري بصفة عامة، أي حار جاف صيفاً، بارد شتاءً.

٩ـ **طول السواحل البحرية**: يبلغ طول السواحل البحرية في المملكة ٢٤١٠كم، حيث يبلغ طول الساحل على البحر الأحمر ١٨٠٠كم وعلى الخليج العربي ٦١٠كم.

١٠ـ **التضاريس**: تتنوع مظاهر السطح في المملكة من مكان لآخر:

أ ـ السهول الساحلية الغربية: وهي سهول تهامة عسير وتهامة الحجاز، وتمتاز بالخصوبة.

ب ـ السهول الساحلية الشرقية: وهي على طول ساحل الخليج العربي، وتسمى سهل الإحساء.

جـ ـ جبال السروات: وتمتد من الشمال إلى الجنوب.

د ـ هضبة نجد: وتقع في الوسط.

هـ ـ المناطق الرملية: وتقع في شرق وشمال وجنوب هضبة نجد، وهي الربع الخالي، والنفوذ الكبرى، والدهناء.

أهم الجبال في المملكة:

سلسلة جبال السروات في الجنوب الغربي، وجبال الحجاز في الشمال، وجبال عسير في الجنوب، وجبال طويق والعراض، وجبال أجأ وسلمى.

أهم الأودية في المملكة:

وادي الرّمة ـ وادي الدواسر ـ وادي فاطمة ـ وادي حنيف ـ وادي تربة ـ ووادي بيشة، وعدد كبير من الأودية الصغيرة المنتشرة.

١١ـ **المساحة**: تبلغ مساحة المملكة العربية السعودية ٢,٢١ مليون كم^{٢}.

١٢ـ **عدد السكان**: ١٦ مليون نسمة.

١٣ـ **أهم المدن**: الرياض ـ مكة المكرمة ـ جدة ـ المدينة المنورة ـ الدمام ـ الظهران ـ الطائف ـ أبها ـ خميس مشيط ـ الباحة ـ تبوك ـ الجوف ـ حائل ـ بريدة ـ عنيزة ـ نجران ـ جيزان ـ الخرج.

١٤ـ **أهم الموانىء**: ميناء جدة ـ ميناء الدمام ـ ميناء جيزان ـ ميناء رأس تنورة ـ ميناء ينبع.

١٥ـ **النشاط الاقتصادي للسكان**: الزراعة ـ الرعي ـ استخراج البترول والمعادن ـ الصناعة ـ التجارة ـ صيد الأسماك.

١٦ـ **أسطول النقل الجوي**: تمتلك المملكة العربية السعودية أسطولاً

جوياً ضخماً يحتوي على ١٩١ طائرة ركاب، وترتبط المملكة جويًا بكافة دول العالم تقريباً.

١٧ـ **المطارات**: عدد المطارات المدنية: ٢٣ مطاراً.

١٨ـ **الجامعات**: عددالجامعات ٧جامعات كبرى في مختلف التخصصات بالإضافة إلى عدد من الكليات التخصصية والعسكرية.

١٩ـ **الاتصال الخارجي بالمملكة**: للاتصال بالمملكة من الخارج يستخدم مفتاح المملكة ٩٦٦ + مفتاح المنطقة الداخلية.

من أخبار المسافرين (٨)

عبدالله بن المبارك

يا له من عَبدٍ مبارك حقًّا إنه شيخ الإسلام وعالم زمانه، وإمام عصره، وأمير الأتقياء في وقته. وُلد في سنة ثمان عشرة ومئة. هذا الرجل المبارك هو من قافلة المسافرين الذين لأسفارهم أنباءٌ عجيبة، وأخبارٌ طريفة، ومواقف لطيفة. وقد سافر إلى بلاد كثيرة منها: مكة والمدينة، والشام، ومصر، والعراق والجزيرة، وخراسان، وكانت رحلات مباركة لنشر العلم وتحديث الناس، والجهاد في سبيل الله، والتجارة المباركة، وقد حمل العلم عن أربعة آلاف شيخ وكان شاعراً متميزاً. وكانت إقامته بـ«مرو» وإليك الآن شيئاً من أخبار أسفاره:

كان يكثر السفر إلى مكة فإذا أراد السفر إليها ترنم قائلاً:

بُغضُ الحياة وخوف الله أخرجني ... وبيع نفسي بما ليست له ثمناً
إني وزنت الذي يبقى ليعدِله ... ما ليس يبقى فلا والله ما اتزنا

أزمع السفر في مرة من المرات من مدينته ـ مرو ـ إلى جهةٍ أخرى فصاح شاعرهم قائلاً:

إذا سار عبدالله من مرو ليلة ... فقد سار منها نورُها وجمالُها
إذا ذُكرَ الأخيار في كل بلدةٍ ... فهم أنجمٌ فيها وأنت هِلالُها

سافر مرة إلى مكة المكرمة فأتى إلى ماء زمزم فأخذ منه ثم استقبل القبلة فقال: اللهم إن ابن أبي الموال حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «**ماء زمزم لما شرب له**» وهذا الماء أشربه اليوم لعطش يوم القيامة، ثم شربه.

سفره للحج :

إذا أعدّ ابن المبارك عدته للسفر للحج وأزمع المسير إلى البيت الحرام اجتمع إليه إخوانه وأصدقاؤه من أهل مَرْو، فيقولون: نصحبك، فيقول: هاتوا نفقاتكم، فيأخذ نفقاتهم، فيجعلها في صندوق ويقفل عليها، ثم يكتري لهم، ويخرجهم من مرْو إلى بغداد، فلايزال ينفق عليهم، ويطعمهم أطيب الطعام، وأطيب الحلوى، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زيٍّ وأكمل مروءة، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ، فيقول لكل واحدٍ منهم، ماذا أمَرَك عيالُك أن تشتري لهم من المدينة من طُرَفِها فيقول: كذا وكذا، ثم يخرجهم إلى مكة، فإذا قضوا حجَّهم، قال لكل واحدٍ منهم: ماذا أمرك عيالك أن نشتري لهم من متاع مكة؟ فيقول: كذا وكذا، فيشتري لهم، ثم يخرجهم من مكة، فلايزال ينفق عليهم إلى أن يصلوا إلى بلادهم «مَرْو» فيجصِّص بيوتهم وأبوابهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام عمل لهم وليمة وكساهم، فإذا أكلوا وسُرّوا، دعا بالصندوق الذي كان قد وضع فيه نفقاتهم، ففتحه ودفع إلى كلِّ رجل منهم صرَّته وعليها اسمه، كاملة لم ينقص منها شيء؛ لأنه جعل الإنفاق عليهم كله من ماله الخاص، فياله من كرم فياض وشأوٍ لا يُلحق وعزمٍ لا يُسبق.

ابن المبارك يُلغي سفره ويعود:

لعلك قد وقفت في غاية الإعجاب والإكبار والإجلال لهذه الشخصية العظيمة التي كانت تقتبس من نور النبوة كيف لا وهو من أعظم رواة حديث النبي ﷺ ولكن تعال معي الآن لأنتقل بك إلى أعجوبة أخرى، ورائعة عظيمة، من روائع هذا المسافر الصالح إنه كان ذاهباً في رحلة من

رحلاته إلى الحج فحينما كان ببغداد وأخذ نفقته وهي خمسمائة دينار وخرج إلى السوق ليشتري آلة الحج وعدته، فبينما هو في الطريق إذ عرضت له امرأةٌ فقالت: رحمك الله، أنا امرأة شريفة ولي بنات عراة، ولليوم الرابع ما أكلنا شيئاً. وفي رواية: أنه وجدها على مزبلة تنتف بطّة ميتة لتأكلها هي وبناتها. يقول: فوقع كلامها في نفسي فطرحت الخمسمائة الدينار في طرف إزارها وقلت: عودي إلى بيتك، واستعيني بهذه الدنانير على قضاء حوائجك. وانصرفتْ ونزع الله عز وجل من قلبي حلاوة الخروج للحج تلك السنة.

وأنت أخي المسافر خذ هذه المواقف العجيبة، وقارنها بأحوال أناس ممن أغناهم الله من واسع فضله ومع ذلك تجد من جيرانهم من يموت جوعاً ولا يدري به.

وإذا كنا قد أعجبنا بهذه الشخصية العجيبة وهالنا ما نالته من الذكر الحسن والسمعة الطيبة، والقبول العجيب، فقد عجب قبلنا أناسٌ من معاصريه. يقول القاسم بن محمد: كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيراً ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيءٍ فُضِّل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟ إن كان يصلي إنَّا لنصلِّي، ولئن كان يصوم إنا لنصوم، وإن كان يغزو إنا لنغزو، وإن كان يحج إنا لنحج. قال: فكنا في بعض أسفارنا معه في طريق الشام وجلسنا ليلةً نتعشى في بيت إذ طُفئ السراج فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج به ليشْعله فمكث قليلاً ثم جاء بالسراج فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلّت من الدموع ـ لأنه تذكر ظلمة القبر ـ فقلت في نفسي: بهذه الخشية فضِّل هذا الرجل علينا.

السفر في الأوتومبيل «السيارة»

وهذا الشاعر العراقي معروف الرصافي يصف السيارة وكانت تسمى «بالتومبيل». فانظر إلى هذا الوصف العجيب واللغة الجزلة.

وَفَدْفَدٍ قائم الأعماق متسع ... طوَيتُ أجوازه طيّ المكاتيبِ
بتومُبيل جرى في الأرض منسرحاً ... كماجرى الماءفي سفح الأهاضيبِ
ينساب مثل انسياب الأيْم تحمله ... عوامل عَجلات من دَواليب
كأنها وهي بالمطاط مُنعَلة ... تمشي بأخفاف أنواق مَطاريب
يمر كالريح لم تسمع لأرجله ... سوى حفيف كنفخ في الأنابيب
وتنكر الخيل إن جارته في سَنن ... ما تعرف الخيل من حُضر وتقريب
تُظِلُّه قُبَّة فيه منجَّدة ... قد زانها حسن تنجيد وتقبيب
يَخال من حلّ فيها نفسه ملكاً ... يُزهَى بتاج على الفودين معصوب
ركبته وبياض الصبح تحسِبه ... صدر المليحة مكشوفَ التلابيب
والبدر في الأفق الغربيِّ ممتقع ... يرنو إلى الفجر في ألحاظ مرعوب
وللنجوم بقايا في جوانبه ... كالعِقد منفرطاً من جيد رُعبوب
وللنسيم هبوبٌ في مدارجه ... ما ينعَش الروح من نشر ومن طيب
فطار من غير تحليق براكبه ... بل مر يمطر مطراً فوق مَلحوب
وسار سيراً دِراكاً ملءَ مَهْيعةٍ ... كالويل يتبع شُؤبوباً بشؤبوب
فكنت أبصر حولي الأرض جارية ... كمثل تيار بحر وهو يجري بي
يلوح فصل الربىٰ وصلاً فأحسبها ... من سرعة المَرِّ قدْ صُفَّتْ بترتيب
مازال يجتاز بي ما في البسيطة من ... سهل ومن جَبَل عالي الشناخيب

حتى بلغت به أقصى مدى عجزت ... عنه العتاق من الجُرد السراحيب
وكم علابىَ أنشازاً تسلقها ... وشابَ في السير تصعيداً بتصويب
لا يعرف الأين منه أين موقِعه ... ولو يواصل إدلاجاً بتأويب
وكيف يتعب ما لا حسّ يتبعه ... ولا يسير على ساق وظنبوب
وإنما هو يجري في مسالكه ... دفعاً بقوة غاز فيه مشبوب

* * *

جرَّبته هابطاً أجزاع أودية ... وطالعاً في الثنايا والعراقيب
وملهباً في سهول الأرض ينهبها ... نهباً ويخلط ألهوباً بألهوب
فكان أسبق مركوب لغايته ... وكنت أقرب طلاب لمطلوب
تلك المطية لا مكان يذكرها ... أديب ذبيان من عيرانة النيب
لو امتطاها لبيد قبلُ تاه بها ... على الحواضر قدماً والأعاريب
ولم يَهم لو رأى ابن العبد منظرها ... من وصف عوجائه في كل أسلوب
ولا أطال ابن حُجْر وصف منجرد ... عالي السراة كُمَيت اللون بعبوب

شاعر يهجو سيارته

وهذه قصيدة من القصائد الجميلة لشاعر مبدع له عددٌ من القصائد الضاحكة وقد حظيت سيارته القديمة بنصيب وافر من تلك القصائد وهو الشاعر السعودي حسن صيرفي.

إن لي في القراج سيارة فوردٍ ... شوّتْني بكثرة الإصلاح
كلُّ شيءٍ فيها له ألف صوتٍ ... غير مزمارها بدون نباح
اعتزمتُ الذهاب يوماً عليها ... نحو روما والقصر كالسُّواح
وعلى مقعد القيادة تكَّيْتُ ... وأخرجت شنطة المفتاح
وفتحت السوتش فانبعثت زَفْرةُ ... ماتورها من القدَّاح
صهلت كالحصان ثم استمرَّتْ ... في صهيلٍ مجلجلٍ صدَّاح
ثم أرغت مثل البعير فثارت ... زوبعات الغبار كالأشباح
ودعستُ الأبنص أطلبها السير ... فأنَّت من حرقة الإجراح
ثم تُفْ تُفْ تُفْ تُفْ تُفْ تُفْ تُفْ تُفْ ... تَفْتَفَتْ وانطفتْ قُبيل براحي
وإذا بالعيال حولي يطوفون ... ومنهم عطيةُ بن صلاح
قلت دُفوا فاستهزؤوا ثم دَفوا ... في اصطخاب وجلبة وصياح
وأخيراً قامت من النوم مولاتي ... وسارت بسرعة التمساح
وتهادت عبر المناخه كالبطة ... لكنها بغير جناح
وقضينا أمسية تنعش النفس ... وعُدْنا بغاية الانشراح
وتمخطرت في الطريق إلى البيت ... وغَطّيتُ جسْمها بِوشاح

* * *

ويواصل الصيرفي هجاءه لسيارته القديمة المتهالكة فيقول:

ويـا ويـح سيـارتـي إنهـا ... لها كفراتٌ من النائمين
تُمزّقها الريحُ في لمسها ... ويخدشها الورد والياسمين
على أنها في خريف الحياة ... مُـديـلُ ثمـانيـةٍ وأربعيـن
ويوم اشتكت من عنَاء الحفاءِ ... وما لَقِيَتْ في قديم السنين
تفلـتُ عليهـا وخَسَّـأتُهـا ... وقلتُ: احمدي الله إذْ تُرْكَبِين

ويقول عنها:

خـرجـتُ بسيـارتـي مـرةً ... أُرَوِضُها في طريق العقيق
فقالت: حنانيك في سُسْتَتَيْ ... من المرج في سكرة لا تفيق
وكلّ الصواميل قد أصبحت ... مُبعثرةً في حنايا الطريق
وأما اللّديتر قد أوشكتْ ... مصارينُه تصطلي بالحريق
يبـربـر مـن غيظـة حـانقـاً ... يرجِّع ترتيل (بق بق بقيق)
ألم تر عمري كعمر الزهور؟ ... ومهري كثيرٌ وأصْلي عريق
فكيف تُمرِّغني في التراب؟ ... أتحسب أني حمارٌ عتيق؟
أتقتلني في ربيع الشباب ... وتطحنني مثل طحن الدقيق

من أخبار المسافرين (٩)

عروة والمصائب العظيمة

إليك هذه القصة الرائعة العجيبة، والحادثة الماتعة الغريبة، قصةٌ لأحد المسافرين العظماء، والصابرين النجباء، أحد المسافرين الذين ضربوا للصبر أروع مثال، ورضوا بما كتبه ذو الجلال، وقالوا الحمد لله على كل حال.

الحادث أليم، والمصاب جسيم، ولكن هذا المسافر ذو صبر عظيم.

أما المسافر فهو: عروة بن الزبير بن العوام رحمه الله ورضي عنه وعن والده وعن أمِّه أسماء بنت أبي بكر الصديق.

وقد كان عروة من كبار علماء التابعين وقد لازم خالته أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما وتفقه على يديها.

قال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ: «ما أجد أعلم من عروة بن الزبير».

وروى ابن المديني عن سفيان عن الزهري قال: «رأيت عروة بحراً لا تكدِّره الدِّلاء».

وقد كان عروة بن الزبير مع جلالة علمه من كبار رواة الشعر وحفَّاظه وكان عابداً زاهداً كريماً محسناً. كان له بستان عظيم فإذا حان وقت الرُّطب هدم جزءاً من حائط البستان ثم أذِنَ للناس فيه فيدخلون ويأكلون ويحملون منه ما يريدون.

هذه عجالة مبتسرة من حياة هذا المسافر العظيم وسوف نتعرف

على جانب من جوانب حياته المضيئة من خلال روايتنا لقصته الآتية:

سافر عُروة بن الزبير إلى الوليد بن عبدالملك، فلما وصل إلى وادي القُرَى، وجد في رجله شيئاً، وأحس فيها ألماً فظهرت به قرحة، ثم ازداد الألم، واشتد الوجع. فلما وصل إلى الوليد، وهو على تلك الحالة من الألم الشديد الذي لم يستطع معه المشي، دعا له الوليد الأطباء فقالوا له: لابد من قطعها، فوافق على ذلك. فقالوا له: نسقيك شراباً يزول فيه عقلك حتى لا تشعر بالألم، فأبىٰ وقال: ما كنت أظن أن إنساناً يشرب ما يزيل عقله، ولكن إذا قمت إلى الصلاة فاقطعوها، فلما قام إلى الصلاة قُطعت فلم يُسمع له حسٌّ ولا صوت. فقال الوليد: ما رأيت شيخاً قط أصبر من هذا.

ولم تكن هذه هي المصيبة الوحيدة التي نزلت بعروة في سفره هذا، بل أُصيب أيضاً في ابنه محمد فقد ركضته بغلةٌ في اصطبلٍ فمات، فلم يتسخط عروة من ذلك ولم يُسمع منه كلمة ولم يزد على أن قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

وبعد أن مات ابن عروة وقطعت رجله اتجه إلى السماء في خشوع وخضوع قائلاً: اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذت واحداً وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرفاً، وأبقيت ثلاثة، ولئن ابْتَلَيْتَ، لقد عَافَيْتَ، ولئن أَخَذْتَ لقد أَبْقَيْتَ!!!

فانظر أخي المسافر إلى هذا اليقين الجازم، والقلب الحازم،

والإيمان الأكيد، والموقف الفريد، انظر إلى روعة الصبر، واحتساب الأجر.

يقول عبدالله بن عروة: نظر أبي إلى رجله بعد قطعها وهي في الطَّسْتِ فقال: إن الله يعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط وأنا أعلم.

رحم الله عروة بن الزبير ورضي عنه وغفر له وجمعنا به في جنات النعيم.

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

[سورة ق]

المسافر والشمس والقمر

المسلم إنسانٌ يتميز بأنه يمتلك النظرة الصحيحة والموقف السليم من كل مخلوقات الله تعالى من شمس وقمر ونجوم وأفلاك، وسماء وأرض، وليل ونهار.. الخ.

فهو ينظر إليها على أنها مخلوقات من مخلوقات الله تعالى، تعمل بأمره، وتسبح بحمده، وتدل على عظمته ووحدانيته وقدرته، فكلما تأملها زاد إيماناً بخالقها، وكلما نظر إليها امتلأت نفسه إجلالاً لمنشئها.

ومن آيات الله الباهرة ودلائل عظمته الساطعة الشمس والقمر.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

[فصلت: ٣٧]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

[الأنبياء: ٣٣]

والشمس والقمر سخرهما الله تعالى لحكم عظيمة وهي من نعمه على عباده. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾

[يونس: ٥]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [لقمان: ٢٩]

وبجريان الشمس والقمر تُعرف الأيام والشهور والأعوام.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦]

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس: ٥]

ومن شدة إعجاب الناس بالشمس والقمر وإكبارهما ومعرفة أهميتهما وصل الأمر بكثير منهم إلى عبادتها والسجود لهما ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]

انظر إلى الشمس وهي في حركتها المنتظمة كل يوم فهي تطلُّ علينا من المشرق، ثم تُودِّعنا وتختفي عن أعيننا من المغرب، فإذا ما أقبل الصباح ولاح ضوء الفجر إذا بها تطل علينا ثانية من المشرق فسبحان الخلَّاق العظيم، وهذا القمر يشبه في حركته وأطواره أطوار حياة الإنسان فأول ما يبدأ صغيراً ثم يتزايد نوره وجُرْمُه حتى يكمل، ثم يشرع بعد ذلك في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى.

أخي المسافر، تأمل هذه الحركة الدائبة المنتظمة للشمس والقمر فلا اختلاف ولا اضطراب ولا خلل ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

[يس: ٣٨-٤٠]

هذه الشمس لو اقتربت إلى الأرض درجة واحدة لأحرقت كلَّ ما في

الأرض ولو ارتفعت درجة واحدة لتجمد كل ما في الأرض.

ثم إن المسلم لتأخذه الدهشة والعجب حينما يعرف شيئاً من أسرار الشمس والقمر والنجوم وذلك ما أثبته العلم الحديث.

فمثلاً: بُعد الأرض عن الشمس يساوي ١٤٩,٦ مليون كيلومتر تقريباً.

والشمس والقمر ما هما إلاَّ جزء من المجموعة الشمسية والتي تتألف من الشمس وتسعة كواكب أخرى هي عطارد، الأرض، المريخ، الزهرة، المشتري، زحل، أورانوس، بلوتو، نبتون. وكل هذه المجموعة وما تضمه من نجوم وكواكب وأقمار ما هي إلاَّ جزء صغير من المجرَّة (المسماة: درب التبانة) وهناك أكثر من عشرة آلاف مجرة في هذا الكون العظيم.

هذه الشمس التي نراها ضئيلة وصغيرة إنها تكبر الأرض بمئات المرات، إذ يمكنك أن تحشو الشمس بمليون وثلثمائة ألف كرة أرضية!!

والشمس هي أهم شيء بالنسبة لحياتنا من الناحية الفلكية فهي التي تمدّنا بالضوء والحرارة، وهي التي بتبخيرها لمياه الأرض تسبب سقوط الأمطار وهي التي بتسخينها للبابسة والبحار بدرجات مختلفة تسبب هبوب الرياح، وهي التي تمد النبات بالغذاء، وهي التي تمدنا بمصادر القوة، لأن الخشب والفحم والبترول ومساقط المياه كلها تعتمد على الشمس بقدرة الله تعالى.

أما القمر فهو أقرب إلينا من الشمس ومن النجوم وبعده عنا يقل عن ربع مليون ميل، والقمر إذا قورن بالأرض يعتبر صغيراً فهي أكبر منه خمسين مرة.

والنجوم كذلك غاية في العجب والغرابة وعالم عظيم مهيب غريب.

وهي وإن ظننا أنها قريبة منَّا إلاَّ أنها أبعد من الشمس بما لا يقارن. وقد واصل الفلكيون دراسة النجوم وعرفوا ألوان لمعان عدد كبير منها والتي تصل أبعادها إلى ١٠٠ سنة ضوئية بل وأبعد من ذلك. وبعض النجوم الزرقاء يزيد ضوءُها على ضوء الشمس ١٠,٠٠٠ ضعفاً، ومقابل كل نجم من هذه النجوم يوجد ١٠٠,٠٠٠ نجم مماثل للشمس في لمعانها. وبعض النجوم يزيد في ضخامته عن الشمس بمائة ضعف.

والنجوم ملايين مملينة بحيث لا يستطيع أحدٌ مهما استخدم من المناظير أن يحيط بها كلها.

يقول أحد الفلكيين: إن عدد النجوم يزيد على عدد حبات الرمال التي على شواطئ جميع بحار الدنيا.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

وقد كانت النجوم من العلامات التي يهتدي بها الناس في أسفارهم واتجاهاتهم وأوقاتهم ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦]

وخلاصة الأمر، أخي المسافر، أن الشمس والقمر والنجوم آيات من آيات الله تعالى العظيمة، وقد رصد العلم الحديث من أخبارها ما يدهش العقول ويذهل النفوس، فسبحان الخلاَّق العظيم!! سبحانه!! سبحانه!! سبحانه!!

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾

[الفرقان: ٦١]

يقال إن الإسكندر استلقى ليلة على سريره، فتأمَّل مطالع البروج وأوافلها، وانتظام الكواكب في أقطارها، وتبيَّن كيف تجري في مسيرها، وتنعكس في مغاربها، بتدوير الفلك إياها، لا يردعه عارض عن مدى غايته، ولا يحجزه حاجز دون المضيّ لطلبته، لما رُتّب له بطبيعته، فقال: أيُّها الفلك الدوّار، المبنيّ على الحكمة، المزيَّن بالأنوار المتلألئة، إنَّ فضاء تظلُّه لرحيبٌ، وإن ركناً أنت ذِروته لوثيقٌ، وإنَّ قراراً أنت سمكه لمكينٌ، وإن سكّاناً تحصَّنوا فيك لفي معقل منيع، وإنَّ أمراً أنت أوَّله لجليلٌ، وإنَّ بَصر اللامح وراءك لكليلٌ، وإنَّ حادثاً يقتلع أركانك ويهدم سقوفك ويميلُ ذرا بنيانك ويخسف ما تكتنف محارُك لفادحٌ فظيع؛ وإنَّ قيامةً مبتدؤها ذلك لعنيفةٌ، فسبحان الذي أدَّى حواشيك إلى غير علاقة، وركَّد عليك بلا متسنَّم، وأقلَّ أسفلك بلا عمدٍ، ما أدلَّ كرور ليلك على نهارك، ورجوع نهارك بعد انقضاء ليلك، على كرور أبداننا بعد انقراضها، وأدلَّ ارتداد النضارة في بالي الشجر بعد قحوله، على ارتداد الأرواح المقبوضة في أجسامها، وأدلَّ تقسيط الحساب بين فصول الأيام، على عدالة الرجعة وعدل حساب الكرَّة، فليت شعري إلام يتناهى الأمر وإلى أيَّة الحالتين يؤول بنا الخطب، وعلى أيّنا يجب القود بما أريق بيننا وبين أملاك العالم من الدماء.

أُنشد للمأمون:

أما تَرَى ذا الفَلَكَ الدائرا أَبِيتُ من هَمٍّ به ساهِرَا

مُفكِـرّاً فيـه وفـي أمـره ... فما أرى خَلْقاً به خابرا
يُخْـبِرُ عن لُطْـفِ تدابـيره ... وكيف أضْحى للورَى حاصرا
قد ضَلَّ عقْلي في تراكيبه ... وصار قَلْبِي والهاً حائرا
يا لَيْتَ شعري هل أُرَى مَرَّةً ... أكُونُ في أَبْراجه سائرا
أكُونُ مَعْ طالِعها طالعاً ... وتـارةً مَـعْ غـائـرٍ غـائـرا
حتَّـى أرى جُمْلـةَ تـدبيـرِهِ ... وأعْلَمَ المَسْتورَ والظاهرا

يقول الرصافي:

أبْعَدَ الدهر في الفضاء مكرَّهُ ... عالقاً في مكرِّه بالمجرَّهْ
إن أم النجـوم بنـت زمـان ... لم تزل حادثاته مستمرهْ
في فضاءٍ لو سافر البرق فيه ... ألفَ قرنٍ لمَا أتى مُستقرَّهْ
ولو الشمس ضوعفت ألف ضعف ... لم تكن في أثيره غير ذرَّهْ
سعة تحسب المجرّة فيها ... حَلقةً ألقيت بصحراء قفرَهْ
يقف الفكر دونها مُكْوَنْدًا ... مُقْشَعِرًّا وتأخذ العقل حَيْرَه
إن تكن هذه المجرّة نهراً ... مستفيضاً فشمسنا منه قطرهْ

إبراهيم يناظر قومه مستدلاً بالشمس والقمر والنجوم

قال الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير هذه الآيات:

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي نبين له وجه الدلالة، في نظره إلى خلقهما، على وحدانية الله عز وجل، في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه. وقوله تعالى: ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ أي نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ ﴾ أي تغشاه وستره ﴿ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ ﴾ أي نجماً ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ أي غاب قال: ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزول. ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا ﴾ أي طالعاً ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ ﴾ أي جرماً من النجم والقمر وأكثر إضاءة ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ ﴾ أي غابت ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ أي أخلصت ديني، وأفردت عبادتي ﴿ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ أي خلقهما

وابتدعَهما على غير مثال سابق ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وقد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ والحق أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبيّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم، الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة الملائكة ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبيَّن في هذا المقام، خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة، وهي: القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدهن إضاءةً وأشرفهن عندهم الشمسُ، ثم القمر، ثم الزهرة، فبين أولاً، صلوات الله وسلامه عليه، أن هذه الزهرة لا تصلح للإلـٰهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، القمر والشمس كذلك، وهكذا انتقل من جرم إلى جرم، فلما انتفت الإلـٰهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن فإن كانت آلهةً فكيدوني بها جميعاً، ثم لا تنظرون ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ أي إنما أعبد خالق هذه

الأشياء ومخترعها، ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالقه وربُّه ومليكه وإلهه. كما قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الآيات. وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة**». وفي صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء**»، فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل، الذي جعله الله أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، ناظراً في هذا المقام؟ بل هو أولى النَّاس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة، بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه، فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً، قولُه تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ

سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ۖ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

من عجائب الكون

١ـ **عمر الأرض**: ٤٦٠٠ مليون سنة تقريباً.

٢ـ **مساحة الأرض**: ٥١٠,١٠٠,٠٠٠ كلم^{٢} منها ٢٩٪ يابسة و٧١٪ ماء.

٣ـ **وزن الأرض**: ٦,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ طن (ستة آلاف مليون ترليون طن).

٤ـ **بعد الأرض عن الشمس**: ١٤٩,٦ مليون كيلومتر تقريباً.

٥ـ **نظامنا الشمسي**: هو ما تضمه المجموعة الشمسية من كواكب ونجوم وأقمار، وتتألف مجموعتنا الشمسية من الشمس وتسعة كواكب أخرى هي عطارد، الأرض، المريخ، الزهرة، المشترى، زحل، أورانوس، بلوتو، نبتون. وكل هذه المجموعة وما تضمه من نجوم وكواكب وأقمار ما هي إلاَّ جزء صغير من المجرة (مجرتنا درب التبانة) وهناك أكثر من عشرة آلاف مجرة في هذا الكون العظيم فسبحان الخلاق العظيم.

٦ـ **حرارة سطح الشمس**: ٦٠٠٠ درجة مئوية.

٧ـ **حرارة باطن الشمس**: ١٦ مليون درجة مئوية.

٨ـ **بعد القمر عن الأرض**: ٣٤٧٥كم.

٩ـ **سرعة دورانه**: ٣٦٨٠كم/ ساعة.

سفر الهجرة

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

الهجرة: فراق المعصوم لملاعب الصبا، ، ومراتع الشباب، ومسارح الطفولة.

الهجرة: انفصال عن الأهل والجيران، والدار والسكان، والربع والأوطان.

الهجرة: الفرار بالمبدأ قبل أن يُشنق وبالعقيدة قبل أن تهدم وبالمصحف قبل أن يُصادر.

الهجرة: إنقاذ الدعوة من كتائب الزيغ، وحماية الملة من فلول الإرهاب، وتحصين الرسالة من شرذمة البغي.

الهجرة: استراحة مقاتل، وتجهيز مجاهد، وإعداد مناضل.

الهجرة: مقدمة لبناء دولة، وديباجة لصنع كيان، وثكنة لهيئة عالميَّة.

عدْ بذكراك على قلبٍ كسيرْ ... ملَّ في السير وأضناه المسيرْ
أيها المعصوم يا بدر الدجىٰ ... أنت للعالم كالبدر المنيرْ
الفيافي حالماتٌ بالمنى ... تَتَلقَّاك بترحيب مثيرْ
الروابي مشرئبات إلى ... نورك المشرق والوجه النضيرْ

الهجرة

في يوم من أيام مكة القائظة، في وقت الظهيرة، وشدة الحرارة، والنَّاس يقبعون في بيوتهم لا يستطيع أحد أن يضع قدمه أو يطل برأسه إلىٰ الخارج نظرًا لسياط الميزان الحامية التي كانت الشمس تجلد بها الأرض، في هذه اللحظات يخرج رجل واحد في حذر شديد، وترقب دائم، يمضي تكاد فروة وجهه أن تحترق من فوح الأرض، وحرارة الجو، عجب أمر هذا المتحدي لسلطان الطقس وقبضة الحر، من هو يا ترىٰ؟ إنه محمَّد بن عبدالله ﷺ إلىٰ أين يذهب؟ إلىٰ صديق العمر، ورفيق الدرب، وأنيس الطريق، إلىٰ أبي بكر الصديق.

تقول عائشة رضي الله عنها: كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النَّهار، إما بكرة وإما عشيًّا، حتىٰ إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبوبكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلاَّ لأمرٍ حدث، فلما دخل تأخَّر له أبوبكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند رسول الله أحد إلاَّ أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله ﷺ: **أخرج عني من عندك**، قال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي؟ قال: إنَّ الله أذن لي بالخروج والهجرة، فقال أبوبكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة.

قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أنَّ أحدًا يبكي من

الفرح حتىٰ رأيت أبابكر يومئذٍ يبكي!!

خرج الصاحبان، ومضىٰ الصديقان، وانطلق المهاجران، فإذا بالدهر يسجل، والزمان يكتب، والأرض تسطر، والسماء تحتفي، إنها انطلاقة الإيمان، وانبعاثة الإسلام، إنها رحلة الحق، تحركت عجلتها من مكة بعد أن كانت مجبلة موثقة، فانطلقت في طريقها الوضاء لتجوب الدنيا، وتطوف الأرض، وتطوي الفيافي، وتجتاز الوديان، وهي مع ذٰلك تنثر عطرها، وتبث عبيرها، وتفوح بشذاها، فإذا بغيثها الهنيء يروي العطش، ويسقي الظمأ، وإذا بوابلها الصيّب وودقها الطيب يحيي الأرض، وينبت الزرع، وينعش الأرواح.

إنَّ هذه الهجرة هي بداية هجرة الأجساد، أما الأرواح فقد هاجرت من قبل، والقلوب سافرت منذ زمن، انطلق المهاجران ليبدأ التاريخ يروي أجمل قصة تزينت بها هامته، ويحكي أعظم قصة تضوعت بها ذاكرتُه.

يالله ما كان أصعبه من فراق علىٰ قلب محمَّدﷺ، يخرج من مكة، يهاجر من البيت الحرام، يغيب عن زمزم، يتولىٰ عن مراتع الصبا، وملاعب الطفولة، وذكريات الماضي، يذهب عن الأهل والأبناء والأحبة، يسافر بعيدًا عن غار حراء الذي كانت فيه إشراقة حياته، يودع الهضاب التي زاره فيها جبريل، وصافحه فيه الوحي، وضمته إليه السماء، يرحل عن منزل خديجة حبيبة القلب، ونصيرة الدرب، ورفيقة العمر؟! لا شكَّ أنَّ ذٰلك أمر مرهق، وحدث موجع، لم تطق الروح النبوية أن تخفي أثره، وتتنكر لوقعه، فيلتفت ﷺ إلىٰ مكة التفاتة حزن وأسىٰ وحسرة ووداع، فيهتف في سمعها قائلاً: «**ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ، ولولا أنَّ قومي أخرجوني منك ما خرجتُ**».

ومضىٰ الصاحبان متجهين إلىٰ غار ثورٍ ليخيبا ظنَّ المشركين، ويموها عليهم بانطلاقهما جنوباً، ثم يعودان بعد ذٰلك شمالاً انطلاقًا إلىٰ المدينة.

ونحن في هذه العجالة لا نريد أن نسرد أحداث الهجرة، ولا نلم بوقائعها، ولا نعدد الدروس والعبر المستفادة منها، فذٰلك ميدان واسع، ومشوار طويل لا تكفي فيه ورقات، ولا تأتي عليه في ساعات، ولكنَّنا سنقف وقوفًا عابراً مع بعض روائع الحب والوفاء، والتضحية والفداء في هذه المسيرة المباركة، والهجرة الموفقة.

مضىٰ الصديقان، فإذا بأبي بكر رضي الله عنه وأرضاه يتدفق حيوية يمتلئ حماساً، ويتوقد فطنة ولهفاً وحرصاً وعناية وترقباً، يمضي والقلق مهيمن عليه، فتارةً يمشي أمام النبي ﷺ وكأنما يتمنىٰ لو فرش راحتيه ليمشي عليهما محمَّد ﷺ، ولسان حاله يقول صدري ونحري دون صدرك ونحرك يانبي الله، وتارة يلتفت ثم يعود ليمشي خلفه ورقبته تكاد تنكسر من كثرة تلفته، فيمضي ولسان حاله يقول ظهري وعمري فداء لك يا رسول الله، ويعجب النَّبي ﷺ من حال أبي بكر ومشيه تارة أمامه وتارةً خلفه، فيسأله عن ذٰلك: «**يا أبابكر مالك تمشي ساعة خلفي وساعة بين يدي؟**» فيقول: يا رسول الله «أذكر الطلب والعدو من ورائنا فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد والخطر أمامنا فأمشي بين يديك».

فلما وصلا إلىٰ الغار قال أبوبكر: مكانك يا رسول الله حتىٰ أستبرئ لك الغار، فدخل أبوبكر فاستبرأ الغار، وأخذ يسد كل جحر أو فوهة فيه خوفًا من حية أو عقرب أو شيء يؤذي النَّبي ﷺ، ثم قال: انزل يا رسول الله، فرأىٰ أبوبكر جحراً صغيراً خاف منه، فوضع رجله علىٰ فوهته ثم

جلسا فاضطجع النَّبي ﷺ من كثرة التعب والإرهاق، ونام متوسداً رجل أبي بكر رضي الله عنه، فإذا بعقرب تلسع أبابكر في رجله فلا يهتز حتىٰ لا يوقظ رسول الله ﷺ، ثم يشتد الألم وهو صابر حتىٰ سرىٰ السم في جسده، فعظم الكرب، واشتد الوجع، وبلغ من شدة الألم أن انتزع من عينيه دموعاً غزيرة حارة وقع بعضها علىٰ خد محمَّد ﷺ، فانتشلته من نومه انتشالاً، وجعل يسأل حائراً: «**ما ذا بك ياأبابكر؟**» قال: «لدغتني حية» وكانت فرحة التضحية قد ملأت قلب أبي بكر حرارة وحماسةً، فتغلب علىٰ شر السم الفتاك الذي كان قد بدأ يسري في دمائه، وتفل الرسول ﷺ علىٰ الجرح المسموم ومسحه قليلاً، فزال الألم والتورم في الحال.

ثم يأتي المشركون في بحثهم المستميت عن النَّبي ﷺ فيصلون إلىٰ فم الغار، فيبكي أبوبكر رضي الله عنه خوفًا على صاحبه، ويقول: يا رسول الله؛ والله لو نظر أحدهم إلىٰ موضع قدمه لرآنا!! فيقول له النَّبي ﷺ: «**يا أبابكر؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما، يا أبابكر لا تحزن إنَّ الله معنا**: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

وبعد ثلاث ليال في غار ثور يمضي الصاحبان ليواصلا مسيرة الخير المليئة بالعبر، المكتظة بالدروس، المجملة بالمشاهد الرائعة، والمواقف الماتعة، يمضيان يطويان الفيافي المرهقة، والصحاري الموهنة، وهما مهددان بالقتل، مهدرا الدم، مستباحا الحق، وكان هنالك في الجانب الآخر، في المدينة المنورة أناس عظم شوقهم، وطال حنينهم، وكثر

ترقبهم، وأضناهم الانتظار، وأتعبهم الترقب، أفئدة بالحب مترعة، وأرواح بالشوق مفعمة، أولئك الأنصار، رضي الله عنهم وأرضاهم، كانوا على أمل في مقدم النبي المرتجىٰ، والحبيب المقتدىٰ، وكانوا يتوقعون مسيره إليهم فمكثوا زمنًا طويلاً يخرجون كل يوم إلىٰ خارج المدينة فتسمر أنظارهم إلىٰ الأفق البعيد علها تظفر برؤية الحبيب القادم، فيظلون كذٰلك يتلذذون بالتعب، ويستمتعون بالنصب، فإنَّ الحب يجعل الصعب سهلاً، والمر حلواً، والحر برداً وسلاماً، والبرد دفئاً وهناءً، وهكذا ديدنهم، ينتظرون حتىٰ تكويهم الشمس بلظاها الحارق، وتلتهب الحرة من تحت أرجلهم فيعودون بأعين واكفة، وخواطر كاسفة.

وفي يوم من الأيام بعد أن يئسوا من قدوم حبيبهم وقفلوا راجعين، وإذا بالصاحبان يقبلان من بعيد لا تكاد تراهم الأعين، يتقاذفهم السراب، وتدنو بهم الرواحل، إلىٰ أن وصلا إلىٰ المدينة، وإذا بالبشير يصيح بهم، جاء محمَّد! جاء محمَّد!!، فكادت القلوب أن تسقط من شدة الفرح، واهتزت المدينة، وضجَّت بالتكبير، وتسابق النَّاس، وخلت المنازل، وإذا بوفد لا يقل عن خمسمائة رجل قد وصلوا خارج المدينة مستقبلين الحبيب القادم، وكان أكثر النَّاس لم ير النَّبي ﷺ من قبل، وأبوبكر في مثل سنه، فكان بعضهم لا يدري أيهما محمَّد، فعرف أبوبكر ذٰلك، فخلع رداءه وأخذ يظلل به رسول الله ﷺ، فعرف النَّاس وانكبوا عليه يقبلونه ويفدونه ويحيونه والقلوب جذلة، والأرواح فرحة، والوجوه متهللة، والأعين من الفرح دامعة.

يوم أغر، ومحفل أجل، وفرح أتم، كانت المدينة تكاد حتىٰ أشجارها وأحجارها وأطيارها تكاد أن تنطق: ما هذا الضياء؟ ما هذا

الهناء؟ ما هذا الإشراق؟ ما هذه الأنوار؟ إنه منظر كما يقول أنس: ما رأينا منظراً شبيهاً به.

خرج النَّاس علىٰ الطرقات، وصعدوا علىٰ البيوت، وتسلقوا الأشجار، وكل منهم يمد عنقه ويتطلع ببصره عله يظفر بنظرة في وجه أغلىٰ ضيف وطئت قدمه المدينة، والغلمان والخدم والناس جميعًا يهتفون: الله أكبر، الله أكبر، جاء رسول الله، جاء محمَّد، الله أكبر، جاء محمَّد، الله أكبر، جاء رسول الله، جاء نبي الله، وصعد النساء فوق البيوت ينظرن إلىٰ رسول الله ﷺ، وإذا بالمدينة باسمة الثغر، ناصعة المحيا، مشرقة الوجه، لم يمر بها أعظم ولا أجمل ولا أفضل من ذٰلك اليوم، وإذا بالجميع يهتفون وينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله وادع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

يقول أنس بن مالك رضي الله: شهدت رسول الله ﷺ يوم دخل المدينة، فمارأيتُ يومًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا.

ويقول البراء بن عازب رضي الله عنه، ما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ، كان النَّاس يفتحون بيوتهم، وتتسابق ورودهم إلىٰ النَّبي ﷺ كل يدعو لأن ينزل عنده، فمضى النَّبي ﷺ حتىٰ إذا أتىٰ دار بني النجار بركت ناقته هنالك، وهو مكان المسجد النبوي، فقال النَّبي ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب، فقال أبوأيوب: أنا يانبي الله، وهذه داري، وهذا بابي فنزل عنده، وكانت داره طابقين، يقول أبوأيوب: «لما

نزل عليَّ رسول الله في بيتي نزل في السفل وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له، يا نبي الله بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن فنكون في السفل، فقال ﷺ: «**يا أبا أيوب إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت**» يقول أبوأيوب، وكنا نصنع لرسول الله العشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة.

ولقد انكسر إناء لنا فيه ماء فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفًا أن يقطر علىٰ رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه».

يا أله.. يا أله... يسهر الَّليل في خوف وقلق ينشف الماء بقطيفته خوفًا أن يؤذي النَّبي ﷺ وهو ماء طاهر، فكيف لو رأىٰ أبوأبوب من يُؤذي النَّبي ﷺ بكرة وعشياً بالنيل من شريعته، والتنكب لسنته، والمخالفة لأوامره؟!!

ما أسعدك يا أباأيوب، وما أسعدكم أيها الأنصار، وما أسعدك أيتها المدينة التي شرفك الله بهذا الشرف الأعظم، وقلدك ذاك الوسام الأكرم، فخطفت إليك قلوب المسلمين وأبصارهم وأرواحهم؛ لأنَّ أعظم حبيب من البشر سكن وجدانك، ونام في أحضانك.

الرفيق قبل الطريق

إذا المرءُ لم يرضَ ما أمكنَه ولمْ يأت من أمرِه أحسنهْ
فدعه فقد ساء تدبيرهُ سيضحكُ يوماً ويبكي سَنَهْ

من أعظم نعم الله على العبد أن يرزقه رفقة صالحة، وصحبة ناصحة. سعادةٌ بالغة لمن وجد إخوةً يأنس بهم، وأحبةً يرتاح لهم، إذا كثرت عليه الهموم وجد عندهم ما يطرد هَمّه ويُذهب غمه، إذا ضاقت به الأمور لقي منهم ما يفرّج كَرْبه ويدفع ضائقته، إذا قسا عليه الزمان وجارت عليه الأيام وجد من عطفهم ما ينسيه القسوة، ومن برِّهم ما يبرد قلبه.

إذا أراد سفراً كانوا له في سفره مؤنسين، وعلى طريقه الشاق معينيين المسافر إذا رُزق الصحبة الطيبة الوفية المخلصة التقية الناصحة الصالحة، فإن مشقة السفر لا تجد إلى نفسه طريقاً، ونصب الرحلة لا يجد إلى قلبه مسلكاً، لا مشقة ولا وعثاء، لا تعب ولا عناء، لا هموم ولا شقاء.

يقال إن السفر سمِّي سفراً لأنه يُسْفرُ عن أخلاق الرجال ويكشفها على حقيقتها. رأى عمر بن الخطاب رجلاً يُثني على آخر فقال له عمر: هل سافرتَ معه؟ قال: لا. فقال عمر: فما عرفته إذن.

أخي المسافر إن اختيارك للصحبة الطيبة هو جزء لا يتجزء من سفرك، وعنصرٌ لا غنى لك عنه في رحلتك وعليك قبل الشروع في ترتيب أمتعة السفر وحاجات الرحلة أن تشرع أولاً في البحث عن الرفيق الصالح والأخ الناصح، الذي إذا غفلت ذكّرك، وإذا جهلت نبهك، وإذا أخطأت نصحك، وإذا أذنبت وعظك، إن عثرت أقال عثرتك، وإن أسأت ستر

إساءتك، وإن أحسنت أعانك على إحسانك، يؤثرك على نفسه، ويحبك من قلبه، ويصدقك في قوله ونصحه. وقد صدق أهل الأمثال في قولهم (الرفيق قبل الطريق) وقولهم (الرجل بلا إخوان كاليمين بلا شمال).

واعلم أخي المسافر أن المرء كثير بإخوانه، وأن المسافر قويٌ برفقائه، واعلم أن القرين يعرف بقرينه، وكما تكون يكون جليسك، وقديماً قالوا: قل لي من تجالس أقل لك من أنت، فاختر الجليس الصالح فإنك لن تجد منه إلاَّ خيراً، ولن ترى معه إلا حَسَنا، وقد دعانا نبي الهدى ﷺ إلى مصاحبة الصالحين ونبذ الطالحين فاستمع إلى هذا الحديث الجميل منه ﷺ: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة**».

وقال ﷺ: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**».

وقال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن مُقتدي
وصاحب أولي التقوى تنلْ من تقاهُمُ ... ولا تصحب الأردى فتردَى مع الردي

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]

قال الحكماء: الصاحب رقعة في قميص الرجل فلينظر الرجل بما يرقع قميصه.

وما صاحب الإنسان إلاَّ كرقعةٍ ... على ثوبه فليتخذ ما يشاكله

ومن صاحب العاقل ربح وفاز ومن صاحب الجاهل خسر وندم.

ولاتصحبْ أخا الجهل وإيـــاك وإيـــاهُ
فكم من جاهلٍ أردى حليماً حيـن يلقـاهُ
يُقاسُ المرءُ بالمرءِ إذا مـا هـو مـاشـاهُ
وللقلب على القلب دليـلٌ حيـن يلقـاهُ

إن المسافر المؤمن العاقل يختار لنفسه الرفيق الصالح صاحب الدين؛ فإن تارك الدِّين عدوٌّ لنفسه فكيف يُرجى منه مودَّةً لغيره.

واحذر معاشرة الدنيء فإنها تُعدي كما يُعدي الصحيحَ الأجربُ
يلقـاك يحلـف إنـه بـك واثـقٌ وإذا توارى عنك فَهْو العقربُ

قال بعض الحكماء: اصطف من الإخوان صاحبَ الدين والحسب، والرأي والأدب، فإنه رِدْءٌ لك عند حاجتك، وعند نائبتك، وأنسٌ عند وحشتك، وزينٌ عند عافيتك.

أخـلَّاء الـرخـاء هُـمُ كثيـرٌ ولكن في البلاء هُمُ قليلُ
فلا يَغْررْك خُلَّةُ من تؤاخي فما لك عند نائبةٍ خليلُ
وكـلّ أخ يقـول أنـا وفـيٌّ ولكن ليس يفعل ما يقولُ
سوى خلٍّ له حسبٌ ودينٌ فذاك لما يقول هو الفعولُ

فصحبة التقي ومرافقته هي الفوز العظيم ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]

أخي المسافر:

احـذر مـودّة مـاذقٍ مزج المرارة بالحلاوه
يحصي الذنوب عليك أيام الصداقة للعداوه

قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: لا تؤاخ الفاجر فإنه يُزيّن لك فعله، ويحب لو أنك مثله، ويزين لك أسوأ خصاله، ومدخلُه عليك ومخرجه من عندك شينٌ وعار.

يقول المأمون: الإخوان ثلاث طبقات:

طبقة كالغذاء لا يُستغنى عنه.

وطبقة كالدواء لا يُحتاج إليه إلاَّ أحياناً.

وطبقة كالداء لا يُحتاج إليه أبداً.

يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: لولا أن أجاهد في سبيل الله أو أضع جبهتي في التراب لله أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب التمر لأحببت أن أكون لحقت بالله.

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضرّ نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صَدَّعك ... شتت شمل نفسه ليجمعك

وما أروع ما قال البارودي واصفاً بعض الأصدقاء والرفقاء:

ليس الصديقُ الذي تعلو مناسِبُهُ ... بل الصديقُ الذي تزكو شمائلُهُ

إن رابكَ الدّهرُ لم تفشل عزائمه ... أو نابك الهمُّ لم تَفْتُر وسائِلُهُ

يرعاك في حالتي بُعدٍ ومقربةٍ ... ولا تُغبُّكَ من خيرٍ فواضلُهُ

لا كالذي يدّعي وداً وباطنه ... بجمر أحقاده تغلي مراجلُه

يذمّ فعل أخيه مظهراً أسفاً ... ليوهم الناس أن الحزن شامِلُهُ

وذاك منه عداءٌ في مجاملةٍ ... فاحذره واعلم بأن الله خاذِلُهُ

رزقنا الله وإياكم الصحبة الطيبة، والرفقة الصالحة، الذين نحبهم ويحبوننا في الله تعالى لنكون وإيّاهم ممن يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله.

رحـــلة!...

يقول أحمد أمين ـ رحمه الله ـ واصفاً إحدى رحلاته، وقد كانت هذه الرحلة إلى طور سيناء:

ـ إلى أين ـ يا قائد الرحلات ـ رحلتك هذا العيد؟

ـ إلى الطور.

ـ فليكن.

«وشددنا رحالنا» ولكنّ هذا تعبير لا يعجبني، فقد كان تعبيراً صحيحاً أيام الجمال والرِّحال، أما الآن فلم نركب جمالاً ولم نشد رحالاً، وإنما أعددنا السيارات واختبرنا الآلات، وزودناها بما يكفي من ماء وبنزين. فَلْنعبِّر عن ذلك كله تعبيراً واقعياً لا تقليدياً. وسرنا على بركة الله نضرب في الصحراء، ونقطع عشر ساعات ما كانت تقطعه الإبل في عشرة أيام، ولكن ما أعجب العرب! كانوا يركبون الإبل فبلغوا الغاية في التعبير عنها، وعرفوا أجزاءها، وسَمُّوا أعضاءها، ووصفوا كل شيء فيها، وأنشؤوا حولها أدباً استوفوا فيه كل معنى رائع وقول جميل، حتى لم يتركوا لمن بعدهم فيها قولاً لقائل، وأتينا بعدهم لم نستطع ـ مع حضارتنا وتقدمنا وزعمنا إرث العرب ـ أن نضع أسماء عربية لأجزاء السيارة، ولا أن ننشئ حولها أدباً، لا رائعاً ولا غير رائع، واكتفى خبراؤنا أن ينقلوا أسماءها الإفرنجية، كما نقلوا مسماها الإفرنجي، وأخذنا نصوغ عبارات الإبل للدلالة على سير السيارات. وهكذا نحن عالة على الأوربيين في المسمى وعالة على قدامى العرب في التعبير عنها؛ فمتى نشعر بالاستقلال؟

ما لنا ولهذا؟ فقد قطعنا الطريق البديع الذي يجمع بين السهول الفسيحة، والوديان التي تكتنفها الجبال الجليلة ذات الألوان البديعة، نقرب من البحر فنؤخذ بزرقته وتموجه وحركته، ونبعد عنه فنؤخذ بألوان الأرض المختلفة وجمال وشيها وسكونها وينظر جميعنا إلى ذلك كله نظرات متفاوتة حسب تفاوتنا في ثقافتنا؛ هذا عالم جيولوجي يقرأ في كل لون دلالة على نوع من المعدن، وفي كل طبقة دلالة على الأعمار، وهذا أديب لا يعنيه من كل ذلك إلاَّ جمال المنظر وجلاله، وروعته وبهاؤه، وموسيقاه ونغماته، وهذا اقتصادي يقرأ في كل صفحة تطالعه متجهما مجهولاً وثروة ضائعة، يعلم ويندم، ويدرك ويتحسر، وكلنا يلقي خطرات من فيض علمه أو فيض أدبه، وكله يأنس بالطبيعة، ويستوحيها ويستوعبها، ومن حين إلى حين ندع الطبيعة وحقائقها وجمالها، ونستمع إلى حديث يسرنا بأفانينه، ويؤلمنا بإعادتنا إلى ما هربنا منه.

وكان جميلاً منظر الغروب في الصحراء والماء، وحنت علينا الشمس فأخذت تلعب أمامنا ألعاباً مدهشة! وآخر ما فعلت أن رسمت لنا في السماء لوحةً عجيبة في ألوانها ورسومها وتخطيطها، فلم تدع لوناً إلاَّ عرضته في دقة وإحكام، وجمال وانسجام، ورسمت لنا أشكالاً فوق الهندسية، تسحر النفس، وتأخذ باللب، ثم أشفقت علينا أن نُجَنّ بإبداعها فأسرعت في الاحتجاب، وأرسلت إلينا ابنها البار القمر، فلم يلعب بالألوان لعبها، ولم يتفنن في الأشكال أفانينها، ولكن لونه الفضي الواحد جميل في الماء، جميل في الصحراء، وادع في غير عنف، هادىء هدوء الليل، ملهم إلهام الحب.

هذه هي «الطور» أرخى عليها الليل سدوله؛ وكساها من غموضه فلا ترى إلاَّ أشباحاً: شبح أحجار، وشبح أبنية، وشبح شجر، فلندعها في غموضها وسدولها حتى تأتي إلينا الشمس القوية ثانية فتمزق حجبها، وتكشف أستارها، ولننم الآن نحلم بجمال ما رأينا. وأصبحنا فارتدنا البلد، أبنية حديثة جميلة نظيفة متفرقة.

ومشينا، ووصلنا إلى عين ماء بني عليها حوض يخرج الماء من جانب عذباً دافئاً، ويخرج من جانب آخر فيسيل في الوادي، فتنبت منه الأعشاب والأشجار والنخيل. وتزين الصحراء بجمال الخضرة.

ونتسلق الجبال فنحس بما خَلّفته الحضارة في نفوسنا من أثقال وأوبئة، حتى نعيا من السير اليسير وتنقطع أنفاسنا من الصعود القليل، ونفقد مزايا العيشة البسيطة الطبيعية الملائمة للصحة، ولكننا نكد ونجد حتى نبلغ القمة، وقد بلغ منا الإعياء مبلغه، وإذا بمنظر رائع تنسينا لذته ما نالنا من الضنى؛ ننظر يمنة فهذا واد فسيح، وصحراء جرداء نثرت فيها أشجار تكافح، وننظر يسرة فهذا بحر يعج بالموج وبالحياة، وأمامك جبال متسلسلة تبعث فيك الروعة والجلال، وتتناغم كل هذه المناظر فتؤلف موسيقا يعجز عن وصفها البيان.

ونعود إلى مأوانا فنسمر سمراً لذيذاً فيه الفكاهة الحلوة، والقصص الممتع، والحديث يجري عذباً في غير كلفة، ولا تصنّع ولا منطق، ويملأ وقتنا شاعر يطربنا من إنشائه ومن إنشاده، وتضيق بنا الحجرة فنخرج إلى الجو الطلق والسماء الصافية، والبحر يلاعبه القمر.

وقضينا في الطور ثلاثة أيام، ننعم فيها بالعيشة البسيطة، ونهرب من

تكاليف الحياة، ونمعن مرة في الصحراء، ونمشي مرة على هامش البحر، ونَرْقىٰ جبلاً، ونهبط وادياً، حتى مرت كأنها حلم لذيذ.

واعتزمنا العودة فأخذنا على أنفسنا أن ننعم بمنظر لم نره في المجيء.

قمنا قبل الفجر والطبيعة كلها نائمة والقمر قد أضناه السير فعلا وجهه الشحوب، وأدَّى رسالته فاعتزم الراحة، وعلم بقدوم أمه الشمس، فأخلى لها الطريق، وسارت سيارتنا تقلق السكون بأزيزها، وبدت تباشير الصباح، ومحت آية النهار آية الليل، وطلعت الشمس فأضفت على الكون من شعاعها الذهبي الجميل؛ وعادت مناظر الصحراء والماء تعرض علينا من جديد من غير أن تفقد شيئاً من روعتها الأولى وجمالها؛ وكانت فصول الرواية طويلة غير مملولة، وصحبنا الشمس في كل حالاتها، واستقبلنا القمر في طلعته كما ودعناه في غيبته.

وتزودنا من محاسن الطبيعة ما تزودنا، وقربنا من خالقها ما استطعنا.

ثم هاهي أضواء القاهرة وضوضاؤها تردنا إلى حياتها المعقدة، وتكاليفها الشاقة، وهاهم باعة الجرائد يتصايحون يذكروننا بما نسينا من شؤون الحرب وويلاتها، وهاهي أماكننا المحدودة وأبنيتنا المتلاصقة تحجبنا عن الطبيعة وجمالها، وهاهي حياتنا الأولى تعود سيرتها وتتكرر نغمتها حتى تسنح لنا الفرصة فنفر منها في رحلة أخرى إن شاء الله.

المسافر والجبال

أيـا جَبَلَـيْ نعمـان بـالله خليـا نسيم الصبا يخلص إليَّ نسيمُها
أجد رَوْحها أو تُشف مني حرارةً على كبدٍ لم يبق إلاَّ صميمُها
لأن الصبا ريحٌ إذا ما تنسّمتْ على نفس مكروب تجلتْ همومُها

المسلم يشعر بالألفة والمودَّة مع كل ما حوله من الطبيعة والمخلوقات، ومن ذلك الجبال، يقول ﷺ: «**أحد جبل يحبنا ونحبه**». ووقف ﷺ في يوم من الأيام على جبل أحد هو وأبوبكر وعمر وعثمان فارتج الجبل فقال ﷺ: «**اثبت أحد فإنما عليك نبيٌّ وصديقٌ وشهيدان**».

الجبل رمز الشموخ، ومثال الرسوخ، وعنوان الثبات، وقرين الأنفة، وعَلَم الهداية، الجبل عندنا في الإسلام يعني أشياء كثيرة، الجبل مخلوق من مخلوقات الله تعالى، يسبح بحمد ربه، ويمتثل أمر خالقه، وقد دعانا الله تعالى إلى تأملها والنظر إليها ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر: ٢٧]

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ [الغاشية: ١٧-١٩]

إن إشراقة النور، وإطلالة الوحي، بدأت من قمة الجبل، وأول من استقبلها الجبل، فلقد هبطت ﴿ٱقْرَأْ﴾ على الرسول ﷺ وهو في قمة ذلك الجبل الشامخ جبل حراء، ولذلك سمَّاه الناس فيما بعد «جبل النور» وهو حقًّا جبل النور، وأول من استقبل النور، وإن الجبل هو الذي احتضن

الرسول ﷺ وأبوبكر حينما أرادا الهجرة إلى المدينة فاختبأا في الغار الذي في جبل ثور ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]

ولو أن ما أُنزل علينا من الهدى والقرآن أنزل على الجبل لكان أكثر منَّا خشوعاً وأعظم منَّا تصدعاً وإجلالاً لهذا الوحي ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر: ٢١]

والجبل يكاد ينهدُّ إجلالاً لله وغضباً له وخوفاً من شؤم الكلمة التي قالها أعداء الله ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم: ٨٨-٩٨]

الجبال تساهم في حفظ توازن الأرض التي نعيش عليها فهي تُقدم لنا خدمة جليلة ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل: ١٥]

﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ: ٧]

الجبال سخرها الله تسبح مع داود عليه السلام ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾

[سبأ: ١٠]

الجبال تسجد لله تعالى مع غيرها من مخلوقاته ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج: ١٨]

الأمانة التي حملها الإنسان خافت منها الجبال وأبت أن تحملها ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]

والجبل لم يستطع أن يتحمل الموقف الرهيب المهيب، وهو تجلّي الله تعالى له حينما طلب موسى من الله تعالى أن يراه ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

[الأعراف: ١٤٣]

وأخيراً فإن هذه الجبال الشامخة العظيمة إذا قامت القيامة وجاءت الصاخة ينسفها ربي نسفاً ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف]

الجبـــل

يقول أحد الشعراء واصفاً جبلاً من الجبال وما أحسن ما قال:

حتى رمت جبل الفتحين من جبل ... معظم القدر في الأجبال مذكور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس ... له من الغيم جيب غير مزرور
تمسي النجوم على تكليل مفرقه ... في الجو حائمة مثل الدنانير
فـربمـا مسحتـه مـن ذوائبهـا ... بكل فضل على فوديه مجرور
وأدرد مـن ثنـايـاه بمـا أخـذت ... منـه معـاجـم أعـواد الـدهـاريـر
مقيد الخطو جوال الخواطر في ... عجيب أمريه من ماض ومنظور
قدواصل الصمت والإطراق مفتكراً ... بادي السكيـنة مصفـر الأساريـر
كـأنـه مكمـد ممـا تعبـده ... خوف الوعيدين من دك وتسيير
أخلق به وجبال الأرض راجفة ... أن يطمئن غداً من كل محذور

وما أجمل اللفتة التي أشار إليها الشاعر بقوله:

كـأنـه مكمـد ممـا تعبـده ... خوف الوعيدين من دك وتسيير

ويقصد بذلك أن هذا الجبل كأنه مكلوم محزون لهول ما يستقبله من أمر الله تعالى إذا قامت القيامة فهو يشير بقوله ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف]

وقوله: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ [الحاقة: ١٤]

ويقول الدكتور صابر عبدالدائم في مقطع من قصيدة الجبل وهي من وحي أم القرى «مكة المكرمة»:

أنَّى أسير يَضُمُّني الجبل ... فكأنني في الصخر أرْتحلُ
من كل زاويةٍ مَلاَمِحُهُ ... تبدو وفي الأجْواء تنتقلُ
فكأنه عينُ الوجود إلى ... قلْب الخفايا لمْحُها يَصلُ
حمَلَ العُصُورَ الشمَّ كاهلُه ... وهو الفتيُّ وليس يكتهلُ
متَجهِّمٌ جَرْداءُ قِمّتُهُ ... لكنَّه بالخير يشتعلُ
مدَّتْ إلى الغيمات راحتهُ ... فإذا بجرْح الكون ينْدملُ
وإذا العوالم من بحيرته ... يُسْقَوْن فيْض العزِّ إذْ نهلوا
قدَمُ الرَّضيع تهزُّ جبهتهُ ... فإذا به للطفل يمتثلُ
وإذا بعين الحبِّ مشرقةٌ ... والأمُّ يَهْجُر قلْبَها الوجلُ
وإذا الطيور على مباسمها ... تضْوي الأغاني وهي ترتجلُ
وإذا الوجود الطفل تحضنُهُ ... أم القرى ويكبِّر الجَبَلُ
وحراء نبْعٌ في تَمَاوُجِهِ ... الأرض بالعلياء تتَّصلُ
صخْر ومنْه تفجَّرتْ شهبٌ ... ولها بكل منارةٍ شُعَلُ
اقرأ تعالى الله قائلها ... فإذا الجبال الصمُّ تبتهلُ

أعجب سفر في تاريخ البشر
المعـــراج

إنه سفر محمد بن عبدالله ﷺ إلى الملأ الأعلى، فهو رحلة المخلوق إلى الخالق، والضعيف إلى القوي، والفقير إلى الغني. سفر اتصلت فيه الأرض بالسماء ،والعقل بالنقل، والفناء بالبقاء. سفر وصل فيه الخيال بالحقيقة، والظن باليقين، والشك بالإدراك. سفر وصل الخليقة بالحضرة القدسية، والأنام بالملأ الأعلى، والبسيطة بسدرة المنتهى.

هذا السفر لمحت فيه العيون ضوء الحرف في اللوح المحفوظ، وجلال الخطاب في المقام الكريم، وقدسيَّة الميثاق في المنزل العالي.

هذا السفر رفرف بالنفس البشرية على بساط الكرم الرباني، وهتف بوجدان الإنسان لبدء الميلاد الثاني، ونفض غبار الجهل، ودخان التبعية، وأوضار التقليد عن العبد ليتبع الرسول العدناني، ومع ذلك فقد كان هذا السفر أسرع من الضوء، وأسعد من البشرىٰ، وأكبر من التاريخ.

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء: ١]

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ ۖ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ

رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ [النجم: ١-١٨]

تنبيه: المقصود بقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ جبريل عليه السلام فإن النبي ﷺ رآه على صورته الحقيقية مرتين، وليس المقصود أنه رأى الله تعالى. ففي صحيح مسلم أن أباذرّ - رضي الله عنه - سأل النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نورٌ أنَّى أراه».

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أُتيتُ بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طَرْفه، فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة، ثم عُرِجَ بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: وقد بعث إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: مَنْ أنت؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففُتِح لنا فإذا أنا بابْني الخالة: عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا، صلوات الله عليهما فرحَّبا بي ودعوا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففُتح لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ، وإذا هو قد أُعطي شطر الحسن

فرحَّب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه. قال: قد بعث إليه، فَفُتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ﴿ورفعناه مكاناً عليا﴾.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، فَفُتح لنا، فإذا أنا بهارون ﷺ فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، فَفُتح لنا، فإذا أنا بموسى ﷺ، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بُعثَ إليه، قال: قد بُعِثَ إليه، فَفُتِحَ لنا فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سِدْرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيله، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ، فقال: ما فرض ربك على أُمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإنَّ أُمتك لايطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم،

قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يارب خفِّف على أُمتي، فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى ﷺ، فقلت: حطَّ عني خمساً، قال: إن أُمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فسله التخفيف، قال: فلم أَزلْ أَرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى ﷺ حتى قال: يا محمدُ إنهنَّ خمسُ صلوات لكل يوم وليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً، فإن عملها كتبت له سيئةً واحدة، قال: فنزلتُ حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأَخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ: فقلت: رجعت إلى ربي حتى استحييت منه».

[رواه مسلم]

من أخبار المسافرين (١٠)

المجرمون يعترضون طريق زينب

هذه قصة عظيمة حقّاً، قصة مؤثرة مبكية محزنة تروي طرفاً من الإيذاء الذي تعرض له رسول الله ﷺ وتعرض له أهل بيته، وتحكي جزءاً يسيراً من العناء المرير والعذاب الذي لحق به وبأصحابه وأتباعه، ثم هي تحكي عداء المشركين، وغلظة الكافرين، وهمجية المجرمين، وفي المقابل تتجلَّى من خلالها الأخلاق النبوية العظيمة ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

إنها قصة زينب بنت رسول الله ﷺ، تلك المرأة التي كانت وفيةً لزوجها إلى آخر لحظة حتى منَّ الله عليها بإسلامه ونجاته من ركب الكافرين.

لما صارت قريش إلى بدر سار معهم أبوالعاص بن الربيع ـ زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ـ فأصيب في الأسارى يوم بدر، فكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ.

ولما بعث أهلُ مكة فداء أُسَرَائهم، بعثتْ زينبُ بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الرَّبيع بمالٍ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدْخلتها بها على أبي العاص حين بَنى عليها؛ قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقَّةً شديدةً وقال: إن رأيتم أن تُطْلِقُوا لها أسيرَها، وتردّوا عليها مالها، فافعلوا؛ فقالوا: نعم يارسول الله، فأطلقوه، وردّوا عليها الذي لها.

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه أن يخلِّي سبيل زينب إليه. ولما خرج أبوالعاص إلى مكة وخُلِّيَ سبيلُه، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً

من الأنصار مكانَه، فقال: كُونا ببطْن يأجَج ـ موضع على ثمانية أميال من مكة ـ حتى تمرّ بكما زينب، فتَصْحباها حتى تأتياني بها. فخرجا مكانهما، وذلك بعد بَدْر بشهر أو قريب منه. فلمَّا قَدِم أبوالعاص مكة أمرها باللُّحوق بأبيها، فخرجت تجهَّز.

فلما فرغت بنت رسول الله ﷺ من جهازها قَدَّم لها حَمُوها كنانة بن الربيع أخو زوْجها بعيراً، فركبته، وأخذ قوسه، وكنانته، ثم خرج بها نهاراً يقود بها، وهي في هَوْدج لها. وتحدث بذلك رجالٌ من قريش، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طُوى، فكان أول من سبق إليها هَبَّار بن الأسود بن المُطَّلب بن أسد بن عبدالعُزّى، والفِهْرِيّ؛ فروَّعها هبَّار بالرمح وهي في هَوْدجها، وكانت المرأة حاملاً، فلما رِيعتْ طَرحتْ ما في بطنها ـ وذكر عن غير ابن إسحق أن هباراً نخس بها الراحلة فسقطت على صخرة وهي حامل، فهلك جنينها، ولم تزل تهريق الدماء، قد ظلت متأثرة بذلك حتى ماتت بالمدينة بعد إسلام بعلها أبي العباس ـ وبرك حموها كنانةُ، ونثر كنانته، ثم قال: والله لا يدنو مني رجلٌ إلاَّ وضعتُ فيه سهماً، فتَكَرْكر الناس عنه. وأتى أبوسفيان في جلَّة من قُريش فقال: أيها الرجل، كفّ عنَّا نَبْلك حتى نكلِّمك، فكَفّ؛ فأقبل أبوسفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تُصِبْ، خرجتَ بالمرأة على رؤوس الناس علانيةً، وقد عرفت مُصيبتنا ونَكْبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظنّ الناسُ إذا خرجتَ بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهُرنا، أن ذلك عن ذل أصابنا عن مُصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منا ضعْف ووَهن، ولعمري ما لنا بحَبْسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك من ثُوْرة، ولكن ارجع

بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدّث الناس أن قد ردَدْناها، فسُلَّها سراً، وألْحقها بأبيها؛ قال: ففعل. فأقامت ليالِيَ، حتى إذا هدأت الأصواتُ خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله ﷺ.

وقال كنانة بن الربيع في أمر زينب، حين دفعها إلى الرَّجُلين:

عجبْتُ لهبَّار وأوْباش قَوْمه يُريدون إخفاري ببنت مُحَمَّدِ
ولستُ أبالي ما حَيِيتُ عَدِيدَهم وما استجمعتْ قَبْضاً يَدِي بالمُهَنَّد

وأقام أبوالعاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ بالمدينة، حين فرّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبيل الفتح، خرج أبوالعاص تاجراً إلى الشأم، وكان رجلاً مأموناً، بمال له وأموال لرجال من قريش، أبْضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقْبل قافلاً، لقيَتْه سريَّة لرسول الله ﷺ، فأصَابُوا ما معه، وأعجزهم هارباً، فلما قدمت السَّريَّة بما أصابوا من ماله، أقبل أبوالعاص تحت الليل حتى دخَل على زينب بنت رسول الله ﷺ، فاستجار بها، فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصُّبح فكبَّر وكبَّر الناس معه، صرختْ زينب من صُفَّة النساء: أيها الناس، إني قد أجرتُ أباالعاص بن الرَّبيع، قال: فلما سلَّم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس، فقال: أيها الناس، هل سمعتم ما سمعتُ؟ قالوا: نعم؛ قال: أما والذي نفس محمد بيده ما علمتُ بشيء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم، إنه يُجير على المُسلمين أدْناهم. ثم انصرف رسول الله ﷺ، فدخل على ابنته، فقال: أي بُنيَّة، أكْرمي مثواه، ولا يخْلُصنّ إليك، فإنك لا تَحلين له.

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى السَّريَّة الذين أصابوا مال أبي العاص، فقال لهم: إن هذا الرجل منَّا حيثُ قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحْسِنوا وتردّوا عليه الذي له، فإنَّا نحبّ ذلك، وإن أبيتم فهو فيْء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحقّ به؛ فقالوا: يارسول الله، بل نردّه عليه، فردّوه عليه، حتى إن الرجل ليأتي بالدّلْو، ويأتى الرجل بالشَّنَّة وبالإداوة، حتى إن أحدهم ليأتي بالشِّظاظ، حتى ردوا عليه مالَه بأسْره، لا يفقد منه شيئاً، ثم احتمل إلى مكة، فأدّى إلى كلّ ذي مال من قُريش ماله، ومن كان أبْضع معه، ثم قال: يامعشر قريش، هل بَقي لأحدٍ منكم عندي مال لم يأخذه؛ قالوا: لا. فجزاك الله خيراً، فقد وجَدْناك وفيًّا كريماً. قال: فأنا أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلاَّ تخوّف أن تظنُّو أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أدّاها الله إليكم وفرغتُ منها أسْلمتُ. ثم خرج حتى قَدِم على رسول الله ﷺ وأصبح من المسلمين ورد عليه رسول الله ﷺ زوجته زينب. صلى الله على محمد ورضي عن أبي العاص وزوجه وجميع الصحابة والتابعين.

المسافر والبحر

قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة]

وجاء أحد المسافرين الذين يكثرون ركوب البحر جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن مسألة تتعلق بالبحر فقال: إنا قوم نركب البحر وليس معنا إلاَّ القليل من الماء، فإذا توضأنا به عطشنا، فهل نتوضأ بماء البحر فأجابه ﷺ بجواب من جوامع كلمه ومن الكلام الموجز المعجز، فأجابه عما سئل وزاده فائدة أخرى حيث قال له: «**هو الطهور ماؤه الحلُّ ميتته**».

البحر مخلوق من مخلوقات الله تعالى وآية من آياته ونعمةٌ من نعمه على عباده ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى: ٣٢]

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤]

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠]

البحر آية من آيات الديان، ومكمن اللؤلؤ والمرجان، ونعمة من الله للإنسان ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

البحر رمز البذل والعطاء، ومَثَلُ التدفُّق والنماء، وعنوان العبقرية والعمق والذكاء. إذا أُريد وصف إنسان بأنه معطاء لم يكن هنالك أعظم من تشبيهه بالبحر.

هو البحر من أي النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

وإذا أريد وصف إنسان بأنه بلغ في العلم والموسوعية أبعد ما يمكن وصف بأنه كالبحر فيقال هو بحرالعلوم.

كالبحر في علمه السامي وذو خلقٍ كالمسك كالعنبر الفوَّاح كالزهرِ

وإذا أريد وصف شاعر بالتدفق والسلاسة قيل: «يغرف من بحر».

البحر مخلوق عجيب وعالم غريب، ومركب رهيب مهيب، ولذلك فإن الإنسان إذا ركب البحر زاد خوفه، وارتجف فؤاده، وخفق قلبه، لاسيما إذا طغى الموج وعصفت الريح فإنه يصبح في حالة من الذعر والخوف وهنا ينقطع أمله من كل أحد ويلجأ إلى الله تعالى ويدعوه ويرجوه ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٦٣]

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]

البحر من آيات الله الباهرة، ودلائل العظمة الساطعة، والذي نفسي بيده إن الإنسان المسلم إذا قعد على شاطىء البحر، وخاصة عند الغروب، ثم أعمل ذهنه ونظر بعين العبرة إنه يحصل على موعظة بالغة تزيد إيمانه، وتحرك وجدانه، وتنفي عن القلب أدرانه.

ومن عجائب البحار أن البحر المالح يلتقي بالبحر العذب ومع ذلك لا

يختلط هذا بهذا ولا يبغي هذا على هذا فسبحان الخلاَّق العظيم القائل في قرآنه الكريم ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ [الرحمن: ١٩-٢١]

إن بيننا نحن المسلمين - أعني بذلك المسلمين منذ آدم عليه السلام - وبين البحر صداقة وثيقة، ومحبة عريقة، ومودة عميقة، إن الصلة بيننا وبين البحر قديمة قدم التاريخ، عميقة عمق البحر، المسلم إذا رأى البحر انقدحت في ذهنه ذكريات خالدة، ومواقف رائدة، ودلائل عظمة شاهدة، وأعظم تلك المواقف وأجل تلك الذكريات هو ما كان مع موسى عليه السلام، فالبحر قام بدورٍ رائد، وفعل ماجد في نصرة موسى عليه السلام منذ أن كان طفلاً صغيراً إلى أن أظهره الله على فرعون وجنوده. فالبحر هو الذي حمل موسى وهو طفل رضيع وصانه إلى أن أسلمه إلى بيت الطاغية فرعون ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧]

والبحر هو الذي استجاب لعصا موسى فانفلق ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣] فنجى موسى ثم انقض البحر على عدو الله فكان من المغرقين ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٦] ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس]

ولموسى مع البحر قصة أخرى وهي التي ذكرها الله تعالى في رحلة موسى إلى الخضر وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى

﴿نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾

[الكهف: ٦٣]

ومنها قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩]

وهنا نبيٌّ آخر له مع البحر قصة عجيبة، وواقعة لطيفة وهو نبي الله يونس عليه السلام «ذو النون» الذي التقمه الحوت ثم نجّاه الله واستجاب لدعائه، وسوف ترد معنا هذه القصة بشيء من التفصيل فيما بعد إن شاء الله تعالى.

والسلف رضوان الله عليهم لهم قصص مع البحر عجيبة فقد ثبت عن كثير منهم ـ في جهادهم ـ أنهم كانوا يعبرون بخيولهم البحر وكأنما يمشون على اليابسة.

والكلام عن البحر يشمل النهر أيضاً، وإليك هذه القصة العجيبة فوالله إنها قصة تحمل في طياتها العجب العجاب، ما أروعها ما أعجبها ولولا أنها أمور قد سجّلها التاريخ، وحوادث قد صدقها الدهر لقال الإنسان إنها ضربٌ من الخيال، ونسجٌ من الأوهام، ولكنها حدثت بالفعل، وما ذلك على الله بعزيز.

يقول ابن كثير في «البداية والنهاية» في قصة فتح المدائن بقيادة سعد ابن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: وأُخبر سعدٌ بأن كسرى يزدجرد عازم على أخذ الأموال والأمتعة من المدائن إلى حلوان، وأنك إن لم تدركه قبل ثلاث فات عليك وتفارط الأمر. فخطب سعد المسلمين على شاطئ دجلة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا

البحر فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم. فقالوا جميعاً: عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل. فعند ذلك ندب سعد الناس إلى العبور ويقول: من يبدأ فيحمي لنا الفراض ـ يعني ثغرة المخاضة من الناحية الأخرى ـ ليجوز الناس إليهم آمنين، فانتدب عاصم ابن عمرو وذوي البأس من الناس قريب من ستمائة، فأمّر سعد عليهم عاصم بن عمرو ووقفوا على حافة دجلة فقال عاصم: من ينتدب معي لنكون قبل الناس دخولاً في هذا البحر فنحمي الفراض من الجانب الآخر؟ فانتدب له ستون من الشجعان المذكورين ـ والأعاجم وقوف صفوفاً من الجانب الآخر ـ فتقدم رجل من المسلمين وقد أحجم الناس عن الخوض في دجلة، . فقال: أتخافون من هذه النطفة؟ ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ ثم أقحم فرسه فيها واقتحم الناس، وقد افترق الستون فرقتين أصحاب الخيول الذكور، وأصحاب الخيول الإناث. فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا: ديوانا ديوانا. يعني: مجانين مجانين. ثم قالوا: والله ما تقاتلون إنساً بل تقاتلون جنًّا. ثم أرسلوا فرساناً منهم في الماء يلتقون أول المسلمين ليمنعوهم من الخروج من الماء، فأمر عاصم بن عمرو أصحابه أن يشرعوا لهم الرماح ويتوخوا الأعين، ففعلوا ذلك بالفرس فقلعوا عيون خيولهم، فرجعوا أمام المسلمين لا يملكون كف خيولهم حتى خرجوا من الماء، واتبعهم عاصم وأصحابه فساقوا وراءهم حتى طردوهم عن الجانب

الآخر، ووقفوا على حافة دجلة من الجانب الآخر ونزل بقية أصحاب عاصم من الستمائة في دجلة فخاضوها حتى وصلوا إلى أصحابهم من الجانب الآخر فقاتلوا مع أصحابهم حتى نفوا الفرس عن ذلك الجانب وكانوا يسمون الكتيبة الأولى كتيبة الأهوال، وأميرها عاصم بن عمرو، والكتيبة الثانية الكتيبة الخرساء وأميرها القعقاع بن عمرو. وهذا كله وسعد والمسلمون ينظرون إلى ما يصنع هؤلاء الفرسان بالفرس، وسعد واقف على شاطىء دجلة. ثم نزل سعد ببقية الجيش، وذلك حين نظروا إلى الجانب الآخر قد تحصن بمن حصل فيه من الفرسان المسلمين، وقد أمر سعد المسلمين عند دخول الماء أن يقولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم. ثم اقتحم بفرسه دجلة فاقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد، فساروا فيها كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملؤوا ما بين الجانبين، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن، والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده، ولأن أميرهم سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وقد توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، ودعا له. فقال: «**اللهم أجب دعوته، وسدد رميته**» [أخرجه الحاكم: ٣/ ٥٠٠ وصححه، ووافقه الذهبي]، والمقطوع به أن سعداً دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر، وقد رمى بهم في هذا اليم فسددهم الله وسلمهم، فلم يفقد من المسلمين رجل واحد غير أن رجلاً واحداً يقال له غرقدة البارقي، زلَّ عن فرس له شقاء، فأخذ القعقاع ابن عمرو بلجامها، وأخذ

بيد الرجل حتى عدله على فرسه، وكان من الشجعان، فقال: عجز النساء أن يلدن مثل القعقاع بن عمرو. ولم يعدم للمسلمين شيء من أمتعتهم غير قدح من خشب لرجل يقال له مالك بن عامر، كانت علاقته رثة فأخذه الموج، فدعا صاحبه الله عز وجل، وقال: اللهم لا تجعلني من بينهم يذهب متاعي. فرده الموج إلى الجانب الذي يقصدونه فأخذه الناس ثم ردوه على صاحبه بعينه. وكان الفرس إذا أعيا وهو في الماء يقيض الله له مثل النشز ـ المكان المرتفع ـ فيقف عليه فيستريح، وحتى إن بعض الخيل ليسير وما يصل الماء إلى حزامها، وكان يوماً عظيماً وأمراً هائلاً، وخطباً جليلاً، وخارقاً باهراً، ومعجزة لرسول الله ﷺ، خلقها الله لأصحابه لم ير مثلها في تلك البلاد، ولا في بقعة من البقاع، سوى قضية العلاء بن الحضرمي، بل هذا أجل وأعظم، فإن هذا الجيش كان أضعاف ذلك. قالوا: وكان الذي يساير سعد بن أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي، فجعل سعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل. والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه، وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات. فقال له سلمان: إن الإسلام جديد. ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً. فخرجوا منه كما قال سلمان لم يغرق منهم أحد، ولم يفقدوا شيئاً.

ولما استقل المسلمون على وجه الأرض خرجت الخيول تنفض أعرافها صاهلة، فساقوا وراء الأعاجم حتى دخلوا المدائن، فلم يجدوا بها أحداً، بل قد أخذ كسرى أهله وما قدروا عليه من الأموال والأمتعة

والحواصل وتركوا ما عجزوا عنه من الأنعام والثياب والمتاع، والآنية والألطاف والأدهان ما لا يدرى قيمته. وكان في خزانة كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف ألف دينار ثلاث مرات فأخذوا من ذلك ما قدرا عليه، وتركوا ما عجزوا عنه وهو مقدار النصف من ذلك أو ما يقاربه. فكان أول من دخل المدائن كتيبة الأهوال ثم الكتيبة الخرساء، فأخذوا في سككها لا يلقون أحداً ولا يخشونه غير القصر الأبيض ففيه مقاتلة وهو محصَّن.

فلما جاء سعد بالجيش دعا أهل القصر الأبيض ثلاثة أيام على لسان سلمان الفارسي، فلما كان اليوم الثالث نزلوا منه وسكنه سعد واتخذ الإيوان مصلى، وحين دخله تلا قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ ثم تقدَّم إلى صدره فصلى ثمان ركعات صلاة الفتح. فسبحان الله العظيم ورضي الله عنهم أجمعين.

وإليك هذه الأعجوبة الأخرى التي حدثت على زمن عمر بن الخطاب، قصة من قصص التعامل مع البحر على أنه مخلوق من مخلوقات الله تعالى.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: روينا من طريق ابن لهيعة عن قيس بن الحجاج عمن حدثه قال: لما افتتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص حين دخل بؤنة ـ من أسماء أشْهُر العجم ـ فقالوا: أيها الأمير، لِنِيْلِنَا هذا سنة لا يجري إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت اثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا

النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا مما لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله. قال: فأقاموا ثلاثة أشهر والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً، حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي، فألقها في النيل. فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها «من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر. أما بعد، فإن كنت إنما تجري من قبلك ومن أمرك فلا تجر فلا حاجة لنا فيك، وإن كنت إنما تجري بأمر الله الواحد القهار، وهو الذي يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك» قال: فألقى البطاقة في النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة وقطع الله السنة عن أهل مصر إلى اليوم. اهـ.

أسطول معاوية في البحر

هذا الشاعر المسلم محمود غنيم، يكتب قصيدة عن مغامرات المسلمين البحرية في زمن معاوية ـ رضي الله عنه ـ، وقد قدَّم لها بقوله: وقد بلغ أسطول معاوية زهاء ١٧٠٠ سفينة كاملة العدد والعدة، وقد أخضع البحر الأبيض ووصل إلى أسوار القسطنطينية فحاصرها حيناً من الزمان.

لمن السفينُ يَلُحنَ كالأعلام ... فوق العُباب نواشرَ الأعلام
يمخُرْنَ باسم الله موجَ خُضارةٍ ... واسم الهدى ومبادىء الإسلام
يهتفن بالتكبير لحناً شاجياً ... فتُجيبُ أمواجُ الخضَمِّ الطامي
ويثبْن آونةً أسودَ عرينةٍ ... ويطرن آونةً حمامَ سلام
يمطرن بالجُزر الدماء. وربما ... كان الدم الموَّارُ صوب غمام
بعضُ الدَّم الموارِ ليس بمأثمٍ ... لكنه طُهرٌ من الآثام
هذي سفينُ الله سارت عَيْلماً ... متراميا في عيلم مُتَرَام
لم تدفع الريحُ الهُبوبُ قلاعها ... بل أقلعت بالوحي والإلهام
وحرارة الإيمان وهي حرارةٌ ... مازادها الآذيُّ غيرَ ضِرام
إن تَسْرِ فالجُزرُ الحرام مباحةٌ ... أو تُرسِ فالشُطآنُ في استسلام
أزجى معاويةُ السفينَ تسيرُ أو ... ترسو بكل غَضَنْفرٍ ضِرغام
فكأن بحرَ الروم أصبح مُنبِتاً ... بعد الفلا للغاب والآجام
بدم الشهادة خضبوه فضاعَ من ... أرجائه أرَجُ العباب الدامي
جمح العُبابُ فأسلسوه كأنما ... قبضتْ عليه أكفُّهم بزمام

جالت سنابك خيلهم في لُجَّةٍ ... جَولانَها في مهمَهٍ وَرِجام
ولهم نفوس صافياتٌ صفوَ ما ... بقراره من لؤلؤٍ ونُؤَام
لله بحرُ الروم وهو بُحَيرَةٌ ... عربيةُ اللَّهوات والأرحام
ومعاقل اليونان وهي محاربٌ ... مكتظَّة بالصُّوَّم القُوَّام
لله «رودِس» إذ تُصيخُ «وقبرصُ» ... لِصَدَى الأذان مرتَّل الأنغام
خاض المياه كأنما هو حُوتُها ... من كان يطوي البيد بالأقدام
ورعى البحارَ ومن يقيمُ بهن من ... أمَم: رعاةُ النوق والأغنام
حكم البحارَ فما طغا طُغيانَها ... نفرٌ يُجيدُ العدلَ في الأحكام
حسروا ظلال الروم عن أمواجها ... فتحررت من ربقة الأعجام
نفَذُوا إلى أسوار «قُسطنطين» في ... عزم كحدِّ السيف غير كهام
ورموا معاقله وإن لم تستجب ... لسهامهم. سَلمت يمين الرامى
أطُمٌ عزَزْن على الحنيفة حقبةً ... ثم استجبن على مدى الأيام

مسافر في البحر

يقول إيليا أبوماضي:

ولقد ركبتُ البحرَ يزأر هائجًا ... كالليث فارق شبله بل أحْنَقا
والنفس جازعةٌ ولست ألومها ... فالبحر أعظم ما يُخاف ويُتَّقَىٰ
فلقدْ شهدتُ به حكيمًا عاقلاً ... ولقد رأيتُ بهِ جَهولاً أخْرَقا
مسْتَوفزٌ ما شاءَ أنْ يلهُو بِنَا ... مُترفِّقٌ ما شاءَ أنْ يترفَّقا
تتنازَعُ الأمواجُ فيه بعضُها ... بعضاً عَلَى جَهْل تُنازِعُنَا البَقا
بينَا يَراها الطّرفُ سُوراً قائماً ... فإذا بها حالتْ فصارتْ خَندَقاً
والفُلكُ جاريةٌ تَشُقُّ عُبَابَهُ ... شَقَّاً، كما تَفْري رداءً أخْلَقَا
تعلُو فنحسبُها تَؤُمُّ بِنا السَّما ... ونَظنُّ أنَّا راكبونَ مُحَلِّقا
حتَّى إذا هبطتْ بنا في لُجَّةٍ ... أيقنْتُ أنَّ الموتَ فينا أحْدَقا
والأُفقُ قد غطَّى الضبابُ أديمَهُ ... فكأنَّما غَشيَ المدادَ المُهْرَقا
لاالشَّمْسُ تسطعُ في الصَّبَاح ولانَرى ... إمَّا استطالَ اللَّيلُ؛ بَدْرًا مُشرِقًا
عشرونَ يومًا أو تزيدُ قَضيتُها ... كيفَ التفَتُّ رأيتُ ماءً مُغدقا

حافظ إبراهيم يسافر في البحر

يقول حافظ إبراهيم في رحلته إلى إيطاليا :

عاصِفٌ يَرتَمي وبَحرٌ يُغيرُ ... أنـا بـالله منهُمـا مُستَجيـرُ
وكأنَّ الأمواجَ، وهي تَوالى ... مُحنَقاتٍ، أشجانُ نَفسٍ تَثُور
أزْبَدَتْ، ثمَّ جَرجَرَتْ، ثم ثارَتْ ... ثمّ فارَتْ كما تَفُورُ القُدُورُ
ثمَّ أوفَتْ مِثلَ الجبالِ على الفُلْـ ... ـكِ وللفُلكِ عَزمةٌ لا تَخُورُ
تَتَرامى بجُؤجُؤٍ لا يَبالي ... أمِياهٌ تَحوطُه أم صُخُورُ؟
أزعَجَ البَحرُ جانِبَيها مِنَ الشَّـ ... ـدِّ فجَنبٌ يَعلُو وجَنبٌ يَغُورُ
وهو آناً يَنحَطُّ من عُلْو كالسَّيْـ ... ـلِ وآناً يَحُوطُها منه سُورُ
وهي تَزوَرُّ كالجَوادِ إذا ما ... ساقَهُ للطِّعانِ نَدبٌ جَسُورُ
وعليها نُفُوسُنا خائِراتٌ ... جازِعاتٌ كادَتْ شَعاعاً تَطيرُ
في ثَنايا الأمواجِ والزَّبدِ المَنْـ ... ـدُوفِ لاحَتْ أكفانُنا والقُبُورُ
مرَّ يومٌ وبعضُ يومٍ علينا ... والمَنايا إلى النُّفوسِ تُشيرُ
ثمَّ طافَتْ عِنايَةُ اللهِ بالفُلْـ ... ـكِ فزالَتْ عمَّن تُقِلُّ الشُّرورُ
ملَكَتْ دَفَّةَ النَّجاةِ يَدُ اللّـ ... ـهِ فسُبحانَ مَن إليه المَصيرُ
أمَرَ البَحرَ فاستَكانَ وأمسى ... منه ذاكَ العُبابُ وهو حَصيرُ
أيّها البحرُ لا يَغُرَّنكَ حَولٌ ... واتِّساعٌ وأنتَ خَلقٌ كبيرُ
إنّما أنتَ ذَرَّةٌ قد حَوَتها ... ذَرّةٌ في فَضاءِ رَبِّي تَدُورُ
إنَّما أنتَ قَطرَةٌ في إناءٍ ... ليسَ يَدري مَداهُ إلاَّ القَديرُ

يونس في البحر

حادثةٌ جسيمة، وقصة عظيمة؛ لأحد المسافرين النبلاء، والهداة الأتقياء، لنبيٍّ من الأنبياء. كفى بالبحر رعباً، وبأهواله خوفاً، وبأمواجه فزعاً، فما بالكم إذا كان مع الهول أهوال، ومع الفزع أعوان، لقد اجتمعت ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت عليه.

ذلكم هو ما حدث لنبي الله يونس بن متَّى ـ عليه السلام ـ «ذي النون» يعني صاحب الحوت، فاستمع معي إلى أحدث بيان، وأصدق تبيان، وهو يحدثنا الخبر، ويقص علينا الأثر، لعل لنا معتبراً:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

[الصافات: ١٣٩ـ١٤٨].

ملخَّص القصة: أن الله تعالى بعث يونس عليه السلام إلى أهل «نينوى» وهي قرية من أرض الموصل قريبة من نهر دجلة، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا وتمردواعلى دعوته، وتمادوا في كفرهم، فخرج من بينهم مغاضباً لهم، وضاق صدراً بتكذيبهم، فأنذرهم بعذاب قريب، فلما تحقّقوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، ثم تضرعوا إلى الله تعالى، وجأروا إليه فرفع الله عنهم العذاب.

وأما يونس ـ عليه السلام ـ فقد قاده الغضب إلى شاطىء البحر حيث ركب سفينةً مشحونة مملوءة، وفي وسط اللجّة ناوأتها الرياح والأمواج، ولجت بهم فخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجلٍ يُلقونه من بينهم يتخفّفون منه لينجو البقية، فوقعت القرعة على يونس، وهذا معنى (فساهم) فأبوا أن يلقوه لأنه معروف عندهم بالصلاح، فأعادوا القرعة فوقعت عليه ثم أعادوها فوقعت عليه، فقام وألقى بنفسه في البحر، فالتقمه الحوت وهو (مليم) أي مستحق للوم لأنه تعجَّل وترك قومه مغاضباً قبل أن يأذن الله له، وقد أوحى الله تعالى إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك تكون له سجناً، وعندما أحس يونس بالضيق في بطن الحوت سبح الله واستغفره وذكر أنه كان من الظالمين، فسمع الله دعاءه واستجاب له فلفظه الحوت ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢١]

وقد خرج من بطن الحوت سقيماً عارياً على الشاطىء، فأنبت الله عليه اليقطين، وهو القرع يظلّله بورقه العريض، ومنع عنه الذباب الذي يقال إنه لا يقرب هذه الشجرة، وذلك من تدبير الله تعالى ولطفه. فلما استردّ عافيته ردَّه الله إلى قومه الذين تركهم مغاضباً فآمنوا واستغفروا، وطلبوا العفو من الله فسمع لهم وعفا عنهم ﴿ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾ ﴾ وقد كانوا مائة ألفٍ أو يزيدون. أي: بل يزيدون.

قال ابن مسعود: إن الحوت ذهب بيونس في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

وقيل: إن يونس قام فصلى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «**يارب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس**».

وقد روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن يونس حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، فقال: «**اللهم لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**»، أقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يارب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة. فقال الله تعالى: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يارب ومن هو؟ قال عز وجل: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لايزال يُرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة، قالوا: يارب أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه بالعراء.

يقول رسول الله ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت، لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ولم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلاَّ استجاب الله له**» [صحيح الجامع].

بعض الدروس المستفادة من قصة يونس:

١ـ وجوب الصبر على الدعوة إلى الله تعالى والتحمل في سبيلها وعدم استعجال النتائج، وعدم اليأس من صلاح الناس.

٢ـ ينبغي أن يكون الداعية منشرح الصدر واسع الخاطر حتى يستطيع أن

يقوم بمهمته.

٣ـ لطف الله تعالى بعباده المخلصين وحفظه لهم واستجابته لهم إذا تابوا إليه وأنابوا.

٤ـ إن كل ما في هذا الكون هو مسخر لله تعالى ولا يعصي له أمراً.

٥ـ إن الداعية قد يصاب بالمصائب وتلحق به النكبات ليكون في ذلك تربية له وصقلاً لفؤاده، وتطهيراً لنفسه.

٦ـ إن العبد المؤمن الذي عرف الله تعالى في الرخاء يعرفه الله في الشدة ويلهمه رشده ويدله على الفلاح والنجاح.

٧ـ إن الداعية الصادق يشق عليه أن يكذبه الناس ويتهموه ولكن ذلك جزء من تكاليف الرسالة وتبعات الدعوة فعليه أن يصبر له.

٨ـ إن الداعية الصادق المخلص المعروف بصلاحه واستقامته وحُسْن نيته يفرض احترامه وحبه على الناس حتى ولو كانوا من أعداء منهجه والمعاندين لرسالته. ولذلك رأينا أهل السفينة شق عليهم أن يرموا يونس في البحر وأعادوا الاقتراع مراراً لكي ينجو لمعرفتهم باستقامته وصلاحه حتى ولو لم يكونوا مؤمنين برسالته.

٩ـ عدم القنوط من رحمة الله أو اليأس من روحه، فإن الأمور إذا ادلهمَّت، والحياة إذا تأزَّمت، والأبواب إذا أُغلقت، جاء من الله الفرج، وحدث النصر، ونُفِّس الكرب.

١٠ـ وجوب الاعتصام بالله، والتوجه إليه، والانطراح بين يديه.

١١ـ إن أفضل ما يتقرّب به الإنسان إلى ربه وأجمل ما يستدرّ به رحمته وعفوه هو إشراب القلب معنى الوحدانية، وإعمار النفس بحقيقة

الألوهية «**سبحانك لا إله إلاَّ أنت**».

١٢- اتهام النفس، وإعلان الندم، والاعتراف بالذنب، سبب لنيل التوبة، وكسب العفو، وحصول الفرج «**إني كنت من الظالمين**».

أنا والبحر

في إحدى اللَّيالي الحالمة كنت على شاطيء الخليج في أحد أسفاري، وكان ذٰلك في فندق الدوحة شيراتون، فسرحت بروحي وخيالي ووجداني مع البحر فكانت هذه القصيدة:

عزفت على أمواجه عذب أعوادي ... وأرسلت صوت الحب كالبلبل الشادي
تفجرت الأشواق في قلب شاعر ... أتى لضفاف البحر من غير ميعاد
تراقصت الأمواج حتى كأنها ... تغني على أنغام حبي وإنشادي
عجبتُ له لا زال بالفضل زاخراً ... يشابه في مذخوره لغة الضاد
تـأملتـه فـي بعـده واتسـاعـه ... كـأنَّ لـه آمـال روحـي وأبعـادي
إذا ما أتاه المرء بالهم مثقلاً ... يـرى فيـه تنفيسًـا لكـرب وأنكـاد
على ضفتيه يسكن الحب والهوى ... وفيح لهيب العشق يمنى بإخماد
إذا بثه الأحباب ما في نفوسهم ... رأوا فيـه تـرويحًـا لآهـات أكبـاد
يشاطره من يشتكي هجر خلِّه ... همـومًـا فيلقـى منـه أنسـام إبـراد
هواء عليل يمتع النفس كلما ... سرى طيبه أزكى من المسك والكادي
تلذّ عليه ساعة الوصل والمنى ... ويحدو إلى معنى الهوى والرضا حاد
إذا ما خلا قلبٌ محب بحبه ... على البحر ينسى كل هم وإجهاد
ويحلو لذي الإيمان تسبيح ربه ... على شاطئ فيه انسجام لمرتاد
يرى من هدى الباري وآثار فضله ... دلائـل للتـوحيـد مـن غيـر أنـداد
فكم رُتِّلتْ في هدأة اللَّيل آية ... علـى ضفتيـه مـن تـرانيـم عبـاد
وكم نظرة للبحر نفاذة الرؤى ... تسل سيوف الفكر من بعد إغماد

إذا داعبته الريح يهدي نسائمًا ... من اللطف تروي غلة المدنف الصادي
وإن زمجرت يومًا تثير انفعاله ... وتَنْقَضُّ أمواج لها صوت إرعاد
إذا ثار فهو الخوف والموت والردى ... وتعشقه الأرواح في ثوبه الهادي
إذا ما ارتدى ثوب الرضا كان سلوة ... لأضيافه من كل جمع وآحاد
وتُجنى أفانين المنى في رحابه ... وتُقضى اللَّيالي في سرور وأعياد
فإن ماج لم يأبه لجار وصاحب ... فكم من دمار واقتحام وإسهاد
قويٌّ صبور صامدٌ كم توافدت ... عليه بالبرايا ثم تمنى بإحصاد
ولا زالت الأمواج منذ ابتدائه ... تُوالي خطاها في هبوط وإسناد
وكم أوجد الباري به من عوالم ... تحدث عن إعجاز خلق وإيجاد
إذا كانت الأسماك تأبى فنونها ... وألوانها أن تنطوي تحت أعداد
فكيف بآلاف الأعاجيب غيرها ... ومن رائح في لجَّة البحر أو غاد
إذا غازلته الشمس عند غروبها ... تذوب على أحضانه رغم حساد
وترسم في شطآنه قصة الهوى ... بلون لنار الحب كالجمر وقاد
تخيل للأنظار وصلاً وبينها ... وبين احتضان البحر آماد آماد
وفيها من الآيات ما يذهل النهى ... وذٰلك ما يرويه أرباب أرصاد
وكم آية لله تروي بنفسها ... شواهد للإبداع من غير إسناد
إذا ما ادلهم الخوف يومًا براكب ... عليه وهاج الموج في شر إزباد
تعلقت الأرواح بالله ترتجي ... نجاة وتنسى حينها كل مُرْتاد
ومن فضله إسعاف من يحتمي به ... ومن يصدق النجوى على غير أحياد
يُنَجِّي ذوي الإشراك إن أذعنوا له ... فكيف بعبدٍ مخلص الدين حمَّاد
ألا أيهذا البحر هلا رويت لي ... أحاديث من أخبار هودٍ ومن عاد
وعمن مضى من قوم نوح وتُبَّع ... وموسى وذي مكر شديد وأوتاد

وعن آل ساسان الذين تألقوا بأمجادهم دهرًا وعن آل شدَّاد
وعمن قضوا ليلاً من الأنس حالمًا وكم شيَّدوا من دار لهو ومن ناد
وعن غادة تهدي على الشط حسنها تباهي بقدٍ فارع الطول ميَّاد
وعن باطش للهول والموج ماخرٍ فكانت له الأمواج في شرٍّ مرصاد
وعن ذي شباك يطلب الصيد فانبرى له القرش لم يرفق بأهل وأولاد
وعن مؤمن خاض المحيطات صابرًا يمزق بالإيمان أستار إلحاد
وعن أمم من كل بر وفاجر ولون وجنس أو عبيد وأسياد
قرون مع الأيام تفنى وأنت في صمودك لم تحفل بموت وميلاد
فثارت بوجهي موجة هز صوتها كياني ويحيي بردها كل إهماد
ألم تدر أنَّ الخلد لله وحده وأنَّ جميع الخلق ليسوا لإخلاد
ألا أيهذا البحر يا خير آية على روعة الإبداع للخالق الهادي
لنا ذكريات فيك تزهو بطيفها وتبعث في أرواحنا عطر آباد
حملت كليم الله طفلاً ملففًا بأمر من الباري على متن أعواد
مضيت به للمارد الكافر الذي طغى وانبرى ما بين قتل وإفساد
وما زلت في حب لموسى ونصرة وكنت لجند الحق تسعى بإمداد
هوى بالعصا موسى فحييت صوته بخير دروب آمنات كأطواد
فلما أتى فرعون يزهو بجيشه تدافعت الأمواج فتكًا بأوغاد
وأبقيت للذكرى مدى الدهر آية فناءٌ لأرواح ومكث لأجساد
ويونس لما ساهم الركب سهمه رماه بلج منك من غير إنجاد
سعى الحوت مأمورًا به لالتقامه فأمسى بجوف الحوت في هول إرعاد
فقام يناجي ربه في ظلامه بأزكى دعاء في خضوع وترداد
يناجي الذي ما خاب من يحتمي به غياث لملهوف ملاذ لقصَّاد

أتى أمره للحوت أن ألق يونسًا ... فما لك فيه أيها الحوت من زاد
فألقى به مضنًى إلى ظل دوحة ... وبادر يقطينٌ لستر وإضماد
ويمضي شريط الذكريات الذي لنا ... مع البحر من مجدٍ تليد وإسعاد
أولئك جند الله ساروا بخيلهم ... على البحر حتى هابهم كل صداد
وجن جنون الفرس والروم إذا رأوا ... خيولاً على الأمواج تمضي بآساد
هوى عرش كسرى وانقضى ملك قيصر ... ونادى منادي الحق في الحضر والبادي
طويناه نروي قصة المجد والتقى ... فكم من جموع عابرات وأفراد
وكم راية في الصين والهند تعتلي ... تحدث عن أحفاد سعد ومقداد
دعاة إلى التوحيد والعلم والرضا ... لجند رسول الله من خير أحفاد
أنرنا ظلام الكون بالعلم والهدى ... وحسن النهى في ظل علم وإرشاد
سرى عطرنا في الأرض واهتزَّت الربا ... على نغمات الحق من خير ورَّاد
سلوا كل بحر عن علانا ويابس ... سلوا السهل والصحراء والتل والوادي
سلوا المغرب الأقصى وأزهار فارس ... وأنهار أوربا وآثار بغداد
مغاوير نأبى الذل والضيم والخنا ... ويُنْبَذُ من ديواننا كلُّ شراد
منائرنا في كل صقع وصوتنا ... ترددده الأرجاء رغماً لأضداد
مساجدنا تسمو بهدي وحكمة ... وفي كل يوم فيض حب ورواد
أيا أمة الإسلام سيري على الهدى ... تنالي من الديان آفاق إرفاد
ويا بحر قد أحسنت بي إذ أثرت لي ... حسان المعاني من طريف وإتلاد
وغنيت لي صوتًا يلذ استماعه ... وزودتني من خير فضل وأزواد
ذكرت بك الباري وآمال أمتي ... وآهات أشواقي وتاريخ أجدادي

استراحة المسافر (٤)

* كان لرجل أربع نسوة، فدخل عليهن يوماً فوجدهن مُتلاحيات متنازعات ـ وكان الرجل سيىء الخُلُق ـ فقال: إلى متى هذا التنازع؟ ما إخالُ هذا الأمر إلا صار من قِبَلك ـ يقول ذلك لامرأة منهن ـ اذهبي فأنتِ طالق! فقالت له صاحبتها: عجّلتَ عليها بالطلاق، ولو أدَّبتها بغير ذلك لكنت حقيقاً، فقال لها: وأنت أيضاً طالق! فقالت له الثالثة: قبَّحك الله! فوالله لقد كانتا إليكَ مُحْسِنتين، وعليكَ مُفْضِلَتَيْن! فقال: وأنت أيتها المُعَدِّدَةُ أياديهما طالقٌ أيضاً. فقالت له الرابعة ـ وكانت هلالية وفيها أناةٌ شديدة ـ ضاق صدرُك عن أن تؤدّبَ نساءَك إلاَّ بالطلاق! فقال لها: وأنت طالقٌ أيضاً! وكان ذلك بمسمع جارة له، فأشرفت عليه وقد سمعتْ كلامه، فقالت: والله ما شهدت العربُ عليك وعلى قومك بالضعف إلاَّ لما بَلَوْهُ منكم ووجدوه منكم، أَبَيْتَ إلاَّ طلاق نسائِكَ في ساعة واحدةٍ! قال: وأنت أيّتها المُؤنِّبَةُ المُتَكَلِّفَةُ طالقٌ، إن أجاز زوجك! فأجابه من داخل بيته: قد أجزتُ! قد أجزتُ!

* قال رجلٌ من البخلاء لأولاده: اشتروا لي لحماً، فاشتروه، فأمر بطبخه. فلمَّا استوى أكله جميعه حتى لم يبقَ في يده إلاَّ عَظْمة، وعيون أولاده تَرْمُقُهُ، فقال: ما أُعطي أحداً منكم هذه العظمة حتى يُحسن وصف أكلها. فقال ولده الأكبر: أُمشْمِشُها يا أبت وأُمَصْمِصُها حتّى لا أدع للذرِّ فيها مَقيلاً، قال: لستَ بصاحبها. فقال الأوسط: ألوكها يا أبتِ وألحسها حتى لا يدري أحدٌ لعام هي أم لعامين، قال: لستَ

بصاحبها. فقال الأصغر: يا أبتِ، أَمصُّها، ثمّ أدقّها وأسفُّها سَفًّا، قال: أنت صاحبها، وهي لَكَ، زادكَ الله معرفة وحزماً.

* نظر رجلٌ من الطفيليين إلى قومٍ من الزنادقة يُسار بهم إلى القتل، فرأى لهم هيئة حسنة، وثياباً نفيسة، فظنّهم يُدعون إلى وليمةٍ، فتلطَّف حتّى دخل في لفيفهم وصار واحداً منهم. فلمَّا بلغ صاحب الشرطة قال: «أصلحك الله، لستُ والله منهم، وإنما أنا طُفيلي ظننتهم يُدعون إلى صنيع فدخلتُ في جملتهم! فقال: ليس هذا مما يُنجيكَ مِنّي، اضربوا عنقه! فقال: أصلحك الله، إن كنتَ ولابدَّ فاعلاً، فأمر السيّاف أن يضرب بطني بالسيف، فإنه هو الذي ورّطني هذه الورطة! فضحك صاحب الشرطة، وكشف عنه، فأخبروه أنَّه طفيلي معروف، فخلَّى سبيله.

* يروى أن الشافعي ـ رحمه الله ـ قال:

كنَّا في أرض اليمن، فوضعنا سُفْرتنا لنتعشّى، وحضرت صلاة المغرب، فقمنا نصلّي ثم نتعشّى. فتركنا السُّفْرة كما هي وقمنا إلى الصلاة، وكان فيها دجاجتان. فجاء ثعلبٌ فأخذ إحدى الدجاجتين.

فلما قضينا الصلاة أسفنا عليها وقلنا حُرمنا طعامنا. فبينما نحن كذلك إذ جاء الثعلب وفي فمه شيء كأنه الدجاجة فوضعه. فبادرنا إليه لنأخذه، ونحن نحسبه الدجاجة قد ردَّها. فلما قمنا، جاء إلى الأخرى وأخذها من السُّفرة، وأصبنا الذي قمنا إليه لنأخذه، فإذا هو ليفٌ قد هيّأه مثل الدجاجة.

من أخبار المسافرين (١١)

دعاني من هو خير منك

حج الحَجَّاج فنزل بعض المياه بين مكة والمدينة، ودعا بالغداء، وقال لحاجبه: انظر من يتغدى معي، واسأله عن بعض الأمر، فنظر نحو الجبل، فإذا هو بأعرابي بين شملتين من شَعْر نائم، فضربه برجله، وقال: ائت الأمير، فأتاه. فقال له الحجاج: اغسل يدك وتغدّ معي. فقال: إنه دعاني من هو خير منك. قال: ومن هو؟ قال: الله عز وجل دعاني إلى الصوم فصمت. قال: في هذا الحر الشديد! قال: نعم، صمت ليوم هو أشد حراً من هذا اليوم. قال: فأفطر وتصوم غداً. قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غد. قال: ليس ذلك لي. قال: فكيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه؟ قال: إنه طعام طيب. قال: لم تطيبه أنت ولا الطباخ، ولكن طيبته العافية.

مسافر في الطائرة

الطائرة عالمٌ غريب، وحدثٌ عجيب، معجزة من معجزات العقل البشري، فسبحان الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم، كومة من الحديد معلقة بين السماء والأرض، كالنسر المحلّق والطائر المجنح، تراها في السماء وكأنها الطائر الصغير، وهي مع ذلك قد أضمرت في أحشائها وحملت في جوفها أمةً من الناس، وخليطاً من الأجناس، تُجاوز بهم السحاب، وتخترق بهم الضباب، قرَّبت البعيد، ويسَّرت المسير، هوَّنت الأسفار، وقاربت الأقطار.

إذا امتطاها الإنسان اقترب من ربه وخاف على نفسه من ذنبه، فهو في الجو أكثر إيماناً، وبالله أكثر تعلقاً، ولكن إذا هبط إلى الأرض والتصق بالتراب وعانق الأحباب والأصحاب، فسرعان ما ينسى المتاب، ويمزق كشف الحساب.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت]

والطائرة مع ذلك رسولٌ شاهدٌ على المسافر يبين له عظمة الباري وحكمة الخالق، وحاجة العبد إليه، وافتقاره إليه، ويطلعه على شيء من ملكوت الله، وعجائب من مخلوقاته.

أخي المسافر إليك بعض القصائد التي سجَّل فيها الشعراء انطباعهم تجاه الطائرة.

قال حافظ إبراهيم يصف طائرة:

يجـري بسـابحـة تشـ ـقّ سبيلها شـقَّ الإزارْ
وتكـاد تقـدح فـي الأثـ ـير فيستحيل إلى شرارْ
مثل الشهاب انقض في آثـار عفـريـت وطـارْ
فإذا علت فكدعوة الـ ـمُضطر تخترق الستارْ
وإذا هوت فكما هوت أنثى العقـاب علـى الهـزارْ

* * *

ويقول آخر:

وطـائـرة مـرفَّعـة الـذُّنـابـى بأجنحة الرياح لها ارتقاءُ
يجول بها من البنزين روح كما جالت بأوردة دماءُ
بعصر الكهرباء أتت فأمسى لعصر الكهرباء بها ازدراءُ
تمر كأنها في الجو نَسرْ إلى زُهْر النجوم له انتماء
فتمضي في السماء مُضِيّ سَهم عن القوس الضَّـروح له ارتماء
فيبصَر كالنجوم لها علوّ ويسمع كالرعود لها رغاء

شوقي يصف الطائرة

وإليك رائعة من روائع أمير الشعراء يصف فيها الطائرة:

غلِبَ النّسرُ على دولته ... وتنحَّى لك عن عرشِ الهواء
روِّضتْ بعد جماحٍ، وجرتْ ... طوعَ سُلطانين: علمٍ، وذَكاء
لك خيلٌ بجناحٍ أشبهت ... خيلَ جبريلَ لنصرِ الأنبياء
وبريدٌ يسحبُ الذيلَ على ... بُرُد في البرِّ والبحرِ بطاء
تطلعُ الشمسُ، فيجري دونها ... فوق عنق الريح، أو متن العَمَاء
رحلةُ المشرق والمغرب ما ... لبثتْ غير صباح ومساء
جل شأنُ الله هادي خَلْقه ... بهُدَى العلم، ونور العلماء
زفَّ من آياته الكبرى لنا ... طِلْبةً طال بها عهدُ الرجاء
مركبٌ لو سلف الدهرُ به ... كان إحدى معجزاتِ القدماء
نصفُه طيرٌ، ونصفٌ بشرٌ! ... يا لها إحدى أعاجيب القضاء!
رائعٌ، مرتفعاً أو واقعاً، ... أنْفُسَ الشجعانِ قبلَ الجبناء
مسرَجٌ في كل حين، مُلجَمٌ ... كامِلُ العُدَّة، مَرموقُ الرُّواء
كبساط الريحِ في القدرة، أو ... هُدْهُدِ السيرة في صدق البلاء
أو كحُوتٍ يرتمي الموج به ... سابح بين ظُهور وخَفاء
راكب ما شاء من أطرافه ... لا يُرَى من مركب ذي عُدَوَاء
ملأ الجوَّ فعالاً، وغدا ... عَجَبَ الغربانِ فيه والحِداء
وترى السُّحْبَ به راعِدةً ... من حديدٍ جُمِّعت، لا من رَواء
حمل الفولاذ ريشاً، وجرى ... في عنانين له: نارٍ، وماء

وجنـاحٍ غيـر ذي قـادمـةٍ كجناح النحل مصقولٍ سَواء
وذُنابَي، كلُّ ريح مسَّها مسَّهُ صاعقةٌ من كهرُباء
يتـراءى كـوكبـاً ذا ذَنَـب فإذا جَدَّ فَسَهماً ذا مَضاء
فـإذا جـاز الثـريَّـا للثـرى جرَّ كالطاووس ذيلَ الخُيَلاء
يملأ الآفاقَ صوتاً وصدىً كعزيف الجنّ في الأرض العَرَاء
أرسلتْه الأرضُ عنها خبراً طَنَّ في آذانِ سكَّانِ السماء

تحطم طائرة

بينما الركاب في هناءٍ وسرور، وغبطة وحبور، بال مطمئن، ونفس سالية، فرح بالعودة، وتتطلع للوصول، وترقب للنزول، تجاذب لأطراف الحديث، وتذاكر في أخبار الدنيا وأحوالها، هذا يرتب أوراقه، وذاك يتفقد جواز سفره، وآخر يجمع أغراضه، وغيره يهيئ حقائبه، وأم تمشط شعر ابنتها الصغيرة وتزينها لمقابلة أهلها وأقاربها، وأخرىٰ تغير ملابس أبنائها وتبشرهم بقرب هبوط الطائرة، وثالثة تتأمل في ملابسها الضيقة وساقيها الجميلتين وفخذيها العاريين، ورابعة أحضرت حقيبة مكياجها وبدأت تزين وجهها، وتتأمل كحل عينيها، وتنظر في قصة شعرها، وتستعيد أحداث الرحلة وأخبار الإجازة لتتحدث بها إلىٰ صديقاتها، وتتباهىٰ بها مع زميلاتها وراكب آخر منشغل بفتح شريحة جواله ليبدأ اتصاله بأهله ويبشر أقاربه بوصوله، وتاجر في مقدمة الطائرة مكب علىٰ كمبيوتره، ومنهمك مع آلته الحاسبة يخطط لتجارته، ويحسب مرابحه، وراكب آخر قد خفق قلبه، وعظم شوقه، وزاد تلهفه لرؤية زوجته وأبنائه الذين وصلوا للمطار لاستقباله يحملون باقات الورود، وأنواع الزهور، وراكب سرح بخياله، وتاه بفكره، يتذكر ساعة لقائه بوالده ووالدته، وعناقه لزوجته، وضمه لأبنائه، قد أحضر لهم الهدايا، وجلب لهم المفاجآت، وهنالك راكب يغط في سبات عميق قد أضناه السهر، وأثقله الخمر، وسطلته المخدرات، وراكب منزوٍ في ركن الطائرة يقرأ في مصحفه، ويتفكر في عظمة خالقه، ويدعو الله في سلامة الوصول. . .

أنواع وأشكال، وأعداد وأحوال، وآلام وآمال، وأخبار وأفكار، كل في وادٍ يهيم، وفي خيال يسبح، وفي فكر يتيه، وربما لم يكن في ذهن واحدٍ منهم أنَّ هذه اللحظات هي آخر زاده من الدنيا، ونهاية ساعاته من الحياة، وبداية رحلة مضنية لا عودة معها إلىٰ أهل ولا مال ولا ولد، ثم فجأة وإذا بالطائرة تضطرب، والهول يقترب، تغيرت نظرات المضيفين، وارتبكت أحوال المسئولين، دبت علامات الخلل، أشر مؤشر العطل، دق جرس الإنذار، أشارت إضاءات الأخطار، نودي في الركاب بلغةٍ قلقةٍ وصوت مرتبك أن أعدوا العدة، وشدوا الأحزمة، وهيئوا قوارب النجاة، وتنبهوا للأوكسجين، الطاقم انهارات أعصابهم، الركاب جفَّت أرياقهم، بعض العاملين خرَّ مغشياً عليه، الخطر زاد، والهول عظم، الأمر ادلهم، ارتفع بكاء النساء، واشتد عويل العجائز، وعظم صياح الأطفال، واشتد نحيب الرجال، ارتجت الطائرة بالكباء، اكتظ الأفق بالضجيج، هذا يده علىٰ قلبه، وذاك كفاه علىٰ عينيه، وآخر ينهش أنامله، وتلك تنكب علىٰ طفلها، هول وفزع، خوف وقلق، حيرة واضطراب، لوعة واحتراق، حسرة وألم، خشية وندم، وفي لحظات سريعة يهوي الجميع في البحر، فإذا بالطائرة العظيمة قطع مترامية، وأوصال متباعدة، وإذا بالأجسام الحسنة، والوجوه الجميلة جثث هامدة تتدافع بها الأمواج، وإذا بالأصوات تنقطع، والبسمة تختفي، والفرحة تنطفي، والآمال تنتهي، وكأن شيئًا لم يكن: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

أزف البين وقد حان الذهابْ ... هذه اللحظة قدَّت من عذاب
أزف البين وهل كان النوىٰ ... يا حبيبي غير أن أُغلق بابْ؟!
مضت الشمس فأمسيت وقد ... أُغلقت دونيَ أبواب السحابْ

وتلفَّـت علـىٰ آثـارهـا أسأل اللَّيل! ومن لي بالجوابْ؟!

ثم تأتي فرق الإنقاذ فتجرد الجميع من أغراضهم، وتجمع حُليَّهم، ثم يودعون في الثلاجات مجردين من كل ما يملكون: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾.

يالله.. يالله.. يالله ما أعجب الموت، وما أشد فاجعته، وما أصعب قارعته، وما أدهىٰ نازلته، زائر لا يستأذن، وضيف لا يجامل، وباطش لا يتردد، يتسلق الجدران، ويصعد الحيطان، ويعبر البحار ويصعد للأفق: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ لا يمهل الذي في يده كأس الماء ليشربه، ولا ينتظر الذي في يده لقمة ليأكلها.

هذه حادثة من آلاف الحوادث، وعبرة من مئات العبر التي يبثها الله تعالىٰ في الكون، لأخذ العبرة، والإفادة من الموعظة، ولكن قلَّ المدَّكرون، وندر المعتبرون، هكذا يهجم الموت، والمرء في غفلة من أمره لا يخبره فيتجهَّز، ولا ينذره فيستعد، ولا يعطيه الفرصة ليتوب، فيا بشرىٰ لمن فاجأه الموت، وهو علىٰ أهبةٍ من أمره، وحيطةٍ من شأنه وبصيرة من حياته، وفرق بين خاتمة حسنة ونهاية مرضية، وبين خاتمة سيئة ونهاية مخجلة، الذي كان علىٰ متن تلك الطائرة أو غيرها ممن عصىٰ ربه، وحارب مولاه، وسافر للفساد، ورحل للفجور كيف يقابل ربه، وربما يدلف علىٰ مولاه، ولو جاء من يقول له ماذا تتمنىٰ الآن قبل أن تموت؟ لقال: أتمنىٰ أن أعطى مهلة لأتوب إلىٰ ربي وأعمل صالحًا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ولكن البشرىٰ لمن كان علىٰ طاعة خالقه، ورضوان رازقه، والبون بين الفريقين شاسع، قال

تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

فيا أيها الغافل إلىٰ متىٰ الغفلة، ويا أيها المغرور إلىٰ متىٰ الغرور، أما آن لك أن تعود إلىٰ ربك، وتتوب إلىٰ رشدك، لتكون من عداد المفلحين، ومن صفوف التائبين استجابة لنداء رب العالمين: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

سئل ﷺ: من أكيس النَّاس وأحزم الناس؟ فقال: «أكثرهم ذكرًا للموت، وأشدهم استعدادًا له، أولئك الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» [أخرجه الطبراني وحسنه الألباني].

ويقول ﷺ: **«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»** [أخرجه البخاري: ٦٤١٦].

واغنم العمر فالمنايا خفايا ... كم دهىٰ الخطب أنفسًا غافلات
ليس تُغنيك توبة أو بكاء ... حين تُمنى بهجمة النازعات
إنه موعد وما عنه مأوىٰ ... لو سكنت البروج والناطحات
أين أهل السلطان والجاه ممن ... تاه فخرًا في الأعصر الماضيات
كدَّر الموت صفوفهم ثم بادوا ... وتجلت رسومهم دراسات
أين من غرَّه جمال ومال ... من كبار السادات والسيدات
سكنوا باطن الثرىٰ بعد عزٍّ ... في ظلال المنازل الشامخات
أكل الترب حسنهم وتمشى الدّود يرعىٰ في أعظم باليات
فلتبادر إلىٰ اغتنام الليالي ... ولحوق بالركب قبل الفوات

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

هذا عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ورحمه ـ ذٰلك الخليفة العادل الذي لم تغره الدنيا ببهرجها وتفتنْه بزينتها، ولم تلهِه بحطامها، شيَّع مرَّة جنازة من أهله، ثم أقبل علىٰ النَّاس ووعظهم موعظة جليلة، تهتزلها الأبدان، وترتعد لها الفرائص، وتوجل منها القلوب، وتسيل منها الدموع، فكان مما قال وهو يتحدث عن الأموات: «إذا مررت بهم فنادهم إن كنت مناديًا، وادعهم إن كنت داعيًا، ومر بعسكرهم، وانظر إلىٰ تقارب منازلهم، سل غنيّهم: ما بقي من غناه؟ وسل فقيرهم: ما بقي من فقره؟ واسألهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون، وعن الأعين التي كانوا للذات بها ينظرون، وسلهم عن الجلود الرقيقة والوجوه الحسنة والأجساد الناعمة ما صنعت بها الديدان تحت الأكفان، وأكلت اللحيان وعُفِّرت الوجوه، ومحيت المحاسن، وكسرت الفقار، وبانت الأعضاء، ومُزقت الأشلاء، وأين حجابهم وقبابهم؟ وأين خدمهم وعبيدهم وجمعهم وكنوزهم، وكأنهم ما وطئوا فرشاً، ولا وضعوا هنا متكأ ولا غرسوا شجراً ولا أنزلوهم من اللحد قراراً، أليسوا في منازل الخلوات؟ أليس اللَّيل والنهار عليهم سواء؟ أليسوا في مدلهمة ظلماء، قد حيل بينهم وبين العمل وفارقوا الأحبة، وكم من ناعم وناعمة أضحوا ووجوهم بالية، وأجسادهم من أعناقهم بائنة، وأوصالهم ممزقة، وقد سالت الحدق علىٰ الوجنات، وامتلأت الأفواه دماً وصديداً، ودبت دواب الأرض في أجسادهم، ففرَّقت أعضاءهم، ثم لم يلبثوا إلاَّ يسيراً حتىٰ عادت العظام رميماً، فقد فارقوا الحدائق وصاروا بعد السعة إلىٰ المضائق، قد تزوجت نساؤهم، وترددت في الطرق أبناؤهم، وتوزَّعت القرابات ديارهم وقراهم، فمنهم والله الموسع له في قبره الغض الناظر

فيه المتنعم بلذاته، يا ساكن القبر غدًا ما الذي غرك من الدنيا؟ أين دارك الفيحاء ونهرك المطَّرد؟ وأين ثمارك اليانعة؟ وأين رقاق ثيابك؟ وأين طيبك وبخورك؟ وأين كسوتك لصيفك وشتائك؟ جاء الأمر من السماء وجاء غالب القدر والقضاء، هيهات: يا مغمض الوالد والأخ والولد، وغاسله، يا مُكفِّن الميت ويا مدخله في القبر، وراجعًا عنه، ليت شعري بأي خديك بدأ البلىٰ، يا مجاور الهلكات صرت في محلة الموت، ليت شعري ما الذي يلقاني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا وما يأتيني به من رسالة ربي».

اللَّهم اغفر لأمواتنا وأموات المسلمين، وارحمهم برحمتك يا أرحم الرَّاحمين، اللَّهم اغسلهم بالماء والثلج والبرد ونقهم من الذنوب والخطايا كما ينقىٰ الثوب الأبيض من الدنس، والحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين.

من أخبار المسافرين (١٢)

يا أبا بكر لا تسافر

أبوبكر الصديق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ تُحدِّثنا ابنته عائشة رضي الله عنها فتقول: لم أعقل أبواي قط إلاَّ وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلاَّ يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتُليَ المسلمون خرج أبوبكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد، لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبابكر؟ فقال أبوبكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. فقال ابن الدغنة فإن مثلك يا أبابكر لا يَخْرج ولا يُخْرج مثله، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. وأنا لك جار فارجع فاعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، وطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبابكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم يكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة: مر أبابكر فليعبد ربه في داره ويصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ابن الدغنة ذلك لأبي بكر، فلبث أبوبكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره. ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فكان نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه. وكان أبوبكر رجلاً بكَّاءاً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى

ابن الدغنة فقدم عليهم. فقالوا: إنا كنا أجرنا أبابكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن الصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتتن أبناؤنا ونساؤنا فانهه فإن أحب على أن يقتصر ويعبد ربه في داره فعل، وإن أبىٰ إلاَّ أن يعلن ذلك فسله أن يرد عليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي قد عاقدتُ عليه قريش فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترد إليَّ ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخفرتُ في رجل عقدت له. فقال أبوبكر: فإني أرد عليك جوارك وأرضىٰ بجوار الله عز وجل.

عجائب من سفر العبّاد

هذا الإمام العالم العابد: «مسروق» أحد التابعين العظماء سافر للحج فما نام إلاَّ ساجداً!!!

وهذا المغيرة بن الحكيم الصنعاني يسافر للحج من اليمن ماشياً على قدميه وكان له ورد بالليل يقرأ فيه كل ليلة ثلث القرآن، فيقف فيصلي حتى يفرغ من ورده ثم يلحق بالركب متى لحق، فربما لم يلحقهم إلاَّ في آخر النهار!!!

وهذا إبراهيم بن أدهم العابد الزاهد كان إذا أراد السفر يشترط على أصحابه في السفر أن تكون الخدمة والأذان له طيلة السفر.

وقد سافر في مرَّة من المرات مع بعض إخوانه ورفقائه وأوى بهم السفر إلى مسجد مهجور ليس له باب، وكانت الليلة من ليالي الشتاء الباردة، فانتظر حتى نام إخوانه، ثم قام بالباب حتى الصباح لكي يسد الباب عنهم بجسمه عن الهواء والبرد القارس!!!

وهذا بهيم العجلي وكان من العباد البكائين ترافق في سفره مع رجل تاجر موسر وسافرا للحج فلما كان يوم خروجهم للسفر بكى بهيم حتى قطرت دموعه على صدره، ثم قطرت على الأرض، وقال: ذكرت بهذه الرحلة الرحلة إلى الله، ثم علا صوته بالنحيب، فكره رفيقه التاجر منه ذلك، وخشي أن يتنغص عليه سفره معه بكثرة بكائه، فلما قدما من الحج جاء الرجل الذي رافق بينهما إليه لِيُسَلّم عليهما فبدأ بالتاجر فسلم عليه، وسأله عن حاله مع بهيم فقال له: والله ما ظننت أن في هذا الخلق مثله،

كان والله يتفضل عليَّ في النفقة وهو معسر وأنا موسر، ويتفضل عليَّ في الخدمة وهو شيخ ضعيف وأنا شاب، ويطبخ لي وهو صائم وأنا مفطر، فسأله عمَّا كان يكرهه من كثرة بكائه فقال: والله أَلِفت ذلك البكاء وأُشرب حبه قلبي حتى كنت أساعده عليه حتى تأذى بنا الرفقة، ثم ألفوا ذلك، فجعلوا إذا سمعونا نبكي بكوا، ويقول بعضهم لبعض: ما الذي جعلهما أولى بالبكاء منا والمصير واحد، فجعلوا والله يبكون ونبكي، ثم خرج من عنده فدخل على بهيم فسلّم عليه وقال له: كيف رأيت صاحبك؟ قال: خير صاحب، كثير الذكر لله، طويل التلاوة للقرآن، سريع الدمعة، متحمل هفوات الرفيق، فجزاك الله عني خيراً.

من أخبار المسافرين (١٣)

مُوَّفق ومخذول

وحكى محمد بن سليمان القرشي قال: بينما أنا أسير في بعض الطرق، إذا أنا بغلام واقف على الطريق، فسلمت عليه فقال: ما أردُّ عليك حتى تؤدي حقي. قلت: وما حقك؟ قال: أنا غلام على مذهب إبراهيم الخليل عليه السلام، لا أتغدى ولا أتعشى حتى أسير الميل والميلين في طلب الضيف. فأجبته إلى ذلك، فرحب بي، وسرت معه حتى قربنا من خيمة، وصاح: ياأختاه. فأجابته: يا لبيكاه. فقال: قومي إلى ضيفنا. فقالت: حتى أبدأ بشكر المولى الذي سبب لنا الضيف، فصلت ركعتين، وأخذ الغلام الشفرة فذبح عناقاً، فلما جلستُ في الخيمة، نظرت إلى جارية من أحسن الناس وجهاً، فكنت أسارقها النظر، ففطِنتْ، فقالت: مهْ، أما علمت أنه نُقِل إلينا أن زنا العينين النظر.

فلما نمتُ بالليل سمعت دويّ القرآن طول الليل، فلما أصبحت قلت للغلام: من كان يتلو ذلك القرآن؟ قال: أختي تحيي الليل كله إلى الصباح.

فقلت: يافتى أنت أحق بهذا من أختك؛ لأنك رجلٌ وهي امرأة، فتبسم وقال: ويحك أما علمت أنه مُوفَّقٌ ومخذول؟!

من أحكام السفر

لما كان السفر قطعة من العذاب، جعل الله له رخصاً تيسره وأحكاماً تَخُصُّه، تخفيفاً على هذه الأمة، مِنَّةً منه ورحمة، وكان هدي النبي ﷺ في السفر أيسر الهدي وأتمَّه، فكان ﷺ يستحب السفر يوم الخميس في أول النهار، وكان يقول: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**» [رواه أحمد]

ونهى الرجل أن يسافر وحده وأمره بالرُّفْقة فقال: «**الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب**» [رواه الترمذي]

وأمرهم أن يتخذوا أميراً في سفرهم ينظم لهم أمرهم فقال: «**إذا كنتم ثلاثة في سفر فلتؤمروا أحدكم**» [رواه أبوداود]

ونهى المرأة أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلاَّ مع ذي محرم لها.

ورخَّص ﷺ للمسافر أن يمسح على الخفين ثلاثة أيام بلياليهن.

وكان من هديه ﷺ أن يقتصر في سفره على صلاة الفريضة ولم يُحفظ عنه ﷺ أنه صلَّى سنة الصلاة قبلها ولا بعدها في سفر، إلاَّ ما كان من الوتر وسنة الفجر، فإنه لم يكن ليدعها حضراً ولا سفراً وكان يقول: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل مقيماً صحيحاً**» [رواه البخاري].

وكان يقصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين، ولم يثبت عنه ﷺ أنه أتمَّها في سفر قطُّ، إلاَّ إذا كان المسافر مُؤْتَماً فإنه يتم مع الإمام المقيم، فقد سُئل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن ذلك فقال: تلك سنة أبي القاسم ﷺ. [رواه مسلم].

وكان إذا جَدَّ به السير فارتحل قبل زوال الشمس، أخَّر الظهر إلى

العصر، وإذا ارتحل بعد زوال الشمس قدَّم العصر مع الظهر فصلاهما جميعاً، وكذلك المغرب والعشاء. وكان إذا نزل منزلاً صلىٰ كلَّ صلاةٍ في وقتها، وتارة يجمع بين الظهرين، وبين العشائين.

وكان ﷺ يصلي النافلة على راحلته وهو مسافر، فيستقبل بها القبلة عند تكبيرة الإحرام، ثم يتوجَّه بها إلى حيث يشاء، وتارةً يصلي عليها ابتداءً حيث توجَّهت به، وكان يومئ برأسه لركوعه وسجوده، وسجوده أخفض من ركوعه.

وأما الفريضة فكان لا يصليها على الراحلة بل ينزل إلى الأرض، ورخَّص لأهل السفينة أن يصلوا الفريضة عليها، وألحق بعض العلماء الطائرة بها، فجوَّزوا صلاة الفريضة عليها إذا كان السفر طويلاً حتى ولو لم يتمكن المصلي من التوجه إلى القبلة.

ورخَّص ﷺ للمسافر ترك الجمعة فقال:

«ليس على مسافر جمعة» [رواه الطيالسي والطبراني]

ولم يصلها في سفره قطُّ.

وكان ﷺ إذا سافر في رمضان يفطر، وسأله حمزة بن عمرو الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ وكان كثير الصيام: أأصوم في السفر؟ فقال له النبي ﷺ:

«إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر» [متفق عليه]

وكان ﷺ إذا سافر أقرع بين نسائه فأيُّهن خرج سهمها سافر بها معه.

من أخبار المسافرين (١٤)

مسافر ينجو من الأسد

قال التنوخي في كتابه «الفرج بعد الشدة»:

وبلغني عن رجل من أهل الأنبار (مدينة على الفرات غربي بغداد) قال: خرجت إلى ضيعة لي في ظاهر الأنبار، راكباً دابة لي، ومعي مملوكٌ لي أسود في نهاية الشجاعة.

فلما صرنا في بعض الطريق، بالقرب من الموضع الذي أنا طالبه، إذ نشأت سحابة، فأمطرت، وكان المساء قد أدركنا، فملنا إلى قباب كانت في الطريق للسابلة، فلجأنا إليها، فقوي المطر حتى منعنا من الحركة، فأشار الغلام عليَّ بالمبيت. فقلت له: نخاف اللصوص ويلك. فقال لي: تخاف وأنا معك؟ قلت: فالسَّبع؟ قال: نصيّر الدابّة داخل القبّة، وأنت تليها، وأنا عند الباب، وأشدّ وسطي بالحبل الذي معنا، وأشد طرفه برجلك، حتى لا يأخذني النوم، فإن جاء الأسد، أخذني دونك.

ومازال يحسّن إلي ذلك الرأي حتى أطعته، وملنا إلى إحدى القباب، ودخلناها، وفعل ما قال.

فوالله ما مضت قطعة من الليل، حتى جاء الأسد، فأخذ الأسود فدقّه، واحتمله، وجر رجْلي المشدودة معه في الحبل.

فلم يزل يجرّني على الشوك والحجارة، إلى أن صار بي إلى أجمته، وأنا لا أعقل شيئاً من أمري، ولا أحسّ بأكثر ما يجري، ولا تمييز لي يؤدّي بي إلى الاجتهاد في حلّ الحبل من رجلي.

ثم رمى بالأسود، وربض عليه، ومازال يأكل منه، حتى شبع، وترك ما

فضل منه، وليس فيَّ من حسّ الحياة غير النظر فقط، ثم مضى، فنام بالقرب من مكاننا.

وبقيت زماناً على تلك الحال، ثم سكن روعي، ورجعتْ إليَّ نفسي، لطول مكث الأسد في نومه، فحللت رجلي من الحبل، وقمت أدبّ، فعثرت بشيء لا أدري ما هو، فأخذته، فإذا هميان ثقيل، فشددته على وسطي، وخرجت من الأجمة، وقد قارب الصبح أن يسفر.

وصرت إلى القبة التي فيها دابّتي، فإذا هي واقفة على حالها، فأخرجتها، وركبتها، وانصرفت إلى منزلي، وفتحت الهميان، فوجدت فيه جملة دنانير.

فحمدت الله تعالى على السلامة، وبقي الرعب في قلبي، والتألم في بدني، مدّة.

استراحة المسافر (٥)

* ضاف رجلٌ قوماً فكرهوا قدومه، فقال الرجل لامرأته: كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه؟ فقالت: نفتعل خصومة بيننا حتى نتحاكم إليه. ففعلا ذلك، فقالت للضيف: بالذي يبارك لك في غُدُوِّك غداً أيُّنا أظلم؟ فقال الضيف: والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهراً ما أعلم.
* تزوج أعمى امرأة. فأخذت تمدح نفسها وجمالها عنده وتقول: لو رأيت حسني وبياضي لعجبت. فقال: لو كنتِ كما تقولين ماتركك لي المبصرون.
* كان رجل يسكن في دارٍ بأجرة، وكان خشب السقف يتفرقع كثيراً. فلما جاء صاحب الدار يطالبه بالأجرة قال له: أصلح هذا السقف، فإنه يتفرقع قال: لا بأس عليك، فإنه يسبح الله، قال: أخشى أن تدركه الرأفة فيسجد.
* وقف قوم على رجل طباخ وهو يطبخ قدراً، فأخذ أحدهم قطعة لحم فأكلها، وقال: يافلان تحتاج القدر إلى الخل، وأخذ آخر قطعة لحم فأكلها وقال: يا فلان تحتاج القدر إلى أبزار، وأخذ آخر قطعة لحم وقال: تحتاج القدر إلى ملح، فأخذ الطباخ قطعة لحم وقال: تحتاج القدر إلى لحم فتضاحكوا منه وانصرفوا.
* قال عبّاس الخيّاط عن رغيف البخيل:

لأبي عيسى رَغيفٌ فيه خمسون عَلَامهْ
فعلى جانبه الوا حدِ، لُقِّيتَ الكرامَهْ

ثمّ لا ذاقَكَ لي ضيـ ... فٌ، إلى يوم القيامهْ
وعلـى الآخـر سَطْـرٌ ... نسـألُ الله السـلامَـهْ

العشاق قبل الزواج وبعده :

يقول الشاعر أسعد رستم يصف حال العُشَّاق قبل وبعد الزواج وهي قصيدة رائعة حقاً وصادقةٌ في فكرتها وموضوعها وما أجمل ما اختتمها به الشاعر.

قَبْل الزواج يكون المرءُ محترقاً ... على التي بهواها قلبه عَلِقا
والصبُ في قلبه نارٌ مُؤجَّجةٌ ... وإن تكنْ عند من يهواه قد دنقا
لو حال دون المنى طودٌ لحاول أنْ ... يكون بالفعل ذاك الطود مخترقا
وكلمـا غَلَّقـوا بـابـاً يمـرُّ بـهِ ... سعى لكيْ يفتح الباب الذي غُلِقا
تراه يُنفق أموالاً قضى زمناً ... من الجبين عليها يسكب العرقا
ويهجر الأهل والأصحاب أجمعهم ... لكي يكون بها في الحبِّ ملتصقا
يقضي النهار ولا شغلٌ لديه سوى ... ذكرى الحبيب ويقضي ليله أرقا
وقد يموت وكَمْ صَبّ صبابته ... جَنَتْ عليه فما أبقت له رمقا
لو أنها سألته حاجةً لجرى ... كالسيل مندفقاً والسهم منطلقا
وكم تبسَّم مسروراً بِطَلْعتها ... وكم تنهَّد مشتاقاً وكم شهقا
وقدْ يغار عليها إنْ هي الْتفتت ... إلى سواه فيمسي باله قلقا
يشري لها كل ما تهواه من تحفٍ ... يشري الأساور والأطواق والحلقا
حتـى إذا وهبتـه قلبهـا فغـدا ... زوجاً لها وعلى صدق الولا اتفقا
قلَّت محبته للحال وانقلبت ... بغضاً ولم يبق من ذكرٍ لما سبقا
كأنه لم ينل من دهره أرباً ... لأجله قلبه الولهان قد خفقا

كأنّما لم يطب نفساً بزوجتهِ ... كلاّولم يقترن يوماً ولا عشقا
فصار يشتمها ظلماً ويلطمها ... وربَّما وَقْتَ غيظٍ رأْسَهَا سَحَقَا
أقـلُّ حـادثـةٍ منهـا تُهيِّجـهُ ... حتى إذا عارضت قولاً له حنقا
يريد منها طعاماً إن تأخّر عن ... ميعاده لحظةً في وجهها بصقا
كأنما هي من بعض العبيد له ... والعبدُ في هذه الأيام قد عُتِقا
يغيب عن بيته ليلاً فيتركها ... وحيدةً فتقاسي وحدةً وشقا
حتى إذا سألته أين كان أبى ... ردَّ الجواب عليها والعصا امتشقَا
يقول قومي أيا بنت الكلاب إذاً ... وقطِّبي بنطلوناً لي فقَدْ مُزِقا
اجْلي اطبخي كنِّسي هيَّا احملي ولداً ... فـإنـه يقلـق الجيـران إن زعقـا
وهكذا تستمر الحال بينهما ... وربَّما بعد هذا كلِّه افترقا
بئس الزواج زواجٌ لا وفاق به ... ولا بقـاء بـلا حـبٍّ يُعـدُّ بَقـا
المرء يطلب رزقاً ليس يملكه ... حتى إذا ناله لم يرض ما رُزِقا

الراكب شيطان

هذا العنوان هو جزء من حديث من أحاديث المصطفى ﷺ والحديث هو قوله ﷺ: «**الرَّاكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب**» [الصحيحة: ٦٢]. وقد يظهر للإنسان أن في هذا الحديث حرجاً أو إشكالاً؛ حيث إن المسافرين فرادى كثيرون في هذا الزمن فيقع المسلم في حرج ظانّاً منه أن سفره وحده أمر محرم، والحقيقة أن هذا الحديث من الأحاديث التي تبين لناعظمة هذا الدين وشموليته وحرصه الكبير على مصلحة الفرد وسلامته وحمايته، ولذلك نجد أحاديث أخرى تنهى أن يبيت الرجل وحده، وهي من هذا المنطلق أيضاً، وقد كان المسافرون في العصور القديمة يعانون معاناة شديدة، ويتعرضون لمخاوف عديدة، فالوسائل بدائية، وقطّاع الطرق كثير، والوحوش الكاسرة كثيرة، والأوبئة أكثر، ثم إن الشيطان يقوىٰ تأثيره على الواحد وكلما كان الركب أقوى وأكثر كان كيد الشيطان أضعف وأحقر.

وقد ورد في حديث آخر أن الرسول ﷺ نهى أن يسافر الرجل وحده، وفي حديث آخر خصص التحذير من الوحدة بالسفر ليلاً، فقال: «**لو أن الناس يعلمون من الوحدة ما أعلم ما سار راكبٌ بليلٍ وحده**» [أخرجه أحمد والبخاري]. فهذا الحديث ـ والذي قبله وما جرى مجراها ـ تُحمل على كراهة السفر منفرداً واستحباب الرفقة، لما لها من آثار مجيدة وعواقب حميدة، فهي تضعف كيد الشيطان ووسوسته لأن معنى: المسافر شيطان، أي أن الشيطان يرافقه ويغويه ويوسوس له وكذلك المسافران فربما أُصيب

أحدهما فيبقى الآخر منفرداً ومن فوائد الرفقة أن المسافر لا يشعر بالملل والتعب وطول الطريق، فيجد من يؤنسه ويسليه ويدخل السرور عليه، فالنهي عن السفر منفرداً ليس للتحريم وإنما للكراهة. ولو دعت الحاجة إلى سفر الرجل وحده فليس في ذلك بأس، وكذلك إذا انتفت أسباب الخطر انتفى المانع. وقد أرسل الرسول ﷺ مسافراً منفرداً وذلك كثير. منهم حبيب بن زيد حينما أرسله إلى مسيلمة الكذاب، ومنهم حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، وأرسل مُسافِرَيْن اثنين كإرساله لزيد ابن حارثة ورجل من الأنصار من المدينة إلى مكة ليأتيا بابنته زينب ـ رضي الله عنها ـ وغير ذلك كثير.

والأحاديث التي تحمل على الكراهة مرتبطة بسبب فإذا زال السبب زال المانع، ومثله نهيه ﷺ عن أن يأتي الرجل أهله بليل إذا كان قادماً من سفر، فهذا الحديث تنتفي كراهته إذا زال السبب بحيث وُجِد الهاتف ووسائل الاتصال التي يخبر المسافر عن طريقها أهله فيستعدُّون لمقدمه ويتهيؤون لاستقباله.

من أخبار المسافرين (١٥)

الأعشى يلغي الممشى

قال ابن هشام رحمه الله: حدثني خلاَّد بن قرة بن خالد السدوسي وغيره من مشايخ بكر بن وائل من أهل العلم: أن أعشى بني قيس بن ثعلبة ـ الشاعر الجاهلي الشهير ـ خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام فقال يمتدح رسول الله ﷺ:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبتَّ كما بات السليم مسهدا

إلى أن قال:

وآليت لا آوي لها من كلالة ... ولا من حَفى حتى تلاقي محمدا
نبياً يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تَغبّ ونائل ... وليس عطاء اليوم مانعه غدا
أجدَّك لم تسمع وُصَاة محمد ... نبي الإله حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... فتُرصِد للأمر الذي كان أرصدا
فإياك والمَيْتَات لا تقربنها ... ولا تأخُذَنْ سهماً حديداً لتفصدا
وذا النصُب المنصوب لا تَنْسُكنَّه ... ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
ولا تقربنْ من حرَّةٍ كان سرُّها ... عليك حراماً فانكحنْ أو تأبَّدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنَّه ... لعاقبة ولا الأسير المقيدا
وسبح على حين العشيات والضحى ... ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولاتسخرنْ من بائس ذي ضراوة ... ولا تحسبنَّ المال للمرء مُخلِدا

قال: فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش،

فسأله عن أمره فأخبره بأنه جاء يريد رسول الله ﷺ، فقال له: ياأبا بصير إنه يُحرِّم الزنا، فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر ما لي فيه من أرَب، فقال له: ياأبا بصير فإنه يحرم الخمر، فقال الأعشى: أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات، ولكني أنصرف فأتروَّى منها عامي هذا ثم آتيه فأُسْلِم، فانصرف فمات في عامه ذلك، ولم يعد إلى رسول الله ﷺ.

مسافرون في طلب العلم

أقول لها والعِيسُ تُحدج للسُّرى أَعدِّي لفقدي مااستطعتِ من الصَّبْرِ
سأنفق ريعان الشبيبة جاهداً على طلب العلياء أو طلب الأجرِ
أليس من الخسران أن ليالياً تمرُّ بلا نفعٍ وتُحسبُ من عمري؟

إن ديننا الإسلامي دين العلم والتعليم، والهداية والإرشاد، والنور والبرهان، ولذلك نرى أن انطلاقة الوحي، وإطلالة النور، ونزول القرآن إعلانٌ لأهمية العلم، وقيمة القلم، وشأن القراءة، فتهبط الآيات الأولى على قلب محمد ﷺ مُسْتَهلَّةٌ بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ فلا أمية بعد اليوم، ولا استسلام للجهل، ولا ركون للظلام والضلال، «اقرأ» فإن هذا الدين عنوانه القراءة، ودستوره القرآن، وروحه العلم، وآلته القلم، وآفته الجهل، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

ويقسم تعالى بالقلم إعلاء لشأنه فالقلم هو طريق العلم والتعلم ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾. هذا الدين يرفع شأن العلم وأهله ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾. ويمقت الجهل وأهله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝٣٥﴾ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ويَقْصر معرفة الله حق المعرفة وخشية الله عين الخشية على العلماء ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾.

هذا الدين يدعو إلى العلم قبل العمل ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وهذا إمام العلماء وسيد البلغاء والفصحاء وخاتم الأنبياء يدعو أمته إلى نور العلم ودوحة القراءة، وميراث النبوة، وينبوع الحكمة، ونفض غبار الجهل ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢]

وهاهو يملأ الأسماع والقلوب بأحاديثه العطرة التي يبين فيها أهمية العلم، وبركة العلم، ونور العلم، ولا يسمح المجال هنا لبسط القول حول العلم وأهميته وأجر العالم والمتعلم، ولكن نشنف الأسماع بحديثين بين يدي كلامنا عن المسافرين في طلب العلم، قال ﷺ: «**من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإنَّ فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر**» [صحيح الجامع]

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلاَّ في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق، ورجلٌ آتاهُ الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعَلِّمُها**» [رواه البخاري ومسلم]

ولقد عرف الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وعرف التابعون لهم بإحسان عرفوا منزلة العلم وأهميته، وأن البشرية إذا جهلت وتركت العلم زاغت وضلت وتنكبت الصراط المستقيم فقاموا بواجب العلم والتعليم وحملوا إلى الأمة هَدْي الرسول ﷺ كاملاً مكملاً مجملاً ومفصلاً، وقد ضرب

الصحابة والتابعون لهم بإحسان على مر العصور ضربوا أروع الأمثلة في الحرص على طلب العلم والتفنن في صيانته وتنقيته وتعليمه للأجيال المؤمنة، وسأنقل إليك في هذه الورقات المقبلة طرفاً من ذلك الحرص ومقاطع من تلك التضحيات، وعجائب من هاتيك المغامرات، وروائع من الرحلات المضنيات التي قاموا بها طلباً للعلم، ورغبة في الأجر، ونشراً للحق، وصيانة للمنهج وحراسة للشريعة، وتعليماً للأمة، وكشفاً للغمة:

١ ـ صفوان بن عسال يسافر إلى نبي الله ﷺ:

هذا صفوان بن عسّال ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ يسافر ولكن إلى من؟ إلى إمام العلماء وسيد الأنبياء، إلى محمد ﷺ.

جاء هذا الرجل من مراد فدخل إلى الرسول ﷺ وهو متكئ على بردٍ له أحمر فقال: يارسول الله إني جئت أطلب العلم، فقال: «**مرحباً بطالب العلم إن طالب العلم لتحفّ به الملائكة وتظلّه بأجنحتها فيركب بعضها بعضاً حتى تعلو إلى السماء الدنيا من حبهم لما يطلب، فما جئت تطلب؟**» قال صفوان: يارسول الله لاأزال أسافر بين مكة والمدينة، فأفتني عن المسح على الخفين. قال: «**يوم وليلة للمقيم وثلاث للمسافر من غائط أو بول ثم أحدث وضوءاً**».

٢ ـ مسافرٌ إلى أبي الدرداء:

جاء رجلٌ إلى أبي الدرداء ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وهو بدمشق فسأله عن حديث، فقال له أبوالدرداء: ما جاءت بك حاجة ولا جئت في طلب التجارة، ولا جئت إلاّ في طلب الحديث؟ فقال الرجل: بلى. فقال له أبوالدرداء: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبدٍ يخرج**

يطلب علماً إلاَّ وضعت له الملائكة أجنحتها، وسلك به ـ أي بالعلم ـ طريقاً إلى الجنة، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات، ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكنهم ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر».

يا لها من بشرى رائعة ومن حديث عظيم فأين أنتم يا أهل الهمم العالية؟

٣ ـ جابر بن عبدالله يسافر شهراً كاملاً:

أخي المسافر تعال بنا الآن نصغِ إلى هذا الصحابي الجليل جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ نصغِ إليه ونستمع لقصة سفره شهراً كاملاً من أجل حديث واحد (رواحها شهر وغدوها شهر) يقول أبوعبدالله:

بلغني عن رجل من أصحاب النبي ﷺ حديثٌ سَمِعَه من رسول الله ﷺ، فاشتريتُ بعيراً ثم شَدَدْتُ رحلي، فسرت إليه شهراً حتى قدمتُ الشام، فإذا عبدالله بن أُنَيْس، فقلت للبواب: قل له جابرٌ على الباب، فقال: ابن عبدالله؟ قلت: نعم. فخرج عبدالله بن أُنَيْس فاعتنقني، فقلت: حديثٌ بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ، فخشيتُ أن أموتَ أو تموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يحشُرُ الله الناسَ يوم القيامة عراةً غُرْلاً بُهْماً»** قلنا: وما بُهْماً؟ قال: **«ليس معهم شيء. فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملكُ ـ أنا الدَّيَّانُ ـ، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وأحدٌ من**

أهل النار يَطْلُبُهُ بمظلمة، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النار، وأحدٌ من أهل الجنة يطلبُه بمظلمة» ـ يعني لا يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، إلاَّ بعد تصفية الحساب ـ. قلت: وكيف؟ وإنما نأتي الله عُراةً بُهماً؟ قال: «**بالحسناتِ والسيئاتِ**» يعني أن القِصاصَ يكون بالحسنات والسيئات.

أرأيت هذا الحرص العجيب والحب العظيم للعلم والمعرفة فهو يسافر شهراً ذاهباً وشهراً آيباً من أجل حديثٍ واحد رضي الله عنه وأرضاه.

خير خلف لخير سلف:

ثم إذا ما غادرنا ساحة أصحاب محمد ﷺ مكتفين بما ذُكر من النماذج الرائعة ـ رغم وجود كثير من أمثالها وأشباهها ـ إذا ما غادرنا تلك القمم الشاهقة إلى خلفهم الصالح فإننا سنقف عند رجالٍ تتضاءل الجبال الراسيات أمام عظمتهم، وتتحطم الصخور الراسيات أمام عزائمهم، وتقصر الجوزاء عند هممهم، صَبْرٌ وتضحية، تعبٌ ونصب، سهرٌ ووصب، حلٌّ وارتحال، سَفرٌ وانتقال، همّةٌ وطموح، غُرْبةٌ ونزوح، عَزْمٌ وتصميم، كتابةٌ وترقيم، تعلّمٌ وتعليم، جوعٌ وألم، دواةٌ وقلم، إخلاصٌ ونقاء، تألقٌ وصفاء، خشوع وبكاء.

إن في خبرهم سَلْوة، وفي قصصهم عبرة ﴿**فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾**﴾ ﴿**لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ**﴾:

١ ـ أبو العالية: رفيع بن مهران الرِّياحي البصري المتوفى سنة ٩٣ تابعيٌ جليل يقول: كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ ونحن بالبصرة فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم.

٢ ـ **سعيد بن المسيب** : سيد التابعين. عالم المدينة المنورة المتوفى سنة ٩٤هـ رحمه الله رحمة واسعة، يقول سعيد بن المسيب: كنتُ أرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

٣ ـ **الشعبي**: عامر بن شَرَاحيل الكوفي المتوفى سنة ١٠٣، تابعي جليل رحمه الله خرج من الكوفة إلى مكة المكرمة في طلب ثلاثة أحاديث ذُكِرت له. فقال لعلّي ألقى رجلاً لقي النبي ﷺ.

٤ ـ **مكحول الشامي**: أبوعبدالله بن أبي مسلم الهذلي، ولد في بلدة كابل من أفغانستان وتوفي بدمشق سنة ١١٢هـ. عالم أهل الشام وهو مولى لامرأة من هذيل. يقول: طفتُ الأرض كلها في طلب العلم. ويقول: لم أدَعْ بمصر علماً إلاَّ حويته، ثم أتيت العراق فلم أدَعْ فيها علماً إلاَّ حويت عليه فيما أرى، ثم أتيت المدينة فكذلك، ثم أتيت الشام فَغَرْبَلْتُها.

٥ ـ **إمام أهل السنة**: الإمام أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني الذهلي، إمام المسلمين، حبُّه والدفاع عنه من شعار أهل الدين. ولد في بغداد في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ. ونشأ على الصبر والقناعة. وحفظ القرآن في صباه. واتجه إلى الحديث اتجاهاً كليًّا. ورحل إلى بلاد كثيرة، والتقى في رحلته إلى الحجاز مع الإمام الشافعي، وأخذ عنه الفقه وأصوله، ولقيه بعد ذلك ببغداد، وعلا شأنه في الحديث وعلم الرواية، حتى بلغ مبلغ الإمامة ورتبة الاجتهاد، فكان يحفظ ألف ألف حديث، وجلس للتدريس والفتيا، وكان إقبال الناس على مجالسه عظيماً، وتخرج عليه كبار الأئمة مثل الإمام البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبي داود، وكان آية من آيات الله في الزهد والقناعة والتوكل، والورع، والتواضع، والعزوف عن أموال

السلطان، ومكارم الأخلاق، امتحن في الله، وفي الدفاع عن السنة والعقيدة الصحيحة في فتنة الاعتزال أيام المعتصم، وعذب عذاباً لم يعذبه إلاَّ أفراد قلائل، فصبر صبر الأبطال، وثبت ثبات الجبال، ثم امتحن بالصلات والعطايا، والإجلال والتكريم أيام المتوكل، فاستقام استقامة الربّانيين، والمتوكلين الزاهدين، وانتصر للسنة، وذاد عن الإسلام، حتى قال علي بن المديني أحد أئمة الحديث في عصره: «إن الله أعزَّ هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردّة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة» وقال قتيبة: «إذا رأيت الرجل يحبّ أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة».

كانت وفاته سنة ٢٤١، وصلّى عليه جمع كثير قال عبدالوهاب الوثّاق: ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية والإسلام مثله، ومن مؤلفاته الشهيرة مسنده.

يقول عن أسفاره: رحلت في طلب العلم والسنة إلى الثغور، والشامات، والسواحل، والمغرب، والجزائر، ومكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقين جميعاً، وفارس، وخراسان، والجبال، والأطراف، ثم عدت إلى بغداد. قال ابن الجوزي: طاف الإمام أحمد بن حنبل الدنيا مرتين حتى جمع المسند. وقال العُلَيمي: طَلَبَ الحديث وهو ابن ست عشرة سنة وخرج إلى الكوفة سنة ثلاث وثمانين ومائة وهو أول سفر له، وخرج إلى البصرة سنة ست وثمانين، وخرج إلى سفيان بن عيينة إلى مكة سنة سبع وثمانين وهي أول سنة حج فيها، وخرج إلى عبدالرزاق بصنعاء اليمن سنة سبع وتسعين ورافق يحيى بن معين في رحلته إليه.

٦ـ **الحافظ الإمام ابن أبي حاتم الرازي:** المولود عام ١٩٥هـ، يقول:

وأما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة، وخرجت من البحر من قرب مدينة سلا ـ وذلك في المغرب الأقصى ـ إلى مصر ماشياً، ومن مصر إلى الرملة ماشياً، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكية، ومن أنطاكية إلى طرسوس. ثم رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بقي عليَّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته، ثم خرجت من حمص إلى بيسان، ومن بيسان إلى الرَّقّة، ومن الرّقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفة، كلّ ذلك ماشياً، هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة، أجول سبع سنين، خرجت من الري سنة ٢١٣ في شهر رمضان، ورجعت سنة ٢٢١.

وخرجت المرة الثانية سنة اثنتين وأربعين ومئتين ورجعت سنة خمس وأربعين. أقمت ثلاث سنين، وكان سِنّي في هذه الرحلة ٤٧ سنة.

٧ ـ الإمام الحافظ أبوسعد السمعاني التميمي المروزيُّ الشافعي: ولد بمَرْو عام ٥٠٦هـ وتوفي فيها عام ٥٦٢هـ. قد بلغ من التطواف والارتحال ما لا يخطر على بال، فكأن أخبار ارتحاله من الأساطير، ولكنها أصدق من الصبح المنير، نهض برحلات قاربت ٢٠ سنة، لا يعرف الملل ولا الكلل. وقد اعتنى به والده عناية كبيرة، فبَكَّرَ بإسماعه من أجلّة مشايخ مرو، ثم رحل به إلى نيسابور بلد الحديث والمحدثين، في سنة ٥٠٩هـ، وكانت سِنُّهُ آنذاك بلغت الثالثة والنصف من العمر، فكان والده في مرو

وفي نيسابور يحضره مجالس المحدثين، ويكتب له ما أملوه، أو ما قرئ عليهم في تلك المجالس وهو حاضر، ويثبت ذلك ويصححه، ليكون أصلاً يرجع إليه ولده، ويروي منه إذا كبر، وكان يأخذ له الإجازات منهم، وبهذا حصل لولده علو الإسناد من مشايخ عصره، وكانت هذه الإجازات والسماعات والمقروءات أساس مادته العلمية الأولى.

وقد رحل أبوسعد إلى أكثر من مائة مدينة، الرحلة الأولى وكانت مدتها نحو عشر سنوات، وكانت من خراسان شرقاً إلى الشام غرباً، ومن العراق شمالاً إلى الحجاز جنوباً، وامتدت من سنة ٥٢٩هـ، إلى سنة ٥٣٨هـ.

والرحلة الثانية وكانت مدتها ست سنوات، من سنة ٥٤٠هـ إلى سنة ٥٤٦هـ، وقد اقتصر فيها على زيارته لأغلب مدن خراسان كنيسابور، وسرخس، ومرو الرُّوذ، وهراة، وبلخ، ونسا.

والرحلة الثالثة: وكانت مدتها أربع سنوات، كانت في سنة ٥٤٩هـ إلى سنة ٥٥٢هـ، إلى بلاد ما وراء النهر، فزار فيها سمرقند، وبخارى، ونَسَف، وغيرها، وفي طريق عودته إلى مرو زار مدينة خوارزم، ثم استقر في وطنه إلى آخر حياته في سنة ٥٦٢ رحمه الله تعالى، فكانت مدة رحلاته الثلاث نحو عشرين سنة. وقد أحصى الشيخ عبدالفتاح أبوغدة عدد المدن التي سافر إليها السمعاني فبلغت حوالي مائة وسبعين مدينة وبلدة.

٨ ـ **أبوالعلاء الهمذاني**: الحسن بن أحمد بن سهل المقرىء المحدِّث الحافظ، الفقيه الحنبلي، الأديب اللغوي، المؤرِّخ النسَّابة، الرحَّال، الزاهد، شيخ هَمَذان، المولود سنة ٤٨٨، المتوفى سنة ٥٦٩ رحمه الله تعالى.

الحافظ العلامة المقرىء، شيخ الإسلام، وُلِدَ بهمذان، وتلقَّى عن كبار الشيوخ فيها، ثم ارتحل إلى بغداد أربعَ مرات، فسَمِعَ من خلقٍ كثير من علمائها، ثم عاد إلى همذان، وعَمِلَ داراً للكتب وخِزانة، ووقف جميع كتبه فيها، وكان قد حصَّل الأصول الكثيرة، والكتب النادرة الكبار الحسان، بالخطوط المعتبرة، وأَرْبى على أهل زمانه في كثرة السماعات، مع تحصيل أصول ما سَمِع، وجودة النُّسخ، وإتقان ما كتبه بخطه، فإنه ما كان يكتُبُ شيئاً إلاَّ مُنَقَّطاً مُعْرَباً.

وكان عفيفاً من حب المال، مُهيناً له، من أبناء التجار، فباع جميعَ ما وَرِثَهُ وأنفقه في طلب العلم، وسافَرَ الكثير ماشياً، حتى سافر إلى بغداد وإلى أصبهان مراتٍ ماشياً، يَحمِلُ كتبه على ظهره، وأُوتي قوةً عجيبةً في المشي، كان يمشي في اليوم الواحد ثلاثين فرسخاً. وكان له حَظٌّ في كل علم، قال: كنتُ أبيتُ ببغداد في المساجد، وآكُلُ خُبْزَ الدُّخْن. أي الذُّرَة.

ورَحَل إليه العلماءُ من المشرِق والمغرب، وطارَتْ شُهرتُهُ بفضائِلِهِ وعلومِهِ الكثيرة في الآفاق.

فسارَ مَسِيرَ الشمسِ في كلِّ موطنٍ وهَبَّ هُبُوبَ الرِّيح في الشَّرْقِ والغَرْبِ

ورَحَل إليه رجلٌ من أقصى المغرب، ومدَحَه بقصيدةٍ هي من غُرَرِ القصائد، وذَكَر أحواله في سَفْرَتِهِ إليه، وما أصابه من التعب والمشاقِّ، وأنه سار على قَدَميْه في رحلته إليه مُدَّة حَوْلٍ!

سعى إليك على قُربٍ ومِنْ بُعُدٍ من كان ذا رغبةٍ في العلم والسَّنَدِ
حتى أناخ بمَغْنَاكَ الكريمِ وقد كَلَّتْ ركائبُهُ في الغَيْطِ والسَّنَدِ

لذاك أثْرَى وما أوعَتْ أنامِلُهُ ... لكن وَعَى قَلْبُهُ ما شاءَ من مَدَدِ
وما أناخ بمَغْنَى غيركم أحَدٌ ... إلاَّ ونُودِيَ: ما بالرَّبْعِ من أحَدِ
وقد قصدتُكَ من أقصَى المغارب لا ... أبغي سواك لِوَحْيِ الواحِدِ الصَّمَد
وما امتَطيتُ سِوَى رِجْلَيَّ راحِلَةً ... وقد غَنِيتُ عن العَيْرَانَة الأُجُدِ
وهذه رحْلَةٌ بِكْرٌ كَشَفتُ لها ... عن سَاقِ ذي عَزَماتٍ غير مُتَّئِدِ
عنايةٌ لم تكن قبلي لذي طلبٍ ... وحُظوةٌ لم تكن في غابر الأبد
هل كان قبلَك حَبْرٌ أمَّهُ رجلٌ ... وسَارَ مُدَّةَ حَوْلٍ سَيْرَ مجتهِدِ
أبا العلاَءِ ـ لَدَيْكَ ـ الكُلُّ إنك في ... أقصَى العراقِ مُقِيمٌ منه في بَلَدِ
وقد فَشَا لك ذِكرٌ في البلادِ كما ... فاحَتْ أزاهِرُ رَوْضٍ للغَمام نَدِي

٩ ـ الحافظ محمد بن طاهر المقدسي: المولود عام ٤٤٨هـ في بيت المقدس، والمتوفى ببغداد عند عودته من الحج سنة ٥٠٧هـ، كان يمشي في ليلة واحدة قريباً من سبعة عشر فرسخاً، وكان يمشي على الدوام بالليل والنهار عشرين فرسخاً ـ والفرسخ بمشي القدم: نحو ساعة ونصف، وهو حوالي خمسة كيلومترات أو أكثر، بمعنى أن هذا المسافر كان يمشي في اليوم والليلة حوالي مائة كيلومتر ـ، وهو أحد الرحالين في طلب الحديث، وكان قويَّ السير في السفر، كثير الحج والعمرة، رحل إلى أكثر من أربعين مدينة ليسمع الحديث.

قال ابن طاهر: بلتُ الدم في طلب الحديث مرتين: مرة ببغداد ومرة بمكة، وذلك أني كنت أمشي حافياً في حر الهواجر بهما فيلحقني ذلك، وما ركبت دابة قط في طلب الحديث إلاَّ مرة، وكنت أحمل كتبي على ظهري إلى أن استوطنت البلاد، وما سألت في حال طلبي أحداً، وكنت

أعيش على ما يأتيني من غير سؤال. ورحلت من طوس إلى أصبهان لأجل حديث أبي زرعة الرازي، الذي أخرجه مسلم في الصحيح (كان من دعاء رسول الله ﷺ: اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع سخطك) ذاكرني به بعض المحدثين الرحالة بالليل، فلما أصبحت شددت عليَّ رحلي ـ أي وضع خُرْجَ كتبه على ظهره ـ وخرجت إلى أصبهان ولم أحلُل عنه حتى دخلت على الشيخ أبي عمرو فقرأته عليه، عن أبيه عن أبي بكر القطان عن أبي زرعة ودفع إلي أبوعمرو ثلاثة أرغفة وكُمِّثراتين، وما كان وقع إليَّ تلك الليلة قوتي، ولم يكن لي قوت غيره، ثم لزمته إلى أن حصل ما كنت أريد، ثم خرجت إلىٰ بغداد فلما عُدت إلى أصبهان كان قد توفي رحمه الله تعالى.

وأقمتُ بتنِّيس مدةً على أبي محمد بن الحداد ونظرائه، فضاقَ بي، ولم يَبْقَ معي غيرُ درهم! وكنتُ في ذلك اليوم أحتاجُ إلى خُبزٍ وإلى وَرَقٍ للكتابة، فكنتُ أتردَّدُ إن صرفتُه في الخبز لم يكن لي وَرَقٌ للكتابة! وإن صرفتُه في الورق لم يكن لي خُبز! ومضى على هذا ثلاثةُ أيام ولياليهن لم أطعَمْ فيها!

فلما كان بُكرةُ اليوم الرابع قلتُ في نفسي: لو كان لي وَرَقٌ لم يمكنني أن أكتُبَ فيه شيئاً لما بي من الجوع، فجعلتُ الدرهم في فمي، وخرجتُ لأشتري الخُبزَ، فبلعتُ الدرهم! ووقع عليَّ الضَّحِكُ! فلقِيَني أبوطاهر بنُ خطاب الصائغ المَوَاقيتي بتنِّيس وأنا أضحَكُ! فقال: ما أضحكك؟ قلت: خَيْر، فألَحَّ عليَّ وأبيتُ أن أخبره، فحلَفَ: لتَصْدُقَني لمَ تضْحَكُ؟ فأخبرتُه، فأخَذَ بيدي وأدخلني منزله، وتكلَّف لي في ذلك اليوم ما

أطْعَمُهُ.

فلما كان وقتُ الظهر خرجتُ أنا وهو إلى الصلاة، فاجتمع به بعضُ وكلاءِ عاملٍ كان بتنِّيس يُعرَف بابن قادُوس، فسألَهُ عني فقال: هو هذا، فقال: إن صاحبي ـ أي أمير تنِّيس ـ أمَرني أن أُوصِلَ إليه كل يَوْمٍ عَشْرَةَ دراهمٍ قيمتُها رُبعُ دينار، وسهَوْتُ عنه، فأخَذَ أبوطاهر منه ثلاثمائةِ درهم وجاءني، وقال: قد سَهَّلَ الله رزْقاً لم يكن في الحساب، وأخبرني بالقصة، فقلتُ: يكونُ عندك ونكونُ على ما نحن عليه من الاجتماع إلى وقتِ خروجي، فإنني وحدي، وليس لي من يقومُ بأمري ففَعَل، وكان بعدَ ذلك يصلني ذلك القَدْرُ إلى أن خرجتُ إلى الشام. انتهى.

١٠ـ الحافظ أبوالقاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي: ولد بدمشق سنة ٤٩٩هـ وتوفي بها سنة ٥٧١، وهو مؤرخ مدينة دمشق الشام في ثمانين مجلداً سوى سائر كتبه الكثيرة الكبيرة، فقد كان هذا الإمام يحافظ على اللحظات من وقته، فجاد على المكتبة الإسلامية بتآليف، تعجز المجامع العلمية اليوم عن طبعها وقد كتبها وحده، وألَّفها بيده وقلمه، وحرَّرها وحققها، وجمع أصولها، وانتخب منها، ونسَّقها ورتبها، وأخرجها للناس آية باقية ناطقة بأنه كان أعجوبة الأعاجيب، في سعة الحفظ، ووفرة المعرفة ونفاذ الهمة في القدرة على التأليف، وكثرة المصنفات المدهشة وحفظ الوقت وكسبه.

وقد أشار إلى ما لاقاه من الشدائد في سكناه نيسابور ذات الثلوج الكثيرة والبرد الشديد الذي لم يألفه في بلده دمشق فقال متألِّماً متضجراً:

لا قدَّس الله نيسابور من بلد ما فيه من صاحب يُسلي ولا سكن

لولا الجحيم الذي في القلب من حُرَقٍ
لفرقة الأهل والأحباب والوطَن

لَمِتُّ من شدة البرد الذي ظهرت آثار شدته في ظاهر البدن
يا قوم دوموا على عهد الهوى وثِقُوا أني على العهد لم أغدُر ولم أخنِ

وذكر ماكان له من أسفار متواصلة ورحلات في الأرض متباعدة فقال:

وأنا الذي سافرت في طلب الهدىٰ سَفَرينِ بين فدافدٍ وتنائفِ
وأنا الذي طوّفت غير مدينة من أصبهان إلى حدود الطائفِ
الشرق قد عاينت أكثر مُدْنِه بعد العراق وشامنا المتعارفِ
وجمعت في الأسفار كل نفيسة ولقيت كل مخالف ومؤالف
وسمعت سنة أحمدٍ من بعدما أنفقت فيها تالدي مع طارفي

قال المؤرخ القاضي ابنُ خَلِّكان في «وفيات الأعيان» في ترجمته: «كان محدِّث الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غَلَبَ عليه الحديثُ فاشتهر به، وبالغَ في طلبه إلى أن جمَعَ منه ما لم يتفق لغيره، ورَحَلَ وطوَّف وجابَ البلاد، ولقي المشايخ، وكان رفيق الحافظِ أبي سَعْد عبدالكريم السمعاني في الرِّحلة ـ وقد بلغ تعداد شيوخ السَّمعاني الذين لقيهم في دار الإسلام سبعةَ آلاف شيخ كما تقدَّم ـ.

وكان حافظاً ديِّناً، جمعَ المتون والأسانيد، سمع ببغداد، ثم رجع إلى دمشق ثم رحل إلى خراسان، ودخل نيسابور وهراة وأصبهان والجبال، وصنَّف التصانيف المفيدة، وخرَّج التخاريج، وكان حسنَ الكلام على الأحاديث، محظوظاً في الجمع والتأليف، صنَّف «التاريخ لدمشق» في ثمانين مجلداً، أتى فيه بالعجائب، وهو على نسَق «تاريخ بغداد» للخطيب

البغدادي، من حيث شَرْطُه فيمن ذكرهم فيه، ولكنه أضعافُهُ حجماً واتساعاً وشُمولاً، وإفاداتٍ متنوعة.

قال ولَدُه المحدِّث بهاء الدين القاسم: كان أبي رحمه الله مواظباً على الجماعة والتلاوة، يختُمُ كلَّ جمعة، ويختُمُ في رمضان كلَّ يوم، ويعتكفُ في المنارة الشرقية ـ من جامع دمشق ـ وكان كثير النوافل والأذكار، وكان يحاسب نفسَه على لحظةٍ تذهب! لم يشتغل منذ أربعين سنة ـ أي منذ أذنَ له شيوخِهُ بالرواية والتحديث ـ، إلاَّ بالجمع والتسميع حتى في نُزْهَتِهِ وخلواتهِ.

ثم قال أبوالمواهب: وأنا أقول: لم أرَ مثله، ولا من اجتمع فيه ماجتمع فيه، من لزوم طريقةٍ واحدة مدة أربعين سنة، من لزوم الصلوات في الصف الأول إلاَّ من عُذر، والاعتكاف في شهر رمضان وعشر ذي الحجة، وعدمِ التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناءِ الدُّور، قد أسقَطَ ذلك عن نفسه، وأعرَض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة، وأباها بعد أن عُرِضَتْ عليه، وأخَذَ نَفْسَهُ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم». انتهى.

يلومُ على أن رُحْتُ في العلم راغباً ... أُجَمِّعُ من عِنْدِ الرواةِ فنونَهُ
وأملك أبكار الكلام وعُونَهُ ... وأحفظُ مما أستفيد عيونَهُ
فيا لائمي دعْني أغالي بقيمتي ... فقيمة كلِّ الناس ما يحسنونَهُ

١١ـ الأديب الرحالة:

وقبل أن نطوي هذه الصفحات الناصعة، واللمحات المشرقة من أخبار أولئك العظماء النبلاء نعطر الأسماع ونطرب القلوب بترجمة أحدهم

وذكر قصيدته الرائعة التي طبَّقت بشهرتها الآفاق، لما تحمله من معانٍ سامية، وأخلاق رائدة. العالم هو العلامة القاضي أبوالحسن عليُّ بنُ عبدالعزيز الجُرْجاني، الفقيه الشافعي الأديب الشاعر المُحْسِن، قاضي قُضَاة الرَّي، المولود في حدود سنة ٣٢٥هـ، والمتوفى بالرَّيّ سنة ٣٩٢ رحمه الله تعالى، صاحبُ كتاب «الوَسَاطة بين المتنبي وخصومه»، قال فيه الثعالبي وهو يَصِفُ كثرةَ تَطوافِهِ وتَقَلُّبه في البلدان لتحصيل العلم:

«وكان في صِبَاه الخَضِرَ في قَطْعِ الأرضِ وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرهما، واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم علماً، وفي الكمال عالماً، فهو حَسَنَةُ جُرْجَان، وفَرْدُ الزمان، ونادرةُ الفلك، وإنسانُ حَدَقَةِ العلم، ودُرَّةُ تاجِ الأدب، وفارسُ عَسْكَرِ الشِّعْر، يَجْمَعُ خَطَّ ابن مُقلة، إلى نثر الجاحظ ونظم البحتري، وينظمُ عِقدَ الإتقان والإحسان في كل ما يتعاطاه».

يقولون لي: فيك انقباضٌ وإنما ... رأوْا رجلاً عن مَوْقِفِ الذُّلِّ أحجَمَا
أَرى النّاسَ من داناهُمُ هانَ عندهم ... ومن أكرمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكرِما
ولم أَقضِ حَقَّ العلم إن كنتُ كلَّما ... بدا مَطْمَعٌ صَيَّرتُه ليَ سُلَّما
ومازِلتُ مُنحازاً بعِرْضيَ جانباً ... عن الذُّلِّ أعتَدُّ الصِّيانةَ مَغْنَمَا
إذا قيل: هذا مَنْهَلٌ قلتُ: قد أَرَى ... ولكنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحتَمِلُ الظَّمَا
أُنَزِّهُهَا عن بعضِ ما لا يَشِينُها ... مَخافَةَ أقوالِ العِدَا: فيمَ أو لِمَا؟
فأُصْبحُ عن عَيْبِ اللئيم مُسلَّماً ... وقد رُحْتُ في نفسِ الكريم مُعَظَّما
وإني إذا ما فاتَني الأمرُ لم أَبِتْ ... أُقلِّبُ كَفِّيْ إثْرَهُ مُتَنَدِّما
ولكنه إن جاء عَفْواً قبِلْتُه ... وإن مالَ لم أُتبِعْهُ: هَلاَّ ولَيْتَمَا

وأَقبِضُ خَطْوي عن حُظوظٍ كثيرةٍ ... إذا لم أَنَلْها وافِرَ العِرضِ مُكْرَما
وأُكرِمُ نفسي أن أُضاحِكَ عابساً ... وأنْ أَتلقَّى بالمديحِ مُذَمَّماً
وكم طالبٍ رِقِّي بنُعْمَاهُ لم يَصل ... إليه وإن كان الرئيسَ المُعَظَّما
وكم نعمةٍ كانت على الحُرِّ نِقْمَةً ... وكم مَغْنمٍ يَعتدُّهُ الحُرُّ مَغْرَما
ولم أَبتذِل في خِدمة العلمِ مُهْجَتي ... لأَخْدُمَ من لاقَيْتُ لكِنْ لأُخْدَما
أَأَشْقَى به غَرْساً وأَجنِيهِ ذِلَّةً ... إذاً فاتِّبَاعُ الجهلِ قد كان أَحْزَما
وإني لَرَاضٍ عن فَتىً مُتَعَفِّفٍ ... يَرُوحُ ويَغْدُو ليس يَملِكُ دِرْهَما
يَبِيتُ يُراعِي النجمَ من سُوءِ حالِهِ ... ويُصبحُ طَلْقاً ضاحِكاً مُتَبَسِّمَا
ولا يَسألُ المُثْرِين ما بأَكُفِّهِمْ ... ولو مات جُوْعاً عِفَّةً وتكرُّمَا
فإن قلتَ: زَنْدُ العلمِ كابٍ، فإنما ... كَبَا حين لم نَحرُسْ حِماهُ وأظلَما
ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانوهُ صانَهُمْ ... ولو عَظَّمُوه في النفوسِ لعَظَّما
ولكنْ أهانوهُ فهانُوا ودَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حتى تَجَهَّما!
وما كلُّ بَرْقٍ لاحَ لي يَستفِزُّني ... ولا كلُّ من لاقَيْتُ أَرضَاهُ مُنْعِما
ولكن إذا ما اضطَّرني الضُّرُّ لم أَبِتْ ... أُقلِّبُ فِكري مُنْجِداً ثم مُتْهِما
إلى أن أَرَى ما لا أَغَصُّ بذكرِهِ ... إذا قلتُ: قد أَسدَى إليَّ وأَنعَمَا

وبعد أخي المسافر فأمثال هؤلاء كثير وكثير، ومن كان على منوالهم عدد غير قليل ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

للمزيد راجع الكتاب القيم/ صفحات من صبر العلماء/ عبدالفتاح أبوغدة

من أخبار المسافرين (١٦)

موسى عليه السلام يرحل لطلب العلم

اختلف ابن عباس رضي الله عنهما هو والحُرُّ بن قيس الفزاري في صاحب موسى عليه السلام من هو؟ فقال ابن عباس: هو خَضِر. فمر بهما أُبيُّ بن كعب فدعاه ابن عباس، فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لُقيِّه؛ هل سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم سمعت النبي ﷺ يقول: «**بينما موسى في ملأٍ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحىٰ الله إلى موسى: بل عبدنا الخضر، فسأل موسى السبيل إليه فجعل الله له الحوت آية. وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه. وكان يتبع أثر الحوت في البحر. فقال لموسى فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ فوجدا خضراً فكان من شأنهما الذي قصَّ الله عز وجل في كتابه**».

قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقة في طلب العلم لأن ما يغتبط به تحمل المشقة فيه، ولأن موسى عليه الصلاة والسلام لم يمنعه بلوغُهُ من السيادة المحلَّ الأعلىٰ من طلب العلم وركوب البر والبحر لأجله؛ وفي الحديث ركوب البحر في طلب العلم بل في طلب الاستكثار منه، ومشروعية حمل الزاد في السفر، ولزوم التواضع في كل حال، وخضوع الكبير لمن يتعلَّم منه،

ولهذا حرص موسى على الالتقاء بالخضر عليهما السلام وطلب التعلم منه، تعليماً لقومه أن يتأدبوا بأدبه، وتنبيهاً لمن زكَّىٰ نفسه أن يسلك مسلك التواضع، وفيه فضل الازدياد من العلم ولو مع المشقة والنصب بالسفر.

وقال الحافظ الخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث» عقب هذا الحديث: قال بعض أهل العلم: إن فيما عاناه موسىٰ من الدأب والسفر، وصبر عليه من التواضع والخضوع للخضر بعد معاناة قصده مع محلِّ موسى من الله عز وجل، وموضعه من كرامته وشرف نُبُوَّتِه دلالة على ارتفاع قدر العلم وعلوِّ منزلة أهله، وحُسن التواضع لمن يُلتمس منه ويؤخذ عنه؛ ولو ارتفع عن التواضع لمخلوق أحد، بارتفاع درجة سُموٍّ منزلة، لَسَبَقَ إلى ذلك موسى. فلما أظهر الجِدَّ والاجتهاد والانزعاج عن الوطن والحرص على الاستفادة منه، مع الاعتراف بالحاجة إلى أن يصل من العلم إلى ماهو غائب عنه دلَّ على أنه ليس في الخلق من يعلو على هذه الحالِ ولا يكبر عنها.

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

من أخبار المسافرين (١٧)

البغدادي وعقد اللؤلؤ

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «ذيل طبقات الحنابلة» في ترجمة (القاضي أبي بكر محمد بن عبدالباقي البغدادي الأنصاري البزَّاز) المعروف بقاضي المارستان، الحافظ المعمَّر، المولود سنة ٤٤٢هـ، والمتوفى سنة ٥٣٥هـ ببغداد رحمه الله تعالى: «قال الشيخ الصالح أبوالقاسم الخَزَّاز الصوفي البغدادي: سَمِعتُ القاضي أبابكر محمد بن عبدالباقي بن محمد البزَّاز الأنصاري يقول:

كنت مُجاوراً بمكة حَرَسها الله تعالى، فأصابني يوماً من الأيام جوعٌ شديد، لم أجد شيئاً أدفع به عني الجوع، فوجدتُ كيساً من إبريسَم مشدوداً بشُرَّابةٍ من إبريسَم أيضاً، فأخذتُه وجئتُ به إلى بيتي، فحللتُهِ فوجدت فيه عِقْداً من لؤلُؤ لم أرَ مِثلَه.

فخرجتُ فإذا بشيخٍ يُنادي عليه، ومعه خِرقة فيها خمسمائة دينار، وهو يقول: هذا لمن يَرُدُّ علينا الكيسَ الذي فيه اللؤلؤ، فقلتُ: أنا محتاجٌ، وأنا جائع، فآخُذُ هذا الذهب فأنتفعُ به، وأرُدُّ عليه الكيس.

فقلت له: تَعالَ إليَّ، فأخذته، وجئتُ به إلى بيتي، فأعطاني علاَمَةَ الكيس، وعَلاَمَة الشُّرَّابة، وعلاَمَة اللؤلؤ، وعَدَدَهُ، والخيْطَ الذي هو مشدودٌ به، فأخرجتُهُ ودفعتُه إليه، فسلَّم إليَّ خمسمائة دينار، فما أخذتُها، وقلتُ: يجبُ عليَّ أن أُعيدَهُ إليك، ولا آخُذَ له جزاءً، فقال لي: لابُدَّ أن تأخُذَ وألحَّ عليَّ كثيراً، فلم أقبَلْ ذلك منه، فتركني ومَضَى.

وأما ما كان مني، فإني خرجتُ من مكة وركبتُ البحر، فانكسر

المركبُ وغَرِقَ الناسُ، وهلكَتْ أموالُهم، وسَلِمتُ أنا على قطعةٍ من المركب، فبقيتُ مُدَّةً في البحر لا أدري أين أذهب؟! فَوَصَلْتُ إلى جزيرة فيها قوم، فقعدتُ في بعض المساجد، فسَمِعُوني أقرأ، فلم يَبق في تلك الجزيرة أحدٌ إلاَّ جاء إليَّ وقال: علِّمني القرآن، فحصَلَ لي من أولئك القوم شيءٌ كثير من المال.

ثم إني رأيتُ في ذلك المسجد أوراقاً من مصحف، فأخذتُها أقرأ فيها، فقالوا لي: تُحسِنُ تكتب؟ فقلت: نعم، فقالوا: علِّمنا الخط، فجاؤوا بأولادهم من الصبيان والشباب فكنت أُعلِّمُهم، فحَصَل لي أيضاً من ذلك شيء كثير، فقالوا لي بعد ذلك: عندنا صَبِيَّةٌ يتيمة، ولها شيءٌ من الدنيا، نريد أن تتزوَّج بها، فامتنعتُ، فقالوا: لابُدَّ، وألزموني فأجبتُهم إلى ذلك.

فلما زَفُّوها إليَّ مَدَدْتُ عيني أنظر إليها، فوجدتُ ذلك العِقْدَ بعينه معلَّقاً في عُنُقِها، فما كان لي حينئذٍ شُغلٌ إلاَّ النَّظَرُ إليه، فقالوا: يا شيخ! كَسَرْتَ قَلْبَ هذه اليتيمة من نظرِك إلى هذا العِقد، ولم تنظر إليها، فقَصَصتُ عليهم قصَّةَ العِقد، فصاحوا وصرَّخوا بالتهليل والتكبير، حتى بلَغَ إلى جميع أهل الجزيرة، فقلتُ: ما بكم؟ فقالوا: ذلك الشيخُ الذي أخَذَ منك العِقدَ أبو هذه الصَّبيَّة، وكان يقول: ماوَجَدْتُ في الدنيا مُسْلِماً كهذا الذي رَدَّ عليَّ هذا العقدَ، وكان يدعو ويقولُ: اللهمَّ اجمَعْ بيني وبينه حتى أُزوِّجه بابنتي، والآن قد حَصَلَتْ، فبَقِيتُ معها مدة، ورُزِقتُ منها وَلَدَيْن.

ثم إنها ماتت فورِثْتُ العِقدَ أنا ووَلَدَاي، ثم مات الوَلَدانِ، فحصَلَ العِقدُ لي، فبعتُه بمئة ألف دينار، وهذا المالُ الذي تَرَوْنَه معي من بقايا ذلك المال».

المسافر والنهار

النهار آية من آيات الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء: ١٢]. ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت: ٣٧]. والمؤمن يأخذ العبرة من اختلاف الليل والنهار ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٦]. ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

والمؤمن يعمر النهار بالبذل والعمل والتضحية والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان]. وإذا كان الليل مجالاً لحركة العواطف والمشاعر فإن النهار ميدانٌ لحركة الجسم والجوارح، وإذا كان الليل زمناً للسكون والهدوء والخشوع، والدموع، فإن النهار وقتٌ للبذل والكدح والتعب والنصب ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ [النبأ].

السعي في طلب الرزق في النهار، والجري وراء المصالح في النهار، والجهاد في سبيل الله في النهار، وهموم الحياة كلها غالباً ماتكون في النهار. بل إن الأمر أبعد من ذلك، فإن سمة التعب والنصب والكدح والخوف ملازمة للنهار حتى في الحياة الآخرة، فإن أشق كرب يمر بالإنسان، وأعظم خطر يحدق بالعبد وأطول وقت يتعرض له المرء هو

يوم القيامة ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ ﴾ [المعارج: ٤] ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ ﴾ [عبس: ٣٤ـ٣٧].

من أخبار المسافرين (١٨)

مسافر من تركيا

هذا مسافر في طلب العلم، ومهاجرٌ لتحصيل المعرفة، ومغترب لكسب الشرف، أقبل كغيره من آلاف المتشوقين للعلم، الذين قدموا إلى هذه البلاد إلى مهبط الوحي، ومنبع الرسالة، وبلد العلم والعلماء، جاء ليتعلم العربية، وليدرس العلوم الإسلامية، هذا المسافر هو أحد إخواننا من تركيا اسمه «محمد آيدين» من أسرة مباركة والده يحفظ القرآن مع أنه لا يتكلم العربية. جاء محمد آيدين إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة وتخرَّج بها في كلية الشريعة ثم حصل فيها على الماجستير، والدكتوراه. وكانت رسالته الدكتوراة في تحقيق أحد كتب التراث العربية في موضوع أسباب النزول القرآني وقد نال الشهادة بامتياز مع التوصية بطبع الرسالة.

والأخ محمد من أصدقائي الطيبين وكان أثناء وجوده بمكة المكرمة مجاوراً لنا في السكن، وهو معروف بالاستقامة والصلاح كما نحسبه والله حسيبه، وقد أصبح الآن أستاذاً في إحدى الجامعات التركية يدرس العلوم الإسلامية وقد حضرت مناقشة الدكتوراة، وسافر والده من تركيا إلى مكة ليحضرمناقشة ولده وليشرف بنفسه على قطف الثمرة، التي طالما تعَهّدها ورعاها. فقال ابنه للجنة المناقشة أثناءتقديم الرسالة: اسمحوا لي أن أقدم شكري وتقديري لوالدي باللغة التركية لأنه لا يجيد العربية مع أنه يحفظ القرآن كاملاً!!! هنا انهمرت دموع والده مدراراً وكان موقفاً مؤثراً حقاً واصطرعت في ذهني مشاعر عدّة فكانت هذه القصيدة على لسان والده. وقد كان لهذه القصيدة أصداء بعيدة وعارضها عدد من الشعراء ونشرت

في جريدة المدينة ملحق الخميس.

هتف الفؤاد إلى الأحبة هيا ... فأتيت أطوى الأرض من تركيا
وقَدمْتُ والأشواق تَعْمُرُ مهجتي ... لأرى حبيباً راضياً مرضيا
لرضاك يا ولدي المفدَّى ها أنا ... أطوي المسافات البعيدة طيّا
ولَكَمْ سُرِرنا يا بني وإننا ... لَنَخرُّ من فرط السرور بكيّا
ما خابت الآمال فيك فها أنا ... أجني من الثمر البديع طريّا
مهلاً بنيَّ فإن تكن بيَ عُجمةٌ ... فالقلب عاش مع الهدى عربيا
عَلّمْتك القرآن في زمن الصبا ... وبذلت جهدي كي أراك تقيّا
ولكم سعدتُ بأن رأيتك عالماً ... ومعلِّماً ومجاهداً ووفيّا
أبنيَّ إنك من سلالة أُمَّةٍ ... حازت مقاماً مشرقاً وعليّا
أضحى بها الإسلام بعد خموده ... متألقاً في العالمين فتيّا
مدَّت على الدنيا بديع رواقها ... والناس تحت ظلالها تتفيّا
كم أنجب التاريخ من أمرائها ... شهماً شديد البأس عثمانيّا
ما كان أكبرُ همِّه ومراده ... أن يحفظ الأموالَ والكرسيّا
بل يخدمُ الإسلام ينصرُ أهله ... ليعيش مرهوب المقام قويّا
وولاؤه للمؤمنين فلم يكن ... يهوى يهودياً ونصرانيّا
يا عزَّة الإسلام كم تبكي لها ... عيني وتجتمع الهموم عليّا
فمتى أرى الإسلام صار مهيمناً ... ومتى تعود لمجدها تركيّا
عبدالحميد متى أرى أحفاده ... صانوا وأعْلوا منهجاً قدسيّا
يا من رضيتَ بنهج خير معلِّمٍ ... ورضيت بالله العظيم وليّا
سرْ يا بنيَّ على طريق محمَّدٍ ... لنفوز بالأجر العظيم سويّا

من أخبار المسافرين (١٩)

الموصلي يسافر إلى وزير مصر

كان فقيهاً فاضلاً أديباً شاعراً لطيف الشعر مليح السبك، وهو من أهل الموصل، ولما ضاقت به الحال عزم على قصد الصالح بن رُزِّيك وزير مصر، وعَجَزَتْ قُدْرتُه عن استصحاب زوجته، فكتب إلى الشريف ضياء الدين بن عبيدالله الحسيني نقيب العلويين بالموصل هذه الأبيات:

وذاتِ شجوٍ أسال البين عبرتها ... كانت تؤمل بالتفنيد إمساكي
لجت فلما رأتني لا أُصيخُ لها ... بكت فأقرح قلبي جفنها الباكي
قالت وقد رأت الأجمال محدجة ... والبيت قد جمع المشكوَّ والشاكي
من لي إذا غبت في ذا المحْل قلت لها:
الله وابـــن عـبيـــدالله مـــــولاك
لا تجـزعـــي بانحباس الغيث عنك فقد
سـألـــت نـــوء الـثريَّـا جـود مغـــناك

فتكفل الشريف المذكور لزوجته بجميع ما تحتاج إليه مدة غيبته عنها، ثم توجه إلى مصر ومدح الصالح بن رُزِّيك، ثم تقلَّبت به الأحوال وأقام بمدينة حمص وتوفي سنة ٥٨١هـ رحمه الله تعالى ومات غريباً عن وطنه وأهله ولسانُ حاله يقول:

قـد قضـى الله أن أمـوت غـريباً ... فـي بـلاد أسـاق كـرهـاً إليهـا
فـــي فـــؤادي مخبـــآتُ معـــانٍ ... نـــزلـــت آيـــة الحجـــاب عليهـــا

ـ الواجب أن يقول: الله ثم ابن عبيدالله ولكن الضرورة الشعرية ألجأته إلى ذلك غفر الله لنا وله ـ.

المسافر والليل

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص: ٧١-٧٢]

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس: ٦٧]

الليل حبيب العاشقين، ومأوى المحبين، وخلوة الطائعين، وأنيس الراكعين والساجدين، وميدان المتهجدين، الليل إعلان الرهبة، وعنوان السكون، ومظنة الخشوع، تكثر فيه الآهات، تحلو فيه العبرات. الوصل لا يلذ إلاَّ في الليل، والهجر لا يلذع إلاَّ في الليل، والسرور لا يشع إلاَّ في الليل، والألم لا يضني إلاَّ في الليل. الليل يفر إليه العاشق بمن يعشق، ويخلو فيه المحب بمن يحب. يرخي الليل سدوله فيضم تحت ردائه متناقضات عجيبة، فمن حزين يتأوه، ومهموم يتألم، ومحبٌّ مهجور، يشكو طوله، ومحبٌّ واصل يشكو قصره:

لا أسأل الله تغييراً لما فعلتْ نامت وقد أسهرت عينيَّ عيناها
فالليل أطول شيء حين أفقدها والليل أقصر شيء حين ألقاها

وعابد يتهجد يناجي ربه، وفاجرٍ يتستر بجرمه، وغريب يبكي غربته، ورفيق يأنس برفقته، وشاعرٍ يحبِّر قصائده، وعالمٍ يقلِّب دفاتره، ومفكِّرٍ يسجل خواطره. الليل بكى أناسٌ من طوله، وتبرموا بحلوله، وتخيل

بعضهم أن نجومه شدت بالحبال، وربطت في الجبال، يقول امرؤ القيس:

فيا لك من ليلٍ كأن نجومه بكل مُغَار الفتْلِ شُدَّت بيذبُلِ
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

ويقول الآخر مبيناً أن سبب طول الليل هو هجران الحبيب وفقدان الأنيس، وأن قصره هو الاجتماع به فيقول:

لا أظْلمُ الليل ولا أدّعي أن نجوم الليل ليست تغورْ
ليلي كما شاءتْ فإن لم تَجُدْ طال وإن جادتْ فليلي قصيرْ

ولكن المسلم له مع الليل شأنٌ عجيب، والمؤمن له من الليل موقف غريب، فهو يترقب قدومه وينتظر حلوله ليأنس فيه بلذة المناجاة، وحلاوة المناداة.

المؤمن يحب الليل؛ لأنه يقترب فيه من مولاه، فيخطب ودَّه ورضاه، يصفُّ فيه أقدامه، ويشكو فيه آلامه، فهو ينثر في سكونه دموعه، ويعلن توبته ورجوعه، إذا نام الناس قام، وإذا غفلوا أفاق، في الليل تزكو النفوس، وترق القلوب، وتجود العيون، وتخشع الأبدان، ويحلو القرآن، وينزل الرحمن، فهوْ حبيب المؤمن وأنيس الطائع، وسلوة الخاشع. وقد جعل الله تعالى الليل ميداناً لتنافس الطائعين، وبرهاناً لمحبة المحبين، ودليلاً على صدق الموحدين.

فإنَّ تعلّم الإخلاص للمحبوب لا يكون إلاَّ في الليل.

سيبدو لكم في مضمر القلب والحشا سريرة حبٍّ يوم تبدو السرائرُ

وإن الذين عرفوا لِلَّيل أهميته، وللتهجد قيمته، فقاموا حتى تورمت

أقدامهم، وشحبت ألوانهم، هم في الوقت نفسه الذين عمروا النهار بالجهاد والبذل والتضحية هم أنفسهم الذين دَوَّخوا الباطل وزلزلوا الظلم، ودمَّروا الوثنية.

مضوا يحفرون بدمع القيام وبَذْل الدماء طريق الإياب

* * *

قومٌ إذا جنَّ الظلام عليهمُ باتوا هنالك سُجَّداً وقياماً
خمص البطون من التعفّف ضُمّراً لا يعرفون سوى الحلال طعاما

ولقد قام ﷺ حتى تورمت قدماه، واستمع إلى هذا الحديث الرهيب الذي ترويه عائشة رضي الله عنها وأرضاها تقول: قام ليلة من الليالي فقال: «**يا عائشة ذريني أتعبد لربي**» قالت: قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بل حجره ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض، وجاء بلال يُؤذن بالصلاة فلما رآه يبكي، قال: يارسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت عليَّ الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران]» [رواه ابن حبان وصححه الألباني].

يقول شوقي:

مُحيي الليالي صلاة لا يقطِّعها إلاَّ بدمع من الإشفاق منسجم
مسبحاً لك جنح الليل، محتملاً ضُراً من السُّهد أو ضُراً من الورَم
رضيةً نفسه لا تشتكي سأماً وما مع الحبِّ إن أخلصتَ من سأمِ

وقلت:

لمّا أتتكَ «قم الليل» استجبت لها ... العين تغفو وأما القلب لم ينمِ
تُمسي تناجي الذي أَوْلاكَ نعمته ... حتىٰ تَغَلْغَلَتِ الأورامُ في القَدَمِ
أَزيزُ صدركَ في جوف الظلام سرىٰ ... ودمعُ عينيك مثل الهاطل العَمِمِ
الليل تسهره بالوحي تعمره ... وشيّبتك بهودٍ آية «استقمِ»

والله تعالى الذي خلق الليل والنهار، أعطى الليل ما لم يعط النهار وميَّزه بميزات، وخصَّة بمناسبات، لو لم يكن منها إلاَّ أنه تعالى شرَّفه بأن جعله زمناً لنزوله تعالى إلى السماء الدنيا وكفى بها منقبة، وحسبك بها محمدة.

يمرّ الصبا دوماً بساكن ذي الغضا ... ويصدع قلبي أن يهبّ هبوبُها
قريبة عهدٍ بالحبيب وإنما ... هوى كلُّ نفسٍ حيث حلَّ حبيبُها

وحينما أُسري بمحمد ﷺ في جوف الليل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]. حينما كان ذلك فهو إعلان بأن الليل هو زمن اتصال الفناء بالبقاء، والضعف بالقوة، والمخلوق بالخالق علم بذلك أن الليل زمن العطاء، والنماء، والوفاء، والرجاء، والدعاء ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٨ـ٧٩]

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦﴾ [الإنسان: ٢٦]

والليل كانت فيه بداية الوحي إلى موسى عليه السلام، وبداية تكليم الله

تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ ﴾ [طه: ٩-١٤]

يا جار إن الركب قد حاروا فاذهبْ تحسّسْ لمن النارُ
تبدو وتخبو إن خبتْ وقفوا وإن أضاءت لَهُمُ ساروا

والليل جعله الله زمناً لنجاة أنبيائه من أعدائهم حينما أراد إهلاكهم فقال لموسى ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤ ﴾ [الدخان: ٢٢-٢٤]

وقال للوط عليه السلام حينما أراد الله تعالى إهلاك قومه ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١ ﴾

[هود: ٨١]

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ ﴾

[الحجر: ٦١-٦٥]

والليل فيه أنزل القرآن ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾ [القدر: ١]

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣]

والليل جعله الله تعالى زمناً لنجاة أوليائه حينما حكم على أقوامهم بالدمار ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟

حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾. والحديث مع الليل طويل وطويل، وجميل وجميل، ولكن يكفي من القلادة ماأحاط بالعنق، وقبل أن نودع الليل بسكونه الرهيب، وظلامه الحالك، وهيبته العظيمة دَعْني أخي المسافر أنتهز هذه الفرصة فأذكر نفسي وإياك ببعض الآيات والأحاديث العظيمة التي تدل على شرف الليل وأهميته وعظمة الأجر لمن عمره بذكر الله، وصلى فيه طاعة لمولاه.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾

[الزمر: ٩]

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٤٠]

وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

[الذاريات: ١٧]

وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦]

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

أما الأحاديث فهي العجب العجاب ومنها:

* **«ينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول: أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلايزال كذلك حتى يضيء الفجر»** [رواه مسلم]

* **«أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر فإن استطعت أن**

تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن» [رواه الترمذي]

وإليك هذا الحديث الرائع، الماتع، العجيب، الغريب، الرهيب:

* **«ثلاثة يحبهم الله، ويضحك إليهم، ويستبشر بهم:**

الذي إذا انكشفت فئةٌ قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يُقْتل وإما أن ينصرَه الله ويكفيه، فيقول الله تعالى: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه.

والذي له امرأة حسنةٌ وفراشٌ ليّنٌ حسنٌ، فيقوم من الليل، فيقول الله تعالى: يَذَرُ شهوته ويذكرني، ولو شاء رقد.

والذي إذا كان في سفر، وكان معه ركْبٌ فسهروا، ثم هجعوا، فقام من السَّحر في ضرَّاءَ وسرّاء» [رواه الطبراني]

وقال ﷺ:

* **«من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين جميعاً كُتبا لَيْلَتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»** [صحيح الجامع]

ومن ميزات الليل أن السفر فيه يحلو، والأرض فيه تطوى كما قال الحبيب المصطفى ﷺ: **«وعليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل»** [الصحيحة: ٦٨٢].

كان ابن سيرين ـ رحمه الله ـ يتحدث بالنهار ويضحك، فإذا جاء الليل أخذ في البكاء والعويل:

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا ... ليَ الليل هزّتني إليك المضاجعُ

أقضِّي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والهمّ بالليل جامع

كانت عابدة لا تنام من الليل إلاّ يسيراً فعوتبت في ذلك: فقالت كفى

بطول الرقدة في القبور رقاداً.

أيها العذال لا تعذلوا إنما العذل لمن يقبلُ
وأرى ليلي لا ينقضي طال ليلي والهوى أطولُ

قالت أم محمد بن المنكدر: يا بنيّ أشتهي أن أراك نائماً؟ فقال: يا أماه إن الليل لَيردُ عليَّ فيهولني فينقضي عني وما قضيتُ منه مأربي.

وصاحب رجلٌ رجلاً شهرين فما رآه نائماً، فقال: مالك لا تنام؟ فقال: إن عجائب القرآن أطرْن نومي، ما أخرج من أعجوبة، إلاَّ وقعتُ في أخرى.

قال سفيان: إن لله ريحاً تسمى الصباحية، مخزونة تحت العرش، تهبّ عند الأسحار فتحمل الأنين والاستغفار. وقد كان سفيان هذا إذا أراد أن ينام يتقلب كما تتقلب الحبة في المقلى، فإذا ما غفا قليلاً قام يصيح مذعوراً:

النار النار شغلني ذكر النار عن النوم.

دع الهوى لأناس يُعرفون به قد مارسوا الحب حتى لان أصعبهُ
بلوتَ نفسك فيما لست تخبره والشيء صعبٌ على من لا يجرِّبه
فاقن اصطباراً وإن لم تستطع جلداً فربّ مدرك أمر عزّ مطلبه
أحنو الضلوع على قلب يحيِّرني في كل يوم ويضنيني تغلبهُ
تناوح الريح من نجدٍ يهيِّجُه ولامع البرق من نعمان يطربُهُ

قال ابن الجوزي: قلب المحبّ تحت فحمة الليل جمرةٌ كلما هبّ النسيم التهبتْ. ومن صلى بالليل حسن وجهه بالنهار، قُوَّام الليل قطعت نياق جدِّهم بادية الليل ولم تجد مس التعب فالطريق إلى المحبوب يطول.

بـدا لهـا مـن بعـد مـا بـدا لهـا روض الحمى أن تشتكي كلالها
أذكـرهـا مـرُّ النسيـم سحـراً مـراتعـاً تفيـأتْ ظـلالهـا
تحسبهـا سكـرى ومـا ذاك بهـا وإنمـا شـوق الحمـى أمـالهـا

قال علي بن بكار: منذ أربعين سنة ما أحزنني إلاَّ طلوع الفجر.

أخي المسافر، قد سمعت أخبار المسافرين المتقين مع الليل فسرْ في سربهم، وتناول من شربهم، لقد أطار خوفُ النار نومهم، وأطال ذكر العطش الأكبر صومهم، يحسبهم الناظر مرضى الأبدان وإنما بهم سقام الأحزان.

مكتئبٌ ذو كبدٍ حرّىٰ تبكي عليه مقلةٌ عبرىٰ
يرفع يمناه إلى ربِّه يشكووفوق الكبداليسرىٰ
يبقى إذا حدثته باهتاً ونفسه مما به سكرىٰ
تحسبه مستمعاً ناصتاً وقلبه في أمّةٍ أخرى

أخي المسافر لا يفتْكَ حظك من الليل، ولا تغفل عن عطاء العلي الجليل، فإن أمامك يوماً ثقيلاً، وخطباً جليلاً، واعلم أن ناشئة الليل هي أشدُّ وطئاً وأقوم قيلاً، فاذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً.

يـاأيهـا الـراقـد كـم تـرقـدُ قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخذ من الليل وساعاته حظاً إذا ما هجع الراقدُ
من نام حتى ينقضي ليلُهُ لم يبلغ المنزل أو يجهدُ
قل لذوي الألباب أهل التقى قنطرة الأرض لكم موعدُ

أيها الراقد

وقال الشيخ عبدالعزيز بن حمد ـ رحمه الله ـ في الحض على قيام الليل:

أيُّها الراقدُ ذا الليلَ التَّمَامْ قُمْ بجِدٍّ فالليالي في انصرَامْ
وتقــرَّبْ بصــلاةٍ وصيــامْ وابتهلْ لله في جُنْحِ الظَّلامْ
فعسى تلحق بالقوم الكرامْ

أيُّها الراقد ذا الليل الطويل ليس في الدنيا مقامٌ يا نبيلْ
ضُرِبَتْ والله أبواقُ الرَّحيلِ وسَرَى الرَّكْبُ بِوَخْدٍ وذَميلْ
يتبارون إلى دار السلام

أيُّها الراقد كم هذا الهجود ماترى القوم استعدوا للوُفُودْ
بقيــامٍ ورُكــوعٍ وسجــود وخشوعٍ وخضوعٍ للودودْ
ودموعٍ تتجارى كالغمام

منهم من ملَّك الشوقَ الزِّمَامَا وفَنِيْ في الله حُبًّا وغَرَامَا
وبشرطِ الوصلِ يستحْلِي الحِمَامَا كُلَّما ذاق من التقريبِ جَامَا
زاد شوقاً ولفرط السُّكْر هامْ

أيُّها الراقدُ كم هذا الكرَى إن أهل الله جدُّوا في السُّرَى
طلَّقُوا الدُّنيا ومرُّوا زُمَرَا أفترْضَى أنْتَ أن تَبْقَى ورَا
فاستعن بالله وانهض باهتمامْ

أيُّها الرَّاقدُ كم هذا الرُّقادْ قمْ بإخلاصٍ وجدٍّ واجتهادْ
وتزوَّدْ فالتَّقَى أفضلُ زادْ إنَّ أهل الجدِّ فازُوا بالمرادْ
من يطع مولاه يظفر بالمرامْ

كيف يَهْنَى بمنامٍ وسُبَاتْ عالمٌ أن سوفَ يَلْقَىٰ السَّكَراتْ
ويذُوقُ المُرَّ من كاسِ المَمَاتْ رَبِّ وفِّقْنَا وأيِّدْ بالثَّباتْ
عندما نجْرَعُ كاسَاتِ الحِمَامْ

إنما الدُّنيا متَاعٌ وغُرُورْ كلُّنا فيها على وَشْكِ العُبُورْ
لا تَغُرَّنَّكَ هاتِيكَ القُصُورْ كلُّ من فيها سَيَمْضي للقبور
مُلصِقاً بالرَّغمِ خَدًّا لِلرَّغَامْ

آه من ذكر البلَى ما أوْجَعَهْ آهِ من دَاعِ النَّوَى ما أسْمَعَه
آه من هولِ اللِّقَا ما أفظَعَهْ آهِ مِنْ كاسِ الرَّدى ما أبْشَعَه
ربِّ ثَبِّتْنَا لدى ذاك المَقامْ

في الليل

للشاعر أمين عزت

اسكتي يا طيور! لا تملئي الليل ... غـــناء بصـــوتـــك الخـــلابِ
وقفي يا غصون لا تتناغي ... بحديث الهوى وهمس العتابِ
طاب لي مجلسي بعيداً عن السمـ ... ـــار، في نجوة من الأصحاب
فتنتني سكينـة الليـل، والليـ ... ـــل سكـون يطيـر بـالألبـاب
واحتواني الظلام حتى كأني ... قطعـة منـه فـي سـواد إهـاب
وكأن السماء صحراء خرسا ... ء بدا نجمها كومض السراب
وكـأن الليـل البهيـم عبـاب ... وأنـا سـابـح بهـذا العبـاب

بين شطين من ظلام قد امتد امتداد العصور والأحقاب

نام زهر الرياض في سرر العشـ ... ـب ونامت على السفوح الروابي
وسرت روح شاعر يعشق الحسـ ... ـن فرفت في الليل بين السحاب
إنما الليل للذي يعرف الليـ ... ـل وما فيه من معانٍ عذاب
قدّس الليل، إنه هيكل السحـ ... ـــر ووحي الهوى وستر الشباب

عابد ليل

يقول ابن الرومي واصفاً عبّاد الليل ورهبانه:

بات يدعو الواحد الصمدا ... في ظلام الليل منفردا
خادم لم تُبْقِ خدمتُه ... منه لا رُوحاً ولا جَسدا
قد جفتْ عيناه غمْضَهما ... والخليُّ القلب قد رقدا
في حشاه من مخافته ... حُـرُقـاتٌ تلْـذع الكبـدا
لو تراه وهو منتصبٌ ... مُشْعِـرٌ أجفـانَـه السُّهُـدا
كلمـا مَـرَّ الـوعيـدُ بـه ... سح دمعُ العين فاطَّردا
ووهت أركانه جزعَاً ... وارتقت أنفاسه صُعُدا
قائلٌ: يا منتهى أملي ... نجِّني مما أخاف غدا
أنـا عبـدٌ غـرنـي أملـي ... وكأنَّ الموتَ قد وردَا
وخطيئاتي التي سلفتْ ... لستُ أحصي بعضَها عددا
فلِيَ الويل الطويل غداً ... ليت عمري قبلها نَفِدا
ويح عيني ساء ما نظرتْ ... ويحِ قلبي ساء ما اعتقدا
ليت عيني قبل نظرتها ... كُحِلَـتْ أجفـانُهـا رمـدا
فـإذا مـرَّ الـوعيـد بـه ... كاد يُفني روحه كمدا
وإذا مـرَّ الـوُعـود بـه ... شدَّ منه القلب والعضدا

وبهذا القدر أخي المسافر نكتفي وإلى اللقاء مع آية من آيات الله في هذا الكون العجيب.

من أخبار المسافرين (٢٠)

مسافر على بساط الريح

لئن كان العلم الحديث الآن يباهي بما وصل إليه من التطور والتقنية في مجال السفر فاختُرعت الطائرات العملاقة وأصبح الإنسان يطوف الدنيا في أيام معدودات عبر الجو وذلك كله بفضل الله تعالى فهو الذي خلق هذه العقول المخترعة وأوجدها من العدم.

لئن كان الأمر كذلك فإن الله تعالى بفضله وقدرته قد منَّ على بعض عباده بنعمة عظيمة وهي السفر جواً وذلك قبل آلاف السنين وهو نبي الله سليمان بن داود عليه السلام الذي آتاه الله ملكاً لم يكن لأحد من بعده ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص] سخَّر الله تعالى لسليمان الريح تجري بأمره حيث أراد من أي البلاد وكان له بساط مُركَّب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول و الجمال والأثقال والرجال من الإنس والجن وغير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء حمل هذه الأمور المذكورة على البساط وأمر الريح فدخلت تحته فرفعته، فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أي مكان شاء، بحيث كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار. ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس كما قال تعالى:

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ]. قال الحسن البصري: كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحاً منها فيبيت بكابل وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر وبين إصطخر وكابل مسيرة شهر.

استراحة المسافر (٦)

* صحب طفيليٌ رجلاً في سفر من الأسفار، فقال له الرجل: امض فاشتر لنا لحماً قال: لا والله ما أقدر، فمضى هو واشترى ثم قال له: قم فاطبخ. قال: لا أعرف، فطبخ الرجل، ثم قال له: قم فاثرد. قال: أنا والله كسلان. فثرد الرجل، ثم قال له: قم واغرف. قال: أخشى أن ينقلب على ثيابي. فغرف الرجل، ثم قال له: الآن فكُلْ. قال الطفيلي: قد والله استحييت من كثرة خلافي لك، وتقدم فأكل.
* قيل لطفيلي: كم يساوي اثنين في اثنين؟ فقال: أربعة أرغفة.
* قال داود المصاب: رأيت رؤيا نصفها حقٌّ ونصفها باطل، رأيتُ كأن على عنقي بَدْرة ـ يعني كيس فيه عشرة آلاف درهم ـ فمن ثقلها أحْدثتُ، فاستيقظت فرأيت الحدث ولم أرَ البدرة.

شيخ الحارة:

وهذه إحدى قصائد أحمد قنديل ـ رحمه الله ـ وهي من شعره الحلمنتيشي، وقد نظم هذه القصيدة على لسان الفرزدق فيقول:

قال الفرزدق يمدح شيخ الحارة حينما تجاهله في المطاف أمير العربان السابق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرم
والمِسْفلا والنقا، والباب قاطبةً ... والفرد والشون، والليسان والحزم
إذا رأته النشامى قال أجمعهم: ... هذا الذي ردّ أهل الشِّعْب كلهمو
في راحة الكف عُود زقَّرته له ... وما الرِّجال لدى الهوشات واللمم

وفي الصُّبَاع مخاويٌّ له قببٌ ... الكف منه ـ إذا ما ذقته ـ عدم
وبالرّجُول أبوخَرْزين قد رُفعت ... شِراكه وتواطت تحته الرمم
إن صاح ردَّدت الحارات زَعْقته ... وجاوبته عيالٌ، طبعها الكرم
لا يقبلون النَّقيصا، ضد صاحبهم ... والوِلف عادتهم، والعهد والشيمُ
أصحاب أصحابهم في كل نائبةٍ ... فلا تُعَالِم، إذا ما جاء ذِكْرُهُمُ
ففي الحرائق والفَزْعات أجمعها ... هم أهل صيحتها الكبرى، متى علموا
فسائل الشيخ عن أيام عزتنا ... وابرم شواربه الملساء يا بَجَمُ
واسمع حكايته عنا، وكيف جرت ... أو عن بزورة هذا الوقت، كيف هُمُ
واجلس قُبالته، وانظر لِقَنْجتِه ... فبين فَقْشاتها التاريخ مُنسجِمُ
كدا الرجال ولو هانوا ولو نُسيت ... أزمانهم، وتمشى فوقها القدم

ساعة الوداع

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نَغَص فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لفقدكم أيّامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

ما أشق هذه الكلمة على النفوس وما أشد حرارتها في الأفئدة ـ إنها الساعة التي تفترق فيها القلوب المتحابة وينقطع معها حبل الوصل، وأيام الأنس وليالي الألفة.

مَددتُ إلى التوديع كفاً ضعيفةً وأخرى على الرمضاء فوق فؤادي
فلاكان هذا آخر العهد منكمو ولاكان ذا التوديع آخر زادي

ساعة الوداع هي الساعة التي لا تُنسى، واللوعةُ التي لا تبلى، والحرقة التي لا تبرد، نارٌ تُلهبُ الأحشاء، ودموعٌ تُحرق الوجنات، وعيونٌ تنثر العبرات، استمع معي إلى هذه الأبيات وضع يدك على قلبك، واترك النطق لدمعك

فوالله لا أنسى مدى الدهر قوْلها ونحن على حدِّ الوداع وُقوفُ
ولِلنَّار من تحت الضُّلُوع تَلَهُّبٌ وَلِلماء من فوق الخدودِ وكيفُ
ألا قاتل الله الصُّروفَ فإنَّما تفرِّقُ بين الصاحبينِ صُروفُ

هذه هي ساعة الوداع وتلك هي لحظات الفراق، يضعف فيها

الأقوياء، وينهار لهولها الأشداء.

ضَعُفْتُ عن التسليم يوم فراقنا ... فودَّعتُها بالطّرْف والعينُ تَدْمَعُ
وأمْسكتُ عن ردِّ السلام فمن رأى ... مُحباً بطرف العين قبلي يُودِّعُ؟
رأيتُ سُيُوفَ البين عند فراقنا ... بأيْدي جنودِ الشوق بالموتِ تَلْمعُ
عليك سلامُ الله منِّي مُضاعفاً ... إلى أن تغيب الشمسُ من حيث تطلُعُ

ولله در القائل:

ولما وقَفْنا للوداع وقلبها ... وقلبي يفيضان الصبابة والوجدا
بكت لؤلؤاً رطباً وفاضت مدامعي ... عقيقاً فصار الكل في نحرها عقدا

وما أرْوع ما قاله الآخر:

لم يبكني إلاَّ حديث فراقكم ... لما أسرّ به إليَّ مودّعي
هو ذلك الدّر الذي أودعتم ... في مسمعي أجريته من مدمعي

ساعة الوداع أمضىٰ من السيف حسماً، وأوقع من الحمى ألماً. إنها مُفَرِّقة الأصحاب، ومُبَعْثرة الأحباب. فيها تسخو الدموع، وتجود الجفون، وتكتوي الوجنات بحرارة العبرات، فيها يخفق الفؤاد ألماً، وتحترق النفوس ندماً. فيالله كم أحرقت من كبد رطبة، وكم أرهقت من قلب محب، وكم أبكت من مقلة هادئة. كم أضرمت في الأحشاء ناراً، وألهبت في الصدور سعيراً.

إذاأحرقت في القلب موضع سُكْنَاهَا ... فَمَنْ ذا الذي من بعدُ يُكْرِمُ مثوَاهَا؟
وإنْ نَزَفَتْ ماءَ العُيونِ بهَجْرِهَا ... فمن أيِّ عينٍ تأْمُلُ العين سُقْيَاهَا؟
وما الدَّمْعُ يومَ البَيْنِ إلاَّ لآلِئٌ ... على الرَّسْمِ في رَسْمِ الدِّيارِنَثَرْنَاهَا!
وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ وَتَرْجَمَتْ ... لِعَيْنِيَ عَمَّا في الضَّمائِرِ عَيْنَاهَا

بَدَتْ صُورَةً في هَيْكَلٍ فَلَوَ انَّنَا نَدِينُ بأديانِ النصارى عَبَدْنَاهَا
وما طَرَباً صُغْنَا القَريضَ وإنَّمَا جلا اليَوْمَ مِرْآةَ القَرائِحِ مَرْآهَا

ساعة الوداع بكى فيها الشجعان، وضعف أمامها الأقوياء، وانهار لهولها الأشداء، واهتزت لها كتائب، وحدث فيها عجائب.

وقفت غداة البين في الكرخ وقفة لها كربت نفسي تطير شَعاعاً
أودّع أصحابي وهم محدِقون بي وقد ضقت بالبين المُشتِّ ذراعاً
أودّعهم في الكرخ والطرْف مرسل إلى الجانب الشرقيّ منه شعاعاً
وأدعم رأسي بالأصابع مطرقاً كأن برأسي يا أمَيْمُ صُداعا
وكنت أظن البين سَهلاً فمُذ أتى شَرَى البينُ مني ما أراد وباعا
وإني جبان في فِراق أحبتي وإن كنت في غير الفراق شجاعاً
كأني وقد جد الفِراق سفينة أشالت على الريح الهجوم شِراعا
فمالت بها الأرواح والبحرُ مائج وقد أوشكت ألواحها تتداعى
فما أنا إلاَّ قوْمة وانحناءة وسرٌّ أذاعته الدموعُ فذاعا
أبيت وما أقوى الهموم بمضجع تصارعني فيه الهموم صراعا
وألهو بذكراهم على السير كلما هبطت وهاداً أو علوت يَفاعا

وقال آخر:

وأتى الرحيل فحين جدَّ ترحَّلتْ مُهَجُ النفوس له عن الأجسادِ
من لم يَبتْ والبين يَصْدع قلبَهُ لم يدر كيف تفَتُّتُ الأكباد

إنها الساعة اللاذعة للنفس، الملهبة للأفئدة، تذرف لها الدموع دماً، وتورث الأكباد حسرة وألماً.

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعهُ هل من سبيل إلى لقياك يتفقُ

ما أنصفتك دموعي وهي داميةٌ ولا وفى لك قلبي وهو يحترقُ

في ساعة الوداع يرى المسافر طفله يتململ تململ اللديغ ويترنم بألفاظ الأبوة الحانية ويرى ابنته تعصف بها اللوعة، ويشاهد أمه يعصرها ألم البين، وتكوي فؤادها وحشةُ الفراق ويلمح أباه الشيخ المدنف يحسو كأس الفراق قطرة قطرة.

قالت ابنة وهي تودع أباها:

إذا غبت عنا وخلفتنا فإنا سواءٌ ومن قد يَتَمْ
أبانا فلا رِمْت من عندنا فإنا بخير إذا لم ترم
أبانا إذا أضمرتكَ البلاد نُجفىٰ وتُقطع منا الرَّحِم

رِمت: رحلتَ وبَعُدتَ.

وهناك الزوجة الحنون رفيقة العمر، وسكن الفؤاد تخنقها العبرة ويلفها الأسى ويجتاحها الجزع، تودعه وهي لا تعلم هل هناك من لقاء آخر أم أنه آخر العمر ونهاية الأنس، وخاتمة المودة.

تبدَّت لنا مذعورة من خبائها وناظرها باللؤلؤ الرطب لامعُ
أشارت بأطراف البنان وَوَدَّعتْ وأومتْ بعينيها متى أنت راجعُ؟
فقلت لها والله ما من مسافرٍ يسير ويدري ما به اللهُ صانعُ
فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها فسالت من الطرف الكحيل المدامعُ
وقالت إلهي كن عليه خليفةً فياربِّ ما خابتْ لديك الودائعُ

وقال آخر:

قالت وقد نالها للبين أوْجعُهُ والبين صعبٌ على الأحباب مَوْقعهُ
اجعل يديك على قلبي فقد ضَعُفَتْ قواهُ عن حمل ما فيه وأضْلُعُهُ

واعطفْ عليَّ المطايا ساعةً فعسى ... من بتَّ شمل الهوى بالبين يجمعُهُ
كأنني يوم ولَّتْ حسرةً وأسى ... غريقُ بحر يُرى الشاطي ويمنعُهُ

وإذا أردت أن تسمع المحاورة المشجية، والمناجاة المبكية، والآهات، إذا أردت صورة صادقة لجزع الإلْفِ حين يغادر أليفه، ولبكاء الحبيب حين يودِّع حبيبه، فتأمل معي هذه الصورة الصادقة والعبارات الناطقة، التي أجزم أنها سَتَمْلكُ نَفْسَك، وتلهبُ قلبك، وتُسبلْ دمعك.

ما كنت أعرفُ ما في البين من حزنٍ ... حتى تنادوا بأنْ قد جِيءَ بالسُّفنِ
لَمَّا افْتَرَقْنَا على كُرْهٍ لِفُرْقَتنا ... أيقَنْتُ أنِّي قتيلُ الهمِّ والحزَنِ
قامتْ تُودِّعُني والدَّمْعُ يغلبُها ... فجمجَمَتْ بعض ما قالت ولم تُبِنِ
مالَت عليَّ تُفَدِّيني وتَرْشُفُني ... كما يميلُ نسيمُ الرِّيحِ بالغُصُنِ
وأعرَضَتْ ثم قالتْ وهي باكيةٌ ... ياليتَ معرفتي إياكَ لم تكُنِ

وقال آخر:

لم أنس يوم الرحيل موقفها ... وطرفها في دموعها غِرِقُ
وقولها والركاب واقفةٌ ... تتركني هكذا وتنطلقُ؟!

ودَّع رجلٌ صديقاً له وهو يقول:

وداعك مثل وداع الربيع ... وفقدك مثل افتقاد الدِّيَمْ
عليك السلام فكم من وفاءٍ ... نفارقه منك كَمْ من كَرَمْ

الديم: مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق.

وقال آخر:

أقول له حين ودعته ... وكل بعبرته مفلسُ
لئن رجعت عنك أجسامُنا ... لقد سافرت معك الأنفسُ

وانظر إلى هذه الأبيات الرائعة للبحتري والتي يعلل فيها سبب هروبه عن ساعة الوداع لأنه يعلم ما تحدثه من ألم ولوعة في قلبه وفي قلب مودعيه فرأى أن يهرب منها رفقاً بالقلوب:

الله جارُك في انطلاقكْ تلقاءَ شامك أو عراقِكْ
لا تعـذلنِّـي فـي مسيـ ـري يوم سرتُ ولمْ ألاقِكْ
إنـي خشيـت مَـواقفـاً لِلبيْن تسفح غرب ماقِكْ
وعلمت ما يلقى المودّ ع عند ضمِّك واعتناقكْ
فتـركـتُ ذاك تعمَّـداً وخَرجت أهربُ من فراقكْ

وقال آخر:

أشاعوا فقالوا وقفةٌ ووداعُ وزُمَّتْ مطايا للرحيل سراعُ
فقلتُ: وداعٌ لا أطيقُ عيانَهُ كفاني من البين المُشِتِّ سماع
ولم يملك الكتمانَ قلبٌ ملكْتَهُ وعند النوى سِرُّ الكتوم مذاع

كان رسول الله ﷺ إذا ودَّع رجلاً يقول: «**أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك**» [الصحيحة: ١٤].

خرج رسول الله ﷺ يودِّع معاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن وكان معاذ راكباً على راحلته ورسول الهدى ﷺ يمشي بجواره فلما فرغ من وداعه ومن وصيته له قال له: يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمرَّ بمسجدي وقبري فبكى معاذ جزعاً لفراق رسول الله ﷺ. [صحيح ابن حبان: ٦٤٧].

ودَّع الصبر محبٌّ ودَّعك ذائعٌ من سرِّه ما استودعك
يقرعُ السِّنّ على أن لم يكنْ زاد في تلك الخطىٰ إذ شيَّعَكْ

يا أخا البدر سناءً وسناً حفظ الله زماناً أطلَعك
إن يطل بعدك ليلي فلكم بتُّ أشكو قصر الوقت معكْ

وهذا شاعر آخر ـ تميم الفاطمي ـ يقدم لنا في صورة رائعة ماتعة تهزّ النفس وتوقظ الإحساس، يقدم لنا صورة عن حالة الوداع وعن شدة ألمها، محاولاً أن يقرب لنا عن طريق المماثلة الحالة التي يكون عليها من ابتلي بفراق أحبته، وإلاَّ فحقيقة الأمر أشق من ذلك وأوجع مما هنالك:

وما أمُّ خشفٍ ظل يوماً وليلةً ببلقعة بيداء ظمآن صاديا
تهيمُ فلا تدري إلى أين تنتهي مولَّهة حيرى تجوبُ الفيافيا
أضرَّ بها حرُّ الهجير فلم تجد لِغُلَّتها من بارد الماء شافيا
فلما دنت من خشفها انعطفتْ له فألفَتْهُ ملهوف الجوانح طاويا
بأوجع منِّي يوم شدَّت حمولهم ونادىٰ منادي الحي أن لا تلاقيا

قال أحد المودِّعين:

بكت عيني غداة البين دمعاً وأخرى بالبكا بخلتْ علينا
فعاقبت التي بالدمع ضنّتْ بأن أغمضتُها يوم التقينا!!

وقال آخر:

عينٌ تُسرُّ إذا رأتك وأختها تبكي لطول تباعد وفراق
فاحفظ لواحدة دوام سرورها وَعِدِ التي أبكيتَها بتلاقِ!!

قال البارودي في الوداع:

يا صاح لو أبصرتَ ما صنع الهوى بأخيك يوم تفرُّق الأظعانِ
يومٌ فقدتُ الحِلمَ فيه وشفَّني وَلَهٌ أصاب جوانحي فَرمَاني
حلوا فأيةُ عبرةٍ مسفوحةٍ ويدٍ تضمُّ حشاً من الخفقانِ

وقال:

محا البينُ ما أبقت عيون المها منِّي ... فَشِبْتُ ولم أقضِ اللُّبانةَ من سنِّي
أهبتُ بصبري أن يعود فعزَّني ... وناديت حِلمي أن يثوب فلم يُغْنِ
ولم تمض إلاَّ خطرةٌ ثم أقلعتْ ... بنا عن شطوط الحيِّ أجنحةُ السُّفْنِ
وما كنتُ جرَّبتُ النوى قبل هذه ... فلما دهتني كِدْتُ أقضي من الحُزْنِ

وداعٌ في محطة القطار

وهذا شاعر اسمه «محمد برهام» يصور لنا لحظات من لحظات الوداع الحرجة وكان ذلك في محطة القطار:

اذكري يوم أن رحلت اذكريه ... لا قضى الله بعد ذلك بينا
يوم كنا على المحطة نبغي ... لو يطول الوقوف ثمَّ علينا
قد أخذنا لنا مكاناً قصياً ... فذكرنا أيامنا واشتكينا
ونخاف القطار يأتي، فنمضي ... ننظر الساعة التي في يدينا
بل خدعنا نفوسنا «ياسعاد» ... وعبثنا بعقَربيْ ساعتينا
نحسب الوقت بالدقيقة حتى ... قدم «القطر» بغتة فبكينا
وتضنين بالفراق، إلى أن ... دق صوت الناقوس في أذنينا
فركبت القطار ثم تهادى ... فحكانا، ونحن نمشي الهوينى
لم يكن بعد، غير بضع ثوان ... واختفيتم عن عيننا واختفينا
افترقنا ولم نبلّ غليلاً ... ولنا اليوم أشهر ما التقينا
لا جزى الله يوم بينك خيراً ... كم أسال الدموع من مقلتينا!

محاورة بين بنتٍ وأبيها المسافر

أشرنا إلى أن من أشد أنواع الفرقة والحرقة هي مفارقة المسافر لأبنائه وبناته، وإليك قصة أخرى من ذلك النوع المحزن من الفراق، وتلك اللوعة من لوعات البعاد.

أنشد الأصمعي لحاجب الفيل اليشكري:

لمَّا رأت بنْتي بأنِّي مُزْمِعٌ ... بترحلٍ من أرضها فمودِّع
ورأتْ ركَابي قُرِّبَتْ لرحالها ... قالت وغرْبُ العينِ منها يَدْمَعُ
أبتَا أتَتْرُكُنَا وتَذهَبُ تَائِهاً ... في الأرض تَخْفِضُكَ البلادُ وتَرْفَعُ
فيَضيعُ صبْيَتُك الذين تَركْتَهمْ ... بمُضِيمةٍ في المصْرِ لم يتَرَعْرَعُوا
فيهِمْ صَغيرٌ لَيْسَ يَنْفَعُ نَفْسَهُ ... وصغيرَةٌ تَبْكِي وطِفْلٌ يَرْضَعُ
إنَّا سَنَرْضَى مَا أقَمتَ بعيْشِنَا ... ما كَانَ من شيءٍ نَجُوعُ ونشْبَعُ
والله يرْزُقُنَا فَنَرْضَى رِزْقَهُ ... وكَفَى بحُسْنِ معيشَةٍ مَنْ يَقْنَعُ
إنَّا إذا ما غِبْتَ عَنَّا لَمْ نَجِدْ ... ممَّا تَخَلَّفَ عِنْدنا ما يَنْفَعُ
تَجْفُو موالينَا ويُعْرِضُ جَارُنَا ... وقَرِيبُنَا الأدْنَى يَعِزُّ ويَقْطَعُ
ونَخافُ أن تَلْقَاك وَشْكُ مَنِيَّةٍ ... فيُصيبَنَا الأمْرُ الجليلُ المفْظِعُ
فَنصيرَ بَعْدَك ليسَ يُرْفَعُ بَيْتُنَا ... ويُذِلُّنَا أعْدَاؤنَا ونُضَيَّعُ
هذا الرحيلُ وأمْرُنَا ما قَدْ تَرَى ... فَمَتى تَؤُوبُ إلى الصِّغَارِ وتَرْجِعُ
فَخُنِقْتُ مِنْ قَوْلِ الصّغَارِ بَعَبْرَةٍ ... كَادَ الفُؤادُ لِقَوْلِهم يتصدَّعُ
وأجَبتُهَا: صَبْراً بُنَيَّةُ واعْلَمِي ... أن ليسَ يَعْدُو يَوْمَهُ من يَجْزَعُ

وداع وشكوى

وهذه من روائع إيليا أبي ماضي التي يصور فيها ساعة الوداع وألم الفراق:

أزف الرَّحيلُ وحانَ أن نَتفرَّقا ... فإلى اللِّقا يا صاحبيَّ إلى اللَّقا
إن تبكيا فلقد بَكَيتُ من الأسى ... حتى لكِدْتُ بأدْمُعي أن أغرَقا
وتَسعَّرتْ عندَ الوَداع أضالعي ... ناراً خَشيتُ بِحَرِّها أنْ أُحرقا
مازلتُ أخشَى البَينَ قَبلَ وقُوعِهِ ... حتى غدوتُ وليسَ لي أن أفْرَقَا
يومَ النوى، لله ما أقْسى النَّوى ... لولا النَّوى ما أبغضتْ نفسي البَقَا
رُحْنَا حَيارَى صامتينَ كأنَّما ... للْهَوْلِ نَحْذَرُ عندَه أن نَنطِقَا
أكبادُنا خَفَّاقةٌ وعيونُنا ... لا تستطيعُ، من البُكا، أن تَرمُقا
نَتجاذبُ النظراتِ وهي ضعيفةٌ ... ونغالبُ الأنفاسَ كيلا تُزْهَقا
لو لم نُعَلِّلْ باللقاء نفوسَنَا ... كادتْ مع العَبَراتِ أن تتدَفَّقا
يا صاحبيَّ تَصبَّرا فلَرُبَّما ... عُدنا وعادَ الشَّملُ أبْهَى رَوْنَقَا
إن كانتِ الأيَّامُ لم تَرْفُقْ بنا ... فَمِنَ النُّهى بنفوسنا أن نَرفُقَا
إنَّ الذي قدَرَ القطيعةَ والنَّوى ... في وُسْعِهِ أن يجمعَ المُتفرِّقا!..

وهذا مقطع من قصيدة بعنوان «الرَكْبُ المسافر» للشاعر عيسى بن علي جرابا:

يا ليلُ أين أحبتي ورفاقي؟ ... أوَغادروا؟ والدمعُ في أحداقي!
يا ليل أين رحيلُهمْ؟ أوَيتركو ... نَ القلبَ يُحرقُ في لظىٰ الأشواق؟
يا أيُّها الركبُ المسافرُ لحظةً ... ضاقتْ بيَ الدنيا، وشُدّ وثاقي

وعلىٰ فمي وقفَ القريضُ كأنما ... خافَ القريضُ ولم يشأ إرهاقي
والعينُ غامت في رؤاها حين سا ... ر الركبُ، فيه أحبتي ورفاقي
وتفجرتْ منها ينابيعُ الأسىٰ ... وتوقد الإحساسُ في أعماقي
العمُر يمضي كلُّه في لوعةٍ ... وحنينِ مشتاقٍ إلىٰ مشتاق
أستارُ ليل فراقنا قد أُسدلتْ ... فمتى سيهتُكها صباحُ تلاق؟

بكاءٌ لفراق الحليلة

رائعةٌ من روائع الشعر العربي يبكي فيها الشاعر غربته، ويحن إلى أحبته، ويتأسف على تركه زوجته، يتأوه من مرارة الفراق ولوعة الوداع، ونار الغربة. سافر من بغداد إلى الأندلس طالباً للرزق وقد مات بالأندلس ولم يتمكن من الرجوع إلى بغداد. يقول علي بن زُريق رحمه الله:

لا تعذليهِ فإن العذل يولعُهُ ... قد قلتِ حقاً ولكنْ ليس يسمعهُ
جاوزتِ في لومه حدًّا أضرَّ بهِ ... من حيث قدَّرتِ أن اللوم ينفعهُ
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلاً ... من عُنفه فهو مضنى القلب موجعُهُ
قد كان مضطلعاً بالخطب يحمله ... فضيّقت بخطوب البين أضلعُهُ
يكفيه من لوعة التفنيد أن له ... من النوى كل يوم ما يُرَوِّعه
ما آب مغتربٌ إلا وأزْعَجهُ ... رَأْيٌ إلى سفرٍ بالعزم يجمعهُ
كأنما هو من حلٍّ ومُرْتحلٍ ... موَكَّلٌ بفضاء الأرض يذْرعهُ
إذا الزمانُ أراه في الرَّحيل غنىً ... ولو إلى السند أضحى وهو يُزْمعهُ
تأبى المطامعُ إلاَّ أن تُجَشِّمه ... للرزق كَدًّا، وكم مِمَّن يُوَدِّعهُ
وما مُجاهدة الإنسان توصله ... رزقاً، ولا دعة الإنسان تَقطعه
والله قسَّمَ بين الخلق رزْقهُمُ ... لم يخلق الله مخلوقاً يُضيِّعُهُ
لكنهم مُلئوا حرصاً فلست ترى ... مُسترزقاً، وسوى الغايات يقنعهُ
والسعي في الرزق والأرزاق قد قُسمت
بغيٌ، ألا إن بغي المرء يصرعُهْ

والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبه ... يوماً، ويمنعه من حيث يُطمِعُهُ
أستودع الله في بغداد لي قمراً ... بالكرخ من فلك الإزرار مَطلعهُ
ودَّعتُـه، وبـودِّي لـو يـودعنـي ... صَفـوُ الحيـاة وأنـي لا أودعـه
وكـم تَشفَّـع أنـي لا أفـارقـهُ ... وللضـرورات حـالٌ لا تشفِّعُـه
وكم تشبث بي عند الرحيل ضحىً ... وأدمعـي مُستهـلاَّتٌ وأدمعُـهُ
أُعطيتُ ملكاً ولم أُحسِنْ سياستهُ ... كذاك من لا يسوس الملك يُخلَعُهُ
ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا ... شكـر الإلـه، فعنـه اللهُ ينـزعـهُ
اعتضتُ عن وجد خلِّي بعد فرقته ... كـأسـاً أُجَـرَّع منهـا مـا أُجَـرَّعُـهُ
كم قائل ليَ ذنب البين قلت له ... الذنب والله ذنبي لست أدفعهُ
هلا أقمتُ فكان الرُّشد أجمعه ... لو أنني يوم بان الرشد أتبعُهُ
إنـي لأقطـع أيـامـي وأنفـذهـا ... بحسـرة منـه فـي قلبـي تُقطِّعُـهُ
بِمَـنْ إذا هجـعَ النُّـوَّامُ بـتُّ لـه ... بلوعةٍ منه لَيلِي لستُ أهجعهُ
لا يطمئن لجنبي مضجعٌ، وكذا ... لا يطمئن له مُذْ بنتُ مضجعُهُ
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني ... بـه، ولا أن بِـيْ الأيـامُ تَفْجِعُـهُ
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيدٍ ... عسـراء تمنعنـي حظِّـي وتمنعـهُ
بالله يا مَنْزِل القصف الذي دَرَستْ ... آثـاره وعفـت مـذ غبـتُ أربُعـهُ
هل الزمان معيدٌ فيك لذَّتنا؟ ... أم الليالي التي أمْضَتْهُ تُرْجِعُهُ
في ذمَّة الله من أصبحتَ منزله ... وجاد غيثٌ على مغناك يمرعهُ
مـن عنـده لـيَ عهـدٌ لا يُضَيِّعُـهُ ... كمـا لـه عهـد صـدقٍ لا أُضيِّعُـهُ
ومـن يصـدع قلبـي ذكـره، وإذا ... جرى على قلبه ذكري يُصَدِّعُهُ

لأصبرَنَّ لِدهرٍ لا يمتعني ... به، ولا بيَ في حالٍ يُمتِّعُهُ
علماً بأن اصطباري معقبٌ فرجاً ... وأَضْيَق الأمر إن فكَّرت أوسَعُهُ
عَلَّ الليالي التي أضنتْ بفرقتنا ... جسمي ستجمعني يوماً وتجمعُهُ
وإن تنلْ أحداً منَّا منيته ... فما الذي بقضاء الله يَصْنَعُهُ

محبٌ يحب الفراق

من لم يذق مرارة الفراق لم يدر ما حلاوة التلاقي

وقبل أن نغادر ساحة الفراق، ونمسح دموع الوداع استمع إلى هذا الشاعر الذي فهم من الوداع فهماً آخر، ونظر إلى ساعة الفراق نظراً مخالفاً فهو يرى أن ساعة الفراق جميلة، ولحظات الوداع مباركة، وأنه متى نوى الفراق والوداع التهب فؤاده وفؤاد مودِّعه وجزع قلبه وقلب مُفَارقه، فيهرعون من الوداع إلى اللقاء ومن الفراق إلى العناق، وقد يكون في ذلك العناق واللقاء ما يقوي ارتباط بعضها ببعض وتركهما للفراق وهروبهما من الغياب:

مُتِّعا باللقاء يومَ الفراقِ مُستجيرَيْنِ بالبكا والعناقِ
فأظلَّ الفِراقُ فالتقيا فيـ ـه فراقاً أتاهُما باتِّفاقِ
كيف أدْعو على الفِراقِ بحتْفٍ وغداة الفراقِ كان التلاقي

وهذا الشاعر فخري أبوالسعود من شعراء مجلة الرسالة المشهورين يكتب قصيدة يمتدح فيها البين، ويشيد فيها بالفراق، وقد علَّل لذلك بتعليلات لطيفة للغاية، وهي بعنوان البعاد:

اه ما أعذَبَ البعادَ وإن أز رَى عليه من قبلِنا العاشقونا
إنني أشتهي البعاد زمانا مثلما أشتهي التواصل حينا
لا أُحبُّ اللقاء عهداً مقيما مستمراً به نُقضِّي السنينا
ما ألَذَّ الهوى لقاً ووداعاً وكتاباً أدَّى التحايا أمينا
إن هذا البعادَ يُذكي بي الحبَّ ويُحْيي ولائي المكنونا

فأُفَدِّيكِ في النوى بحياتي حيثما تُصبيحين أو تُمسينا
وأحيِّيك كلما ذكَّرتْني ك رياضٌ رفَّتْ علينا غصونا
وأرى أن ودَّنا يعبر السهـ ـل ويَرْقَى الربا ويطوى الحزونا
إن هذا البعاد يبعث بالأشـ ـواق حَرَّى ويستجيش الحنينا
ويُعيد العذابَ من ذكرياتي وقديماً من عهدنا ودفينا
ويثير المنى بنفسي ولن ألـ ـقى بأسمى المنى سواك قمينا
أتمنىٰ اللقا بيوم لنا أر جع فيه إليك أو ترجعينا
أتمنى اللقا وفيك وفاءٌ باتَ عندي بأن تَبرِّي ضمينا
حُبُّنا من صفاته أنه بَرٌّ وثيق الذمام يعلو الظنونا
وأحَبُّ الأيام عنديَ ما أرْ قُبُ فيه لقاءك الميمونا
أنْفِقُ العمرَ مسرفاً فإذا أقـ ـبَلَ يومُ اللقاء كنتُ ضنينا
كلَّ حين لنا لقاءٌ سعيدٌ ووداع أطوي عليه شجونا
وتزيدين في البعاد جمالاً ورواء وبهجة وفتونا
وتزيدين في الشمائل إينا ساً وعطفاً كما أُحبُّ ولينا
وتزيدين كل حين سموًّا وعلوًّا فَاتَ الذرا والقنونا
أنْتِ كنز من المحاسن أُخفيـ ـه نفيساً عن ناظريَّ ثمينا
كي أراه إن عُدتُ أبغيه قَدْ زا دَ جمالاً يسبي النهى والعيونا
كلَّ يوم أُجدِّد البُعـ ـد وأُحْيي منه فنوناً فنونا
فكأني عشقتُ ألفاً ومازلـ ـتُ الفتى الوافيَ الذي تعرفينا
ما أحَبَّ الهوى افتقاداً ووجدا ناً وقرباً حيناً وبعداً شَطُونا

من أخبار المسافرين (٢١)

مسافر يترك السفر عطفاً على زوجته

أراد أعرابي أن يسافر فأوصى امرأته قائلاً :

عُـدِّي السنيـن لغيبتـي وتصَبَّـري ... وذري الشهـورَ فـإنهـنَّ قِصـارُ

فقالت له :

اذكـر صبـابتنـا إليـك وشـوقنـا ... وارحـم بنـاتـك إنهـن صغـار

فأقام وترك السفر .

وقال آخر :

ولمـا تبـدّت للـرحيـل جمـالنـا ... وجدَّ بنا سيرٌ وفاضت مدامعُ

تبدّت لنا مذعورة من خبائها ... وناظرها باللؤلؤ الرطب لامعُ

أشارت بأطراف البنان وودَّعت ... وأومَتْ بعينيها متى أنت راجعُ

فقلت لها والله ما من مسافر ... يسير ويدري ما به الله صانعُ

فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها ... فسالـت من الطـرف الكحيل مدامعُ

وقالت إلـهي كن عليه خليفة ... فيارب ماخابت لديك الودائعُ

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

[سورة النحل]

وداع لا رجعة بعده

وهذا نوعٌ من أنواع الوداع، ولكنه وداع من نوعٍ آخر؛ إنه الوداع الذي لا رجعة بعده، ولا أمل في اللقاء معه، وكم من حبيب ودَّع حبيبه إلى الأبد، وقريب ودَّع قريبه على غير أمل في اللقاء.

إذا كان من أمر الوداع الذي يرجى بعده اللقاء ما رأينا من اللوعة والألم وتفتت الأكباد وحرقة الفؤاد، فكيف بمن يودّع حبيبه على غير أملٍ من لقائه ولا رجاء في رؤيته بعد ذلك إلاَّ أن يجمع الله تعالى بينهم في دار النعيم. جعلنا الله وإياكم وجميع من ودعناه من أهلنا ممن يفوز بها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١].

وإليك، أخي المسافر، بعض قصائد الوداع أو ما يسمى بالرثاء، وقد أوردتها لعدَّة اعتبارات منها: التذكر والاعتبار؛ فإن المسافر يعلم أنه سيكون في يوم من الأيام خبراً من الأخبار، وقصة وجدت على مسرح الحياة، ثم أُسْدِل عليها الستار، فيدفعه ذلك إلى تقديم ما ينفعه والاستعداد لرحيله.

سل الأيام ما فعلت بكسرى ... وقيصر والقصور وساكنيها
أما استدعتهم للموت طُرَّاً ... فلم تَدَع الحليم ولا السفيها
دنت نحو الدنيِّ بسهم خطب ... فأصمته وواجهت الوجيها
أما لو بيعت الدنيا بفلسٍ ... أَنِفتُ لعاقل أن يشتريها

ومنها: أن الإنسان إذا خلّف بعده السمعة الحسنة والذكر الطيب فهو

في الحقيقة لم يمت. فالذكر للإنسان عمرٌ ثان.

ومنها: أن قصائد الرثاء أو الوداع الأخير هي أصدق ما يمثل العاطفة الإنسانية الجياشة وأقوى ما يفصح عن خلجات الضمير، وأعماق الأفئدة.

ضحايا القطار

هذه قصيدة لشوقي يرثي فيها طائفة من شباب مصر سافروا لتلقي العلم في جامعات أوروبا فاصطدم القطار الذي يقلهم من أرض إيطاليا، فقتل أحد عشر طالباً، وجيء بهم إلى مصر، فاستقبلت جثثهم استقبالاً رهيباً، واشتركت في جنازتهم جميع طوائف البلاد، وزاد في هول هذا المصاب أنه حدث إبان اشتعال الثورة في البلاد سنة ١٩٢٠م.

ألا في سبيل الله ذاكَ الدمُ الغالي ... وللمجد ما أبقى من المثل العالي
وبعضُ المنايا همَّةٌ من ورائها ... حياةٌ لأقوامٍ، ودُنيا لأجيال
أعَيْنَيَّ، جودا بالدموع على دمٍ ... كريمِ المُصَفَّى من شباب وآمال
تناهَتْ به الأحداثُ من غُربةِ النَّوَى ... إلى حادثٍ من غُربةِ الدهرِ قتّال
جرى أرجُوانياً، كُمَيْتاً، مُشَعْشَعاً ... بأبيضَ من غسْل الملائِكِ سَلْسَال
ولاذ بقُضبانِ الحديدِ شهيدُه ... فعادَتْ رَفيفاً من عيونٍ وأطلال
طوى الغربَ نحوالشرقِ يعدوسُلَيْكُهُ ... بمضْطَرِبٍ في البرِّ والبحرِ، مِرْقال
يُسِرُّ إلى النفسِ الأسَى غيرَ هامسٍ ... ويُلقي على القلبِ الشَّجَى غير قوَّال
سماءُ الحِمَى بالشاطِئَيْنِ وأرضُه ... مناحةُ أقمارٍ، ومأْتَمُ أشبال
ترى الريح تدري: ما الذي قد أعادهَا ... بساطاً، ولكن من حديدٍ وأثقال؟
يُقِلُّ من الفتيان أشبالَ غابةٍ ... غُداةً على الأخطار رُكَّابَ أهوال
ثَنَتْهُ العوادي دونَ (أودِينَ)، فانثنَى ... بآخَرَ من دُهْمِ المقادير ذَيَّال
قد اعتنقا تحت الدّخانِ كما التقَى ... كميّان في داجٍ من النقْع مُنجال
فسبحانَ من يرمي الحديدَ وبأسَه ... على ناعم غَضٍّ من الزهر مِنهال

ومن يأخذُ السارين بالفجرِ طالعاً طلوعَ المنايا من ثنيَّات آجال
ومن يجعلُ الأسفار للناس هِمّةً إلى سفرٍ يَنْوُونَه غيرَ قُفَّال
فهل عطفتكم رنة الأهل والحِمَى وضجة أترابٍ عليهم وأمثال؟
لئن فات مصراً أن يموتوا بأرضها لقد ظفروا بالبعث من تُرْبها الغالي

أبوالحسن الأنباري يرثي وزير عز الدولة

وقال أبوالحسن الأنباري، المتوفى عام ٢٣٨هـ، يرثي أباطاهر بن بقية وزير عز الدولة لما قتل وصلب، وقد كان جواداً كريماً محبوباً عند الناس، وهي من أعظم المراثي، ولم يسمع بمثلها في مصلوب حتى إن عضد الدولة الذي صلبه تمنى أن لو كان هو المصلوب، وقيلت فيه:

علوٌّ في الحياة وفي الممات ... لحقٌّ تلك إحدى المعجزاتِ
كأن الناس حولك حين قاموا ... وُفودُ نداك أيام الصِّلاتِ
كأنك قائم فيهم خطيباً ... وكلهـــمُ قيـــامٌ للصَّـــلاَة
مدَدتَّ يديك نَحْوَهُمُ احْتفاءً ... كمـدِّهمـا إليهـم بـالهبـات
ولما ضاق بَطن الأرض عن أن ... يَضمّ علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عن الأكفان ثوب السافيات
لعِظْمِك في النفوس تبيت تُرعـ ... ـى بحرَّاس وحُفاظ ثقات
وتوقد حولك النيران ليلاً ... كذلك كنت أيامَ الحياة
ركبتَ مطية من قبل زيدٍ ... علاها في السنين الماضيات
وتلـك قضيـةٌ فيهـا تـأسٌّ ... تباعد عنك تعييرَ العدَاة
ولم أر قبل جذعك قط جذعاً ... تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت ... فأنتَ قتيل ثأْرِ النائبات
وكنت تجيرنا من صرف دهر ... فعاد مُطالباً لكَ بالترات
وصيَّرَ دهرك الإحسان فيه ... إلينـا مـن عظيـم السيئـات
وكنت لمعشرٍ سعداً فلما ... مضيت تَفرقوا بالمحسنات

عليل باطن لك في فؤادي يخفف بالدموع الجاريات
ولو أني قدَرْت على قيام بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافي ونحت بها خلاف النائحات
ولكني أُصبِّر عنك نفسي مخافة أن أُعدّ من الجناة
ومالك تربة فأقولُ تسقى لأنك نُصبَ هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تَتْرَى برحمات غواد رائحات

عائشة التيمورية تودّع ابنتها

وهذه عائشة هانم التيمورية المتوفاة سنة ١٣٠٠هـ ترثي ابنتها. وهي قصيدة مبكية حقًّا، ومؤثرة للغاية. كيف لا وهي تصور موقف الأم الحنون، وهي تفقد فلذة كبدها، وأحب شيء إلى قلبها حيث تقول:

سُتِرَ السنا وتحجبت شمس الضحى ... وتغيبت بعد الشروق بدور
ومضى الذي أهوى وجرعني الأسى ... وغدت بقلبي جذوة وسعير
يا ليته لما نوى عهد النوى ... وافى العيون من الظلام نذير
ناهيك ما فعلت بماء حشاشتي ... نار لها بين الضلوع زفير
لو بُث حزني في الوَرَىٰ لم يُلْتَفَتْ ... لمصاب قيس والمصاب كبير
طافت بشهر الصوم كاسات الردى ... سحراً وأكواب الدموع تدور
فتناولت منها ابنتي فتغيرت ... وجنات خدٍّ شانها التغيير
فَذَوَتْ أزاهير الحياة بروضها ... وانقَدَّ منها مائس ونضير
لَبِستْ ثياب السقم في صغر وقد ... ذاقت شراب الموت وهو مرير
جاء الطبيب ضُحى وبشر بالشفا ... إن الطبيب بطبه مغرور
وصف التجرع وهو يزعم أنه ... بالبرء من كل السقام بشير
فتنفست للحزن قائلة له ... عَجِّل ببرئي حيث أنت خبير
وارحم شبابي إن والدتي غدت ... ثكلى يشير لها الجوى وتشير
وارأف بعين حُرِّمت طيب الكرى ... تشكو السهاد وفي الجفون فتور
لما رأت يأس الطبيب وعجزه ... قالت ودمع المقلتين غزير
أُمَّاه قد كَلَّ الطبيب وفاتني ... مما أُؤمل في الحياة نصير

أمـاه قـد عـز اللقـاء وفـي غـد ... سترين نعشي كالعروس يسير
وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي ... هو منزلي وله الجموع تصير
قولي لرب اللحد رفقاً بابنتي ... جاءت عروساً ساقها التقدير
وتجلـدي بـإزاء لحـدي بُـرهـةً ... فتـراك روح راعهـا المقـدور
أمـاهُ قـد سلفـت لنـا أُمْنيِّـة ... يـا حسنهـا لـو سـاقهـا التيسير
كانت كأحلام مضت وتخلفت ... مُذ بان يوم البين وهو عسير
عـودي إلـى ربـع خـلا ومـآثـر ... قـد خلفـت عنـي لهـا تـأثيـر
صوني جهاز العرس تذكاراً فلي ... قد كان منه إلى الزفاف سرور
جرت مصائب فرقتي لك بعد ذا ... لبـس السـواد ونُفـذ المسطـور
والقبر صار لغصن قدي روضة ... ريحـانهـا عنـد المـزار زهـور
أمـاه لا تنسـي بحـق بُنـوَّتـي ... قبـري لئـلا يحـزن المقبـور
بنتاه يا كبدِي ولوعة مهجتي ... قـد زال صفـو شـانـه التكـديـر
لا توص ثكلى قد أذاب فؤادها ... حـزن عليـك وحسـرة وزفيـر
أبكيـك حتـى نلتقـي فـي جنـة ... بـريـاض خلـد زينتهـا الحـور
إن قيل «عائشة» أقول لقد فني ... عيشـي وصبـري ـ والإلـه خبيـر
ولهي على «توحيدة» الحسن التي ... قد غاب بدر جمالها المستور
قلبي وَجَفني واللسان وخالقي ... راض وبـاك شـاكـر وغفـور
متعت بالرضوان في خلد الرضا ... مـا ازَّينـتْ لـك غـرفـة وقصـور

البارودي يبكي زوجته في الغربة

وهذا البارودي يرثي زوجته وقد ورد إليه نعيها وهو في غربته بـ(سرنديب) حيث نُفي هناك عقب الثورة العرابية في صفر سنة ١٣٠٠هـ، وسرنديب هي جزيرة من أراضي الهند في جنوب بيهار. فانظر إلى البارودي الذي كان يكتوي بنار الغربة ويحن إلى أهله وبلده ثم يفاجأ بخبر وفاة زوجته التي كان يحبها حبًّا شديداً وهو ما تعبر عنه هذه المرثية العظيمة المؤثرة ومنها:

أَيَدَ المَنُونِ قَدَحْتِ أَيَّ زِنادِ ... وأَطَرْتِ أَيَّةَ شُعْلَةٍ بِفُؤادِي
أَوْهَنْتِ عَزْمِي وهْوَ حَمْلَةُ فَيْلَقٍ ... وحَطَمْتِ عُودِي وهْوَ رُمْح طِرَاد
لم أَدْرِ هَلْ خَطْبٌ أَلَمَّ بِسَاحَتِي ... فأَنَاخَ، أَمْ سَهْمٌ أَصَابَ سَوَادي؟
أَبْلَتْنِيَ الحَسَراتُ حَتَّى لَمْ يَكَدْ ... جِسْمِي يَلُوحُ لأَعْيُنِ العُوَّادِ
لا لَوْعَتي تَدَعُ الفُؤَادَ، ولاَيَدِي ... تَقْوَى عَلَى رَدِّ الحَبيبِ الغَادِي
يا موت فِيمَ فَجَعْتَني بِحَليلَةٍ؟ ... كانَتْ خُلاصَةَ عُدَّتي وعَتادي
إن كنتَ لم تَرْحَمْ ضَنَايَ لِبُعْدِها ... أفَلا رَحِمْتَ من الأسَى أَوْلادي؟
أفْرَدْتَهُنَّ فَلَمْ يَنَمْنَ تَوَجُّعاً ... قَرْحَى العُيُونِ رَوَاجِفَ الأكْبادِ
أَلْفَيْنَ دُرَّ عُقُودِهِنَّ، وصُغْنَ مِنْ ... دُرِّ الدُّمُوعِ قَلائِدَ الأجْيادِ
يَبْكِينَ مِنْ وَلَهٍ فِراقَ حَفِيَّةٍ ... كانَتْ لَهُنَّ كَثِيرَةَ الإسْعادِ
فخُدُودُهنَّ من الدُّمُوعِ نَدِيَّةٌ ... وقُلوبُهُنَّ من الهُمومِ صَوَادِي
أسليلَةَ القَمَرَيْنِ! أيُّ فَجيعةٍ ... حَلَّتْ لِفَقْدِكِ بَيْنَ هذا النَّادِي؟
لو كان هذا الموتُ يَقْبَلُ فِدْيَةً ... بالنَّفْسِ عَنْكِ لَكُنْتُ أوَّلَ فادِي

لكنَّهـا الأقْـدارُ لَيْـسَ بِنَـاجِـعٍ ... فيهـا سـوى التسليـم والإِخْـلادِ
هيهات بَعْدَكِ أنْ تَقَرَّ جَوانِحِي ... أسَفـاً لِبُعْـدِكِ أو يلِيـنَ مِهـادي
ولَهِي عَلَيْكِ مُصاحِبٌ لِمَسيرَتِي ... والـدمْـعُ فيـك مُـلازِمٌ لِـوِسَـادِي
فإذا انْتَبَهْتُ فأنْتِ أوَّلُ ذُكْرَتِي ... وإذا أَوَيْـتُ فـأنْـتِ آخـرُ زادي
تَعِسَ امْرُؤٌ نَسِيَ المعَادَ ومَا دَرَى ... أنَّ المَنُـونَ إليْـه بـالمِـرْصَـادِ
فَاسْتَهْد «يامحمودُ» رَبَّكَ، والتَمِسْ ... مِنْهُ المعُونَةَ، فَهْوَ نِعْم الهادِي
واسأَلْهُ مَغْفِرةً لِمَنْ حَلَّ الثَّرَى ... بالأمْسِ، فَهْوَ مُجيبُ كُلِّ مُنادِي
هي مُهْجَةٌ ودَّعْتُ يوْمَ زِيالِهَا ... نَفْسِـي، وعِشْـتُ بِحَسْـرَةٍ وبِعـادِ
تالله ما جَفَّت دُمُوعيَ بَعْدَمَا ... ذَهَبَ الرَّدَى بِكِ يا بْنَةَ الأمْجَادِ
لا تَحْسَبِينِي مِلْتُ عَنْكِ مَعَ الهَوَى ... هَيْهَاتَ، ما تَرْكُ الوَفاءِ بِعادِي
قدْ كِدْتُ أَقْضِي حَسْرَةً لَوْ لمْ أكُنْ ... مُتَـوَقِّعـاً لُقْيَـاكِ يـوْمَ مَعَـادي
فَعَلَيْـكِ مـن قلْبـي التَّحِيَّـةُ كُلَّمَـا ... نـاحَـتْ مُطَـوَّقَـةٌ علـى الأعْـوادِ

ولـــدي!!

كنت أتصور أن الشعر وحده هو الذي يملك هزَّ المشاعر، وإثارة الأحاسيس وتصوير دقائق النفس، وخلجات الضمير، فلما قرأت هذه المقالة قلت: أشهد أن من النثر ما يتفوق على الشعر. إن الكاتب البارع والإنسان البليغ يستطيع أن يعبر عما في نفسه وما يختلج في مشاعره وينقل تجربته إلى غيره فيجعلهم يعيشونها معه وليس شرطاً أن تكون في قالب من الشعر.

قرأت هذه المقالة للأديب المسلم العربي المتألِّق أحمد حسن الزيات ـ رحمه الله ـ أستاذ الكلمة وقبطان العبارة وملك الأسلوب، صاحب مجلة الرسالة الرائدة، ذلك الأديب المسلم الغيور الذي كانت له كتابات إسلامية رائعة أسأل الله أن يأجره عليها، فقلَّما تجد في عصره أعذب من أسلوبه، أو أجمل من مقالاته، أو أصدق من انفعالاته، إنه عَلَمٌ شامخ في فن الكتابة العربي الأصيل السهل الممتنع، على العموم ليس هذا ميداناً للحديث عن الزيات ـ رحمه الله ـ ولكنني قرأت له هذه المقالة التي يرثي فيها ابنه «رجاء» الذي جاءه على شوق وطول انتظار ثم اختطفته المنايا وهو في عمر الزهور كما يقال، لن أطيل في الكلام عن المقالة ولكني أذكر لك تجربتي معها ولا أدري ربما يكون تأثُّري البالغ بها لأنني بفضل الله تعالى رجلٌ عاطفي إلى حدٍّ كبير حتى إنني لو رأيت هِرّة في الطريق دهستها سيارة أو تتلوّىٰ من الألم فإني لا أملك دموعي فكيف بمقال كهذا المقال الذي يرثي فلذة الكبد، ويصور مرارة اللوعة على فقد

الولد. والذي نفسي بيده إنني حينما قرأتها أخذت أنتفض وأبكي وأصيح وكأنني مجنون أو أُصبتُ بمصيبة كبيرة أو نزلت بي نازلة عظيمة، فأتركك الآن مع البيان الساحر، والعبارة الصادقة، والكلمة المؤثِّرة.

«**ولدي**» هكذا وبهذا العنوان كتب مقالته الأديب البارع والأستاذ اللامع أحمد حسن الزيات بعد أن وضع بجوار العنوان صورة لولده رجاء رحمهما الله تعالى:

يا قارئي أنت صديق فدعني أُرِقْ على يديك هذه العبرات الباقية! هذا ولدي كما ترى، رُزِقته على حال عابسة كاليأس، وكهولة بائسة كالهرم، وحياة باردة كالموت، فأشرق في نفسي إشراق الأمل، وأورق في عودي إيراق الربيع، وولّد في حياتي العقيمة معاني الجدّة والاستمرار والخلود!

كنت في طريق الحياة كالشارد الهيمان، أنشد الراحة ولا أجد الظل، وأُفيض المحبة ولا أجد الحبيب، وألبس الناس ولا أجد ما ألبس، وأكسب المال ولا أجد السعادة وأعالج العيش ولا أدرك الغاية!! كنت كالصوت الأصم لا يُرجِّعه صدى، والروح الحائر لا يُقرُّه هدى، والمعنى المبهم لا يحدده خاطر!! كنت كالآلة أنتجتها آلةٌ واستهلكها عمل، فهي تخدم غيرها بالتسخير، وتميت نفسها بالدؤوب، ولا تحفظ نوعها بالولادة، فكان يصلني بالماضي أبي، ويمسكني بالحاضر أجلي، ثم لا يربطني بالمستقبل رابط من أمل أو ولد. فلما جاء (رجاء) وجدتُني أُولد فيه من جديد؛ فأنا أنظر إلى الدنيا بعين الخيال، وأبسم إلى الوجود بثغر الأطفال، وأضطرب في الحياة اضطراب الحي الكامل يدفعه من ورائه طمع، ويجذبه من أمامه طموح! شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطاً في

جسمي، وبالأمل القوي ينبعث جديداً في نفسي، وبالمرح الفتي يضج لاهياً في حياتي، وبالعيش الكئيب تتراقص على حواشيه الخضر عرائس المنى! فأنا ألعب مع رجاء بلُعبه، وأتحدث إلى رجاء بلغته، وأتبع عقلي هوى رجاء فأدخل معه دخول البراءة في كل ملهى، وأطير به طيران الفراشة في كل روض، ثم لم يعد العمل الذي أعمله جديراً بعزمي، ولا الجهد الذي أبذله كفاءً لغايتي، فضاعفت السعي، وتجاهلت النصب، وتناسيت المرض، وطلبت النجاح في كل وجه! ذلك لأن الصبي الذكي الجميل أطال حياتي بحياته، ووسَّع وجودي بوجوده، فكان عمري يغوص في طوايا العدم قليلاً قليلاً ليمد عمره بالبقاء، كما يغوص أصل الشجرة في الأرض ليمد فروعها بالغذاء.

شغل رجاء فراغي كله، وملأ وجودي كله، حتى أصبح شغلي ووجودي! فهو صغيراً أنا، وأنا كبيراً هو؛ يأكل فأشبع، ويشرب فأرتوي، وينام فأستريح، ويحلم فتسبح روحي وروحه في إشراق سماوي من الغبطة لا يوصف ولا يحد!!

ما هذا الضياء الذي يشع في نظراتي؟ ما هذا الرجاء الذي يشيع في بسماتي؟ ما هذا الرضا الذي يغمر نفسي؟ ما هذا النعيم الذي يملأ شعوري؟ ذلك كله انعكاس حياة على حياة، وتدفق روح في روح، وتأثير ولد في والد!؟

ثم انقضت تلك السنون الأربع! فَطوِّحتْ الواحة وأوحش القفر، وانطفأت الومضة وأغطش الليل، وتبدد الحلم وتجهم الواقع، وأخفق الطب ومات رجاء!!

يا جبار السموات والأرض رُحماك!! أفي مثل خفقة الوسنان تبدّل الدنيا غير الدنيا، فيعود النعيم شقاء، والملاء خلاء، والأمل ذكرى؟! أفي مثل تحية العجلان يصمت الروض الغَرِد، ويسكن البيت اللاعب، ويقبح الوجود الجميل؟! حنانيك يا لطيف! ما هذا اللهيب الغريب الذي يهب على غشاء الصدر ومراق البطن فيرمض الحشا ويذيب لفائف القلب؟

إن قلبي ينزف من عيني عبرات بعضها صامت وبعضها مُعول! فهل لبيان الدمع ترجمان، ولعويل الثاكل ألحان؟ إن اللغة كوْن محدود فهل تترجم اللانهاية؟ وإن الآلة عصب مكدود فهل تعزف الضرم الواري؟ إن من يعرف حالي قبل رجاء وحالي معه يعرف حالي بعده! أشهد لقد جزعت عليه جزعاً لم يغن فيه عزاء ولا عظة! كنت أنفر ممن يعزيني عنه لأنه يهينه، وأسكن إلى من يباكيني عليه لأنه يُكْبِره، وأستريح إلى النادبات يندبن الكبد الذي مات، والأمل الذي فات، والملك الذي رُفع!

لم يكن رجاء طفلاً عادياً حتى أملك الصبر عنه وأطيع السلوان فيه؛ إنما كان صورة الخيال الشاعر ورغبة القلب المشوق! كان وهو في سِنِّهِ التي تراها يعرف أوضاع الأدب، ويدرك أسرار الجمال، ويفهم شؤون الأسرة، ويؤلف لي (الحواديت) كلما ضمني وإياه مجلس السمر! كان يجعل نفسه دائماً بطل (الحدوته) فهو يصرع الأسود التي هاجمت الناس من حديقة الحيوانات، ويدفع (العساكر) عن التلاميذ في أيام المظاهرات، ويجمع مساكين الحي في فناء الدار ليوزع عليهم ما صاده ببندقيته الصغيرة من مختلف الطير!

والهف نفسي عليه يوم تسلل إليه الحِمام الراصد في وعكة قال الطبيب

إنها (البرد) ثم أعلن بعد ثلاثة أيام أنها (الدفتريا)! لقد عبث الداء الوبيل بجسمه النضر كما تعبث الريح السموم بالزهرة الغضة! ولكن ذكاءه وجماله ولطفه ما برحت قوية ناصعة، تصارع العدم بحيوية الطفولة!!.

والهف نفسي عليه ساعة أخذته غصة الموت، وأدركته شهقة الروح، فصاح بملء فمه الجميل: (بابا! بابا!) كأنما ظن أباه يدفع عنه ما لا يدفع عن نفسه!

لنا الله من قبلك ومن بعدك يا رجاء، وللذين تطولوا بالمواساة فيك السلامة والبقاء.

من أخبار المسافرين (٢٢)

مسافرة تبحث عن زوجها

هذه أم حكيم بنت الحارث المخزومية، مجاهدة جليلة شهدت أُحداً مع زوجها عكرمة بن أبي جهل قبل أن تسلم ثم أسلمت يوم الفتح واستأمنت لزوجها عكرمة. فأمنه رسول الله ﷺ، فخرجت في طلبه وقد هرب إلى اليمن فأدركته في ساحل من سواحل تهامة وقد ركب البحر فجعلت تصيح إليه وتقول: يابن عمّ جئتك من أوصل الناس وأَبَرِّ الناس وخير الناس، لا تهلك نفسك وقد استأمنتُ لك منه فآمنك. فقال: أنتِ فعلتِ ذلك؟ قالت: نعم أنا كلمته فآمنك. فرجع معها فقدم عكرمة فانتهى إلى باب رسول الله ﷺ وزوجته معه فسبقته فاستأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت. فأخبر عمر رسول الله ﷺ بقدوم عكرمة فأسلم.

وشهدت أُم حكيم وقعة اليرموك، وأبلت فيها بلاءً حسناً. فقاتلت فيها أشد القتال وفي وقعة مرج الصُّفَّر خرجت بعمود فقتلت سبعة من الروم.

مرج الصُّفَّر: موقع بنواحي دمشق.

فانظر أخي المسافر إلى هذا الخلق النبوي الرائع كيف يستجيب الرسول ﷺ لهذه المرأة ويؤمِّن زوجها وهو ابن أكبر عدوٍّ لله ورسوله، ولكنه نبيُّ الرحمة والرفق والعفو والهداية ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾.

ثم انظر إلى المرأة الوفية التي ذاقت حلاوة الإسلام وعرفت روعة الإيمان فخرجت هائمة على وجهها وفاءً لزوجها وحباً له ورغبة في إنقاذه من الكفر والضلال ودعوته إلى دين الرحمة، فمنَّ الله عليها فعادت سالمة غانمة.

استراحة المسافر (٧)

* سقط أعرابي من بعيرٍ فانكسرت ضلعٌ من أضلاعه فأتى الجابر يستوصفه فقال له: خذ تمراً جيداً فانزع أقماعه ونواه واعجنه بسمن ثم اضمده عليه، قال: أيْ بأبي أنت من داخل أم خارج؟ قال: من خارج، قال: لا أبا لشانئك هو من داخل أنفع لي، قال: ضعه حيث تعلم أنه أنفع.
* ويروى أن رجلاً رأى في المنام أن له غنماً وكأنه يعطى بها ثمانية، ففتح عينيه فلم ير شيئاً، فغمَّض عينيه ومدَّ يده، وقال: هاتوا أربعة أربعةً.
* أخذ أحدهم «جوزة» وأخذ حجراًلكي يكسرها فضربها بالحجر فانفلتت من يده ووقعت بعيداً فقال: ياسبحان الله حتى البهائم تخاف من الموت
* خطب رجل من بني كلابٍ امرأةً، فقالت له أمُّها: حتى أسأل عنك، فانصرف فسأل عن أكرم الحي عليها، فدُلَّ على شيخ فيهم كان يُحسن المَحْضَر في الأمر يُسأل عنه، فسأله أن يُحسن عليه الثناءَ وانتسبَ له فعرفَه؛ ثم إن العجوز شَمّرت فسألته عنه فقال: أنا ربيّتُه، قالت: كيف لسانُه؟ قال: مِدْرَهُ قومه وخطيبُهم. قالت: كيف شجاعتُه؟ قال: حامِي قومِه وكهفُهم. قالت: فكيف سَماحتُه؟ قال: ثِمالُ قومه وربيعُهم. فأقبل الفتى فقال الشيخُ: ما أحسَنَ والله ما أقبل! ما انثنى ولا انحنى. فدنا الفتى فقال الشيخ: ما أحسنَ والله ما سَلّم! ما جار ولا خار. ثم جلس، فقال: ما أحسن والله ما جَلَس! ما دنا ولا ثَنى. فذهب الفتى ليتحرّك فضرط، فقال الشيخ: ما أحسنَ والله ما ضرط! ما أغنّها ولا أطنّها، ولا بَرْبَرها ولا فَرْفَرها. فنهض الفتى خجِلاً فقال: ما أحسن

والله ما نهض! ما انفتل ولا انخزل. فأسرع الفتى، فقال: ما أحسن والله ما خطا! ما ازْورّ ولا اقْطَوْطى، قالت العجوز: وجِّه إليه من يَرُدّه، لو سَلَح لزوَّجناه.

شمَّرتْ: جدَّت وأسرعت. الثمال بالكسر: الملجأ والغياث والمطعم في الشدة. جأر وخار: رفع صوته. انفتل: التوى، يريد أنه انصرف معتدلاً، وانخزل: مشى في تثاقل. ازورّ: مال وانحرف. واقطوطى: تثاقل في مشيه.

من مآسي المعدّدين:

وهذه قصيدةٌ لي أصور فيها أحوال بعض المعدّدين الذين لهم أكثر من زوجة ـ مع إيماننا أن التعدد أمر شرعه الله تعالى لحكمٍ عظيمة وفوائد جليلة وأنا والله من أسعد الناس بزوجتيّ ـ وهي من باب المزاح والمداعبة لأن هذا الأمر مما يحلو الحديث فيه «والنكت» حوله ومع ذلك فهي تروي حقيقة بعض ما يجري لمن ابتلي بالتعدّد، اللهم حوالينا ولا علينا.

أتاني بالنصائح بعض ناسٍ ... وقالوا أنت مِقدامٌ سِياسي
أترضى أن تعيش وأنت شهمٌ ... مع امرأةٍ تُقاسي ما تقاسي
إذا حاضت فأنت تحيض مَعْها ... وإنْ نفست فأنت أخو النفاس
وتقضي الأربعين بشرِّ حالٍ ... كَدابِ رأسُه هُشِمتْ بِفاس
وإن غَضِبتْ عليك تنام فرداً ... ومحروماً وتمعن في التناسي
تزَوَّج باثنتين ولا تبالي ... فنحن أُولو التجارب والمِراسِ
فقلت لهم معاذ الله إني ... أخاف من اعتلالي وارتكاسي
فهأ نذا بدأت تروق حالي ... ويورق عودُها بعد اليباس

فلن أرضى بمشغلةٍ وهمٍّ ... وأنكادٍ يكون بها انغماسي
ليَ امرأةٌ وشاب الرأس منها ... فكيف أزيد حظي بانتكاسي
فصاحوا سنَّة المختار تنسى ... وتُمحى أين أربابُ الحماسِ؟
فقلتُ أضَعْتُم سُنناً عظاماً ... وبعض الواجبات بلا احتراس
لماذا سنَّةُ التعداد كنتم ... لها تسعون في عزمٍ وباس
وشرع الله في قلبي وروحي ... وسنة سيدي منها اقتباسي
إذا احتاج الفتى لزواج أخرى ... فذاك له بلا أدنى التباسِ
ولكنَّ الزواج له شروطٌ ... وَعَدْلُ الزوج مَشْروطٌ أساسي
وإن مُعَاشر النسوان بحرٌ ... عظيم الموج ليس له مَرَاسي
ويكفي ما حملتُ من المعاصي ... وآثام تنوء بها الرواسي
فقالوا أنت خَوَّافٌ جبانٌ ... فَشَبُّوا النار في قلبي وراسي
فخضت غمار تجربةٍ ضَروسٍ ... بها كان افتتاني وابتئاسي
يحز لهيبها في القلب حزّاً ... أشد عليَّ من حزِّ المواسي
رأيت عجائباً ورأيت أمراً ... غريباً في الوجود بلا قياسِ
وقلتُ أظنُّني عاشرت جنّاً ... وأحسب أنَّني بين الأناسي
لأتفه تافهٍ وأقلِّ أمرٍ ... تبادر حربُهن بالانبجاس
وكم كنتُ الضحية في مرارٍ ... وأجزم بانعدامي وانطماسي
فإحداهن شَدَّتْ شعر رأسي ... وأخراهن تسحب من أساسي
وإن عثر اللسان بذكر هذي ... لهذي شبَّ مثل الالتماس
وتبصرني إذا ما احتجت أمراً ... من الأخرى يكون بالاختلاس
وكم من ليلةٍ أمسي حزيناً ... أنام على السطوح بلا لباسي

وكنتُ أنام مُحترماً عزيزاً ... فصرتُ أنام ما بين البساسِ
أرَضِّعُ نامس الجيران دَمِّي ... وأسقي كلَّ برغوث بكاسي
ويَومٌ أدَّعي أنِّي مريضٌ ... مصابٌ بالزكام وبالعطاس
وإن لم تنفع الأعذار شيئاً ... لجأت إلى التثاؤب والنعاس
وإن فَرَّطْتُ في التحضير يوماً ... عن الوقت المحدد يا تعاسي
وإن لم أرْضِ إحداهنَّ ليلاً ... فيا ويلي ويا سود المآسي
يطير النوم من عيني وأصحو ... لقعقعة النوافذ والكراسي
يجيء الأكل لا ملحٌ عليه ... ولا أُسقىٰ ولا يُكوى لباسي
وإن غلط العيال تعيث حذفاً ... بأحذيةٍ تمرّ بقرب راسي
وتصرخ ما اشتريت لي احتياجي ... وذا الفستان ليس على مقاسي
ولو أني أبوحُ بربع حرفٍ ... سأحذف بالقدور وبالتباسي
تراني مثل إنسانٍ جبانٍ ... رأى أسداً يهمُّ بالافتراس
وإن أشْرِي لإحداهن فِجلاً ... بكت هاتيك يا باغي وقاسي
رأيتك حاملاً كيساً عظيماً ... فماذا فيه من ذهبٍ وماس
تقول تُحبُّني وأرى الهدايا ... لغيري تشتريها والمكاسي
وأحلفُ صادقاً فتقول أنتم ... رجالٌ خادعون وشرُّ ناس
فصرت لحالة تدمي وتبكي ... قلوب المخلصين لما أقاسي
وحار الناس في أمري لأني ... إذا سألوا عن اسمي قلت ناسي
وضاع النحو والإعراب مني ... وَلخْبَطتُ الرباعي بالخماسي
وَطَلَّقْتُ البيان مع المعاني ... وَضَيَّعْتُ الطباق مع الجناسِ
أروح لأشتري كتباً فأنسى ... وأشري الزيت أو سلك النحاس

أسير أدورُ من حيٍّ لحيٍّ ... كأنّي بعض أصحاب التكاسي
ولا أدري عن الأيام شيئاً ... ولا كيف انتهى العام الدراسي
فيومٌ في مخاصمة ويومٌ ... نداوي ما اجترحنا أو نواسي
وما نَفَعَتْ سياسة بوش يوماً ... ولا ما كان من هيلاسي لاسي
ومن حلم ابن قيس أخذتُ حلمي ... ومكراً من جحا وأبي نواس
فلما أن عجزت وضاق صدري ... وباءت أمنياتي بالإياس
دعوتُ بعيشة العزّاب أحلى ... من الأنكاد في ظلِّ المآسي
وجاء الناصحون إليّ أخرى ... وقالوا نحن أرباب المراسي
ولا تسأم ولا تبقى حزينا ... فقد جئنا بحلٍّ دبلوماسي
تزَوَّج حرمة أخرى لتحْيا ... سعيداً سالماً من كل باسِ
فصحت بهم لَئِنْ لم تتْركوني ... لأنفلتنَّ ضرباً بالمداسِ

* * *

سفرٌ إلى أعماق النفس

لاشك أن السفر يدعو الإنسان إلى تأمل ملكوت الله تعالى والتعرف على أسرار الجمال والعظمة فيه، وذلك يقوي صلة الإنسان بربه سبحانه وتعالى، ولكن أخي المسافر تعال معي لنسافر بعقولنا وقلوبنا إلى أعماق النفس الإنسانية قبل أن نسافر إلى غيرها لنتأمل عظمة الخالق ونتدبر عجيب صنعه في أنفسنا نحن فذلك هو العجب العجاب ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾.

وتزعم أنك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر

١ـ وزن القلب حوالي ٣١٢ جراماً، حجمه في قبضة اليد، تبلغ ضربات قلب الرجل حوالي ٦٠ـ٨٠/ د وينبض في العام حوالي ٤٠ مليون مرة، وفي كل نبضة يدخل القلب حوالي ربع رطل من الدم ويضخ في يوم واحد ٢٢٠٠ جالون من الدم، وحوالي ٥٦ مليون جالون على مدى حياة بأكملها، ترى هل يستطيع محرك آخر القيام بمثل هذا العمل الشاق لمثل تلك الفترة الطويلة، دون أن يحتاج إلى إصلاح؟

٢ـ ويستطيع القلب إذا استعمل كآلة محركة أن يرفع ثقلاً مقداره رطلان إلى ارتفاع قدمين بنفس الجهد الذي يبذله في نبضة واحدة.

٣ـ ويبلغ مقدار الدم الذي يدفعه قلب رجل صحيح أثناء القيام بتمرينات قاسية حوالي ٢٠ليتر في الدقيقة، ويستغرق مرور دفعة واحدة من الدم خلال القلب حوالي ١,٥ ثانية، والطريق من القلب إلى الرئة ثم إلى القلب مرة أخرى (الدورة الصغرى) ست ثوانٍ.

٤ـ الدم الذاهب إلى الدماغ يعود إلى القلب في ٨ ثوانٍ، بينما يعود الدم الذاهب إلى أصابع القدم في ١٨ ثانية.

٥ـ إذا افترضنا أن القلب لم يضطر إلى زيادة سرعة ضرباته عن الطبيعي فإن الكرية الحمراء تمر في الدورة ١٥٠٠مرة في المتوسط على مدى يوم كامل (حمال يحمل يومياً ١٥٠٠مرة بدون تعب)!!..

٦ـ في الدم ٥ ملايين كرية حمراء في كل ملمتر مكعب واحد من الدم، أي تبلغ في مجموع الدم العام حوالي ٢٥مليون مليون كرية حمراء، وتفرش سطحاً مقداره ٣٤٥٠متر مربع، وإذا صُفَّتْ كريات حُمْر بدنٍ واحد بعضها بجانب بعض، فإن مجموع أقطار الكريات (قطر الكرية الواحدة في المتوسط ٧ مكرون) ينشئ طولاً يغلف الكرة الأرضية ٦ـ٧ مرات، وتعيش الكرية وسطياً ١٢٠يوماً، ويمكن أن ينقص عمر الكرية حتى ٢٠يوماً بدون ظهور دلائل فقر الدم، وتمشي الكرية الحمراء في رحلتها لنقل الأكسجين ١١٥٠كم في عروق البدن، وفي الكرية الواحدة يكمن مركب الخضاب المعقد الذي يحوي ٥٧٤حمضاً آمينياً بالإضافة إلى الشحم والسكاكر والخمائر والفيتامينات... وفي نقص الأكسجين يرتفع عدد الكريات الحمر إلى ٧ـ٨ مليون/ ملم مكعب/ خاصة في الارتفاعات وفي الأجنة باعتبار أن الرئة لا تعمل، مما دعا إلى القول بأن الجنين الإنساني يجلس على قمة إفرست!!..

٧ـ الخلايا الجدارية التي تفرز حمض كلور الماء في المعدة قدر عددها بـ(مليار) خلية، والطاقة الإفرازية في مدى ١٢ ساعة بعد التنبيه بالهستامين ١٦ ملي مكافىء، وتركيز الإفراز هو ما بين ٢ـ٤ بالألف

بشكل ثابت ومركز.

٨ـ يحوي الجسم البشري أكثر من ٦٠٠ عضلة، وأكثر من ٢٠٠ عظم، وتحوي العضلة المتوسطة الحجم على ١٠ ملايين ليف عضلي، وتحوي عظمة الفخذ أكثر من ٣٠ ألف عمود كلسي خاص.

٩ـ في كل يوم يتنفس الإنسان ٢٥ ألف مرة، يسحب فيها ١٨٠ متر مكعب من الهواء يتسرب منها ٦,٥ متر مكعب من الأكسجين إلى الدم.

١٠ـ عمل العضلات مجتمعة في اليوم يساوي ما حمولته ٢٠ طن.

١١ـ في المعدة ٣٥ مليون غدة للإفراز، وفي العفج والصائم (الأمعاء) ٣٦٠٠ زغابة معوية للامتصاص في كل ١سم مربع، وفي الدقاق ٢٥٠٠، مع العلم أن طول الأمعاء حوالي ثمانية أمتار.

١٢ـ في المعثكلة يبلغ عدد جزيرات لانغرهانس ما بين (٢٠٠ ألف) و(مليون و٨٠٠ ألف) وهي من الناحية الذنبية أكثر وتفرز الأنسولين الذي يحرق السكر في البدن، من نوع واحد من الخلايا وهي المعروفة بخلايا بيتا في حين أن هناك أربعة أنواع من الخلايا في المعثكلة (ألفا، بيتا، غاما، دلتا) وفي خلايا الفاتفرز هورمون آخر يعاكس الأنسولين هو الغلوكاكون ويقوم بزيادة السكر في الدم.

١٣ـ الزغابات في المشيمة عند المرأة الحامل تفرش مساحة ١٦٠ قدم مربع، وطول ٣٠ ميل وتعتبر مقراً لإفراز العديد من الهرومونات، وممصات للغذاء، وجهاز تصفية لأي مادة تعبره.

١٤ـ في الدماغ ١٣ مليار خلية عصبية و١٠٠ مليار خلية دبقية استنادية تشكل سداً مارداً لحراسة الخلايا العصبية من التأثر بأية مادة،

والأورام تنمو خاصة على حساب الخلايا الدبقية، وكأن الخلايا العصبية مستعصية على السرطان، يتغذى الدماغ من الغلوكوز كمادة سكرية وفقط بخلاف القلب الذي يتغذى من سكر الغلوكوز أو حمض اللبن، فالسكر هو الحلوى الفاخرة التي يفضلها الدماغ بخلاف بقية أجهزة البدن، وإذا وقع البدن في أزمة فإن الدماغ يبقى العضو النبيل الذي يُفضل على غيره في العطاء.

١٥ـ في العين الواحدة حوالي ١٤٠ مليون مستقبل للضوء وهي ما تسمى بالمخاريط والعصي، يبلغ عدد المخاريط في كل عين ٧ ملايين وعدد العصيات ١٣٠ مليون، مهمة الأولى للضوء المركز والألوان والثانية للضوء الضعيف والعادي، هذه المخاريط والعصي تمثل شبكية الاستقبال في العين، والشبكية هذه هي نصف كرة ترقد في قاع العين، وترى بفضل منظار القمر بشكل جميل للغاية، ويغلف الشبكية كرتان الأولى غزيرة بالتروية الدموية، والثانية طبقة صلبة حامية، ويتحكم في حركات العين ست عضلات، ويشرف على التوازن الدماغ والمخيخ والبصلة السيسائية، ويخرج من العين، وكمحصلة لعمل الشبكية، نصف مليون ليف عصي ينقل الصورة بشكل ملون، بقي أن نقول إن الشبكية هي عشر طبقات وطبقة المخاريط والعصي هي واحدة فقط وفي أعمق مكان.

١٦ـ في عضو كُورْتي الذي يمثل شبكية الأذن وفيه حوالي ٣٠ ألف خلية سمعية لنقل كافة أنواع الأصوات.

١٧ـ في الدم الكامل ٢٥ مليون مليون كرية حمراء لنقل الأكسجين، و٢٥

مليار كرية بيضاء لمقاومة الجراثيم ومناعة البدن وهي بخمسة أشكال، ومليون مليون صفيحة دموية لحفظ الدم ضد النزف وإيجاد التخثر في أي عرق نازف، وتتكون هذه الخلايا بصورة أساسية من مخ العظام الذي يصب في الدم بمعدل ٢,٥ مليون كرية حمراء في الثانية و٥ ملايين صفيحة و١٢٠ ألف كرية بيضاء، وجدير بالذكر أن الكريات الحمر تقوم بنقل ٦٠٠ ليتر من الأكسجين لخلاياالجسم كل ٢٤ ساعة.

١٨ـ في المعثكلة (البانكرياس) قطاع لإفراز الخمائر التي تفرغ إلى الأمعاء الدقيقة حيث يتم هضم أنواع الطعام الثلاثة؛ البروتينات والسكاكر والأدهان، وهناك قطاع ثانٍ متصل بالدم وهو المعروف بجزيرات لانفر هانس التي يبلغ عددها (٢٠٠,٠٠٠ ـ ١,٨٠٠,٠٠٠ جزيرة) فيها أربعة أنواع من الخلايا.

١٩ـ تعتبر الخلايا الدماغية من أنبل الأعضاء لأنها تمثل حكومة البدن العاقلة العالمة المخلصة، وباقي الجسم الشعب المتفاني في الطاعة والولاء، ولذا فإن الدماغ مغلق بثلاثة أغلفة فضلاً عن التصفيح العظمي بحيث يعتبر الرأس كصندوق محكم الإغلاق وبين الأغلفة يتسرب سائل خاص هو السائل الدماغي الشوكي الذي يقوم بفعل ماص للصدمات، وهذا الإتقان المحكم جعل علماء الفضاء يصممون نفس الطريقة لحماية القمرة الصناعية بإيجاد الغلافات والسائل على نفس الطريقة، ونلفت النظر إلى أن الجنين في رحم الأم أيضاً مغلف بثلاثة أغشية خاصة فضلاً عن الغلاف العضلي الرحمي.

٢٠ـ تحت سطح الجلد يوجد حوالي ٥ـ١٥ مليون مكيف لحرارة البدن، والمكيف هنا هو الغدة العرقية لأن تبخر العرق من الجلد يمتص معه نسبة عالية من حرارة البدن، وسطح الجلد الذي يبلغ ١,٨ متر مربع تتفاوت فيه الغدد العرقية قلة وكثرة. والغدة العرقية هي أنبوب متعرج طويل لضخ سائل العرق الذي يمتاز بصفات خاصة، ويبلغ إفرازه اليومي حوالي اللتر، ومجموع أطوال أنابيب الغدد العرقية الموجودة تحت الجلد حوالي ٤ـ٥ كيلومترات.

٢١ـ يقوم اللسان بالمضغ والبلع وذوق الطعام والتصويت، فيه ١٧ عضلة تحركه إلى كافة الجهات وثلاثة أعصاب لتنظيم نقل الحس، وعلى سطح اللسان يوجد ٩٠٠٠ نتوء ذوقي لمعرفة طعم الحلو والحامض والمر والمالح، وإن حركة اللسان في أي اتجاه ينتج حرفاً معيناً، وبذلك يستطيع الإنسان أن ينطق بفصاحة، وأثناء المضغ والبلع تفرز ست غدد بفوهات ست اللعاب إلى الفم لتطرية الطعام وتهيئته المبدئية بالاشتراك مع ٣٦ جهاز قاطع وطاحن وهي الأسنان.

٢٢ـ يعتبر الكبد أكبر غدد البدن إذ يزن ١٥٠٠غرام ويحوي ٣٠٠مليار خلية يمكن أن تتجدد كلياً خلال أربعة أشهر فخلاياه أسرع من خلايا الجنين المعروف بسرعة الانقسام، ووظائف الكبد مدهشة ما بين مستودعات السكر والدهن والفيتامين، أو احتجاز السموم وقلبها إلى مواد غير ضارة، أو تحويل الفضلات مثل النشادر الناتج عن فضلات البروتين إلى مادة غير ضارة هي البولة، ويبقى الكبد مركز التموين الرئيسي لسكر الدم، وبروتينات الدم، والحفاظ على تخثره بتكوين

مولد الليفين، كما يقوم بإفراز الأصبغة، وتكوين الكولسترول ذي الشخصيات السبعة.

٢٣- تزن الكلية الواحدة ١٥٠غراماً، فيها مليون وحدة وظيفية لتصفية الدم تسمى (النفرونات) ويرد إلى الكلية في مدى ٢٤ ساعة ١٨٠٠ ليتر من الدم، ويتم رشح ١٨٠ ليتر منه ويعاد امتصاص معظمه ويطرح منه حوالي ١,٥ ليتر وهو المعروف بالبول. ويبلغ طول أنابيب النفرونات حوالي (٥٠) كيلومتراً، وبهذه الطريقة يتم تصفية الدم من كل شوائبه وبشكل مدهش، وكأننا نرى أمانة العاصمة وهي تنظف ليس مرة واحدة في اليوم بل ٣٦ مرة ويزيد، ولا تقف وظائف الكلية عند التصفية بل فيها جهاز منبه مصنع العظام (النقي) لتنظيم إفراز عناصر الدم، كما أن فيهاجهازاً منظماً لضغط الدم بالتعاون مع الكبد وهو ما يسمى (بالهايبرتنسين) وفوق الكلية تتربع غدة تزن سبعة غرامات وهي الكظر وتفرز من قشرها عشرات الهورمونات المنظمة للسكاكر والأملاح والماء في البدن ولإقرار شحنة الجنس، كما أن لب هذه الغدة يفرز مادة الإدرينالين المنظمة لتوتر الدم.

٢٤- يضخ القلب يومياً ٨٠٠٠ ليترة من الدم، داخل الجملة الدورانية التي تمتد حوالي (١٥٠) كيلومتر طولاً عبر كل أنسجة البدن، ناقلة الدم بما فيه من غذاء وأكسجين، ويكفي أن نعرف حيوية النقل عندما يتخرب الدماغ بشكل لا رجعة فيه عندما ينقطع ورود الأكسجين عنه لمدة خمس دقائق فقط.

٢٥- لا يمكن أن تتشابه بصمتان في العالم سواء ما مر من تاريخ وجود

الإنسان على الأرض، أو حالياً بتعداد البشرية الذي بلغ ٣٨٠٠ مليون إنسان، أو ما يتوقع للمستقبل من مجيء بشر جدد لعمارة الكون. إن هناك قانوناً حيوياً وهو أن الطبيعة (والتي خلقها الله) لا تكرر نفسها مطلقاً على مستوى النبات والحيوان أو الإنسان، ويعود السر إلى مئة ميزة للبصمة بحيث إن تفريعاتها تصل إلى حد إصابة الإنسان بالدوار عندما يتصور احتمال تطابق البصمتين، سواء بين إنسان وآخر، أو في الإنسان الواحد بين أصبع وأخرى من أصابعه العشر، كما لا يتم تطابق بصمات أصابع التومين، ولتقريب فكرة احتمال تطابق بصمتين فإن هناك فرصة واحدة من أصل سبتيلون مرة، وهذا الرقم يمكن تصوره إذا قام البشر الموجودون حالياً على وجه الأرض جميعاً بدون استثناء، بما فيهم الأطفال والنساء والمرضى، بوضع ثلاث جرات قلم في الثانية الواحدة على الورق والاستمرار في ذلك حوالي ثلاثة ملايين من السنة بدون نوم أو راحة أو تناول طعام، فإن هذا الزمن يمثل إمكانية تكرر هذه الفرصة الوحيدة!!!.

إن هذا الأمر العجيب جعل دول العالم اليوم تتبنى البصمات كعلم إثبات يقيني في تعيين شخصية الإنسان لما فيها من ثبات وفردية بدءاً من أول هذا القرن، يكفي أن نعلم أن بصمات مومياء مصرية أخذت وكأنها بنت اليوم وكذلك بصمات جثة في الدانمرك أرجعها الإخصائيون إلى ما يزيد على ٢٠٠٠ سنة، إن هذا يذكرنا بإعجاز القرآن العلمي ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾.

[راجع كتاب الطب محراب الإيمان/ د. خالص جلبي]

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ

أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم
بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً
مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ
قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ
ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

[سورة الروم]

مسافر يرثي نفسه

مالك بن الريب أحد المسافرين الذين استطاعوا أن يخلِّدوا ذكرهم علىٰ هذه الحياة الدنيا، وأن يسطِّروا مجدهم علىٰ صفحات التاريخ، وذلك حينما أتحف الدنيا بقصيدته الرائعة، ومرثيته الذائعة التي تطرب الإنسان، وتهز الوجدان، وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا: إنها أعظم مرثية في الأدب العربي علىٰ الإطلاق، فتأمَّل هذه الرائعة لشاعر يرثي نفسه، ومسافرٍ يبكي حياته وقد بكىٰ وأبكىٰ.

مالك بن الريب شاعر إسلامي كان مسافراً للجهاد في سبيل الله في صحبة سعيد بن عثمان بن عفان، وحينما سار بجنده في طريق فارس، وأناخ الركب في بعض المنازل، نزل مالك للقيلولة، ولما هموا بالرَّحيل أراد أن يلبس خفه، فلسعته أفعىٰ كانت قد اندست فيه، فلما أحس بالموت أنشأ يرثي نفسه فقال:

ألاَ لَيْتَ شِعْرِي هلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً ... بِجَنبِ الغَضَا، أُزْجِي القِلاَص النَّوَاجيَا
فَلَيْتَ الغَضَا لَمْ يَقْطَعِ الرَّكْبُ عَرضَهُ ... وَلَيْتَ الغَضَا مَاشَى الركَابَ لَيَالِيَا
لَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِ الغَضَا، لَوْ دَنَا الغَضَا ... مـزارٌ، وَلَكـنَّ الغَضَـا لَيْـسَ دَانِيَـا
أَلَمْ تَرَنِي بِعْتُ الضَّلاَلَة بِالهُدَىٰ ... وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَفَّان غَازِيا
دَعَانِي الهَوَىٰ مِنْ أَهْلِ وُدِّي وَصُحْبَتِي ... بِـذِي الطَّبَّسَيـن، فَـالتَفَـتُّ وَرَائِيَـا
أَجَبْتُ الهَوَىٰ لَمَّا دَعَانِي بِزَفْرَةٍ ... تَقَنَّعْـتُ مِنْهَـا ـ أَنْ أُلاَمَ ـ رِدَائِيَـا
لَعَمْرِي لَئِنْ غَالَتْ خُرَاسَانُ هَامَتِي ... لَقَدْ كُنْتُ عَنْ بَابَيْ خُرَاسَانَ نَائِيَا
فللـه درِّي يَـوْمَ أَتْـرُكُ طَـائِعًـا ... بَنـيّ بِـأَعْلَـىٰ الـرَّقْمَتَيْـنِ، وَمَـالِيَـا

وَدَرُّ الظِّبَاءِ السَّانحَاتِ عَشِيَّةً ... يُخَبِّرنَ أَنِّي هَالِكٌ مِنْ وَرَائِيَا
وَدَرُّ كبِيرَيَّ اللَّذيْن كِلاَهُمَا ... عَلَيَّ شَفِيقٌ، نَاصِحٌ، قَدْ نَهَانِيَا
وَدَرُّالهَوَىٰ مِنْ حَيْثُ يَدْعُو صِحَابَهُ ... وَدَرُّ لَجَاجَاتِي، وَدَرُّ انْتِهَائِيَا
تَذَكَرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ، فَلَمْ أَجِدْ ... سِوَىٰ السَيْفِ وَالرّمحِ الرُّدَيْنِيّ بَاكِيَا
وَأَشْقَرَ خِنْذَيذٍ[1] يَجُرّ عِنَانَهُ ... إِلَىٰ المَاءِ، لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الدَّهْرُ سَاقِيَا
وَلَكِنْ بِأَطْرَافِ السمينَةِ نِسْوَةٌ ... عَزِيْزٌ عَلَيْهِنَّ، العَشِيَّةَ، مَا بِيَا
ولَمَّا تَرَاءَتْ عِنْدَ مَرْوٍ مَنِيَّتِي ... وَحُلَّ بِهَا جِسْمِي، وَحَانَتْ وَفَاتِيَا
أَقُولُ لأَصْحَابِي ارْفَعُونِي لأَنَّنِي ... يَقِرّ بِعَيْنِي أَنْ سهَيْلٌ بَدَ اليَا
فَيَا صَاحِبَيَّ رَحْلِي! دَنَا المَوْتُ، فَانْزِلاَ ... بِرَابِيَةٍ، إِنِّي مُقِيمٌ لَيَالِيَا
أَقِيمَا عَلَيَّ اليَوْمَ، أَوْ بَعْضَ لَيْلَةٍ ... وَلاَ تُعَجِلاَنِي قَدْ تَبَيَّنَ مَابِيَا
وَقُوما، إِذَا مَا اسْتُلَّ رُوحِي، فَهَيِّئَا ... لِيَ القَبْرَ وَالأَكْفَانَ، ثُمَّ ابْكِيَا لِيَا
وَخُطَّا بِأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ مَضْجَعِي ... وَرُدَّا علَىٰ عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدَائِيَا
وَلاَ تَحْسُدَانِي، بارَكَ الله فِيكُمَا ... مِنَ الأَرْضِ ذَات العَرْضِ أَنْ توسِعَا لِيَا
خُذَانِي، فَجُرَّانِي بِبُرْدِي إِلَيْكُمَا ... فَقَدْ كُنْتُ، قَبْلَ اليَوْم، صَعْبًا قِيَادِيَا
فَقَدْ كُنْتُ عَطَّافًا، إِذا الخَيْلُ أَدْبَرَتْ ... سريعًا لَدَىٰ الهَيْجَا، إِلَىٰ مَنْ دَعَانِيَا
وَقَدْ كُنْتُ صَبَّارًا علَىٰ القِرْنِ فِي الوَغَىٰ ... ثَقِيْلاً علَىٰ الأَعْدَاءِ، عَضْبًا لِسَانِيَا
وَطَوْرًا تَرَانِي فِي ظِلاَلٍ وَمَجْمَعٍ ... وَطَوْرًا تَرَانِي فِي رَحىً مُسْتَدِيرَةٍ
وَقُوما علَىٰ بِئْرِ الشُّبَيْكِ، فَأَسمِعَا ... بِأَنَّكُمَا خَلَّفْتُمَانِي بِقَفْرَةٍ
تُخَرِّقُ أَطْرَافُ الرِّمَاحِ ثِيَابِيَا ... تُهِيلُ علَيَّ الريحُ فِيهَا السوافيا
بِهَا الوَحْشَ وَالبِيْضَ الحِسَانَ الرَوَانِيَا

(١) الخنذيذ: الجواد الكريم الأصيل.

وَلاَ تَنْسَيَا عَهْدِي ـ خَلِيلِيّ ـ إِنَّنِي ... تَقَطَّعُ أَوْصَالِي، وَتَبْلَى عِظَامِيَا
فَلَنْ يَعْدَمَ الوِلْدَانِ بَيْتًا يُجنُّنِي ... وَلَنْ يَعْدَم المِيرَاثَ مِنّي المَوَالِيَا
يَقُولُونَ: لاَ تَبْعُدْ، وَهُمْ يَدْفِنُونَنِي ... وَأَيْنَ مَكَانُ البُعْدِ إِلاَّ مَكَانِيَا
غَدَاةَ غَدٍ، يَا لَهْفَ نَفْسِي علَىٰ غَدٍ ... إِذَا أَدْلَجُوا عَنِّي، وَخُلِّفتُ ثَاوِيا
وَأَصْبَحَ مَالِي مِنْ طَرِيفٍ وَتَالِدٍ ... لِغَيْرِي، وَكَان المَالُ بِالأَمْسِ مَالِيَا
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي، هَلْ تَغَيَّرتِ الرَّحى ... رَحَى الحَرْب، أَوْ أَضْحت بفَلَج كما هِيَا
إِذَا القَوْمُ حلّوها جميعاً، وَأَنْزَلُوا ... لَهَا بَقَراً حُمَّ العُيُونِ، سَوَاجِيا
وَعِيْنٍ وَقَدْ كَانَ الظلاَمُ يُجنّهَا، ... يسُفْنَ[1] الخُزامى نَورَهَا وَالأقاحيا
وَهَلْ تَرَكَ العيسُ المَرَاقِيلُ بِالضّحى ... تَعَالِيَهَا تَعلو المُتُونَ القَيَاقيا
إِذَا عُصَبَ[2] الرُّكْبَانُ بَينَ عُنَيْزَةٍ ... وبُولانَ، عَاجُوا المُنقيَاتِ[3] المَهَارِيَا[4]
وَيَالَيْتَ شِعْرِي هَلْ بَكَتْ أُمُّ مَالِكٍ، ... كَمَا كُنْتُ لَوْ عَالَوا نعِيَّكَ بَاكِيَا
إِذَا مُتُّ فَاعْتَادِي القُبُورَ، وسّلمي ... علَى الرَّيم[5]، أُسقِيتِ الغَمَامَ الغَوادِيَا
تَرَيْ جَدَثًا قَدْ جَرَّتِ الرّيحُ فَوْقَهُ ... غُبَارًا كَلَوْنِ القسطلانِي[6] هَابِيَا[7]
رَهِينَة أَحْجَارٍ وَتُرْبٍ تَضَمَّنَتْ ... قَرَارَتُهَا مِنِّي العِظَامَ البَوَالِيَا
فَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضتَ فَبَلِّغَنْ ... بَنِي مَالِكٍ وَالرَّيْبِ أَنْ لاَ تَلاَقِيَا

---

(١) يسُفْنَ: يشْممن.
(٢) عصب: اجتمع.
(٣) المنقيات: النياق السمينة.
(٤) المهاري: الواحدة مهرية: إبلٌ منسوبة إلىٰ مهرة بن حيدان من عرب اليمن.
(٥) الرَّيم: القبر.
(٦) القسطلاني: حمرة الشفق.
(٧) هابيا: منتشرًا في الجو.

وَبَلِّغ أَخِي عِمْرَان بُرْدِي وَمِئْزَرِي؛ وبَلِّغ عَجُوزِي اليَوْمَ أَنْ لاَ تَدَانِيَا
وَسَلِّم عَلىٰ شَيْخَيَّ مِنِّي كِلَيْهِمَا، وَبَلِّغْ كَثِيرًا وَابْنَ عَمِّي وَخَالِيَا
وَعَطِّل قَلُوصِي فِي الرِّكَابِ، فَإِنَّهَا سَتُبْرِدُ أَكْبَادًا وَتُبْكِي بَوَاكِيَا
أُقلِّبُ طَرْفي فَوْقَ رَحْلِي، فَلاَ أَرَى بِهِ مِنْ عُيُونِ المُؤنِسَاتِ مَرَاعِيَا
وبالرَّمْلِ منّي نِسْوَةٌ لَو شَهِدْنَنِي، بَكَيْنَ وَفَدَّيْنَ الطَّبِيبَ المُدَاوِيَا
فَمِنْهُنَّ أُمِّي، وَابْنَتَاهَا، وَخَالَتِي، وَبَاكِيَةٌ أُخْرَىٰ تُهِيجُ البَوَاكِيَا
وَمَا كَانَ عَهْدُ الرَّمْلِ مِنِّي وَأَهله ذَمِيماً، ولاَ بِالرَّمْلِ وَدّعتُ قَالِيَا

* * *

من أخبار المسافرين (٢٤) **المصطفى يسافر إلى تبوك**

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: ٤٢].

لا شك أيها المسافر المسلم أن أجمل الأخبار لديك ما كان من أحب الناس إليك، وأمتع القصص إلى قلبك ما سمعته من الذي هداك إلى ربك، فأبْشِر بما يسرُّك. فسافر بفؤادك، ومتِّعْ قلبك بشيء من أخبار المسافر الأعظم ﷺ الذي كان يرى أن الحياة بمجموعها ما هي إلاَّ محطّة من محطات السفر إلى ربِّ البشر «**ما أنا في الدنيا إلاَّ كراكبٍ قال ـ من القيلولة ـ تحت ظل شجرة ثم تركها**» [الصحيحة: ٤٣٨] سأحدثك عن أطهر قدمٍ مشت على وجه البسيطة، وأطهر مهجة درجت على ظهر الأرض، بأبي هو وأمِّي ﷺ.

حبيبك ﷺ سافر قبل البعثة عدة سفرات في تجارة خديجة رضي الله عنها ومع عمه أبي طالب أيضاً.

أما بعد البعثة فكانت سفراته على أربعة أضْرب كما ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ: النوع الأول: السفر للهجرة من مكة إلى المدينة.

النوع الثاني: السفر للجهاد في سبيل الله.

النوع الثالث: السفر للحج وهي حجة الوداع فقط.

النوع الرابع: السفر للعمرة.

وقد اخترت لك في هذه الوقفة أحد أسفاره للجهاد في سبيل الله وهو

سفره لغزوة تبوك فإلى هناك:

كانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع، وكان رسول الله ﷺ قلَّما يخرج في غزوة إلاَّ كنَّى عنها، وورَّىٰ بغيرها، إلاَّ ما كان في غزوة تبوك لبعد المشقة وشدة الزمان، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد حين طابت الثمار والظلال واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدواً كثيراً فجلىٰ للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهته التي يريد، وكانت الغاية من هذه الغزوة إرهاب الدولة المجاورة التي كانت تُخَاف معرتها على مركز الإسلام والمسلمين، وعلى الدعوة الإسلامية الزاحفة وقوتها الناشئة، وكذلك إدخال الرعب في قلوب القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام في جزيرة العرب.

وكره المنافقون الخروج مع رسول الله ﷺ إشفاقاً من العدوِّ القوي الظاهر، وفراراً من الحر الشديد وزهادة في الجهاد، وشكّاً في الحق، وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [التوبة: ٨١].

وجدَّ رسول الله ﷺ في سفره وأمر الناس بالجهاز، وحضَّ أهل الغنى على النفقة في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنىٰ واحتسبوا، وجهز عثمان جيش العسرة وأنفق ألف دينار ودعا له رسول الله ﷺ، واستحمل رجالٌ رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فاعتذر لهم لعدم وجود الظَّهر فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون، فرفع الله عنهم الحرج بقوله:

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩٢]

وخرج رسول الله ﷺ صباح يوم الخميس ـ وكان يحب السفر يوم الخميس ـ، في ثلاثين ألفاً من الناس، واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وخلَّف على أهله عليَّ بن أبي طالب، فلما سار رسول الله ﷺ تخلَّف عبدالله بن أُبيّ ومن كان معه، وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب منهم، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع وأبوخيثمة وأبوذر ثم لحقه أبوخيثمة وأبوذر.

ونزل ﷺ بـ«الحجر» ديار ثمود وأخبرهم بأنها ديار المعذبين وقال: «**لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلاَّ وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم**». وقال: «**لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضؤوا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً**» [انظر: صحيح مسلم: ٢٩٨١].

وأصبح الناس ولا ماء معهم فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا لهم، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء.

ثم مضى رسول الله ﷺ وتلوَّم على أبي ذر بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً حتى أدرك رسول الله ﷺ. ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه صاحب «أيلة» فصالحه وأعطاه الجزية وأتاه أهل جربا وأذرُح فأعطوه الجزية وكتب لهم كتاباً.

ثم أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في خمسمائة فارس إلى أُكيدر

دُومة، فأسره خالد، وقدم به على رسول الله ﷺ فحقن دمه وصالحه على الجزية ثم خلَّىٰ سبيله.

وأقام رسول الله ﷺ بـ«تبوك» بضع عشرة ليلة ثم انصرف قافلاً إلى المدينة.

ومات عبدالله ذو البجادين في «تبوك» فشيَّعه رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمر في ظلام الليل وفي يد بعضهم مشعل يسيرون في ضوئه وقد حفروا له ونزل رسول الله ﷺ في حفرته وأبوبكر وعمر يدليانه إليه وهو يقول: «**أدنيا إليَّ أخاكما**» فدلياه إليه فلما هيأه لشقه قال: «**اللهم إني أمسيت راضياً عنه فارض عنه**». قال ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة.

وكان من بين من تخلف عن هذه الغزوة كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، ولم يكن التخلف من خلقهم وعادتهم وإنما هو التسويف وضعف الإرادة، وقد صدقوا رسول الله ﷺ حين كذب الناس، وشهدوا على أنفسهم حين برأها المنافقون، فنهى رسول الله ﷺ الناس عن كلامهم فتنكرت لهم الدنيا وأعرض عنهم كل قريب وبعيد، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعدىٰ إلى أزواج هؤلاء الثلاثة فأُمِروا أن يعتزلوهن ففعلوا، وأراد ملك غسان خطب ودّ كعب بن مالك، فجاءه رسول ملك غسان، فدفع إليه كتاباً فيه: إنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك. فتثير الرسالة في كعب الغيرة وتهيج الحنان فقصد بالرسالة التنور ورمىٰ بها، ثم أنزل الله توبته عليهم وخلد ذكرهم في القرآن بعد أن ذكر توبته على سيد الأنبياء ﷺ والمهاجرين والأنصار، الذين لم يتخلفوا وذلك تكريماً لهم وجبراً

لخاطرهم ورفعاً لمكانتهم فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

[التوبة: ١١٧ـ١١٨]

نظرة على الغزوات

يطيب لي أن أعقب على حديثنا عن غزوة تبوك بكلام جميل للشيخ أبي الحسن الندوي بعنوان نظرة على الغزوات في كتابه «السيرة النبوية»:

وبغزوة تبوك التي كانت في رجب سنة تسع للهجرة انتهت الغزوات النبوية، التي بلغ عددها سبعاً وعشرين غزوة، والبعوث والسرايا التي بلغ عددها ستين، ولم يكن في كلها قتال.

وقد أُريق في جميع هذه الغزوات والسرايا التي بعثها النبي ﷺ أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات، فلم تتجاوز قتلاها كلها ١٠١٨ قتيلاً من الفريقين. وكانت حاقنة لدماء لا يعلم عددها إلاَّ الله، عاصمة لنفوس وأعراض لا يحصيها إحصاء، باسطة الأمن في أرجاء الجزيرة حتى استطاعت الظعينة أن ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلاَّ الله، والمرأة من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف بعدما كانت الجزيرة كلها كفة حابل، وشبكة دقيقة من ترات وثارات، وحروب وغارات، لا تمشي فيها قوافل الحكومات الكبيرة إلاَّ بخفارة ساهرة، وذرقة ماهرة.

وكانت هذه الحروب مؤسسة على الأصلين القرآنيين الحكيمين: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ و﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، موفرة على النوع الإنساني والمجتمع البشري قدراً كبيراً من الوقت والجهد في تغيير الأحوال ودرء الأخطار، وكانت خاضعة لآداب خلقية وتعليمات رحيمة، جعلتها أشبه بعملية التأديب، منها بعملية التعذيب.

أما بالنسبة إلى نجاح العملية وسرعتها فقد استمر التوسيع بنسبة ٢٧٤ ميلاً مربعاً في ظرف عشر سنوات ولم يخسر المسلمون فيها إلاَّ بنسبة شخص واحد في الشهر، وكان أقصى خسائر العدو في النفوس ١٥٠ شخصاً فلما اكتملت السنوات العشر خضع أكثر من مليون ميل مربع للحكم الإسلامي.

وكان رسول الله ﷺ إذا ودَّع جيشاً، قال: «**أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله، في سبيل الله، من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً**».

قارن ذلك بقتلى الحربين العالميتين: الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨م، والثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م، فقد ذكر الكاتب المحقق في دائرة المعارف البريطانية في هذا الموضوع أن عدد المقتولين في الحرب العالمية الأولى بلغ ستة ملايين وأربعمائة ألف نفس (٦,٤٠٠,٠٠٠) وعدد المقتولين في الحرب العالمية الثانية بين خمسة وثلاثين مليوناً وستين مليون نفس (بين ٣٥,٠٠٠,٠٠٠ و٦٠,٠٠٠,٠٠٠).

ولم تخدم هاتان الحربان ـ كما يعلم الجميع ـ مصلحة إنسانية، ولم يستفد منهما العالم البشري في قليل أو كثير.

وقد بلغ عدد ضحايا محاكم التفتيش في أوروبا في القرون الوسطى، والاضطهاد الكنسي اثني عشر مليوناً (١٢,٠٠٠,٠٠٠) نفس.

من أخبار المسافرين (٢٥)

مُسافرٌ من دَوْس

ذلك هو الطفيل بن عمرو الدوسي، في بلاد زهران، وفي أرض دوس نشأ بين أسرة شريفة كريمة.. وأوتي موهبة الشعر، فطار بين القبائل صيته ونبوغه.. وفي مواسم «عُكاظ» حيث يأتي شعراء العرب من كل فَجّ، وحيث يجتمع الناس ويحتشدون، ويتباهَوْن بشعرائهم، كان «الطفيل» يأخذ مكانه في المقدمة..

كما كان يتردد على مكة كثيراً في غير مواسم «عكاظ»..

وذات مرة كان يزورها، وقد شرع الرسول ﷺ يجهر بدعوته.. وخشيت قريش أن يلقاه «الطُّفيل» ويسلم وتسلم قبيلته، ثم يضع موهبته الشعرية في خدمة الإسلام، فتكون الطَّامَّة على قريش وأصنامها..

من أجل ذلك أحاطوا به.. وهيؤوا له من الضيافة كل أسباب الترف والبهجة والنعيم، ثم راحوا يحذرونه لقاء رسول الله ﷺ، ويقولون له: إن له قولاً كالسحر، يُفرّق بين الرجل وأبيه، والرجل وأخيه، والرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعَلَى قومك منه، فلا تكلمه ولا تسمع منه حديثاً!!

ولْنُصْغ للطُّفيل ذاته يروي لنا بقية النبأ، فيقول:

فوالله مازالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذنيَّ حين غدوت إلى المسجد كُرْسفاً ـ يعني قطناً ـ فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه. قال: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة. فقمت منه قريباً، فأبى

الله إلاَّ أن يسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثُكل أمي؛ والله إني لرجل لبيب شاعر وما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يامحمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلاَّ أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض عليَّ أمرك.

قال: فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه. فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: اللهم اجعل له آية.

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نوراً في وجهه مثل المصباح، فقال: اللهم في غير وجهي، أخشى أن يقولوا: هذه مثلة، فتحول النور إلى سوطه.

فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النورفي سوطه كالقنديل المعلق. قال: وأنا أهبط إليهم من الثنية، حتى جئتهم فأصبحت فيهم.

فلما نزلت أتاني أبي، وكان شيخاً كبيراً، فقلت: إليك عني يا أبت، فلست منك ولست مني قال: ولِمَ يا بني؟ قلت: أسلمت وتابعت دين

محمد ﷺ، قال: أي بني، فديني دينك، فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك، ثم تَعَالَ حتى أعَلِّمك ما عُلِّمت. فذهب فاغتسل، وطهر ثيابه، ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

ثم أتتني صاحبتي ـ زوجته ـ فقلت: إليك عني، فلست منك ولست مني، قالت: لِمَ؟ بأبي أنت وأمي، قلت: قد فَرَّق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد ﷺ، قالت: فديني دينك، فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضتُ عليها الإسلام، فأسلمت.

ثم دعوتُ دَوْساً إلى الإسلام فأبطؤوا عليَّ، ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ بمكة فقلت له: يا نبي الله، إنه قد غلبني على دَوْس الزنى والربا، فادع الله عليهم، فقال: اللهم اهد دوساً وأت بهم. ارجع إلى قومك فادْعُهُم وارفق بهم.

فلم أزل بأرض دَوْس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله بمن أسْلَم معي من قومي، ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلتُ المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين.

ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ، حتى إذا فتح الله عليه مكة، قلت: يارسول الله، ابعثني إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حُمَمَة حتى أحرِقَه.

فخرج إليه فجعل طُفيل يوقد عليه النار ويقول:

يا ذا الكَفَيْن لَستُ من عُبّادكا ميلادُنا أقدمُ من ميلادكا
إني حشوتُ النار في فُؤَداكَا

قال: ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله ﷺ، فلما ارتدت العربُ خرج مع المسلمين، فسار معهم حتى فرغوا من طليحة، ومن أرض نجد كلّها.

فقُتل شهيداً باليمامة.

رضي الله عنه وأرضاه لقد كان سفره إلى رسول الله ﷺ سفراً مباركاً، عادت بركته وخيره على الطفيل وأهله وعلى قبائل زهران عموماً، بل على الإسلام والمسلمين في كل مكان وزمان. وذلك لأنه تسبب بأمر الله تعالى في أن خرَّج للإسلام رجالاً عظماء وعلماء أجلاَّء كان لهم أعظم النفع وأكرم العطاء على الإسلام وأهله، وعلى رأسهم حافظ حديث رسول الله ﷺ وأعظم راوية في الإسلام أبوهريرة رضي الله عنه وأرضاه ومن أولئك العظماء الذين أخرجتهم زهران عمرو بن الطفيل، والصحابي الجليل جنادة بن أبي أمية العبري الزهراني، وهو قائد أسطول معاوية رضي الله عنهم جميعا، وعبدالله بن مالك بن القشب وهو صحابي جليل من فقهاء الصحابة وممن عرف بالفتوى وهو المعروف بـ «ابن بحينة» ومنهم صهر رسول الله ﷺ وهو الطفيل بن عبدالله الزهراني أخو عائشة بنت أبي بكر لأمها لأن أم رومان زهرانية. ومن أولئك الرجال أبوالربيع الزهراني ـ وهو من رواة الحديث ـ والخليل ابن أحمد، وابن دريد صاحب المقصورة. . . الخ.

المسافر والحدائق الغناء

الحدائق الغناء، والمروج الخضراء، والأشجار المثمرة، والأزهار العابقة، والورود الباسمة، والرياض الناضرة، والجنان الآسرة، والأنهار السائرة هي من نعم الله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٩]

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

[الأنعام: ١٤١]

كل ذلك يبهج الإنسان ويمتع حياته، ويؤنس قلبه، ويسلب لبَّه، ويروق لناظره، ولكنها بالنسبة للمسلم تثير في نفسه أشياء عظيمة، وتحرك في وجدانه مشاعر جميلة إنها تذكره بجنان الخلد، وبالنعيم المقيم وبما أعده الله لعباده المؤمنين فيقف أمام جنان الدنيا وقفة إعجاب.. وقفة دعاء ورجاء للظفر بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

[الرعد: ٣٥]

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ

وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ [محمد: ١٥]

﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

[الإنسان: ١٢ـ٢٢]

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النبأ: ٣١ـ٣٦]

قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد» [صحيح الجامع]

وقال ﷺ: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها» [متفق عليه]

وقال ﷺ: «إن في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد» [رواه مسلم]

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يارب وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟

فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

ثم قرأ رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فقال: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ألم يبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟! قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه ولا أقرَّ لأعينهم»** [متفق عليه]

والمسلم إذا وقف أمام هذا النعيم الدنيوي الزائل، وهذا الجمال الخلاَّب الذاهب تذكر أن هنالك أمَماً كثيرة سبقته فما أغنى عنها هذا النعيم شيئاً وتركته وراءها وذهبت إما إلى نعيمٍ أعظم منه وأدوم، وإما إلى شقاء وتعاسة والعياذ بالله.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٥-٢٩]

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾

[الشعراء: ١٤٦-١٥٠]

فاعمل أخي المسافر للنعيم المقيم وللفوز العظيم وعلى قدر المشقة في السفر يكون الفوزُ والظفر.

من أخبار المسافرين (٢٦)

قاضي واسط يتأوّه

أبوالفضائل علي بن أبي المظفر يوسف بن أحمد الآمدي من بيت معروف بالصلاح والرواية ـ وكان ممن كثرت أسفارهم وتعدّدت رحلاتهم ـ قدم إلى بغداد وأقام بها وتفقّه على مذهب الشافعي وسمع الحديث من جماعة كبيرة ببغداد وتولى القضاء بواسط في عام ٦٠٤هـ. هذا المسافر له أشعار رائعة أطربتني أبيات قرأتها له وهَزَّتْ نفسي وملكتْ مشاعري، فأحببت أن أتحف بها إخواني المسافرين علَّها أن تروقهم وأن تطرد عنهم السآمة والتعب من طول السفر. يقول:

واهاً لـه ذكَـرَ الحمـى فتـأوّهـا ... ودَعـا بـه داعـي الصبـا فتـولّهـا
هاجتْ بَلابلَه البلابلُ فانثنت ... أشجانُهُ تَثني عن الحلم النهى
فشكا جوى وبكى أسى وتنبّه الـ ... ـوجد القديم ولم يزل متنبهاً
قالوا وهَىٰ جَلَداً ولو علق الهوى ... بيلملـم يـومـاً تـأوَّه أو وهَـى
لا تُكْرِهوهُ على السلوِّ فطائعاً ... حمَل الغرامَ فكيف يسلو مكرها
يا عُتبُ لا عَتبٌ عليكِ فسامحي ... وصِلي فقد بلغ السقام المنتهى
عَلَّمْتِ بانَ الجزع مَيْلَ غصونه ... لما خطرتِ عليه في حُلَل البها
ومنحت غُنجَ اللحظ غزلانَ النقا ... فلذاك أحسن ما يُرى عينُ المَها
لولا دلالكِ لم أبتْ متقسِّمَ الـ ... ـعَزَماتِ مسلوبَ الرقاد متيها
لي أربع شهداء في صدق الولا ... دَمْـعٌ وحـزنٌ مفـرطٌ وتـدلّهـا
وبـلابـلٌ تعتـادنـي لـو أنهـا ... في يَذْبل يوماً لأصبح كالسُّها
لام العواذل في هَواكِ فما ارعوى ... ونهاهُ عنكِ اللائمون وما انتهى
قالوا اشتهاكِ وقد رآكِ مليحةً ... عجبـاً وأيُّ مليحـةٍ لا تُشْتهـى
أنا أعشَقُ العشاقِ فيكِ ولا أرى ... مثلي ولا لكِ في الملاحة مشبها

من أخبار المسافرين (٢٧)

ابن محلّم الخزاعي

هذا هو أبوالمِنهال عوف بن محلِّم الخزاعي، أحد الأدباء والرواة العُصماء، والشعراء الفصحاء، وكان أحد وزراء المأمون، وقد اختصّه طاهر بن الحسين لمنادمِته ومسامرته، وكان لا يخرج في سفرٍ إلاَّ أخرجه معه وجعله زميله وأنيسه، فلما مات طاهر بن الحسين قرّبه عبدالله بن طاهر من نَفْسِه، وأنزله منزلته من أبيه، وكان ابن محلِّم يتطلَّف عبدالله بن طاهر للرجوع إلى أهله والعودة إلى وطنه، فقد اشتد شوقه إليهم وزاد حنينه إليهم، فلم يوافق له أبداً وفي مرةٍ من المرات وهما في سفرٍ من بغداد إلى خراسان، فلما اقتربا من الرَّيّ، سمع عبدالله صوت طائرٍ يغرِّد بأحسن تغريد، فأُعجب عبدالله بصوته، والتفت إلى عوفِ ابن مُحَلِّم فقال له: يا ابن محلم، هل سمعت قطُّ أشجى من هذا الصوت وأطرب منه؟ فقال: لا والله أيُّها الأمير، وإنه لحسن الصوت، شجيُّ النغمة، مطربُ التغريد، ثم قال: قاتل الله أباكبيرٍ حيث يقولُ:

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر ... وغصنك ميادٌ ففيم تنوحُ
أفِقْ لا تَنُحْ مِنْ غير شيء فإنني ... بكيتُ زماناً والفُؤادُ صحيحُ
وَلوعاً فشطَّتْ غُرْبةً دارُ زينبٍ ... فهأنا أبكي والفؤادُ قريحُ

فقال عوفٌ: أحسن والله أبوكبير ـ إنه كان في الهذليِّين مائةٌ وثلاثون شاعراً ما فيهم إلاَّ مُفْلِقٌ، وما كان فيهم مثلُ أبي كبيرٍ فإنه كان يبدعُ في شعره، ويُفْهَم آخر قوله وأوَّلُهُ، وما شيءٌ أبلغَ في الشعر من الإبداع فيه.

قال عبدالله: أقسمت عليك إلاَّ أجَزْتَ شعرَ أبي كبيرٍ؟ قال عوفٌ: أصلحَ الله الأمير، قد كبر سنِّي، وفنيَ ذهني، وأنكرتُ كُلَّ ما كنتُ أعرفُهُ. قال عبدالله: سألتُك بالله، فلما سمع عوفٌ ذلك أنشأ يقولُ:

أفي كلِّ يوم غربةٌ ونزوحُ أما للنوى من أوبة فتروحُ؟
لقد طَلَّحَ البينُ المشِتُّ ركائبي فهل أَرَيَنَّ البينَ وَهوَ طليح
وأرّقني بالرَّي نوحُ حمامةٍ فنحت وذو الشجو القديم ينوحُ
على أنها ناحت فلم تَذْرِ دمعةً ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخي مهامه فيحُ
عسى جود عبدالله أن يبكي النوى فتضحي عصا الأسفار وهي طريح

فلما سمع عبدالله هذه الأبيات أذن له من ساعته بالرجوع ووصله بعشرة آلاف درهم ورده إلى منزله.

وقالوا ربنا باعد بين أسفارنا

أناسٌ أحبُّوا السفر في المفاوز والصحاري بدلاً من النعمة التي كانوا فيها على السير في القرى المتواصلة الغنية بالأشجار والثمار والمياه. وهذا من خذلان الله لهم والعياذ بالله، فإن المرء إذا بطر النعمة وكفر خالقها، وتنكر لمسْديها، بدَّل الله عليه النعمة نقمة، وأبدله بدل الأمن خوفاً، وبدل الرخاء شدة، وبدل الراحة عناءً، وهؤلاء قوم سبأ عبرةٌ للمعتبرين، وعظة للمتعظين ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]

كانوا في رغدٍ من العيش عظيم، وفي رزق من الله كريم، ثمار وأشجار.. عيون وآبار.. أمن وأمان، هدوءٌ واطمئنان. فأرسل الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويتنعموا بنعمه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فاستجابوا لذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أُمروا به، وتنكَّروا لما دعوا إليه، فعوقبوا بإرسال السيل عليهم والتفرق في البلاد شذر مذر ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥-١٧]

ولم يكتف أهل سبأ بما حصل لهم من النقمة والخذلان، بل دعوا الله تعالى أن يباعد بين أسفارهم فحدث لهم ذلك ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٨-١٩]

ونترككم الآن مع العلامة ابن كثير رحمه الله ليفسِّر لنا هذه الآيات:

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماءً وثمراً، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى.

ولهذا قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة، وقيل هي قرى بصنعاء ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي واضحة يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي كان أمنهم دائماً ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وذلك أنهم بطروا هذه النعمة، وأحبوا مفاوز وصحاري يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل، والسير في الحرور والمخاوف. كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ وقال هؤلاء: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس وسمَراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والأُلفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ههنا وههنا حتى صاروا مضربَ المثل، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ.. وهكذا فقد تفرقوا.. فمنهم من خرج إلى عُمان، وخرجت غسّان إلى بصرى، وخرجت الأوس والخزرج إلى يثرب ذات نخل، فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان: هذا مكان صالح لا نبغي به بدلاً

فأقاموا فيه فسموا لذلك خزاعة لأنهم انخزعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة، ونزلت أزد السراة السراة، ونزلت أزد عمان عمان. ثم أرسل الله تعالى على السد فهدمه، وفي ذلك أنزل الله تعالى هذه الآيات.

قال الأعشى أعشى بني قيس بن ثعلبة واسمه ميمون بن قيس:

وفي ذاك للمؤتسي أسوةٌ ومأرب قَفَّى عليها العرِمْ
رجامٌ بَنَتْهُ لهم حميرٌ إذا جاء ماؤُهُم لم يرِمْ
فأروى الزروع وأعنا بَها على سعةٍ ماؤهم إذ قُسِمْ
فصاروا أياديَ ما يقدرو ن منه على شرب طفل فُطِمْ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ أي إن في هذا الذي حلَّ بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام، لعبرة ودلالة لكل عبد صبّار على المصائب، شكور على النعم. وفي الصحيح: «**عجباً للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاءً إلاَّ كان خيراً له، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلاَّ للمؤمن**». كان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر.

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

[سورة يس]

من أخبار المسافرين (٢٨)

الفاروق يسافر إلى بيت المقدس

وبعد الاستخارة المتكررة والمشورة الطويلة من عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لأصحابه قرَّر أن يسافر بنفسه من المدينة إلى بيت المقدس تلبيةً لدعوة قُوَّاده من المسلمين، وبناءً على رغبة البطريق الذي اتفق مع أبي عبيدة على الصلح على أن يسلم بيت المقدس لعمر بن الخطاب نفسه لا لأحد غيره لأنهم يقولون إن صِفَة الرجل الذي سيفتح بيت المقدس موجودة عندهم في كتبهم وهي تنطبق على رجل له أوصاف معينة، وكانت تلك الأوصاف كلها في عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

كتب أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بمدينة الجابية على هضبة الجولان بسورية في يوم حدده لهم، ثم سار في ملأ من كبار الصحابة إلاَّ عليًّا بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقد استخلفه على المدينة مكانه.

فلما أتى الجابية جاءه أمراء الأجناد على خيولهم المُطَهَّمة، ورآهم في زينتهم، فأنكر ثيابهم الفاخرة، وأخذ بحصوات من الأرض، فرماهم بها، وقال: «إياي تستقبلون في هذا الزي! إنما شبعتم منذ سنين! سرعان ما ندّت بكم البطنة! فوالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم»! فقالوا: «ياأمير المؤمنين، إنما هي يلامقة (جمع يَلْمق فارسي معرب بمعنى: الجبة) وإن علينا السلاح». قال: «فنعم إذن»!.

وبينما كان عمر في الجابية، رأى جماعة من فرسان الروم قادمين من بعيد، ففزع المسلمون إلى سلاحهم وخيلهم، فقال لهم عمر: «لا تراعوا»! وإذا وفد أهل بيت المقدس قد أتوا عمر، يدعونه إلى الصلح،

وإلى دخول مدينتهم. . واستعد عمر للسفر إلى بيت المقدس، فأخذ يهيئ بعيره بنفسه للسفر. . ورأى أبوعبيدة أميرَ المؤمنين عمر في ثوب مرقَّع، فقال له: «ياأمير المؤمنين! لو ركبت بدل بعيرك جواداً، ولبست ثياباً بيضاء، لكان هذا أعظم في عيون الروم»! فقال: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً».

ولكن أباعبيدة وبعض كبار الصحابة مازالوا بعمر حتى رضي بأن يغير مرقعته، وبعيره، فأتوا له بثوب أبيض من كتّان، فقال: «ما هذا؟» قالوا: «كتان» قال: «وما الكتان؟!» فأخبروه. .

وكان الفاروق وغلامه يتناوبان الركوب، فيركب هو مرحلة من الطريق، وغلامه مرحلة أخرى، حتى إذا دخلا بيت المقدس، كان الغلام راكباً، وأمير المؤمنين يمشي في الطريق الموحل، وأهل بيت المقدس لا يصدقون أنفسهم من الدهشة، وهم ينظرون!. . أي الرجلين هو أمير المؤمنين: أهو الراكب، أم هو هذا الذي يمشي تحت المطر. . .!؟

وصالح عمر أهل بيت المقدس على الجزية، فقد ثبتوا على دينهم. . وجاءت معاهدة الصلح محققة لمصالح الطرفين، وآية من احترام حرية العقيدة، والرأي، ورعاية حقوق الإنسان، وهذا هو نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء (بيت المقدس) من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم ولأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، وسائر ملتهم، أنه لا تُسَكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود (وكانت هذه هي رغبة أهل البلد)، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخْرِجوا منها

الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم (كنائسهم) وصلُبهم (جمع صليب) حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا ما عليهم من الجزية».

فرح أهل بيت المقدس بهذه المعاهدة فرحاً عظيماً، فها هو ذا أمير المؤمنين عمر يكفل لهم حرية العقيدة، بعد أن كان قيصر الروم يقهرهم على اعتناق مذهبه، فمن خالف منهم عذَّبه عذاباً أليماً، واستولى على أمواله وأرضه، وهدم بيته، على الرغم من أنه نصراني مثلهم!.. أين هذا مما يوفره لهم عهد أمير المؤمنين!.

سار عمر إلى بيت المقدس، حتى إذا بلغ الصخرة المقدسة، التي تخفق لها قلوب اليهود والنصارى والمسلمين على السواء أزاح عنها بيده التراب المتراكم عليها، وأمر المسلمين: «ابنوا عليها مسجداً».

ثم قصد محراب داود، فصلى فيه بالناس، وسهر، وسهر الناس معه يتعبدون حتى مطلع الفجر، فصلى الصبح بالناس، وقرأ في أول ركعة سورة (ص)، وفي الركعة الثانية سورة الإسراء.

وصحب بطريقُ بيت المقدس أمير المؤمنين، وطاف به على آثار المدينة، فزار هيكل سليمان، وكنيسة القيامة، وحانت صلاة الظهر، وعمر والبطريق في كنيسة القيامة، فدعاه البطريق إلى الصلاة، داخل

الكنيسة، فأبى عمر كي لا تكون سنة للمسلمين من بعده، فيُخرجوا النصارى من كنائسهم، فمدُّوا له بساطاً على باب كنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة، ليصلي، فأبى، كي لا يصلي المسلمون من بعده على عتبات الكنائس، وأعطى للنصارى عهداً بألا يصلي أحد من المسلمين على عتبة كنيسة أبداً!.

وانطلق عمر إلى المكان الذي أمر المسلمين بأن يقيموا عليه مسجداً، عند الصخرة المباركة، فصلى بالناس.

وأنهى عمر رحلته الخالدة العظيمة إلى بيت المقدس وحقق الله رجاءه وفتح الله له المدينة العالمية يفعل فيها ما يشاء. وكانت أنباء الفتح العظيم قد بلغت عليًّا والمسلمين في المدينة فاستقبلوه بظاهر المدينة استقبالاً عظيماً ملؤه البشر والفرحة والإكبار والإجلال وكلّ ذلك في غيرما بطر، ولا فخر، ولا كبرياء، وإنما في تذلل لله واعتراف بنعمته فهو الذي أعز جنده وهزم الأحزاب وحده. رضي الله عن عمر وعن الصحابة أجمعين. وإلى اللقاء مع مسافر آخر.

لامية الطغرائي

قال العميد أبوإسماعيل الطغرائي المتوفى سنة ٥١٣هـ في قصيدة لامية من أروع القصائد يشكو فيها الغربة ويدعو في الوقت نفسه إلى السفر والتنقل لكسب العيش وصيانة النفس ويحث المرء على القناعة وعلى عزَّة النفس وصيانتها عن الذل وعما في أيدي الناس وعن موارد الكدر ويشير إلى أن الحظ قد يكون في أغلب أحيانه مع الجهلة ومع الذين ليسوا أهلاً لما نالوا. وهي طويلة وقد اخترت منها بعض أبياتها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطلِ ... وحلية الفضل زانتني لدى العطل
فِيمَ الإقامةُ بالزوْراء، لا سكني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جملي
ناءٍ عن الأهل صِفْرُ الكفِّ منفردٌ ... كالسيف عُرِّي متناه عن الخلل
فلا صديقَ إليه مُشتكى حَرَبي ... ولا أنيس إليه منتهى جذلي
طال اغترابيَ حتى حنّ راحلتي ... ورحلها وقرا العسالة الذبل
أريد بسطة كف أستعين بها ... على قضاء حُقوق للعُلا قِبَلي
حبُّ السلامة يثني عزمَ صاحبه ... عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً ... في الأرض أوسلماً في الجوفاعتزل
ودع غمار العلا للمقدمين على ... ركوبها واقتنع منهن بالبلل
يرضى الذليل بخفض العيش مسكنة ... والعزُّ عند رسيم الأينق الذلل
فادرأ بها في نحور البيد جافلة ... معارضات مثاني اللّجم بالجدل
إن العلا حدثتني وهي صادقةٌ ... فيما تحدِّث أن العزّ في النّقلِ
لو أن في شرف المأوى بلوغ مُنى ... لم تبرح الشمس يوماً دارة الحملِ
أهبت بالحظ لو ناديت مستمعاً ... والحظ عنيَ بالجهال في شُغُل
لعلّه إن بدا فضلي ونقصُهُمُ ... لِعينه نام عنهم أو تَنَبَّهَ لي

أعلل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
لم أرْتضِ العيش والأيام مقبلةٌ ... فكيف أرضى وقد ولت على عجل
غالىٰ بنفسيَ عرفاني بقيمتها ... فصنتها عن رخيص القدر مبتذل
وعادة السيف أن يُزهى بجوهره ... وليس يعمل إلاَّ في يَدَيْ بطل
تقدمتني أناسٌ كان شأوهمُ ... وراء خطويَ لو أمشي على مهل
هذا جزاء امرئ أقرانه درجوا ... من قبله فتمنى فسحة الأجل
فإنْ عَلاَنيَ مَنْ دوني فلا عجبٌ ... لي أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زحل
فاصبر لها غير محتالٍ ولا ضجرٍ ... في حادث الدهر مايغني عن الحِيَلِ
فإنما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يُعوِّل في الدنيا على رجل
يا وارداً سُؤْرَ عيشٍ كُلُّه كدرٌ ... أنفقت صفوك في أيامك الأول
فيم اقتحامك لجّ البحر تركبه؟ ... وأنت تكفيك منه مصَّة الوشَل
ملك القناعة لا يخشى عليه ولا ... يحتاج فيه إلى الأنصار والخول
ترجو البقاء بدار لا ثبات بها ... فهل سمعت بظل غير منتقل؟
ويا خبيراً على الأسرار مطلعاً ... أُصْمُتْ ففي الصمت منجاةٌ من الزلل
قد رشحوك لأمرٍ إن فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

من أخبار المسافرين (٢٩)

التجارة الرابحة

قال الأصمعي: أنبأنا شبيب بن شيبة، قال: كنا بطريق مكة وبين أيدينا سفرة لنا نتغدى في يوم قائظ، فوقف علينا أعرابي ومعه جارية له زنجية، فقال: ياقوم أفيكم أحد يقرأ كلام الله حتى يكتب لي كتاباً؟ قال: قلت له: أصب من غدائنا حتى نكتب لك ما تريد. قال: إني صائم. فعجبنا من صومه في تلك البرّية، فلما فرغنا من غدائنا، دعونا به فقلنا: ما تريد؟ فقال: أيها الرجل، إن الدنيا قد كانت ولم أكن فيها، وستكون ولا أكون فيها، وإني أردت أن أعتق جاريتي هذه لوجه الله عز وجل، ثم ليوم العقبة، تدري ما يوم العقبة؟ قوله عز وجل: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد: ١١-١٣] اكتب ما أقول لك ولا تزد عليَّ حرفاً: هذه فلانة خادم فلان، قد أعتقها لوجه الله عز وجل وليوم العقبة.

قال شبيب: فقدمت البصرة وأتيت بغداد، فحدثت بهذا الحديث المهدي، فقال: مئة نسمة تعتق على عهد الأعرابي - أي على نيته -.

إن مع العسر يسرا

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠]

اصبر على الدهر إن أصبحت منغمساً ... بالضيق في لججٍ تهوي إلى لججِ
فإن تضايق أمر عنك مرْتَتَجاً ... فاطلب لنفسك باباً غير مرتَتِجِ
لا تيأسنَّ إذا ما ضقت من فرجٍ ... يأتي به الله في الروحات والدَلَجِ
فما تجرّع كأسَ الصبر معتصمٌ ... بالله إلاَّ أتاه الله بالفرجِ

أخي المسافر إن كنت ممن حَكمتْ عليه الظروف وقست عليه الأحداث فاضطررت للخروج من بلدك ومفارقة أوطانك والغياب عن أهلك وجيرانك فعليك بالصبر، وإن كنت قد ظلمتَ فأخرجتَ من أرضك وحُوربتَ في بلدك وطُردت من ديارك فعليك بالصبر.

إن الأمور إذا انسدّت مسالكها ... فالصبر يفرج منها كلّما رتجا
لا تيأسنَّ وإن طالت مطالبة ... إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلِقْ بذي الصبرأن يحظى بحاجته ... ومدمنِ القرعِ للأبواب أن يلجا

وإن كنت قد لجأت إلى الغربة وركبت الأهوال وعبرت المفاوز طلباً للعلم وتحصيلاً للفائدة فعليك بالصبر.

ومَن يصطبر للعلم يظفر بنَيْلهِ
ومن يخطب الحسناءَ يصبرْ على البذلِ
ومن لم يُذِلَّ النفسَ في طلب العلا
يسيراً يعشْ دهراً طويلاً أخا ذُلِّ

وإن كنت قد خرجت باحثاً عن لقمة العيش، وساعياً في مناكب الأرض لكسب الرزق وصيانة الوجه وحفظ الكرامة فعليك بالصبر.

لا يملأ الهول صدري قبلَ وقعَتِه ولا أضيق به ذَرْعاً إذا وقعا
ما سُدّ لي مطلعٌ ضاقت ثنيّته إلاّ وجدتُ وراء الضِّيقِ متَّسَعا

نعم أخي المسافر عليك بالصبر ولا تيأس ولا تقنط ولا تستسلم لأحداث الزمان وعوادي الأيام وقسوة الأعوام، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسراً ولن يغلب عسرٌ يسرين.

يضيق صدري بغمٍّ عند حادثةٍ وربّما خيرَ لي في الغمّ أحياناً
وربّ يوم يكون الغمّ أوّله وعند آخره رَوْحاً وريحانا
ما ضِقْتُ ذرعاً بغمٍّ عند نائبةٍ إلاّ ولي فرجٌ قد حلّ أو حانا

ولله در القائل:

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ وضاق لما به الصدرُ الرحيبُ
وأوطنت المكارهُ واطمأنّتْ وأرست في أماكنها الخطوبُ
ولم تَرَ لانكشاف الضرِّ وجهاً ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قنوطٍ منه غوثٌ يمنّ به القريبُ المستجيبُ
وكلّ الحادثات وإن تناهتْ فموصولٌ بها فرجٌ قريبُ

وقال الآخر:

صبرت على اللذات لما تولَّت وألزمتُ نفسي الصبرَ حتّى استمرّتِ
وكانت على الأيام نفسي عزيزةً فلمّا رأت صبري على الذلّ ذَلَّتِ
فقلتُ لها يا نفس عيشي كريمةً لقد كانت الدنيا لنا ثم وَلَّتِ
وما النفس إلاّ حيث يجعلها الفتى فإن أُطْمِعَتْ تَاقَتْ وإلاّ تَسَلَّتِ
فكم غمرةٍ دافعتها بعد غمرةٍ تجرّعتُها بالصبر حتّى تولَّتِ

اللهم اشرح صدورنا ويسِّر أمورنا ونوِّر قلوبنا.

المسافر والسماء

السماء ماذا عن السماء؟ ومن يملك أن يعبر عن السماء؟ أي قلم سيكتب الحديث وافياً؟ وأي بيان سيكون شافياً؟ وأي لغة يكون معها الكلام كافياً؟

لماذا؟ لأن السماء هي كل شيء بالنسبة لنا، قلوبنا، عواطفنا، عقولنا، مشاعرنا، اتجاهاتنا، آمالنا، آلامنا، أحلامنا، رزقنا، حياتنا، نعيمنا، شقاؤنا، رخاؤنا، وجودنا، فناؤنا، نصرنا، غيثنا، عزّنا، فَرَجُنا، حبنا، تعلقنا، كلُّ ذلك في السماء وإلى السماء ومن السماء.

إذا انقطعت بنا أسباب العيش وضاقت بنا سبل المعيشة لجأنا إلى السماء ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١]

إذا أجدبت الأرض وامتنع القطر هرعنا إلى السماء وانتظرنا الغيث من السماء ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٢] ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر: ٢٢]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [النحل: ١٠]، ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل: ٦٥]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الحج: ٦٣]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

﴿يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: ٢١]

إذا يبست الأشجار، وانقطعت الثمار، وذبلت الأزهار، وشحب لون الأرض بعد الاخضرار فإن حياتها في السماء، وازدهارها من السماء، ومَدَدُها من السماء ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠]. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان: ١٠]، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ [ق: ٩]

إذا اشتدّ بنا الكرب، وادلهمّت بنا الأمور، وضاقت علينا الدنيا بما رحبت اتجهنا إلى السماء، وانتظرنا الفَرَج من السماء ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣]

إذا اتَّجه من عميت بصيرته إلى غير السماء، ولجأ من تَعِسَتْ حياته إلى غير السماء فإن المؤمن يلجأ إلى السماء ويتجه إلى السماء ويتولى الذي في السماء ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩]

إذا أوذي الداعي إلى الله، وتنكَّر له قومه، ونصبوا له المكائد، فإنه يلجأ إلى السماء ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]

إذا ظَلَمَت الأمم، وطغت البشرية، وزاغت الإنسانية فانتظر المقت من

السماء، وارتقب العذاب من السماء ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: ١٦٢]، ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦-١٧]

فالسماء تربطنا بها رابطة قوية، فالأبصار تسعد بالنظر إليها، والقلوب تأنس بالركون إليها، لا للسماء في ذاتها وإنما لله تعالى الذي خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فاتجهنا بكل ما نملك إلى السماء، وأصبح التطلع إلى السماء واللجوء إلى السماء أمراً مركوزاً في طبيعة الإنسان ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة: ٤]

إن السماء آية عظيمة من آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته، والشاهدة بعظمته، والناطقة بقدرته، ولذلك دعا عباده إلى النظر إليها والتأمل فيها ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦]، ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ١٥]، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن

كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان: ١٠]، ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢]

اللهم فاطر السموات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين.

إلى السماء

هذه رسالة صادقة يبعث بها أحد الشعراء إلى السماء عَبْر بريد: «إليه يصعد الكلم الطيب»، رسالة من أجمل ما قرأت لكأني بها تخترق الحجب وتنفذ في صدقها وروعتها وجمالها إلى عالِم غيب السموات والأرض، بواسطة «أما إن ربَّك يحبُّ الثناء»، إلى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إلى الذي تعلقت به قلوب المحبين، وهفت إليه أفئدة المتقين، غفر الله لقائلها وناقلها وقارئها، والقصيدة للشاعر محمد العلائي «مجلة الرسالة»:

لك الأمر لا يدري عبادك ما بيا ... لك الأمر لا للناصحين ولا لِيا
وهذي معاذيري وتلك صحائف ... عليها خطاياها.. وفيها اعترافيا
وفيها من الأمس الدفين وحاضري ... وفيها من الآتي وفيها ابتهاليا
وفيها تهاويلٌ.. ومهجة شاعر ... ينام بها يأساً ويصحو أمانيا
وفيها أعاجيب يكفِّر همها.. ... ذنوبي وإن كانت جبالاً رواسيا!!
ونازعني شوق إليك وهزّني ... من الغيب ما يهفو إليه رجائيا
وجئت من الدنيا الأثيمة هارباً ... بصفوي من أكدارها ونقائيا
وفي النفس ما أخشى ظلام ضبابه ... على نور إيماني ومسرى حيائيا
وذكرى من الماضي الشهيد وعالم ... ورائيَ منه خدعة وأماميا!
وناديت أحلامي إليك وخافقاً ... تهيَّب أسباب المنى والتماديا!!
أناديك في ضعف. وأخجل أن ترى ... جراحَ أمانيه ولون دمائيا
لك الأمر. أشواقي ببابك والمنى ... ولي أملٌ ألا يطول انتظاريا!

دعوتك بالسرِّ المغيَّب في دمي ... وألهمني حبي وفاض عتابيا
ولاح نشيد جئت أشرع لحنه ... فهابتك أرضي واستحتك سمائيا
لك الأمر. مالي أرتجيك فيلتوي ... لساني وأمضي بالتوسُّل شاكيا
ذَكْرُتكَ في نفس هَداها ضلالها ... إليك وعافت وحدتي وارتيابيا
ومنيت روحي من سناك بلمحة ... أُضَمِّد آلامي بها وجراحيا
وأرسلته فيما لديك لعله ... يعود بأسباب المحبة راضيا
تعاليتَ لم أذكر سواك بمحنتي ... ولم أرْجُ إلاَّ من يديك جزائيا
وفوَّضت عن علم إليك إرادتي ... وحسبيَ ما أدَّى إليه اختياريا
لك الأمر. شاقتني سماؤك وانتهى ... إليك بأحلام الضمير مطافيا
وأنزلتُ آمالي وفيها ملامح ... تردُّ أمامي ما تركت ورائيا!
يُطالعني منها زمان عرفتُه ... بريح لياليه ولون سهاديا!!
تُقلِّب ذكراه الدفين وماضياً ... تهرَّب منه في الشعاب خياليا!!
أطلَّت مآسيه ببابك فاستمعْ ... إليها حديثاً لم يسعه بيانيا
ضياؤك أغرى باليقين جوارحي ... وفجَّر أعماقي وأفضى بذاتيا
لك الأمرأسباب ضعافٌ وخاطري ... ببابك يخشى رجعتي وانحرافيا
دعوتك ملءَ النفس ألا تردَّه ... مغيظاً وألا تستعيد سؤاليا!!
وحاشاك أن أرضى مع النفس مذهباً ... بغير يقين منك يهدي شعاعيا!
كفانيَ أوهاماً فهب لي تميمة ... بها أتَّقي نفسي وشرَّ ذكائيا!!
وبارك فجاج الأرض إلاَّ مواضعاً ... شربن دموعي أو شهدن عثاريا
تناسيتها لولا حديث أهاجه ... تلفت أشواقي وخوف ارتداديا
وجدَّد لي همس الرحيل مكارهاً ... تولَّى شجاها والجراح كما هيا
وأياميَ اللاتي ذهبن وعالماً ... دفنت به عهدَ الصَّبَا وشبابيا

وأودعته سراً حراماً ولم أزَلْ ... أعود فأبكيه دموعاً غواليا
لك الأمر. هذا من يديك عدالة ... وهذا قليل في مقام اتصاليا
أتيتك والحق الصريح يمدُّني ... إليك ولحن البشر ملءُ فؤاديا
وفي النفس فجر من يقين وموكب ... من الخير يحدوه إليك ولائيا
وفيها رجاءٌ فاض منك جلاله ... وآفاق نور يستحيها ضيائيا
وأحببت حتى أسكرتني مودَّتي ... وذاب يميني رحمة وشماليا!!
وهامت بآلام الحياة وسائلي ... وفاضت على ما ليس مني هباتيا
وأرسلت أنسامي عبيراً وبهجة ... لتنفح أشواك الرُّبىٰ والأفاعيا!!
وآمنت حتى كاد يذهب خاطري ... وتصعد أنفاساً إليك حياتيا!
ولم يبق حرف منك إلاَّ أسرَّه ... ضميري وأبدَته إليك سمائيا!!
لك الأمر آفاق تراءت لخاطري ... وعاودني منها دبيب شكاتيا!
وذكرني بشرُ السماء منازلاً ... أتيتك منها عابس الوجه داميا
أقلِّب أوهامي يميناً ويسرة ... وأرفع آمالاً إليك روانيا!!
ينازعني ماض شَرِقْتُ بعذبه ... وراودت فيه ما أشاب النواصيا
إذا طاف منه حول نفسيَ طائف ... ذكرت زماني والسنين الخواليا
هناك وفي أرض عليها ملاعبي ... وأطياف آبائي ولغْوُ دياريا
وفيها تَعِلاَّتي وراح مشاربي ... وزلات أهوائي ودمع متابيا
وأحلاميَ الموتى وذات مواجعي ... وأطلال مأساتي ورجع بلائيا
لك الأمر. ألهاني حديث أعاده ... عليك ضميري واستحاه لسانيا!!
وأسرفت في ذكر المساء ولم أكن ... لأسرف لولا رجفة من صباحيا
لك الأمر. نادت بالرحيل خواطري ... وهبت على نفسي رياح اغترابيا
وذكَّرتها أن الشعاب جديدة ... وأن عليها من سناك هواديا!
وأن شعابَ الأمس واجهتُ غَيها ... على غير إيمان فكانت مهاويا!!

هي الأرض تبلوني لتبلو وخطبها ... على نور إدراكي وضوء نفاذيا!!
لك الأمر. مالي في وداعك باهتاً ... ومالِيَ أخطو شاحب النفس نائيا
لك الأمر. لاحت من بعيد مذاهبي ... وآذن حاديها وآن ارتحاليا!!
وَرَفَّتْ عليها من سناك مآثر ... ورفت عليها غايتي وصلاتيا
تَنَسّمْتُ أمواج الرحيل وأشرفت ... عليَّ أمانيه فبارِكْ شراعيا!!

* * *

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

[سورة فاطر]

من أخبار المسافرين (٣٠)

مسافرة تُخْتَطف من زوجها

هذه إحدى المسافرات المؤمنات، والمهاجرات الصالحات، خرجت مع زوجها فراراً بدينها، وهجرةً إلى ربها، وقد منَّ الله عليها بعد ذلك فأصبحت أمّاً للمؤمنين، وزوجة لقائد الغر المحجلين ﷺ، وهي أم سلمة هند بنت أبي أمية رضي الله عنها وأرضاها، لنستمع إليها وهي تروي لنا قصتها المؤثرة، قالت:

لما أجمع أبوسلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيرَه ثم حَمَلني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقودُ بي بعيره، فلما رأته رجالُ بني المُغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبدالأسد، رهْط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبدالأسد، وحبسني بنوالمُغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبوسلمة إلى المدينة. قالت: فَفُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني، فكنت أخرج كلّ غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتى أمسى سنةً أو قريباً منها حتى مرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي، أحدُ بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تُخْرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: وردّ بنو عبدالأسد، إلي عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خَلْق الله. فقلت: أتبلَّغ بمن لقيتُ حتى أقْدم على زوجي؛ حتى إذا كنت بالتَّنْعيم لقيتُ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبدالدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلاَّ الله وبُنَيّ هذا. قال: والله ما لكِ من مَتْرك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يَهْوِى بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قطّ، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطّ عنه، ثم قيَّده في الشجرة ثم تنحَّى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرَّواح قام إلى بعيري فقدَّمه فرَحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبى، فإذاركبت واستويتُ على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقْدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُباء، قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبوسلمة بها نازلاً ـ فادخُليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة. قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قطّ كان أكرم من عثمان بن طلحة. ولما تُوفي أبوسلمة حزنت أم سلمة عليه حزناً شديداً فسمعت النبي ﷺ يقول: «**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اؤجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلاَّ أجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها**» فقالتها وهي تقول: ومن خير من أبي سلمة؟! فأخلفها الله خيراً منه رسول الله ﷺ، فأصبحت من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

دعوة للسياحة في الأرض

قال تعالى على لسان موسى عليه السلام في رحلته لطلب العلم: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

فالسفر قطعة من العذاب لكنه عذبٌ عند الأحباب، ومتعة للأصحاب. تسافر فيه الهموم عن مواطن القلوب، وتغرب فيه شمس الحزن عن أفق النفس. السفر بالرغم مما يحدث فيه أحياناً من العنت والمشقة إلاّ أن فوائده عظيمة، وآثاره جليلة، ولقد قدم القرآن الكريم بطاقات دعوة للسفر والسياحة لأغراض سامية، ونتائج مثمرة أهمها:

أ ـ أخذ العبرة من الأمم الغابرة والقرون السالفة. يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]

ويقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧].

ب ـ رؤية مصارع الظالمين والجبابرة على مرّ العصور. يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١]

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: ٦٩]

جـ ـ التفكر في مخلوقات الله والتأمل في ملكوته وآثار عظمته وقدرته وملكه.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠]

د ـ البحث عن أسباب الرزق وتأمين سبل العيش. يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [تبارك: ١٥]. وتأمَّل جمال اختتام الآية بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ فكم يثير في النفس من أشياء. وما هي الموعظة والذكرى التي يقدمها.

يقول تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾

[المزمل: ٢٠]

هـ ـ السفر لطلب العلم والتفقه في الدين. يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢].

وفي قصة موسى التي ذكرها الله تعالى أكبر دليل على الترغيب في السفر لطلب العلم والتزود من المعرفة.

من أخبار المسافرين (٣١)

الخارجي والصداق الشاقّ

كان الخارجي، واسمه محمد بن بشير بن عبدالله بن عقيل بن سعد بن حبيب بن سنان بن عدي بن عوف بن بكر، شاعراً فصيحاً، ويكنىٰ أباسليمان. فقدم البصرة في طلب ميراث له بها، فخطب عائشة بنت يحيى بن يعمُر الخارجية؛ من خارجة عدوان. فأبت أن تتزوجه إلاَّ أن يقيم معها بالبصرة، ويترك الحجاز، ويكون أمرها في الفرقة إليها، فأبىٰ أن يفعل، وقال في ذلك:

أرِق الحزينُ وعادةٌ سُهُدُهْ ... لطوارق الهم التي تَرِدُهْ
وذكرتُ من لانت له كبدي ... فأبى فليس تلين لي كبده
ونأى فليس بنازل بلدي ... أبداً، وليس بمُصلِحي بلده
فصُدِعت حين أبى مودتَه ... صَدْعَ الزجاجة دائم أبده
فاصبر فإن لكل ذي أجل ... يوماً يجيء فينقضي عدده
ماذا تعاتب من زمانك إذ ... ظعن الحبيب وحل بي كمده

استراحة المسافر (٨)

* **مواعيد عرقوب**: عرقوب رجل من العماليق أتاه أخٌ له، فقال له عرقوب: إذا طلعت هذه النخلة فلك طَلْعُها، فلما أطلعت أتاه لِلْعِدة، فقال: دعها حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير زَهْوَاً. فلما زَهَتْ قالَ: دعها حتى تصير رُطباً. فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تَمْراً. فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل، فجذها ولم يُعط أخاه شيئاً، فصار مثلاً في الخُلْف وفيه قول الأشجعي:

وعَدْت وكان الخُلْفُ منك سَجِيَّةً مواعيدَ عُرْقُوبٍ أخاه بيَثْرِبِ

* قال أحمق لابنه، وكان أحمق أيضاً: أي يوم صلّينا الجمعة في مسجد الرّصافة، فقال: لقد نسيت، ولكني أظنّه يوم الثلاثاء، قال: صدقت كذا كان.
* اشترى رجلٌ ثلاثة أرطال لحماً، وقال لامرأته: اطبخيه وخرج إلى مشغله. فطبخته المرأة وأكلته. فلمّا جاء زوجها، قال: هاتي ما طبختِ. قالت له: أكله القط. فأخذ الرجل القط ووزنه، فإذا فيه ثلاثة أرطال، فقال لها: هذا وزن القط، فأين اللحم؟ أو هذا وزن اللحم، فأين القط.
* قيل: إن امرأة عجوزاً مرضت، فأتاها ابنها بطبيبٍ، فرآها الطبيب متزيّنة بأثواب مصبوغةٍ، فعرف ما بها، فقال الطبيب: ما أحوجَها إلى زوج! فقال الابن: وما حاجةُ العجائز للأزواج! فقالت الأم العجوز: ويحك! الطبيبُ أعلم منك على كلّ حال.

* نزل بصريٌّ على مَدَني وكان صديقاً له، فأطال المُقام عنده، فقال المدني لامرأته: إذا كان غداً فإني أقول لضيفنا: كم ذراعاً تقفز؟ ثم أقفز، فإذا قفز هو فأغلقي الباب! فلما كان من الغد، قال له المدني: كيف قَفْزُكَ ياأبا فلان؟ قال: جيّد! فعرض عليه أن يقفز معه، فأجابه. فوثبَ المدنيُّ من داره إلى الخارج أَذْرُعاً، وقال للضيف: ثِبْ أنت! فوثبَ الضيف إلى داخل الدار ذراعين. فقال له: وثبتُ أنا إلى خارج الدار أذرعاً ووثبتَ أنت إلى داخلها ذراعين؟! فقال الضيف: ذراعان في الدار خيرٌ من أذرع إلى برَّا!!

الرحالة العرب

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]

أخي الحبيب لقد تحدثنا عن المسافرين في طلب العلم، والمثابرين في تحصيل المعرفة، والمجاهدين في نشر العلم، وحفظ السنة، وهداية الأمة، وماذا عانوا من التعب والمشقة ووعثاء السفر وقطع الفيافي وعَبور المفاوز والرحيل إلى البلدان، والسفر إلى كل مكان، ولم يكن ذلك في طائرات فخمة، ولا سيارات فارهة، ولا قطارات عملاقة، وإنما كان أكثره مشياً على الأقدام. ذكرنا من النماذج أروعها ومن الأخبار أعجبها، ومن القصص أمتعها، وإلى جانب هؤلاء الرحالة في سبيل العلم، والعلم وحده، كان هنالك رجالٌ آخرون قاموا برحلات عجيبة، وجولات غريبة إما للدعوة في سبيل الله، وإما للعلم والاكتشاف، وإما للتجارة، وإما لطلب المعيشة، وإما لغرض السياحة البحتة.

لقد قام أجدادنا بدور كبير في عالم الرحلات وفتحوا الأرض وطافوا الدنيا لنشر الإسلام ورفع الظُّلْمة عن الأنام فوصلوا إلى الهند والصين والمحيط الأطلسي وجبال البرانس، وتركستان وجبال القوقاز، وأنحاء إفريقيّة، إلى غير ذلك من أنحاء الدنيا وجابوا البحار ودخلوا الأندلس واقتحموا جبال الدنيا وتوغلوا في وديانها وقراها، وتصايحوا بلغات الأمم، ورفعوا أذانهم على منارات الدنيا، ومرَّغوا جباههم سجداً لله تعالى في أقطار المعمورة وفي أخبار رحلاتهم البحرية ما يدل على أنهم

طافوا دول شواطىء إفريقية الشرقية، وكادوا لا يتركون جزيرة في المحيط الهادي إلاَّ وصلوها، ونزلوا ببعض الجزائر المنتشرة ببحر الروم وبعض جزائر المحيط الأطلسي. وكما اقتحموا البحار فقد اقتحموا القفار، وجابوا الأرض وتوغلوا في مجاهلها، ووضعوا أقدامهم في أوروبا ومرتفعاتها الشرقية والجنوبية وتوغلوا فيها، كما توغلوا في آسيا وصحاريها ومرتفعاتها الوسطى. وكما أن العرب قد أوصلوا الإسلام إلى بعض الأقاليم عن طريق السيف والجهاد، فإن التجار والرحالة قد نشروا الإسلام بأخلاقهم وتعاملهم في أقاليم لم يصل إليها الفاتحون في آسيا كالصين وفي إفريقية كالسودان وعلى طول شاطئها الشرقي وكثيراً ما كانت تطلب هذه الأقاليم الجديدة بعثات دينية من بغداد تعلم الناس فروض الإسلام وما شرعه الله للناس.

فنحن الناس كل الناس في البرِّ وفي البحرِ
أخذنا جزية الخلق من الصـــين إلى مصـرِ
إلى طنجة بـل في كل أرض خَيْـلُنَا تسري
وإنْ ضاق بنـا قُطْـرٌ نَـزُلْ عنه إلى قُـطْـرِ
لنا الدنيا بمـا فيهـا من الإسـلام والكفـرِ

ولكن أخي المسافر إذا كان هذا هو طموح الأجداد، وتلك هي همة الآباء والأسلاف مع قلة الإمكانات، وشظف العيش، وكثرة الأخطار، وعدم توفر وسائل النقل المريحة السريعة فما دورنا نحن وماذا قدمنا نحن وبماذا نفخر نحن العرب خصوصاً والمسلمين عموماً؟ ما جهدنا في نشر الإسلام وتعريف الدنيا به، لاسيما تلك الأقاليم والبلدان التي تعيش

التخبط والظلام والهمجية. ما اكتشافاتنا التي نباهي بها العالم اليوم؟ ما رحلاتنا في أنحاء الدنيا لنشر الإسلام وتعلّم العلم وأخذ تجارب الأمم؟ ما تعاملاتنا وأخلاقياتنا التي تؤثر فيمن يرانا وتجذبه إلينا وتدعوه تلقائياً إلى ديننا وهدي ربنا وسنة نبينا ﷺ.

أخي المسافر، إليك هذه القصة العجيبة لأحد المسلمين حتى تعلم أن بإمكان المسلم أن ينفع وأن يهدي بإذن الله تعالى في أي بلد يقيم فيه، وأن يسخر علمه وتعلمه لخدمة مبدئه ومنهجه.

إن المسلم ينبغي أن يكون مثل الغيث إذا حلَّ بأرض اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

أرأيت أرض البلغار هل تدري أن الإسلام انتشر فيها وعمَّ نوره كثيراً من أهلها بسبب رجل واحد بعد الله تعالى وهو طبيب مسلم، سافر هذا الطبيب إلى بلاد البلغار وكان الملك وزوجته مريضين وقد يُئس من شفائهما، فَعُرف هذا الطبيب ودعي لعلاج الملك وزوجته، فكان شرطه لعلاجهما أن يدخلا الإسلام إن شُفيا من مرضهما، فأجاباه إلى شرطه، ووافقا عليه، فعالجهما وشفيا بأمر الله تعالى فدخلا في دين الإسلام، وأسلم معهما أهل تلك البلاد!!

قال ﷺ: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**» فكيف بمن يهتدي على يده أناس وأمم.

وقد رأيت لزاماً عليَّ، وأنا أحدِّث أخي المسافر عن السفر وأخبار المسافرين وأشعارهم وطرائفهم وعجائبهم، رأيت أن لا أغفل خبراً من أهم أخبار المسافرين وحدثاً من أعجب أحداث السفر وأروعها وأمتعها.

إنه خبر الرحالة العرب، فأصِغ السمع إلى النبأ الغريب والحدث العجيب لأناس لم يكونوا يمتلكون من الوسائل الحديثة ما يمتلكه الناس اليوم ولم يعرفوا ما عرفه العالم اليوم من الحضارة ووسائل التنقل الحديثة بحيث أصبح بمقدور الإنسان أن يذرع العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في أيام معدودة، وعبر وسائل مريحة في جوٍّ من الأمن والأمان ورغد العيش وتوفر أسباب المعيشة. أما أولئك القدماء فقد كانوا يعانون أشد المعاناة ويتعرضون لأشق العذاب ويغامرون في أشد الأهوال والأخطار. ولكنه علو الهمة، وقوة العزيمة، ومصارعة الأخطار، ومحاولة اكتشاف الأقطار، وكشف الأسرار، واستقصاء الأخبار، فعبروا الأنهار والبحار وتكبدوا وهج الشمس ولوعة البرد وهم يقطعون الفيافي والقفار، ولكن عند الصباح يحمد القوم السرى، وإذا عرف المقصود هان لأجله المجهود.

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

أخي المسافر: أسأل الله تعالى أن يوفقك في أسفارك وأن يجعلك مباركاً أينما كنت وأن يجعلك ممن يدعو إلى الله على بصيرة.

من رحلات المسلمين العجيبة

هناك عددٌ من الرحالة المسلمين الذين طافوا عدداً كبيراً من المدن والأقاليم قد سجّلوا رحلاتهم ودونوا ملاحظاتهم ولم يكن تسجيلاً تقريرياً مباشراً بل كانوا يصوغون رحلاتهم ومشاهداتهم صياغة أدبية جميلة. ولقد كان لتلك الرحلات أثر كبير خاصة في القرون المتأخرة حيث اعتبرت رحلاتهم ومغامراتهم وسفراتهم من أهم المراجع التاريخية والاجتماعية والسياسية. ومن أولئك الرحالة المسلمين:

١ ـ أسامة بن منقذ: أحد أبطال المعارك الصليبية كان شجاعاً فارساً أديباً بارعاً شاعراً مفلقاً، وقد عاش في القرن السادس للهجرة، وكان آباؤه أمراء لقلعة شيزر، وقد نازلوا الصليبيين كثيراً ولهم معهم وقائع عديدة وقد سافر أسامة إلى مصر وأقام بها مدة من الزمان، وطاف ببلاد العرب والجزيرة، وكانت لديه موهبة قصصية وقلم سيال وبيان رائق، فسجل الحوادث التي مر بها ورآها في رحلاته وله كتاب في ذلك اسمه «الاعتبار»، وهو من أجمل وأطرف ما كتب عن الرحلات.

٢ ـ عبداللطيف البغدادي: وهو عالم كبير واسع الثقافة، درس الفلسفة والطب وعلوم الدين واللغة، وترك مؤلفات كثيرة في كل فن وقد ولد عام ٥٥٧هـ، وطاف بالشام ومصر وعدد كبير من البلدان وله كتاب يعتبر طُرْفة من طرف كتب الرحلات وهو «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر».

ولما كان الحج أحد أركان الإسلام فإن المسلمين كانوا يتجشمون

راضين مسرورين كل مشقة في سبيل أداء هذه الفريضة وزيارة مسجد الرسول ﷺ في المدينة وكان من أولئك الرحالة الذين رحلوا للحج من يجعل سفره ذلك فرصة لتسجيل رحلته الحبيبة إلى قلبه ويطيل السفر ويمر بالمدن والأقاليم والهجر، ويصف كل ذلك وصفاً عجيباً دقيقاً منذ أن وضع قدمه الأولى في طريق السفر إلى أن يعود إلى موطنه، ومن تلك الرحلات:

٣ ـ **رحلة ابن جبير:** هو أبوالحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الأندلسي، الشاطبي، البلنسي، ولد في بلنسية عام ٥٣٩هـ، وتوفي بالإسكندرية عام ٦١٤هـ، وكان من علماء الأندلس في الفقه والحديث، وكانت له مشاركة في الآداب، ويكاد يجمع المؤرخون والكتّاب والأدباء أن هذه الرحلة هي أجمل وأفضل ما كتب عن الرحلات وهي رحلة رائعة حقاً تتميز بمعلوماتها الدقيقة والطريفة وتتميز بأسلوبها الأدبي الشيّق.

ورحلة ابن جبير تقصّ ما شاهده في طريقه إلى حجه وعودته منه.

وإليك مقتطفات من رحلة ابن جبير: «وصف دمشق».

إليك هذا المقطع من رحلة ابن جبير وهو يصف فيه دمشق لترى أسلوبه الرائع وقلمه الأخّاذ وعباراته الناصعة وقد نسي ابن جبير نفسه وهو يتكلم عن دمشق فقد هام بها قلبه وأحبها فؤاده فخط بالحبر قليلاً مما في الصدر يقول:

«جنة المشرق، ومطلعُ حُسنه المُؤنِق المُشْرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقْرَيناها، وعروس المدن التي اجْتَلَيْنَاها، قد تحلّت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حُلَل سندسيّة من البساتين، وحلّت من

موضوع الحسن بالمكان المَكين، وتزَيّنت في منَصّتها أجمل تزيين، وتشرّفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه، صلى الله عليهما منها إلى ربوة ذات قَرار ومعين، ظل ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مَذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض يُحيي النفوس نسيمها العليل، تتبرّج لناظريها بمُجْتَلى صقيل، وتناديهم: هلموا إلى مُعرَّس للحسن ومَقِيل، قد سئمت أرضُها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ، فتكاد تناديك بها الصم الصِّلاب: ارْكُضْ برجلكَ هذا مُغْتسَلٌ باردٌ وشراب، قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتنافَ الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرتُه اليانعة قَيْد النظر.

أهوال البحر:

وهذا مقطع آخر نأخذ منه شدة المعاناة والأخطار التي تعرض لها ابن جبير وكان يتعرض لها كل المسافرين في ذلك الوقت فالحمد لله الذي أنعم علينا بهذه النعم العظيمة من وسائل التنقل ومراكب السفر.

يقول ابن جبير: «وفي ليلة الأربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر تُرسِله الرّياح بقوة، كأنه شآبيب سهام، فعظم الخطب واشتد الكرب وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة. فبقينا على تلك الحال الليل كله، واليأس قد بلغ منا مبلغه، وارتجينا مع الصباح فُرْجة تخفّف عنا بعض ما نزل بنا، فجاء النهار، وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذي القعدة، بما هو أشدُّ هولاً وأعظم كرباً، وزاد البحر اهتياجاً وارْبدّتِ الآفاقُ سواداً، واستَشرَت الرّيح والمطر

عصوفاً، حتى لم يثبت معها شراع. فلُجيء إلى استعمال الشُّرُع الصّغار. فأخذت الريح أحدها ومزّقته وكسرت الخشبة التي ترتبط الشُّرُع فيها، وهي المعروفة عندهم بالقَرِيّة. فحينئذٍ تمكّن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء إلى الله عز وجل. وأقمنا على تلك الحال النهار كله، فلما جن الليل فترت الحال بعض الفُتور، وسرنا في هذه الحال كلها بريح الصواري سيراً سريعاً.

وفي ذلك اليوم حاذينا برّ جزيرة صقلية. وبتنا تلك الليلة، التي هي ليلة الخميس التالية لليوم المذكور، متردّدين بين الرجاء واليأس، فلما أسفَرَ الصّبحُ نشرَ الله رحمته، وأقشعَت السحابُ وطاب الهواء وأضاءت الشمس وأخذ في السكون البحرُ، فاستبشر الناسُ وعاد الأنسُ وذهب اليأس، والحمد لله الذي أرانا عظيم قدرته، ثم تلافى بجميل رحمته ولطيف رأفته، حمداً يكون كفاءً لمنّتهِ ونعمته».

الملك العادل:

وابن جبير هو ممن أُعجب بالسلطان المسلم والمجاهد الصالح صلاح الدين الأيوبي ولذلك أشاد به في مواضع كثيرة من كتابه ومن ذلك قوله:

«ومن مفاخر هذا السلطان المُزْلِفة من الله تعالى، وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا: إزالته رسم المكس المضروب وظيفةً على الحجاج مدة دولة العُبَيديين. فكان الحُجاج يلاقون من الضغط في استيدائها عَنَتاً مُجحِفاً ويُسامون فيها خُطّةَ خَسْف باهظة. وربّما ورد منهم من لا فضْل لديه على نفقته أو لا نفقة عنده فيُلْزَم أداء الضريبة المعلومة، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر

ديناراً مؤمنيّة على كل رأس، ويعجز عن ذلك، فيُتناوَلُ بأليم العذاب بعَيْذاب ـ اسم مدينة ـ فكانت كاسمها مفتوحة العين.

وربما اختُرِع له من أنواع العذاب التعليق من الأنثيَين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة، نعوذ بالله من سوء قَدَره. وكان بجُدّة أمثال هذا التنكيل وأضعافه لمن لم يؤدّ مكسه بعيذاب ووصل اسمه غير معلّم عليه علامة الأداء. فمحا هذا السلطانُ هذا الرسم اللعين ودفع عِوَضاً منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها، وعيّن مَجْبىً موضعٌ معيّن بأسره لذلك، وتكفّل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز، لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة، عمّرهما الله، فعوّض من ذلك أجمل عوض، وسهّل السبيل للحجاج، وكانت في حيّز الانقطاع وعدم الاستطلاع، وكفى الله المؤمنين على يدي السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطباً أليماً. فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس أن حج البيت الحرام إحدى القواعد الخمس من الإسلام، حتى يعم جميع الآفاق ويوجب الدُّعاء له في كل صُقْع من الأصْقاع وبقع من البقاع، والله من وراء مجازاة المحسنين، وهو، جلّت قدرته، لا يضيع أجر من أحسن عملاً، إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ضرائب على كل ما يُباع ويُشترى مما دقّ أو جلّ، حتى كان يؤدّي على شرب ماء النيل المكس فضلاً عمّا سواه. فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الأمن.

ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسّبُل أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرّفاً فيما يعنيهم، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم. على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والإسكندرية حسبما تقدّم ذكره».

٤ ـ رحلة ابن بطوطة: أعظم رحَّالة في تاريخ العرب أبوعبدالله محمد بن محمد الطَّنجي، ولد في طنجة عام ٧٠٣هـ أعجوبة الأعاجيب، وغريبة الغرائب، ورائعة الروائع. إنها الرحلة التي أشبه ما تكون بالخيال فإن الإنسان لا يكاد يصدِّق أن بإمكان بشر أن يصل إلى ما وصل إليه ابن بطوطة وما حقّقه في تلك الفترة الزمنية العتيقة، ولكنها الهمة التي تناطح السحاب. ابن بطوطة له عدة رحلات ولكن انطلاقتها وبدايتها كانت رحلته من بلاد الأندلس لأداء فريضة الحج.

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات، زار في الأولى بلاد المشرق الإسلامي بما فيها الهند والصين، وزار في الثانية بلاد الأندلس، وفي الثالثة بلاد السودان الغربي، وكان قد غادر طنجة مسقط رأسه في يوم الخميس الثاني من رجب عام ٧٢٥هـ معتمداً حج بيت الله الحرام، وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، فمر بالجزائر وتونس وليبيا ووصل مصر حيث تجول في مدنها، وذهب إلى الشام، وبعد أن طاف بلدانها ذهب إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج، وسافر منها إلى العراق وطوف فيه وألمّ ببعض المدن في غربي إيران ثم عاد إلى الحجاز وأدى فريضة الحج مرة ثانية. ورحل من مكة إلى اليمن وإلى شرق إفريقية وعاد إلى ظفار وعمان والبحرين ثم إلى مكة ليحج للمرة الثالثة ويعود إلى مصر ثم الشام وإلى جزيرة القرم والقوقاز والبلغار وإلى القسطنطينية، ومنها رحل إلى خوارزم وبخارى وأفغانستان، ثم دخل الهند سنة ٧٣٤هـ ومنها ذهب إلى الصين عن طريق الملايو وعاد عن طريق سومطرة ونزل في ظفار، واتجه إلى بلاد العجم فالعراق فالشام فمصر فالحجاز ليحج للمرة الرابعة، وليعود بعدها

إلى مراكش عن طريق مصر فليبيا فتونس فالجزائر، ووصل مدينة فاس في يوم الجمعة أواخر شعبان من عام ٧٥٠هـ، ثم يبدأ رحلته الثانية، وهي رحلة قصيرة زار خلالها بلاد الأندلس ثم عاد إلى مراكش ليصحب أباعنان إلى فاس، ويودعه منها ليقوم برحلته الثالثة في أواخر عام ٧٥٢هـ، ويبقى في مدينة سجلماسة بضعة أشهر، ليبدأ الرحلة في غرة المحرم سنة ٧٥٣هـ إلى بلاد السودان الغربي ويتوغل في مجاهل إفريقية الوسطى ويعود بعدها في عام ٧٥٤هـ ليستظل رعاية السلطان في بلاده بفاس حيث يمضي بقية حياته حتى عام ٧٧٦هـ.

مقتطفات من رحلة ابن بطوطة:

أهل مكة: يقول ابن بطوطة عن أهل مكة:

«ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء؛ ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم، وأكثر المساكين المنقطعن يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله يتبعه المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له، ولا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر.

وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس، وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر، ونساء مكة ذوات صلاح وعفاف، ولأهل

مكة عوائد حسنة وغيرها».

زهران وغامد :

ويقول عن القرى الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد بعد أن ذكر أنهم يجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الأسعار بمكة ويرغد عيش أهلها، فيقول:

«وبلاد السرو التي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات، وأهلها فصحاء الألسن، لهم صدق نية، وحسن اعتقاد، وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها، داعين بأدعية تتصدع لرقتها القلوب، وتدمع العيون الجامدة، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمِّنين على أدعيتهم، ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم، ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك، وهم شجعان أنجاد، ولباسهم الجلود، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم؛ ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم، وذكر أن النبي ﷺ ذكرهم وأثنى عليهم خيراً، وقال: علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء، وكفاهم شرفاً دخولهم في عموم قوله ﷺ: «**الإيمان يمان والحكمة يمانية**» وذكر أن عبدالله بن عمر، رضي الله عنهما، كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل في جملتهم تبركاً بدعائهم، وشأنهم عجيب كله، وقد جاء في أثر: زاحموهم في الطواف، فإن الرحمة تنصب عليهم صباً».

نهاية الرحلة:

يقول ابن بطوطة:

ووصلت إلى مدينة تازي، وبها عرفت خبر موت والدتي بالوباء، رحمها الله تعالى، ثم سافرت عن تازي فوصلت يوم الجمعة، في أواخر شهر شعبان المكرم من خمسين وسبعمائة، إلى حضرة فاس، فمثلت بين يدي مولانا الأعظم الإمام الأكرم أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبي عنان.

وألقيت عصا التسيار ببلاده الشريفة، بعد أن تحققت بفضل الإنصاف أنها أحسن البلدان لأن الفواكه بها متيسرة والمياه والأقوات غير متعذرة، وقل إقليم يجمع ذلك كله، ولقد أحسن من قال:

الغـرب أحسـن أرض ولـي دليـل عليـه
البـدر يقـرب منـه، والشمـس تسعـى إليـه

٥ ـ ابن خلدون:

وليُّ الدين عبدالرحمن بن محمد، ولد بتونس، علم من الأعلام، أشهر من أن يترجم له رائد علم الاجتماع وصاحب كتاب المقدمة الذي هزّ العالم واعترف بفضله الغرب والشرق. لقد كان ابن خلدون عالماً، مؤرخاً، أديباً، شاعراً، شجاعاً مقداماً، وهو يعتبر من كبار الرحالة المسلمين وقد قضى فترة كبيرة من حياته في السفر والترحال، فسافر إلى الأندلس، وإفريقية الشمالية، وتسلم بها عدة مناصب مهمة، ثم سافر إلى مصر، فالإسكندرية، فالقاهرة، ثم ذهب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى القاهرة، وقد تنقل في عدد من البلدان والأقاليم.

وقد كانت لابن خلدون صلة قوية وصحبة بأحد السلاطين اسمه أبوعنان في مدينة فاس بالمغرب، ثم تكدّرت تلك الصحبة فيما بعد وساءت العلاقة وقام أبوعنان بسجن ابن خلدون لاتهامه بالمؤامرة عليه، وقد خاطبه ابن خلدون بقصيدة حوالي مائتي بيت منها:

على أي حالٍ لليالي أعاتبُ ... وأي صروف للزمان أغالبُ
كفى حَزَناً أني على القرب نازح ... وأني على دعوى شهوديَ غائب
وأني على حكم الحوادث نازلٌ ... تسالمني طوراً وطوراً تحارب

ومنها في حنينه إلى أهله:

سلوتهمُ إلاَّ ادكار معاهدٍ ... لها في الليالي الغابرات غرائبُ
وأن نسيم الريح منهم يشوقني ... إليهم وتصبيني البروق اللواغبُ

ولما توفي أبوعنان تولى ابنه بعده إلاَّ أن وزيره الحسن بن عمر استطاع أن يستولى على الحكم وبادر بإخراج ابن خلدون من السجن.

وقبل أن نغادر الحديث عن هذا العلامة الشهير نختم الحديث عنه ببعض أبياته الجميلة في الحنين إلى الأوطان والتشوق للخلان والبكاء على الأطلال:

حي المعاهد كانت قبل تحييني ... بواكف الدمع يرويها ويظميني
إن الأولى نزحتْ داري ودارُهُمُ ... تحملوا القلب في آثارهم دوني
وقفت أنْشُد صبراً ضاع بعدهُمُ ... فيهم وأسأل رسماً لا يناجيني
أُمثِّل الربع من شوقٍ فألثمهُ ... وكيف والفكر يدنيه ويقصيني
ونبّه الوجد مني كل لؤلؤة ... مازال قلبي عليها غير مأمون
سقت جفوني مغاني الربع بعدهُمُ ... فالدمع وقفٌ على أطلاله الجون

قد كان للقلب عن داعي الهوى شغل ... لو أن قلبي إلى السلوان يدعوني
أحبابنا هل لعهد الوصل مُدَّكَرٌ ... منكم وهل نسمة عنكم تحييني
مالي وللطيف لا يعتاد زائره ... وللنسيم عليلاً لا يداويني
يا أهل نجدٍ وما نجدٌ وساكنها ... حُسْناً سوى جنة الفردوس والعين
أعندكم أنني ما مر ذكركم ... إلا انثنيت كأن الراح تثنيني
يا نازحاً والمنى تدنيه من خلدي ... حتى لأحسبه قرباً يناجيني

رحلات جغرافية

وكان من الرحالة المسلمين من أنشأ رحلته على أساس جغرافي لمعرفة البلدان والأقاليم وجغرافيتها، ومن أبرز الرحالة الجغرافيين:

١ـ **ابن حوقل**: وهو من جغرافيي القرن الرابع الهجري، وقد شغف بعلم الجغرافيا وصمم على أن يضع فيه كتاباً لا يأخذه من أفواه الناس ولا مما قرأ وإنما يأخذه عن عينيه ومشاهداته في العالم، فطاف بهذا العالم ثلاثين سنة ثم وضع كتابه المسمىٰ «المسالك والممالك».

٢ـ **أبوعبدالله محمد بن أحمد المقدسي**: وهو في رأي بعض المستشرقين أعظم الجغرافيين العرب وقد عاش في القرن الرابع الهجري. وكتابه اسمه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ولكي تعرف ما بذله من جهد، فانظر إليه يحكي طريقته في تأليف كتابه فيقول:

«ثم إنه لم يبق شيءٌ ممَّا يلحق المسافرين إلاَّ وقد أخذتُ منه نصيباً غير الكدية وركوب الكبيرة، فقد تفقَّهتُ وتأدَّبتُ، وتزهَّدت وتعبَّدتُ، وفقَّهتُ وأدَّبتُ، وخطبتُ على المنابر، وأذنت على المنائر. وأممتُ في المساجد، وذكَّرتُ في الجوامع، واختلفتُ إلى المدارس. ودعوتُ في المحافل، وتكلَّمتُ في المجالس. وأكلتُ مع الصوفيَّة الهرائس. ومع الخانقائيِّين الثرائد، ومع النواتيّ العصائد. وطُردتُ في الليالي من المساجد، وسِحْتُ في البراري، وتِهْتُ في الصحاري. وصدقتُ في الورع زماناً، وأكلتُ الحرام عياناً. وصحبت عبَّاد جبل لبنان، وخالطتُ حيناً السلطان. وملكتُ العبيدُ، وحملتُ على رأسي

بالزنبيل. وأشرفتُ مراراً على الغرق، وقُطع على قوافلنا الطرق. وخدمتُ القضاة والكبراء، وخاطبتُ السلاطين والوزراء. وصاحبتُ في الطرق الفسَّاق، وبعت البضائع في الأسواق، وسُجنتُ في الحبوس، وأخذتُ على أني جاسوس، وعاينتُ حرب الروم في الشواني، وضرب النواقيس في الليالي، وجلَّدتُ المصاحف بالكراء، واشتريت الماء بالغلاء، وركبتُ الكنائس والخيول، ومشيتُ في السمائم والثلوج، ونزلتُ في عرصة الملوك بين الأجلَّة، وسكنتُ بين الجهَّال في محلَّة الحاكة، وكم نلتُ العزَّ والرفعة، ودُبّر في قتلي غير مرَّة، وحججتُ وجاورتُ، وغزوتُ ورابطتُ، وشربتُ بمكة من السقاية والسويق، وأكلتُ الخبز والجُلَّبان بالسِيق، ومن ضيافة إبراهيم الخليل، وجُمَّيْز عسقلان السبيل، وكُسيتُ خلع الملوك وأمروا لي بالصلات. وعريتُ وافتقرتُ مرات، وكاتبني السادات، ووبَّخني الأشراف. وعُرضت عليَّ الأوقاف، وخضعتُ للأخلاف، ورُميتُ بالبدع، واتُّهمتُ بالطمع، وأقامني الأمراءُ والقضاة أميناً، ودخلتُ في الوصايا وجُعلتُ وكيلاً، وامتحنتُ الطرَّارين، ورأيت دُوَل العيَّارين. واتبعني الأرذلون، وعاندني الحاسدون، وسُعي بي إلى السلاطين، ودخلتُ حمَّامات طبريَّة، والقلاع الفارسيَّة، ورأيت يوم الفوَّاره، وعيد بَرْبَاره، وبئر بُضَاعَه، وقصر يعقوب وضياعه، ومثل هذا كثير ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا أنَّا لم نصنّفه جزافاً، ولا رتَّبناه مجازاً، ويميزه من غيره. فكم بين مَنْ قاسى هذه الأسباب، وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على السماع. ولقد ذهب لي في هذه

الأسفار فوق عشرة آلاف درهم سوى ما دخل عليَّ من التقصير في أمور الشريعة، ولم يبق رخصة مذهب إلاَّ وقد استعملتُها. قد مسحتُ على القدمين، وصلَّيتُ بمُدْهَامَّتانِ، ونفرتُ قبل الزوال، وصلَّيتُ الفريضة على الدواب، ومع نجاسة فاحشة على الثياب، وترك التسبيح في الركوع والسجود، وسجود السهو قبل التسليم. وجمعتُ بين الصلوات، وقصرتُ لا في سفر الطاعات. غير أنّي لم أخرج عن قول الفقهاء الأئمة، ولم أؤخّر صلاة عن وقتها البتَّة، وما سرت في جادَّة وبيني وبين مدينة عشرة فراسخ فما دونها إلاَّ فارقتُ القافلة وانفتلتُ إليها لأنظرها قديماً، وربَّما اكتريتُ رجالاً يصحبوني، وجعلتُ مسيري في الليل لأرجع إلى رفقائي مع إضاعة المال والهمّ».

٣ـ **أبوعبدالله محمد الإدريسي**: أكبر جغرافيي بلاد المغرب والأندلس. ولد في سَبْتة عام ٤٩٣هـ، ثم رحل في البلاد، في الأندلس والمغرب ومصر، والشام، وآسيا الصغرى، وانتهى به المطاف إلى صقلية. وكان له قدرة فائقة على رسم الخرائط ومعرفة باهرة بالجغرافيا. وألَّف كتاباً اسمه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وله كتاب آخر اسمه «روض الأنس ونزهة النفس» توفى عام ٥٦٢هـ.

٤ـ **زكريا بن محمد القزويني** في القرن السابع الهجري وله كتابان أحدهما اسمه «آثار البلاد» والثاني «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»

٥ـ **ياقوت الحموي**: المتوفى عام ٦٢٦هـ وهو مؤرخ وجغرافي وأديب بارع وله في الجغرافيا كتاب «معجم البلدان». وقد دامت رحلاته لمدة ستة عشر عاماً. وقالت دائرة المعارف الإسلامية عن كتابه: «يعد أكمل

مصنف للمعلومات الجغرافية الوصفية، والفلكية واللغوية. . . . وقد ظل هذا الكتاب هو المرجع الذي يعتمد عليه المستشرقون المحدثون، وكان ياقوت على علم جم بجميع المعارف الجغرافية الإسلامية في عهده».

وقد سافر من بغداد إلى عمان مرات عديدة وترحل إلى الشام ومصر ودمشق وحلب وإربل ثم إلى بلاد فارس فزار خوارزم، ونيسابور ومرو، ثم طاف مدناً كثيرة وعاد إلى الموصل ثم إلى حلب وتوفي بها.

٦ـ **المسعودي**: علي بن الحسين بن علي المسعودي، صاحب كتاب «مروج الذهب» وقد عاش في القرن الرابع الهجري. وقد جاب المحيط الهندي وشواطئه في إفريقية وجزائره الكثيرة، وزار الهند وبلاد الصين وبحر قزوين وآسيا الصغرى والشام ومصر وبلاد العرب.

هذا موجز عن بعض الرحّالة الجغرافيين الذين كان لهم دور بارز وفضل كبير على العالم بأسره.

من أخبار المسافرين (٣٢)

القاضي المالكي

القاضي عبدالوهاب المالكي ـ فقيهٌ، أديبٌ، شاعر مجيد ـ كان يسكن بغداد فتنكرت له ولم تعرف قيمته كعادة البلاد بذوي فضلها، فخلع أهلها، وودَّع ماءها وظلها، واستعد للرحيل منها فخرج معه مجموعة من كبرائها وفضلائها ليودعوه ويشيعوه فقال لهم: لو وجدتُ بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية، ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنيَّة، ثم أنشأ يقول:

سلامٌ على بغداد في كلِّ موطنٍ ... وحُقَّ لها مني سلامٌ مضاعَفُ
فوالله ما فارقتها عن قلىً لها ... وإني بشطّي جانبيها لعارفُ
ولكنّها ضاقت علي بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تضاعِفُ
وكانت كخلٍّ كنتُ أهوى دُنُوَّهُ ... وأخلاقُه تنأى به وتخالفُ

ثم مضى في رحلته واجتاز في طريقه بمعرَّة النعمان، وكان قاصداً مصر، وكان بالمعرة يومئذ أبوالعلاء المعرِّي، الشاعر المشهور فأضافه، وأنشد فيه جملة أبيات منها:

والمالكيُّ ابنُ نصرٍ زار في سفرٍ ... بلادنا فحمدنا النأي والسَّفرا
إذا تفقَّه أحيا مالكاً جَدَلاً ... وينشد الملك الضلِّيل إن شَعَرَا

ـ يقصد امرىء القيس ـ وهكذا استمر هذا المسافر في رحلته المضنية، فتوجه إلى مصر فعلا شأنه هنالك وحمل لواءها، وملأ أرضها وسماءها،

واتَّصل بسادتها وكبرائها، فانهالت عليه الأموال، وحسن به الحال، ولكن هذه الدنيا الدنية لا يدوم صفاؤها ولا يكمل بهاؤها. ففجأة مات لأول ما وصل إلى مصر، وذلك من أَكْلةٍ اشتهاها فأكلها، فكانت نهايته فيها، ويقال إنه قال وهو يتقلب ونَفَسُهُ يتصعَّد:

لا إله إلاَّ الله، إذا عشنا متنا!!!

استراحة المسافر (٩)

* مات أبو جحا فقيل له: اذهب واشتر الكفن. فقال: أخاف أن أذهب أشتري الكفن فتفوتني الصلاة عليه.
* انفجر حمام لرجل فقال لغلامه: بادر وأحضر من يصلحه حتى نتغدى به قبل أن يتعشى بنا.
* نظر أحدهم يوماً في المرآة فقال: اللهم بيِّض وجوهنا يوم تَبْيَضُّ وجوه وسوِّدها يوم تسْوَدّ وجوه.
* يقال: قرأ الفرزدق قصيدة له على الكُمَيْت بن زيد حين كان الأخير صبيّاً، فرآه الفرزدق قد أُعجب بها. فسأله الفرزدق: هل أعجبتكَ يابنيّ؟

الكُمَيْت: نعم يا عمّاه.

الفرزدق: هل يسرّك أن أكون أباك؟

الكُمَيْت: أمّا أبي فلا أريد به بدلاً، ولكن يسرّني أن تكون أمّي!

وكان الفرزدق يقول: ما مرّ به مثلها!

* كان لعِمْران بن حِطّان زوجٌ جميلة، وكان هو قصيراً دميماً. فقالت له ذات يوم: أعلم أنّي وإيّاك في الجنّة. قال: كيف؟ قالت: لأنك أُعطيتَ مثلي فشكرتَ، وأنا بُليتُ بمثلك فصبرتُ، والصابر والشاكر في الجنة.

مرثية التيس :

يقول أخوكم ناصر :

كنا في رحلة مع بعض الأصدقاء ومعنا ـ أكرمكم الله ـ تيس أردنا أن نستمتع به يومين أو ثلاثة، فللأسف قضينا عليه في وجبة واحدة. فلما رأيت عظامه المبدَّده وأشلاءه الممزَّقة، كانت هذه المرثية المرتجلة.

لله لِلْـواحـد المعبـود تقـديسـي ... وأعـوذ بـالله مـن كـلّ الأبـاليـس

يا رحلة اليوم فيك خير تنفيسِ ... لو لَمْ يكن فيك إلاَّ لحمة التيس

لو أن في ذا المرق بعض الدَغابيس ... لارتاحت النفس من كثرالهواجيس

رأيـت أمـراً مثيـراً لـلأحـاسيـس ... لم يرحموا حالك الإخوان يا سَيْسِي

كروا عليك كَإكرار المحابيس ... أظنهم قضموا حتى الكراديس

أشكو إلى الله قوماً كالجواميس ... رفيقهـم دائمـاً يُمْنـى بتفليـسِ

كـأنمـا وخـزونـي بـالـدبـابيـس ... فقمتُ أبكي لأن السِّعر من كيسي

الشعراء على باب عمر بن عبدالعزيز

لما استُخْلف عمر بن عبدالعزيز وفد الشعراء إليه بدمشق، فأقاموا ببابه أياماً لا يُؤذنُ لهم، فلما همُّوا بالرحيل، مر بهم رجاء بن حيوة، وكان من خطباء أهل الشام، فلما رآه جرير داخلاً على عمر أنشأ يقول:

يا أيُّها الرجلُ المُرْخي عِمَامَتَهُ هذا زمانُك فاستأذنْ لنا عُمَرا

قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئاً، ثم مر بهم عديُّ بن أرطأة، فقال له جرير:

يا أيُّها الراكبُ المُزْجِي مَطيّتَهُ هذا زمانُك إنِّي قد مضى زَمَني
أبلغْ خليفَتَنَا إنْ كنتَ لاقيَه أنِّي لدى الباب كالمَصْفُودِ في قَرَنِ
لا تَنْسَ حاجتنا لُقِّيت مَغْفِرةً قد طال مُكثِيَ عن أهلي وعن وَطَني

قال: فدخل عديّ على عمر، فقال: ياأمير المؤمنين! الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة، قال: ويحك ياعدي! مالي وللشعر، قال: أعزَّ الله أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ قد امتُدح فأعْطى، ولك في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة، فقال: كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس السُّلَمي فأعطاه حُلةً قطع بها لسانه، قال: أوتروي من قوله شيئاً؟ قال: نعم، وأنشد:

رأيتُكَ يا خيرَ البريّة كُلِّها نشرتَ كتاباً جاء بالحقِّ مَعْلَما
شَرعت لنا دينَ الهُدى بعد جَوْرِنا عن الحق لما أصبح الحقُّ مُظْلما
ونورتَ بالبُرهان أمراً مُدَنّساً وأطفأت بالبرهان ناراً تَضَرّما
فمن مبلغ عني النبيَّ محمداً وكلُّ امرئ يُجزى بما كان قدما

أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه وكان قديماً ركنه قد تهدَّما
تعالى عُلوًّا فوق عرشٍ إلهُنَا وكان مكان الله أعلى وأعظما

قال: ويحك يا عديّ! من بالباب منهم؟ قال: عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة، قال: أليس هو الذي يقول:

ثم نبهتُها فهبّت كعاباً طفلةً ما تبينُ رَجْعَ الكلامِ
ساعةً ثم إنها بعدُ قالت ويْلَتا قد عجلتَ يابن الكرامِ
أعلى غير موعدٍ جئتَ تَسْري تَتَخَطّى إليَّ رُوسَ النِّيامِ
ما تجشمتَ مايزين من الأمـ ـرِ ولا جئت طارقاً لِخِصَامِ

فلو كان عدُوُّ الله إذا فجر كتم نفسه، لا يدخلُ عليَّ والله أبداً، فمن بالباب سواه؟ قال: همَّام بن غالب، يعني الفرزدق، قال: أوَليس هو الذي يقول:

هُمَا دَلّتانِي من ثمانين قامةً كما انقضَّ بازٌ أقْتَم الريشِ كاسِرُهُ
فلما استوى رجلاي بالأرض قالتا أحَيٌّ يُرَجّى أم قتيلٌ نُحاذِرُه

لا يطأ والله بساطي، فمن سواه بالباب منهم؟ قال: الأخطل، قال: أعديّ! هو الذي يقول:

ولستُ بصائمٍ رمضان طَوْعاً ولَسْتُ بآكل لحم الأضاحي
ولستُ بزاجرٍ عَنْساً بكُور إلى بطحاء مكة للنجاح
ولستُ بقائم كالعيرِ يدعو قُبيلَ الصبح حَي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً وأسجدُ عند منبلج الصباح

والله لا يدخل عليَّ وهو كافر أبداً، فهل بالباب سوى من ذكرت؟ قال: نعم، الأحوص، قال: أليس هو الذي يقول:

الله بيني وبين سَيِّدِهَا يَفِرُّ مِنِّي بها وأتّبِعُه

غرِّبْ عنه، فما هو بدون من ذكرت، فمن هاهنا أيضاً؟ قلت: جميل ابن معمر. قال: يا عديّ هو الذي يقول:

ألا لَيتنا نَحْيا جميعاً وإن تَمُتْ يوافقْ لدى الموتى ضَرِيحي ضَرِيحُها
فما أنا في طولِ الحياة براغبٍ إذا قيل قد سُوِّي عليها صَفِيحُها

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحاً، والله لا يدخل عليَّ أبداً، هل سوى من ذكرت أحد؟ قال: جرير بن عطية، قال: أما إنه الذي يقول:

طَرَقَتْكَ صائدةُ القلوبِ وليْس ذا حينَ الزيارةِ فارجِعِي بسلامِ

فإن كان لابد فهو، قال: فأذن لجرير، فدخل وهو يقول:

إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة في الإمام العادلِ
وَسع الخلائق عدلُه ووفاؤه حتى ارعوى وأقام ميل المائلِ
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مولعةٌ بحبِّ العاجلِ

فلما مثل بين يديه قال: ويحك ياجرير، اتق الله ولا تقولَنَّ إلاَّ حقًّا، فأنشأ جرير يقول:

أأذكُر الجُهْدَ والبَلْوى التي نَزَلَتْ أم قد كفاني ما بُلِّغْتَ من خَبَرِي
كم باليمامة من شَعْثَاءَ أرملةٍ ومن يتيمٍ ضعيفِ الصَّوتِ والنظرِ
ممن يعدُّك تكفي فقدَ والدِهِ
كالفرخ في العُشِّ لم ينهَض ولم يَطِرِ
يدعوك دعوة ملهوفٍ كأن به خبْلاً من الجنِّ أو مسًّا من النّشر
خليفةَ الله ماذا تأمُرُونَ بنا لسنا إليكم ولا في دار منتظر

مـازلـتُ بعـدَك فـي هـمٍّ يُـؤَرِّقُنـي قدطال في الحيِّ إضْعَادي ومُنْحَدري
لا ينفع الحاضِرُ المجهودَ باديَنَا ولا يعـودُ لنـا بـادٍ علـى حَضَـرِ
إنا لنرجو إذا ما الغيثُ أخْلَفَنَا من الخليفة ما نرجو من المَطَرِ
نال الخلافة إذ كانت له قَدَراً كما أتى ربّه مُوسى على قَدَر
هذي الأرامل قد قَضَّيْت حاجَتَها فمن لحاجةِ هذا الأرمل الذَّكَرِ
الخيْـر مـادمـتَ حَيّـاً لا يفـارقُنَـا بُوركْتَ يا عمر الخيرَاتِ من عُمَرِ

فقال: ياجرير! ما أرى لك هاهنا حقًّا، فقال: بلى ياأمير المؤمنين، أنا ابن سبيل ومنقطع بي، فأعطاه من صلب ماله مائة درهم، وقد ذكر أنه قال له: ويحك ياجرير! لقد ولينا هذا الأمر وما نملكُ إلاَّ ثلاثمائة درهم، فمائة أخذها عبدالله ولدي، ومائة أخذتها أم عبدالله، ياغلام أعطه المائة الباقية، قال: فأخذها وقال: والله لهي أحب مما اكتسبته إليَّ، قال: ثم خرج فقال له الشعراء، ما وراءك؟ قال: ما يسوءكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء، وإني عنه لراض، وأنشأ يقول:

رأيت رُقَى الشيطان لا تستفزّه وقد كان شيطاني من الجِنِّ رَاقيا

* * *

من أخبار المسافرين (٣٣)

مسافرٌ يحبُّه الله تعالى

أخي المسافر، الحب في الله من أوثق عرا الإيمان، ومن السبعة الذين يظلّهم الله في ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله: رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه. والمتحابون في الله تعالى على منابر من نور يوم القيامة يغبطهم النبيون والشهداء.

وإليك خبر هذا المسافر الذي أزمع الرحيل من بلده إلى بلدٍ آخر بهذه النية الطيبة: زيارة أخ له في الله، ماذا كان من أمره:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: **«أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مَدْرجته ملكاً فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أُريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه»** [رواه مسلم]

معنى المدرجة: الطريق. وتربُّها عليه: أي تقوم بها.

أخي المسافر ويقول ﷺ: **«من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله ناداه منادٍ: بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً»** [رواه الترمذي]

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ

فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ
رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ
وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾
وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ
يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

[سورة النحل]

من أخبار المسافرين (٣٤)

ابن وهب يسافر للحج ماشياً

كان سعيد بن وهب شاعراً ماجناً كثير القول في الغزل والخمر، وكان يسكن بالبصرة، ثم توطن ببغداد وتاب وتعبَّد وندم على ما كان منه، ثم أزمع السفر إلى مكة المكرمة للحج ماشياً على قدميه فبلغ منه الجهد مبلغاً عظيماً وتعب من ذلك فأنشأ يقول:

قدَميَّ اعْتَورا رمْلَ الكثيبِ ... واطرُقا الآجنَ من ماء القَليبِ
ربّ يوم رُحْتما فيه على ... زَهرة الدنيا وفي وادٍ خَصيبِ
وسماعٍ حَسنٍ مِنْ حسَنٍ ... صخَب المزهَرِ كالظَبْي الرَّبيبِ
فاحسُباً ذاكَ بهذا واصْبرا ... وخُذا من كلّ فنٍ بنصيبِ
إنما أمشي لأنّي مذْنبٌ ... فلعل الله يعفو عن ذنوبي

* * *

مُهاجر من هَجَر

أحد الشعراء بل العلماء الذين كثُرتْ أسفارهم، وتعددت رحلاتهم، حياته عجيبة، أخباره غريبة، شعره رائع، بيانه ماتع، إذا وعظ هز القلوب، وأمتع النفوس، وألهب الضمائر، وإذا تغنّى بالشعر أطرب النفوس، وأمتع العقول، وهَوْجلت الجمال، وتجلَّى الجَمال، وإذا تغزّل قلت هذا عاشقٌ متولِّه، ومُحِبٌّ متيم، لكنه غزله شريف، وشعره عفيف، وقلبه نظيف.

ذلك هو الشيخ عبدالعزيز بن حمد بن عبداللطيف آل مبارك من بني تميم، ولد بمدينة الهفوف «الأحساء» عام ١٢٧٩هـ، وهي المعروفة في التاريخ بـ«هَجَرَ».

حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ثم توجه إلى مكة وأقام بها عدة سنوات تلقى خلالها حظًّا طيباً من العلم، ثم عاد إلى بلده وعكف على طلب العلم، ثم عاد إلى مكة عام ١٣٠٨هـ للحج ومرّ على عددٍ من البلدان مثل حائل والقصيم، وأقام بها أياماً في ضيافة أهلها، ثم كثرت بعد ذلك رحلاته إلى دول الخليج، وقد اشتهر وذاع صيته، فكان أمراء البلدان يوجِّهون إليه الدعوات ليقوم بالتعليم والنصح والإرشاد والخطابة، فسافر إلى العراق، وترك بها أثراً طيباً وحيّاه شعراؤها وأشادوا به فقال قائلهم:

حَبْرٌ متى صعد المنابر أطرقتْ ... عظماء أهل الأرض من إعظامه
تأبى العقول بأن زاخر علمه ... من كسبه وتقول من إلهامِه

شهـد العفـاةُ وليلُـهُ ونهـارُهُ بِصِـلاتـه وصَـلاَتِـه وصيـامـه

ثم تابع رحلاته من العراق إلى الكويت، وقد بقي يتردد على العراق وفاءً بعهده لهم، وحرصاً على تلبية رغبتهم، ثم تزوج هناك وأقام مدة من الزمن، فلما أن توفّى الشيخ فالح السعدون، أحد رؤساء القبائل المشهورة هناك وممن كان هذا المسافر في ضيافته، وبعد أن أحس الشيخ عبدالعزيز بتغير الأحوال في العراق وانتشار المنكرات وفساد الأخلاق ترك العراق على مضض وفي قلبه حسرة وبين جوانحه أسى، فكتب قصيدة في سفره أرسلها إلى الشيخ غالب آل سعدون في البصرة عام ١٣٢٩هـ، يقول فيها:

أجَلْ إنَّها الأيام تُرْضي وتُغْضِبُ وآونَـةً تُقْصـي وحينـاً تُقـرِّبُ
ويوماً لها ثغر من الأنس باسمٌ ويوماً لها بالبؤس وجه مُقطِّب
وآونـةً بالوصـل تزهـو رياضُـها وأُخرى بشحط البين تلوي وتجدبُ
وما المرء إلاَّ من يُوَطِّنُ نفسه على حالتيها حين تُعْطِي وتَسْلُبُ
فلا يزدَهِيه طيبُ عيشٍ لعلمِهِ بأن الصَّفا فيها وإن راق يَذْهَبُ
ولا يُعْظِمُ الخَطْبَ المُلِمَّ لهوله وُثُوقاً بلطفِ الله واللُّطفُ أقربُ
فيا غالبَ الأمجادِ في كلِّ مشهدٍ إذا حشـدوا للمكـرمـات وألَّبـوا
ويا مالكاً رقِّي بحُسْنِ إخائِهِ فمالي براحٌ عن هواهُ ومذْهَبُ
أتاني كتابٌ منك بالفضل شاهد كما أنهُ عن حُرْقَةِ البين مُعْرِبُ
لقد زاد قدري أن مثلك لي أخٌ يَحِـنُّ إلـى قُـرْبـي إليـهِ ويَـرْغَـبُ
لئن جرتِ الأقدارُ بالبُعْدِ عنكُمُ ومن بيننا حالَتْ قِفارٌ وسَبْسَبُ
وظلَّتْ بحيث الكتبُ منكم عزيزةً ولا مُخْبـرٌ عنكـم يفيـدُ ويعْـرِبُ
فعندي لك الشوقُ الشديدُ ولوعةٌ تُؤَوِّبُني ما لاحَ في الأفقِ كوكَبُ

وذكرك بالأنفاس يُقْرَنُ مثلَما ... خيالُكَ لا عنْ ناظِرِ القلْبِ يُحْجَبُ
فيا آلَ سعْدُونٍ بَقِيتُمْ لذي الدُّنَا ... جمالاً بِكُمْ أسْنَى المكارمِ تُنْسَبُ
غرامي بكم ذاك الغرامُ وحُبُّكُمْ ... يزيدُ على مرِّ الليالي ويعْذُبُ
فما شاقَنِي بعد الجزيرة منزلٌ ... ولا لَذَّ لِي من بعد دجلة مشربُ
بلى غُربةُ الإسلام يا صاح إنَّها ... تحثُّ على بعد المزار وتُطْنِبُ
وتدعو إلى هجر العراق وأهلِهِ ... وإن حلَّ فيه الأنجَبُ المتحبِّبُ
ألا ترَنِي أصبحْتُ حَيْرانَ واجماً ... أفَكِّر في أيِّ الطريقين أركبُ
عُلاكُمْ وما عَوَّدتُمُ من جميلِكمْ ... ووُدِّكُمُ تدعو إليه وتجذبُ
وما قد فَشَا من مُنْكَرٍ وضلالةٍ ... ومن فتنٍ عنكُمْ تَصُدُّ وتَحْجُبُ
ولا ملجأٌ كلاَّ ولا وَزَرٌ سوى ... رجاءِ كريمٍ عطْفُهُ مُتَرقَّبُ
عسى نظرةٌ من جُودِهِ والتفاتَةٌ ... تُدَنِّي إلى رضوانِهِ وتُقرِّبُ
عسى نفحةٌ تُحْيي القلوبَ بروْحِها ... ويُكْشَفُ عن وجهِ البصائر غَيْهَبُ
فَنَلْتزِمَ الشَّرْعَ الشَّرِيفَ بجَمْعِنا ... وعن سُنَنِ التَّنْزِيلِ لا نتَنكَّبُ
وذلك أسْمَى ما نَودُّ ونبتغي ... وليس على الله المطالبُ تَصْعُبُ
وأزكى صلاة الله ثمَّ سلامُهُ ... على من به طاب الحجازُ ويَثْرِبُ

وهكذا استمر هذا الشيخ الداعية الشاعر المجاهد في رحلاته، فذهب إلى الكويت وأقام بها مدةً يخطب ويدرس ويعلّم، وتخرج على يديه أناسٌ كثير، وسافر كذلك إلى دُبي وأقام بها مدة للتعليم والتدريس في بعض مدارسها، ويقال إنه سافر إلى الهند مرتين، وقد وفد على الملك عبدالعزيز آل سعود واستضافه ورحب به وقد كان مثالاً في سماحة الخلق، وكرم النفس، وبسطة العلم، وكان يصحب معه في رحلاته عدداً

غفيراً من الناس للتعليم وينفق عليهم من ماله، ويذكر علماء الأحساء أنه عندما أحسّ بدنو أجله قال: ما أسفتُ على شيء أسفي على علم بين جنبيَّ لم أستطع أن أُورِّثه غيري. توفي عام ١٣٥٩هـ بالأحساء، رحمه الله رحمة واسعة.

ولقد كان هذا الداعية المجاهد يتميز بشاعرية فذَّة ومعان جزلة، ونبرة صادقة في أشعاره، وقد أبدع في أغراض متعدِّدة مثل الرسائل، والمدائح، والغزل، والزهديات، والرثاء، وغير ذلك، وإنك لتعجب لرجلٍ تقوم حياته كلها على السفر والرحلات والنضال، داعياً ومرشداً، وخطيباً وموجهاً، ثم تجد عنده من الإحساس بالجمال، والإعجاب بالحسن، والشعور بهمسات الحب والدقة في الوصف، وحسن التشبيه، ما يأخذ بالألباب ويهزُّ النفوس.

وتعال معي الآن بعد هذا الموجز اليسير عن هذا الشخصية العجيبة وهذا الرجل المتوقد الممتلئ حيوية ونشاطاً في زمن يكثر فيه الجهل والفقر والخمول، فكان مثلاً للهمة العالية.

تعال معي إلى الجانب الآخر من جوانب هذه الشخصية العجيبة، تعال معي إلى الشعر الرائع، والخيال الخصب، والكلمة المجنَّحة، قال يعتذر إلى ابني عمه: الشيخ صالح، والشيخ أحمد ابني محمد بن عبداللطيف آل مبارك:

متى عنَّ لي من ذكر قوميَ سانحُ ... فلا تسألاَ ماذا تُلاقِي الجوانحُ
وإن هـبَّ غـربـيُّ النسيـم فبـرْدُهُ ... له القلب مني قبل أنْفِي مُصَافحُ
وإن ذَكَرُوا الأحْسَاءَ فالقلبُ خافقٌ ... كما خفقت بالرَّاحتَيْن المرَاوحُ

لـي الله مـن ذي لـوعـةٍ متجَلِّـدٍ ... له كلَّ حينٍ من مآقيْهِ فاضحُ
أخِـي فِكْـرةٍ تعتـادُهُ أيُّ خطـرةٍ ... لزَنْدِ الأسَى بالقلب منها قوادحُ
إذا هـاتـفُ الأشـواق نـادى بلبِّـه ... أجاب وعاصى في الهوى من يُنَاصِحُ
وجاذب قُمْرِيَّ الحمامِ لُحُونَهُ ... وأضحى له دونَ الرِّفَاقِ يُطَارِحُ
وأجدِرْ بمشتاقٍ ألُوفٍ تقاذَفَتْ ... به عن ديار الأكرمينَ المطاوِحُ
هُو البيْنُ فيه ذُو العزا مُتَهَتِّكٌ ... ومُنْتَحِـلُ الكِتْمَـانِ بـالسِّرِّ بـائِـحُ
خليليَّ ما صَبْري الغدَاةَ بِمُسْعِفِي ... على أنَّني نحـو التصبُّر جـانِـحُ
فهلْ أحمَدُ ابْنُ العمِّ عَمِّي مُحَمَّدٍ ... مُحَارِبُ بعدي للعَزَا أمْ مُصَالِحُ
وهل عندَهُ شوقٌ كشوقي وهل به ... غـرامٌ مُجِـدٌّ أم غـرامٌ مُمَـازِحُ
وهل راعهُ البينُ المُشِتُّ فَدَمْعُهُ ... من الجفنِ مُنْهَلٌّ على الخدِّ سافحُ
وهل هو مثلي كُلَّمَا هاجَهُ الأسى ... يُسَاجِلُ وُرْقاً بالحمى ويُنَاوِحُ
أم البعـدُ أنسـاهُ الـرِّفـاق وراقَـهُ ... مَغَـانٍ وجنَّـاتٌ زَهَـتْ وبطـائـحُ
وهل صالحٌ لا أبعد الله صالحاً ... على العهد باقٍ أم تَنَاسَاهُ صالحُ
أمولىٰ الموالي بحر جودك موردي ... إذانضبت دوني النطاف الضحاضحُ
ويارب طال البعد بيني وبين من ... أحبُّ وأعيت من سواك المناجحُ
فَصِلْنا بمن نهواه بالسعد والهنا ... فخطب النوى يا عالم السرِّ فادح
وَصـلِّ وسلِّـم منعمـاً متفضـلاً ... على من به طابت منىٰ والأباطح
وأصحابه سُمّ العدا أنجم الهدى ... كذا الآل ما غنى على الأيك صادح

وقال في أبيات له يودِّع بها محبيه في دُبي بعد أن رحل عنهم يريد مكة والمدينة:

حضر الأصحاب من كلِّ فتىً ... كـامـل الأخـلاق للمجـد كسـبْ

ودَّعـــونـــا والمـــآقـــي ذُرفٌ فـركبنـا صحـوةً مـع مـن ركِـبْ
قال لي الأصحاب لما ودَّعوا أبهـذا الحـال تـرضـى يـا مُحب
قلـــت فـــالعـــذر فلـــولا أننـــي قاصدٌ «طيبة» نفسي لم تطب

وإليك هذه القصيدة الرائعة لهذا الشاعر المبدع، وقد بدأها بمقدمة غزلية من الغزل العفيف، وقد اخترت منها بعض أبياتها لأنها قصيدة طويلة:

ذكـــرَ الـــرَّبْـــعَ وأهْليـــهِ فـــأنَّـــا وشجـاهُ البـارقُ السَّـاري فحَنَّـا
وغـريـبُ الـدَّارِ يخْلُـو بـالأسَـى والعبـابـات إذا مـا الليـلُ جنَّـا
يا أخي يا عابدَ الرحمن يا مُنْجدي يا مُسْعِدِي حساً ومعْنَى
يا سميري في الهوى إذا لافتى منك أولى بالوفا فيمن علمْنَا
قمْ فطارحْنِي أحاديثَ الهوَى وارْو لـي أخبـارَ عَفْـرَاءَ ولُبْنَـى
أسفـــاهُ لشبـــابٍ ينقضـــي عاطلاً من وصل ريَّا القدِّ حَسْنَا
طال ليلي في «أبي ظبْي» ولا ظبْيَ لي فيه يُضاهي البدْرَ حُسْنَا
أقصـــر الليـــلَ بـــه مُقْتطفـــاً ثمـرَ اللَّـذَّات مـن هنَّـا وهنَّـا
مـن أقـاحٍ حـولـه الـوردُ إلـى نـرجسٍ مـن فـوق تُفَّـاحٍ أبَنَّـا
فهـــو إنســـانٌ وبُسْتَـــانٌ وإن شئتَ كان البدرَ والظَّبْيَ الأغَنَّا
إن رنَـا جـرَّدَ سيْفـاً فـاتكـاً أو تثَنَّـى هـزّ مـن عطفيـه لَـدْنَـا
ويـريـني اللُّـؤلُـوَ الـرَّطْـبَ كمـا شئْتُ منظوماً متى يُضْحِكْ سِنَّا
ويُـريـني مـا نَضَـا البُـرْقُـع عـنْ وجههِ كيْفَ تبدَّى الشَّمسُ وَهْنَا
وإذا أرْسَـــلَ جَثْـــلاً وارِداً فـوْقَ مَتْنَيْـه أرانـي اللَّيـلَ مثْنَـى
فـــإذا مـــا سعـــدُنَـــا ألَّفَنَـــا واطَّرَحْنَا العُتْبَ والإعْتَابَ عَنَّا

وتجـاذَبْنَـا حـوَاشِـي سَمـرٍ ... هل رأيْتَ الرَّوْضَ والعُودَ المُرِنَّا
أخـذَ الـدَّلَّـة مـن كـانُـونِهَـا ... بشمـالٍ وأدَارَ الكـاسَ يُمْنَـى
وانْبَـرَى يسكُـبُ مـن يـاقُـوتَـةٍ ... في لُجَيْنِ الكاسِ ما نُسْمِيهِ بُنَّا
كلَّمـا أنْعَـمَ بـالْكـاسِ مَـلاَ ... مِثْلَهَا من طَرْفِهِ السّاجِي فَثَنَّى
وسعـدْنـا وشَقِـي حـاسِـدُنَـا ... بـالْتِئَـامٍ واعتنـاقٍ كيـف شئْنَـا
فإذا ما الشُّهْبُ للغَرْبِ انْتَحَتْ ... مِثْلَ أسْرَاب القَطَا يطْلُبْنَ وكْنَا
وتغشـاهُ الكـرى وسَّـدْتُـهُ ... سـاعِـدِي ثـم تعـانقنـا وبتنـا
آمنيـن العـارَ والإثـمَ فـلا ... عبرتْ بي فرحةٌ تُعْقبُ حُزْنَا
يـا لهـا أمنيـةٌ لـم تعـدُهَـا ... مُنْيَتـي إلاَّ إلـى أسْنَـى وأسْنَـى
نفْحَـةٌ قـدسيـةٌ تُسْعِـدُنـي ... بـرضـا الله الـذي أغْنَـى وأقْنَـى
وتـرقِّـي رُتْبـةٍ فـي العلـم مـن ... دونها المرِّيخُ بالأعمالِ تُسْنَى
وسُمُـوٍّ فـي العُـلا تصْحَبُـهُ ... قُـدْرَةٌ بـالمـالِ والحـال لأهْنَـا
ولقـا الأصحـابِ مـن كـلِّ فتـىً ... حسنِ الأخلاقِ بالفضل مُعَنَّى

ونكتفي بهذا القدر من أخبار هذ المسافر العملاق رحمه الله وغفر له وأسكنه فسيح جناته.

«للمزيد راجع كتاب شعراء هَجَر لعبدالفتاح الحلو»

من أخبار المسافرين (٣٥)

مسافر يهرب من الحجّاج

كان ابن نمير الثقفي أحد الشعراء المشهورين، يشبّب بزينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج، وكان الحجاج يتهدّده، ويقول: لولا أن يقول قائل، لقطعت لسانه. فهرب إلى اليمن، ثم ركب بحر عدن، وقال في هربه:

أتتني عن الحجاج والبحر بيننا ... عقارب تسري والعيون هواجعُ
فضقت بها ذرعاً وأجهشت خيفة ... ولم آمن الحجّاج والأمر قاطع
وحلّ بي الخطبُ الذي جاءني به ... سميع فليست تستقرّ الأضالع
فبتّ أديـر الأمـر والـرأي ليلتـي ... وقدأخضلت خدّي الدموع الهوامع
فلم أر لي خيراً من الصبر إنه ... أعفّ وأحرى إذ عرتني الفواجع
وما أمنَتْ نفسي الذي خفت شرّه ... ولا طاب لي ما حبّبته المضاجع
إلى أن بدا لي رأس إسبيل طالعاً ... وإسبيل حصن لم تنله الأصابع
فلي عن ثقيف إن هممت بنجوةٍ ... مهـامـه تعفـى بينهـنّ الهجـارع
وفي الأرض ذات العرض عنك ابن يوسف ... إذا شئـت منـأى لا أبـالك واسـع
فإن نلتني حجاج فاشتف جاهداً ... فإن الذي لا يحفظ الله ضائع

قال: فطلبه الحجاج، فلم يقدر عليه، ثم طال على النميري مقامه هارباً، واشتاق إلى وطنه فجاء حتى وقف على رأس الحجاج.

فقال له الحجاج: يا نميري، أنت القائل:

فإن نلتني حجّاج فاشتفِ جاهداً

فقال: بل أنا أقول:

أخاف من الحجاج ما لست خائفاً ... من الأسد العرباض لم يثنه ذعر
أخاف يديه أن تنال مفاصلي ... بأبيض عضبٍ ليس من دونه ستر

وأنا الذي أقول:

فهأنا قد طوّفت شرقاً ومغرباً ... وأبتُ وقد دوّخت كلّ مكان
فلو كانت العنقاء عنك تطير بي ... لخلتك ـ إلاّ أن تصدّ ـ تراني

قال: فتبسم الحجاج، وأمَّنه، وقال: لا تعاود إلى ما تعلم، وخلّى سبيله.

أدباء العالم والسفر

وقفنا على قصائد السفر وأحوال المسافرين عند الأدباء العرب فلعلّه من المناسب أن نشير إشارة سريعة إلى النظرة العالمية للسفر عند بعض الأدباء العالميين.

إن السفر هو السفر في منظور الناس جميعاً من حيث المشقة والمعاناة ومن حيث إنه أمرٌ محبوب وحلمٌ مرغوب عند الإنسان للمعرفة والاكتساب، وطلب الرزق، والنزهة وغير ذلك.

ولكن لكلٍّ نظرة معينة للسفر ومراميه، وإليك بعض ما قاله أدباء عالميون عن السفر.

في الغرب الشاعر الفرنسي «بودلير» يحلم بالسفر، على رصيف مقهى، أو شاطئ ميناء، يسأل المسافرين في لهفة، ويدون سؤاله لهم عما رأوا في هذه المقطوعة الشعرية الجميلة قبل أن ينفذ حلمه بالسفر إلى الشرق:

«أيها المسافرون المثيرو الدهشة.. أية حكايات نبيلة نقرأ في عيونكم العميقة كالبحار.. أرونا علب ذكرياتكم الثرية.. حلي الأعاجيب المصنوعة من النجوم والأثير.. نريد أن نسافر بلا بخار ولا شراع.. فدعوا ذكرياتكم في أطرها.. تنسم من الآفاق.. على أفكارنا الممدودة كالأستار.. لتغمر بالبهجة مضيق سجوننا.. وقولوا: ماذا رأيتم»؟

طاغور شاعر دائب السفر:

أما السفر عند شاعر الهند «طاغور» الذي كان دائب السفر بعد شهرته

العالمية، فيعني أموراً أخرى، لقد كان طاغور رحالة دائم السفر، يتحدى التعب، في رحلته السادسة وحدها زار الشرق الأقصى، وأمريكا الجنوبية، وأوربا ماراً بماليزيا، والصين، واليابان، وبيرو، والأرجنتين، وإيطاليا، في رحلته السابعة، وإثر مرض سابق من إجهاد السفر، زار إيطاليا، وسويسرا، والنمسا، وفرنسا، وإنجلترا، والنرويج، والسويد، والدانيمرك، وألمانيا، وتشيكوسلوفاكيا، وهنغاريا، ويوغوسلافيا، وبلغاريا واليونان، ومصر. . كل ذلك في رحلة واحدة، يلقى فيها الناس مبتسماً، ويلتقي فيها بالناس، ليلقي عليهم شعره، وعن أسفاره هذه كتب يقول، مبرراً إياها.

«أيام أسفاري طويلة، وطريقي بعيد.

خرجت في موكب الشعاع الأول، وجبت العوالم الخالية.

وتركت أشياء مني على ألوف النجوم والكواكب.

ولكن أبعد الطرق أقربها إليك.

على المسافر أن يطرق كل باب. قبل الوقوف على باب نفسه.

وعليه أن يهيم في مسرح العوالم الخارجية قبل أن يهتدي إلى قدس أقداسه.

عيناي كم جابتا في فضاء، قبل أن أغمضهما، وأقول: أنت هنا».

أسفار عديدة من أجل السلام. . والموت!

كان طاغور يسافر لأنه يبشر بفكرة السلام بين الإنسان وأخيه الإنسان، يسافر من أجل هذه الفكرة، رحلته الثامنة، فالتاسعة، فالعاشرة، حتى بعد أن بلغ السبعين من عمره، وعندما استقر به المقام شيخاً فانياً، كان السفر

مايزال يراود نفسه، ليوثق علاقة خلقية ودية بين الشعوب، بل ويراود نفسه للرحيل عن الدنيا:

«إن نفسي تلبس اليوم رداء المسافر وتهيم، يلح عليها ظمأ ثائر.

فهي متلهفة إلى الاندفاع في الطريق.

إنه المسافر الأبدي، في بطاح الأرض، يدرس أوضاع الشعوب، باحثاً عن نقاط تلاقيها، لا يهدأ، ولا يطمئن.

إنه غريب يحن إلى موطن غير هذا الوطن، يشعر فيه بأمن يستمر.

أغوص في أعماق الأشكال، لعلي أصيب اللؤلؤة الفريدة، العارية من كل شيء.

تركت السفر من مرفأ إلى مرفأ، على زورق تصنعه الأنواء.

لقد مضى زمن كنت ألهو به في مصارعة الموج.

إني أصبو الآن إلى الموت، في جوار من لا يموت.

في ردهة الاستقبال، على شفير هاوية، ليس لعمقها غور، ولا لموسيقاها لحن، سأتناول معزف حياتي:

أيا أيها اللحن الأبدي، سأوقعك على معزفي»

ويرى طاغور أيام الحياة الباقية له على الأرض، أيام سفر، ككل أيام الحياة، فيهتف لمن هو نور خالد:

«إني كباقة ضائعة، في سماء الخريف، فمتى يا شمس السناء الخالد، يذيب لمسك ضبابي، إني لأحسب شهور سفري، أعواماً تفصلني عنك».

السفرة الطويلة.. والأخيرة!

وقبيل اللحظة الأخيرة بدأ طاغور سفرته الطويلة والأبدية. فهمس:

«أزفت ساعة الرحيل . .
إني أسافر فارغ اليدين .
طافح القلب بالأمل .
الطير يحلق في الفضاء .
لا ليذهب في تحليقه إلى الخلاء .
بل ليرجع ثانية إلى أرضه العظمى»

ذلك كان معنى السفر وغايته عند «طاغور» في البدء، وفي النهاية، لكنه عند الشاعر اليوناني «كافافيس» كان ذا معنى آخر

السفر هدف لذات السفر :

في الأساطير اليونانية، كان البطل الإغريقي الأسطوري «أوليس» يتوق للعودة إلى «إيثاكا» مدينته ومسقط رأسه، ووطن زوجته «بنيلوبي» وولده، لكنه كتب عليه أن يظل سنين عديدة يضرب في تيه البحر الأبيض بسفينته .

«إذا ما شددت الرحال إلى «إيثاكا» فلتتمن أن يكون الطريق طويلاً، حافلاً بالمغامرات مليئاً بالمعارف . لا تخف الغيلان والمردة، وإله البحر الغاضب ـ كما يزعم ـ فإنك لن تلقاها في طريقك . مادام فكرك سامياً، والعاطفة خالصة، تقود روحك ومقصدك فلن تقابلن الغيلان والمردة، وإله البحر الغاضب، ما لم تكن قد جلبتها معك في أعماقك، وما لم تكن روحك قد أقامت أمامك .

تمن أن يكون الطريق طويلاً، وأصبحة الصيف كثيرة، تدخل فيها فرحاً مبتهجاً، إلى موانىء تراها لأول مرة .

توقف عند أسواق سورية، واحصل على البضائع الجيدة، أصداف ومرجان وكهرمان، وأبنوس وعطور متعددة، من كل نوع، وعلى الأخص من العطور، خذ قدر ما تستطيع.

واذهب إلى مدائن مصرية كثيرة لتتعلم، وتتعلم من الجهابذة.

لتكن «إيثاكا» في فكرك دائماً، والوصول إليها هو مقصدك، ولكن لا تتعجل في سيرك، الأفضل أن يدوم السفر سنين عديدة، وأن تصل إلى الجزيرة عجوزاً غنياً، بما كسبته في الطريق.

لا تتوقع أن تعطيك إيثاكا ثراءً، لقد منحتك إيثاكا الرحلة الجميلة، فما كنت تخرج إلى الطريق لولاها، وليس لديها أن تعطيك أكثر من ذلك.

ولو وجدت إيثاكا فقيرة، فهي لم تخدعك، ومادمت قد صرت على هذا القدر من الحكمة، ولك كل هذه الخبرة، فلابد أنك قد فهمت: ماذا تعني إيثاكا؟ وأي إيثاكا!!»

السفر رمز لكل تغير وتطور:

شاعر يوناني آخر، من اليونان يدعونا إلى أن نبسط الشراع، شراع السفر، السفر الرمز لكل تغير وتطور، في أنفسنا، وفي حياتنا، وفي أرضنا، هذه الدعوة يوجهها الشاعر «أورانيس» لقومه من أبناء اليونان، ولأسرته العالمية، من سائر أبناء الإنسان، تحت هذا العنوان: «متى سنبسط الشراع؟»:

«متى سنبسط الشراع،
لنرحل إلى أرض الشمال؟
متى سنمتطي أمواج البحر؟

آن الأوان، أن نكف عن رؤية الميناء الخامل، الذي لا تتغير صورته أبداً أمامنا.

فليَمحُ اندفاعنا الجديد، جمود حياتنا القديمة، كما تمحو الأمواج آثار الأقدام على الرمال.

ارفعوا الروح عَلَماً يرفرف بأعلى سارية، فليس صحيحاً أننا جئنا إلى عصرنا متأخرين،

لازال بإمكاننا أن نحيا حياة جديدة،

أن نبسط الشراع»!!.

«راجع مجلة العربي عدد ١٨٧ سليمان فياض»

من أخبار المسافرين (٣٦)

حليمة تسافر باليتيم

سافرتْ حليمة السعدية من بني سعد «ثقيف» قاصدة مكة المكرمة ومعها زوجها وابنٌ لها صغير ومجموعة من النساء.

سافرت حليمة ومن معها حينما أجدبت الأرض، وامتنع القطر، وعُظمتْ الفاقة، ، واشتدت الحاجة سافرن يتلمَّسْن الرُّضعاء، حيث كانت تلك عادة مشهورة، وسنةً متبعة عند أهل مكة والأغنياء منهم على وجه الخصوص، كانوا يبعثون أبناءهم إلى البادية لترتاح الأم المترفة من تعب الرضاعة والتربية ولأمرٍ أهم من ذلك وهو تعليمهم وتأديبهم، وتدريبهم على الفصاحة والشجاعة ومكارم الأخلاق، وغير ذلك من الأهداف. ويبذلون للمرضعات مكافآت طيبة، وأجرة مجزية.

ولْنترك الحديث الآن لهذه المسافرة التي كانت تتمنى أن تقع يدها على رضيع من أسرة غنية يكون والده موجوداً لتظفر بالأعطيات، وتفوز بالهبات ولكن يقع سهمها على طفلٍ يتيم فتحزن لذلك، فكان ذلك اليتيم مفتاح السعادة لحليمة السعدية، لقد أخذت يتيماً إلاَّ أن هذا اليتيم فيما بعد هزَّ الدنيا، وغيَّر وجه التاريخ، وأذعن له العظماء، وجثا أمامه الأغنياء، وتسابق إليه الوجهاء.

أنت اليتيم ولكنْ فيك ملحمةٌ يذوب في ساحها مليون جبارِ

تقول حليمة:

فخرجت على أتانٍ لي ـ أنثى الحمار ـ قَمْراء معنا شارفٌ لنا، والله

ما تَبِضُّ بقَطرة ـ ما ترشح ـ، وما ننام ليلَنا أجمعَ من صبيِّنا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثدييَّ ما يُغْنِيه، وما في شارفنا ما يغذّيه، ولكنّا كنّا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتاني، فلقد أدَمْتُ بالرِّكْب حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفاً وعَجَفاً حتى قدمْنا مكّة نلتمس الرُّضَعاء، فما مِنّا امرأةٌ إلاَّ وقد عُرِض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنّا إنّما كنّا نرجو المعروفَ من أبي الصبّي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمُّه وجَدّه! فكنّا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأةٌ كانت معي إلاَّ أخذت رضيعاً، غيري. فلمَّا أجْمعنا الانطلاقَ قلت لصاحبي: والله إنِّي لأكرهُ أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذْ رضيعاً، والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه! قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة!

قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حَمَلَني على أخْذه إلاَّ أنّي لم أجد غيره. فلمَّا أخذتُه رجعتُ به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن؛ فشرب حتى رَوِيَ، وشرب معه أخوه حتى رَوي ثم ناما، وما كنَّا ننام منه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل، فحلب منها ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا ريًّا وشبعَاً، فبتنا بخيرِ ليلة!

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تَعلَّمي والله يا حليمة، لقد أخذت نَسَمَة مباركة! فقلت: والله إني لأرجو ذلك.

ثم خرجنا وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي، فوالله لَقَطَتْ بالرَّكْب ما يقدِر عليها شيءٌ من حُمُرهم، حتى إنَّ صواحبي ليقلن لي:

يا ابنة أبي ذؤيب، ويْحكِ أربَعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟! فأقول لهن: بلى والله، إنها لهيَ! فيقلن: والله إن لها لشأنا!

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدبَ منها؛ فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعاً لُبَّنا، فنحلُب ونشرب، وما يحلُب إنسانٌ قطرةَ لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب. فتروحُ أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرةِ لبن، وتروح غنمي شباعاً لُبَّنا.

فلم نزلْ نتعرَّف من الله الزيادة والخير حتى مضت سَنَتَاهُ وفَصَلتهُ، وكان يشبُّ شباباً لا يَشِبُّه الغِلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جَفْراً ـ الغليظ الشديد ـ، فقدمنا به على أمِّه ونحن أحرصُ شيء على مُكثه فينا؛ لما كُنّا نرى من بركته، فكلَّمنا أمه وقلت لها: لو تركتِ بُنَيّ عندي حتى يَغلُظ، فإني أخاف عليه وباء مكّة. فلم نزلْ بها حتى ردّته معنا.

فرجعنا به، فوالله إنه بعد مقَدمنا به بأشْهُرٍ ومعه أخوه لَفي بَهْم ـ صغار الغنم ـ لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتدّ، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشيُّ قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيض، فأضجعاه فشقّا بطنه، فهما يَسُوطانِه ـ يفريان بعضه ببعض ـ!

فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدته قائماً مُنتَقِعَاً وجهه، فالتزمتُه والتزمَه أبوه.

فرجعنا به إلى خبائنا وقال لي أبوه: يا حليمة، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلامَ قد أُصيبَ، فألحقِيه بأهله قبل أن يظهرَ ذلك به. فاحتملناه، فقدِمنا به على أمِّه، فقالت: ما أقدَمَكِ به يا ظِئر ـ المرأة ترضع ولد غيرها ـ وقد كنت حريصة عليه وعلى مُكثِهِ عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بابني وقضيتُ الذي عليَّ، وتخوَّفت الأحداث عليه، فأدّيته إليكِ كما تحبِّين. قالت: ما هذا شأنُكِ فاصدُقيني خبرَك. فلم تدَعني حتى أخبرتُها. قالت: أفتخوّفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم. قالت: كلاَّ، والله ما للشَّيطان عليه من سبيل، وإن لبُنَيَّ لشأنا، أفلا أُخبركِ خبرَه؟ قلت: بلى؛ قالت: رأيتُ حين حملتُ به أنه خرج مني نورٌ أضاء قصور بُصرَى من أرض الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيتُ من حملٍ قطُّ كان أخفّ عليّ ولا أيسرَ منه، ووقعَ حين ولدتُه وإنه لواضعٌ يديه بالأرض، رافعٌ رأسه إلى السماء. دعيه عنك وانطلقي راشدة.

وقفة مع اليتيم:

بعض أصحاب الرسول ﷺ اشتاقوا إلى معرفة شيء من أخباره فسألوه قائلين: يارسول الله، أخبرنا عن نفسك. قال: نعم. أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشرَى أخي عيسى، ورأت أمّي حين حملت بي أنه خرجَ منها نورٌ أضاء لها قصورَ الشام، واسترضِعتُ في بني سعد بن بكر.

فبينا أنا مع أخ لي خلفَ بيوتنا نرعى بَهْماً لنا، إذ أتاني رجلانِ عليهما ثيابٌ بيض، بِطستٍ من ذهب مملوءة ثلجاً، ثم أخَذاني فَشَقَّا بطني، واستخرجا قلبي فشقّاه، فاستخرجا منه عَلَقَةً سوداء فطرحاها، ثم غَسَلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقيَاه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زِنْه

بعشرة من أمّته. فوزَنني بهم فوزنتُهم، ثم قال: زنه بمائةٍ من أمته. فوزنني بهم فوزنتهم. ثم قال: زنه بألفٍ من أمّته. فوزنني بهم فوزنتهم. فقال: دعه؛ فوالله لو وزنتَه بأُمَّتِه لوَزَنها ﷺ. [انظر لتخريجه: الصحيحة: ١٥٤٥].

قلت:

يكفيك عن كلّ مدحٍ مدحُ خالقه ... واقرأ بربِّك مبدا سورة القلمِ
شَهْمٌ تُشيدُ به الدّنيا برمَّتها ... على المنائر من عُرْبٍ ومن عَجَمِ
أحيا بك الله أرواحاً قد اندثرت ... في تُربة الوهم بين الكأس والصَّنمِ
نفضتَ عنها غبار الذُّلِّ فاتّقدتْ ... وأبدعتْ وَرَوَتْ ما قُلتَ لِلأمَمِ
محـابـرٌ وسِجـلَّاتٌ وأنـديـةٌ ... وأَحْرفٌ وقوافٍ كُنّ في صَمَمِ
فَمنْ أبوبكر قبل الوحي؟ مَنْ عمرٌ؟ ... وَمَنْ عليٌ؟ وَمَنْ عثمان ذوالرحمِ؟
مَنْ خالدٌ؟ مَنْ صلاحُ الدِّين قبلك؟ مَنْ ... مالكٌ؟ ومن النُّعمَان في القممِ؟
مَن البخاريْ؟ ومَنْ أهل الصحاح؟ ومَنْ ... سفيان؟والشافعيُّ الشّهم ذوالحكمِ
مَن ابن حنبل فينا وابن تَيْميَةٍ؟ ... بَلِ الملايين أهل الفضل والشَّمَمِ
مِنْ نهرك العذب يا خير الورىٰ اغترفوا ... أنت الإمام لأهل الفضل كُلِّهمِ
بَيتٌ من الطين بالقرآن تعمره ... تبّاً لِقصرٍ منيف بات في نَغَمِ
طعامك التمر والخبز الشعير وما ... عيناك تعدو إلى اللذات والنعمِ
تبيت والجوع يلقىٰ فيك بغيته ... إن بات غيرُك عبد الشحْمِ والتُّخَمِ
لمّا أتتكَ «قم الليل» استجبت لها ... العين تغفو وأما القلب لم ينمِ
تُمسي تناجي الذي أَوْلاكَ نعمته ... حتىٰ تَغَلْغَلَتِ الأورامُ في القَدَمِ
أَزيزُصدركَ في جوف الظلام سرىٰ ... ودمعُ عينيك مثل الهاطل العَمِمِ
الليـل تسهـره بـالـوحـي تعمـره ... وشيّبتـك بهـودٍ آيـة «استقـمِ»

تسير وَفْقَ مراد الله في ثقةٍ ... ترعاك عينُ إلهٍ حافظٍ حكمِ
فَوّضتَ أمرك لِلدّيان مُصطبراً ... بصدق نفسٍ وعزمٍ غير مُنثلمِ
وَلّىٰ أبوك عن الدنيا ولم تَرَهُ ... وأنت مُرتهنٌ لازلتَ في الرّحمِ
وماتتِ الأمُّ لَمّا أنْ أَنِسْتَ بها ... ولم تكن حين وَلّتْ بالغَ الحُلُمِ
ومات جَدُّك من بعد الولوع بِهِ ... فكنتَ مِنْ بعدهم في ذروة اليتمِ
فجاء عمُّكَ حصناً تَسْتكنُّ به ... فاختاره الموت والأعداءفي الأجمِ
تُرمىٰ وتُؤذىٰ بأصناف العذاب فما ... رُئيتَ في ثوب جَبّارٍ ومُنْتقمِ
حتى على كَتفَيكَ الطاهرين رَمَوا ... سَلا الجزور بِكفِّ المشرك القَزَمِ
أَمّا خديجةُ من أعطتكَ بَهْجتَها ... وألبستْكَ رداء العطفِ والكرمِ
وَلّتْ إلىٰ جَنَّةِ الباري ورحمته ... فَأَسْلمتْكَ لِجُرحٍ غير مُلتئمِ
والقلب أُفْعمَ من حبٍّ لعائشةٍ ... ما أعظم الخطب فالعرض الشريف رُمِي
وَشُجَّ وجهك ثم الجيش في أحدٍ ... يعود ما بين مقتولٍ ومنهزم
لما رُزقتَ بإبراهيم وامتلأتْ ... به حياتُك بات الأمرُ كالعدمِ
ورُغْمَ تلك الرّزايا والخطوب وما ... رأيتَ من لوعةٍ كُبرىٰ ومن ألمِ
ما كُنتَ تحمل إلاّ قلب مُحتسبٍ ... في عَزْمٍ مُتَّقِدٍ في وَجهِ مُبتَسِمِ
بنيتَ بالصّبر مجداً لا يماثله ... مجدٌ وغيرك عن نهج الرشاد عَمِ
يا أُمَّةً غفلت عن نهجه وَمضتْ ... تَهيمُ من غير لا هدْي ولا عَلَمِ
تعيش في ظلمات التِّيهِ دَمّرها ... ضَعْفُ الأخوَّةِ والإيمانِ والهممِ
يوماً مُشَرِّقةً يوماً مُغَرِّبةً ... تسعىٰ لنيل دواءٍ من ذوي سَقَمِ
لن تَهتدي أُمَّةٌ في غير منهجه ... مَهْمَا ارتضت من بديع الرأي والنُّظُمِ

[من قصيدة للمؤلف في الثناء على السراج المنير والبشير النذير ﷺ]

وسائل السفر القديمة

لقد تحدثنا عن وسائل السفر الحديثة بما يكفي ويشفي؛ فقد تعرضنا للحديث عن السفر في السيارة والطائرة والقطار والبحر، وهذه نعم عظيمة أنعم الله بها على الناس، فأصبحوا يتجولون في أنحاء الدنيا، ويسافرون من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، أو بالعكس، وكل ذلك في مراكب مريحة وعبر وسائل متطورة، وفي أوقات وجيزة، فلم يَعُد هنالك السفر الذي يستمر عدة أشهر ليصل الإنسان إلى مكان بعيد. ولم يعد هنالك قطع الفيافي المخيفة، واجتياز الصحاري الواسعة، والبيد الشاسعة، والتعرض لوهج الظهيرة، وحرارة الشمس، وزمهرير الشتاء، أو المغامرة في الطرق المخيفة الممتلئة بالسباع والوحوش الكاسرة، وقطاع الطرق، كل هذه المخاوف تلاشت، وكل هذه المتاعب توارت، فهل حمدنا الله تعالى على هذه النعم العظيمة.

يا أخي المسافر إذا كان الله تعالى قد امتنَّ على الناس بأنه سخر لهم الخيل والبغال والحمير ليركبوها وأخبرهم أنها نعمة تستحق الشكر، مع ما فيها من التعب والعناء فكيف بنا وقد هيأ لنا كل هذه الوسائل وأنعم علينا بأحسن البدائل؟!!! انظر إلى روعة ما قاله ربنا سبحانه وتعالى ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ

﴿رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ ثم تأمل السرَّ الرائع واللفتة العظيمة في قوله تعالى في آخر الآيات: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ وكأنها إشارة للناس في ذلك الزمن بأن هنالك وسائل أخرى سنجعلها للناس فيما بعد لا تعلمونها أنتم، تلك الوسائل هي ما وصل إليه العلم الحديث؛ من طائرات، وقطارات، وسيارات، وبواخر.... ولا ندري ماذا يستجد من أمور فيما يستقبل من الزمن، ولكن هذه الوسائل المريحة لها ضريبة كبيرة وذلك في حوادثها المرعبة، وضحاياها الكثيرة، وفي ضعف بنية الإنسان ونشاطه بسبب القعود والكسل وعدم الحركة والمشي.. إلى غير ذلك.

أخي المسافر.. لقد رأيت أنه من المناسب إن لم يكن من الواجب علينا ونحن نتحدث عن السفر والمسافرين ووسائل السفر أن نتعرض لوسائل السفر عند القدماء وكيف اهتموا بها، وأولوها أعظم العناية، فتفننوا في وصفها، وأبدعوا في نعتها، فوصفوها عضواً عضواً، وجزءاً جزءاً وسموها بأسماء ونعتوها بصفات تدهش العقل وتأخذ الألباب، حتى أصبحت تجد لبعض رواحلهم مئات الأسماء، فأي شيء تلك الرواحل، وما هي هاتيك الوسائل؟

أهم وسائل السفر عند القدماء هي الإبل ـ والناقة على وجه الخصوص ـ، فقد حظيت بنصيب كبير، وحظٍّ وفير في أدبهم وأشعارهم، وكذلك الخيل التي كانت أهميتها تبرز في الحروب أكثر منها في السفر وهنالك أيضاً البغال والحمير...

وإليك الآن وصفاً لبعض وسائل السفر القديمة.

ولصعوبة هذه القصائد وحاجة كثير من كلماتها إلى الشرح فقد وضعنا حواشي لشرحها.

١ـ امرؤ القيس يصف الفرس :

هذا مقطع من معلقة امرىء القيس يصف فيه فرسه فيقول:

وقد أغتَدي والطّيرُ في وُكُناتِها بمُنجَرِدٍ قَيدِ الأوابِدِ هَيْكَلِ[١]
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كجُلمودِ صَخرٍ حطّه السّيلُ من علِ[٢]
كُمَيتٍ يَزِلّ اللِّبْدُ عن حادِ مَتنِهِ كمَا زَلّتِ الصّفواءُ بالمُتَنَزِّلِ[٣]
على العَقْبِ جَيّاشٍ كأنّ اهتزامَهُ إذا جاشَ فيهِ حَميُهُ غَليُ مِرْجَلِ[٤]
مِسَحٍّ إذا ماالسّابحاتُ على الوَنَى أثَرْنَ غُباراً بالكَديدِ المُرَكَّلِ[٥]
يَزِلُّ الغُلامُ الخِفُّ عَن صَهَواتِهِ، ويُلوي بأثوابِ العَنيفِ المُثَقَّلِ[٦]
دَريرٍ كخُذْرُوفِ الوَليدِ أمَرَّهُ تَتابُعُ كَفّيهِ بخَيطٍ مُوَصَّلِ[٧]

---

(١) وكنات: واحدها وكنة: العش. المنجرد: القصير الشعر. الأوابد: الوحوش النافرة. الهيكل: الضخم من كل شيء.

(٢) مكر مفر: سريع الكر والفر. يشبه عدو الفرس في كره وفره وإقباله وإدباره بجلاميد الصخر تحطها السيول.

(٣) كميت: خالط حمرته سواد. يَزِلّ: يسقط. حاذ متنه: وسط ظهره. الصفواء: الصخرة الملساء. المتنزل: المطر ينزل من السماء

(٤) العقب: شدة الحضر، العدو. اهتزامه: تكسر صهيله في صدره. المرجل: القدر.

(٥) المُسِحُّ، من سَحَّ: صَبَّ. أراد أنه يصب العدو صباً. السابحات: الخيول التي تمد أيديها في عدوها. الوني: التعب. الكديد: الأرض الصلبة. المركل: الذي ركلته الأرجل، ضربته.

(٦) الخف: الخفيف. يلوي: يرمي. المثقل: الثقيل.

(٧) درير: كثير الجري. الخذروف: حصاة مثقوبة يديرها لصبي في يديه بخيط وهو منهي عنه. أمره: فتله.

لَـهُ أيْطَـلا ظَبـيٍ وسـاقَـا نَعـامَـةٍ ... وإرخاءُ سِرحانٍ وتَقريبُ تَتْفُلِ (١)
ضَليعٍ إذا استَدبَرْتَهُ سَدّ فَرجَهُ ... بضافٍ فُوَيقَ الأرضِ لَيس بأعزَلِ (٢)
كأنّ سَراتَهُ لدَى البَيتِ قائِماً ... مَداكُ عَرُوس أو صَلايَةُ حَنظَلِ (٣)
كـأنّ دمـاءَ الهـاديـاتِ بنَحْـرِهِ ... عُصارَةُ حِنّاءٍ بشَيْبٍ مُرَجَّلِ (٤)
فَعَـنّ لَنـا سِـربٌ كـأنَّ نِعـاجَـهُ ... عَذارَى دَوَارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّلِ (٥)
فـأدْبَـرْنَ كـالجِـزْعِ المُفَصَّـلِ بَينَـهُ ... بجيدِ مُعَمٍّ في العَشيرَةِ مُخوَلِ (٦)
فـألْحَقَنَـا بـالهَـاديـاتِ ودُونَـهُ ... جَواحِرُها في صَرّةٍ لمْ تُزَيَّلِ (٧)
فعَـادَى عِـداءً بَيـنَ ثَـورٍ ونَعجَةٍ ... دراكاً ولمْ يَنْضَحْ بماءٍ فيُغْسَلِ (٨)
فظَل طُهاةُ اللّحمِ ما بَينَ مُنضِجٍ ... صَفيفَ شِواءٍ أو قَديرٍ مُعَجَّلِ (٩)

---

(١) الأيطل: الخاصرة. السرحان: الذئب. الإرخاء: ضرب من عدو الذئب. التنفل: ولد الثعلب. التقريب: وضع الرجلين موضع اليدين في العدو.

(٢) الضليع: العظيم الأضلاع. استدبرته: نظرت إليه من خلف. ضاف: طويل سابغ. الأعزل: الذي يميل ذنبه إلى أحد الشقين.

(٣) السراة: ظهر الفرس. المداك: الحجر الذي يسحق به الطيب. الصلاية: الحجر الأملس الذي يسحق عليه الحنظل.

(٤) الهاديات: المتقدمات من الصيد. مرجل: مسرح.

(٥) عَنّ: عَرَضَ. السَرْب: القطيع. النعاج: البقر. الدوار: حجر كانوا في الجاهلية ينصبونه يطوفون حوله. المذيل: الطويل الأطراف.

(٦) الجزع: الخرز اليماني. المفصل بينه: الذي فصل بين حباته. المعم والمخول: كريم العم والخال.

(٧) الجواحر: المتخلفات. في صرة: في جماعة. لم تزيل: لم تتفرق.

(٨) عادى عداء: والى موالاة بين ثور ونعجة. دراكاً: تباعاً. لم ينضح: لم يعرق.

(٩) اللحم الصفيف: الذي صف على النار ليشوى. قدير: مطبوخ في القدر.

ورُحنا يَكادُ الطَّرْفُ يَقصُرُ دُونَهُ متى ما تَرَقَّ العَينُ فيهِ تَسَفّلِ[١]
فَبـاتَ علَيْـهِ سَـرْجُـهُ ولِجـامُـهُ وبـاتَ بعَيْني قـائِماً غَيرَ مُرْسَلِ[٢]

٢ـ النابغة الذبياني يصف ناقته :

وهذا مقطع من قصيدة من روائع الشعر الجاهلي للنابغة الذبياني يصف فيها ناقته فيقول:

إذا تَغَنّى الحَمامُ الوُرْقُ هَيّجَني وإنْ تَغَـرّبْـتُ عَنهـا أُمَّ عَمّـارِ
ومَهمَهٍ نازحٍ تَعوي الذّئابُ بهِ نائي المِياهِ عَنِ الوُرّادِ، مِقْفارِ[٣]
جـاوَزْتُـهُ بعَلَنْـداةٍ مُنـاقِلَـةٍ وَعْرَ الطّريقِ على الإحزانِ، مِضمارِ[٤]
تَجتابُ أرضاً إلى أرضٍ بذي زَجَلٍ ماضٍ على الهَوْلِ، هادٍ غيرِ مِحيارِ[٥]
إذا الرِّكابُ وَنَتْ عَنها رَكائِبُها، تَشَـذّرَتْ ببَعيـدِ الفَتـرِ خَطّـارِ[٦]
كأنّما الرّحلُ منها فوقَ ذي جُدَدٍ ذَبٌّ الرِّيادِ إلى الأشباحِ نَظّارِ[٧]

---

(١) يصف فرسه فيقول: إن العين تعجز عن استقصاء محاسنه، فترقى لتنظر في أعالي خلقه، ثم تنظر إلى أسافله.
(٢) يريد أنه بات مسرجاً ملجماً بين يديه غير مرسل إلى المرعى.
(٣) المهمه: الوادي الموحش. النازح: البعيد. الوُرّاد، واحده وارد: من ورود الماء. المقفار: المقفر لا أنيس به.
(٤) علنداة: شديدة:. مناقلة: سريعة نقل القوائم، في جري بين العدو الخبب. الإحزان: المشي في الحزن، وهو ما صلب من الأرض. مضمار: كثيرة الضمور.
(٥) تجتاب: تقطع وتجوب. الزجل: الصوت. المحيار: الشديدة الحيرة.
(٦) ونت: ضعفت. تشذرت: نشطت. الفتر: الضعف. خطار: كثير الخطران برجليه على الناقة يحثها على المضي.
(٧) الجدد: الطرائق، الواحدة جدة. وأراد بذي الجدد: الثور الوحشي تعلو ظهره خطوط بيض وحمر. الذب: الدفع. الرياد: التجول. إلى الأشباح نظار: كناية عن=

مُطَـرَّدٌ أُفـرِدَتْ عَـنهُ حَـلائِـلُهُ، من وَحشٍ وَجْرَةَ أو من وحشِ ذي قارِ[١]
مُجَرَّسٌ، وَحَدٌ، جأبٌ، أطاعَ لهُ نَباتُ غَيْثٍ من الوَسميّ مِبْكارِ[٢]
سَـراتُـهُ مـا خَـلا لَبَـانَـهُ لَهَـقٌ، وفي القَوائِمِ مثلُ الوَشمِ بالقَارِ[٣]
بـاتَـتْ لَـهُ لَيلَـةٌ شَهْبـاءُ تَسفَعُـهُ بحاصِبٍ ذاتِ إشعانٍ وإمْطارِ[٤]
وبـاتَ ضَيفـاً لأرْطـاةٍ، وألجَـأهُ، مَعَ الظَّلام، إلَيها وابِلٌ سَارِ[٥]
حتى إذا ما انجَلَتْ ظَلماءُ لَيلَتِهِ، وأسفَرَ الصُّبحُ عَنهُ أيَّ إسفارِ[٦]
أهْوَى لهُ قانِصٌ يَسعَى بأكلُبِهِ، عاري الأشاجعِ، مِن قُنّاصِ أنْمارِ[٧]
مُحالِفُ الصَّيدِ، هبّاشٌ، لهُ لَحمٌ ما إن علَيهِ ثِيابٌ غيرُ أطْمارِ[٨]

= المرح، لأن الثور الوحشي يكثر من العدو في الصحراء كلما تراءت له الأشباح.

(١) مطرد: مشرد. أفردت عنه حلائله: أبعدت عنه زوجاته. وجرة وذو قار: موضعان.

(٢) المجرس: الخائف لسماعه جرس الإنسان أي صوته. وحد: وحيد. جأب: صلب شديد، الوسمي: أول المطر، ومثله المبكار. وصف الثور الوحشي بالذعر والقوة.

(٣) سراته: ظهره. لبانه: صدره. لهق: أبيض. القار: الزفت.

(٤) ليلة شهباء: أي تهب فيها ريح باردة. تسفعه: تلفحه وترميه. الحاصب: الريح تقذف بالحصباء أي الحصى. الإشعان، من الشعن: ما تناثر من ورق العشب بعد يبسه.

(٥) الأرطاة، واحدة الأرطي: شجر نوره كنور الخلاف وثمره كالعناب وهي مرة تأكلها الإبل غضة. الوابل: المطر الغزير. الساري: المطر يسح بالليل.

(٦) انجلت: انكشفت. أسفر: أضاء.

(٧) أهوى له: انقض عليه. الأشاجع: أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف، وعريها محمود في الرجال. أمنار: قبيلة مشهورة بالصيد.

(٨) هباش: كثير الهبش وهو الكسب. له لحم: كثير اللحم. أطمار الواحد طمر: الثوب الخلق

يَسعَى بغُضْفٍ بَراها فهيَ طاوِيَةٌ، طولُ ارْتِحالٍ بها مِنهُ وتَسيْارِ[١]
حتى إذا الثّورُ، بَعدَ النَّفرِ، أمكَنَهُ، أشلى وأرسَلَ غُضفاً كلُّها ضارِ[٢]
فكَرّ مَحمِيَّةً مِنْ أنْ يَفِرّ كمَا كَرّ المحامي حِفاظاً، خَشيَةَ العارِ[٣]
فشَكّ بالرَّوْق منهُ صَدْرَ أوّلها، شَكَّ المُشاعِبِ أعشاراً بأعشارِ[٤]
ثمّ انثَنَى بعدُ للثّاني، فأقصَدَهُ بذاتِ ثَغرٍ، بَعيدِ القَعرِ، نَعّارِ[٥]
وأثبتَ الثّالِثَ الباقي بِنافِذَةٍ، مِنْ باسِلٍ، عالمٍ بالطّعنِ، كَرّارِ[٦]
وظَلّ في سَبعَةٍ منها لحِقْنَ بهِ يَكُرّ بالرّوقِ فيها كَرّ إسْوارِ[٧]
حتى إذا ما قضَى منها لبُانَتَهُ، وعادَ فيها بإقبالٍ وإدْبارِ[٨]
انقَضّ كالكَوكَبِ الدُّرّيّ مُنصَلِتاً يَهوي، ويَخلِطُ تَقريباً بإحضارِ[٩]

---

(١) الغضب، الواحد أغضف: اللين الناعم، من الغضف في الأذن أي الاسترخاء. أوراد كلاب الصيد، براها: هزلها وأضعفها. طاوية: جائعة. النفر: العدو. أشلى: دعا كلابه للصيد. الضاري: المعتاد الصيد.

(٢) محمية: محافظة. المحامي: المدافع. أراد أن الثور كر ولم يفر.

(٣) الروق: القرن. المشاعب: النجار الذي يشعب القدح ويصده فيصيره عشرة أجزاء. والقدح: السهم.

(٤) أقصده: رماه. بذات ثغر: بطعنة ذات ثغر، أي شق. القمر: الغور. نعّار: له نعير، صوت.

(٥) النافذة: الطعنة الماضية. الباسل: الشجاع.

(٦) الإسوار: الرامي الحاذق.

(٧) لبانته: حاجته.

(٨) الدري: اللامع المتلألىء. منصلتاً: ماضياً في سرعة. التقريب والإحضار: ضربان من السير.

فَذاكَ شبهُ قَلُوصَيّ، إذ أضَرّ بها طولُ السُّرَى والسُّرَى من بعد أسفارِ[١]

٣ـ كعب بن زهير يصف راحلته :

كعب بن زهير في قصيدته «بانت سعاد» التي أنشدها بين يدي رسول الله ﷺ حينما جاءه تائباً معتذراً مسلماً، يصف سفره إلى الرسول ﷺ ويتعرض لوصف راحلته فيسهب في ذلك وينعتها بنعوت عجيبة بديعة يقول:

أمْسَتْ سُعادُ بأرْضٍ لا يُبَلِّغُها إلاَّ العِتاقُ، النّجيباتُ، المراسيلُ[٢]
ولَنْ يُبَلّغَها إلاَّ عُذافِرَةٌ، لها على الأينِ إرْقالٌ وتَبْغِيل[٣]
منْ كلّ نضّاخَة الذِّفْرى إذا عرِقتْ عُرْضَتُها طامِسُ الأعْلامِ مجْهُولُ[٤]
تَرْمِي الغُيوبَ بعَيْنَيْ مُفْرَدٍ لَهِقٍ إذا توَقّدَتِ الحِزّانُ والمِيلُ[٥]
ضَخْمٌ مُقَلَّدُها، فعْمٌ مُقَيَّدُها، في خَلقِهاعن بَناتِ الفَحْل، تفضِيل[٦]

---

(١) القلوص: الناقة. السرى: السير بالليل.

(٢) العتاق: أي النوق العتاق، أي الكريمة. النجيبات، الواحدة نجيبة: الكريمة، القوية. المراسيل: السهلة اليدين في السير.

(٣) العذافرة: الصلبة القوية. الأين: التعب والإعياء. الإرقال: سير سريع. التبغيل: ضرب من السير يشبه سير البغال.

(٤) نضاخة: سائلة. الذفرى: ما تحت أذن الناقة مما يلي الرقبة. عرضتها: أي اهتمامها، ومقدرتها. طامس: مندرس، مختف. الأعلام، الواحد علم: الإشارة على الطريق.

(٥) المفرد: المنفرد، أراد بن الثور الوحشي. لهق: شديد البياض. الحزان، الواحد حزين: الغليظ من الأرض. الميل: ما تراكم ومال من الرمل، الواحد أميل.

(٦) المقلد: موضع القلادة، العنق. المقيد: موضع القيد، الرسغ، بنات الفحل: النوق.

غَلباءُ، وجْناءُ، عُلكومٌ، مُذكَّرَةٌ، ... في دَفّها سَعَةٌ، قُدّامُها مِيلُ[١]
وجِلدُها مِنْ أَطُومٍ لا يُؤيِّسُهُ ... طِلْحٌ بضاحيَةِ المَتْنَينِ، مهزُول[٢]
حَرْفٌ أبوها أخُوهَا من مُهَجَّنَة ... وَعَمُّها خالُها، قَوداءُ، شِمليل[٣]
يمشي القُرادُ عَلَيْها، ثُمّ يُزلِقُهُ ... مِنها لَبانٌ، وأقرابٌ زَهالِيلُ[٤]
عيرانةٌ قُذِفَتْ بالنحض عن عُرُضٍ ... مِرْفَقُها عن ضُلوع الزَّور مَفتول[٥]
كأنما فاتَ عينيها ومَذْبَحَها ... مِنْ خَطْمِها ومنَ اللَّحْيَينِ بِرْطيل[٦]
تَمرّ مثْلَ عَسيبِ النخْلِ ذا خُصَلٍ ... في غارزٍ لَمْ تُخوَّنْهُ الأَحالِيلُ[٧]
قَنْواءُ في حُرّتَيْها، للبَصِيرِ بها ... عِتْقٌ مُبينٌ وفي الخدّين تَسْهِيلُ[٨]
تَخْدي على يَسَراتٍ وهي لاهيةٌ ... ذَوابِلٍ، وَقعُهُنّ الأرضَ تحلِيل[٩]

---

(١) غلباء: غليظة الرقبة. وجناء: عظيمة الوجنتين. علكوم: ضخمة. مذكرة: تشبه الذكر. الدف: الجنب. قدامها ميل: أي طويلة العنق.

(٢) الأطوم: قيل إنها سلحفاءة بحرية، وقيل سمكة غليظة الجلد. يؤيسه: يؤثر فيه. الطلح: القراد. ضاحية المتنين: ما برز للشمس من ظهرها.

(٣) الحرف: الناقة الضامرة. مهجنة: كريمة. قوداء: طويلة العنق. شمليل: خفيفة.

(٤) القراد: دويبة تتعلق بالبعير وغيره وهي كالقمل للإنسان. اللبان: الصدر. الأقراب: الخواصر، الواحد قرب. الزهاليل: الملساء، الواحد زهلول.

(٥) عيرانة: صلبة كالعير. النحض: اللحم المتكتل. العرض: الجهة. الزور: الصدر.

(٦) فات: تقدم. الخطم: مقدم الأنف. البرطيل: الحديدة الطويلة، والحجر الطويل.

(٧) عسيب النخل: الجريدة، شبه به ذنب الناقة. الغارز: الضرع. تخونه: تنقصه. الأحاليل، الواحد إحليل: مخرج اللبن من الثدي.

(٨) قنواء: في أنفها حدب. حرتاها: أذناها.

(٩) اليسرات: القوائم. ذوابل: يابسة. تحليل: قليل.

سُمْرِ العَجاياتِ يتركنَ الحصَى زِيَماً ... ولا يَقيها رُؤوسَ الأكم تَنْعِيل[١]
يوْماً تظلّ حِدابُ الأرْضِ ترْفعُها ... مِنَ اللَّوامِعِ، تخليطٌ وتَزْييل[٢]
كأنّ أوبَ ذراعَيْها، إذا عَرِقَتْ ... وَقَدْ تَلَفّعَ بالقُورِ العَساقِيلُ[٣]
وقال للقَوْمِ حاديهم، وقد جَعَلَتْ ... وُرْقُ الجَنادبِ يركُضْن الحصَى: قيلوا[٤]
شَدَّ النهارِ، ذراعا عيطَلٍ نَصَفٍ، ... قامت فجاوبَها نُكْدٌ مَثَاكِيلُ[٥]
نَوّاحةٍ، رُخوةِ الضَّبْعينِ، ليسَ لها، ... لما نعَى بكْرَها النّاعون معقول[٦]
تَفري اللَّبانَ بكفّيها، ومِدرعُها ... مُشَقَّقٌ عن تَراقِيها، رعابيل[٧]
يَسْعَى الوُشاةُ بجَنْبَيْها، وقوْلُهُم: ... إنّك يا ابنَ أبي سلمى لمَقْتُول[٨]
وقال كلّ خليلٍ كنتُ آمُلُه: ... لا ألهينَّكَ، إنّي عنكَ مشْغُولُ

---

(١) العجايات: عصب قوائم الإبل. زيماً: متفرقاً.
(٢) حداب الأرض: ما أشرف وغلظ منها. التزييل: التفريق. ولعله أراد باللوامع: السراب، أو البرق. وهذا البيت غير موجود في غير روايات.
(٣) أوب ذراعيها: رجع يديها وسرعة حركتها. تلفع: التحف. القور، الواحدة قارة: كل موضع مرتفع. العساقيل، الواحد عسقول: السراب.
(٤) الورق، الواحد أورق: الأخضر إلى السواد. يركضن: يضربن بقوائمهن. قيلوا: استريحوا في القائلة، نصف النهار.
(٥) شد النهار: أي في شد النهار، وقت ارتفاعه. ذراعا عيطل: خبر كان في البيت السابق. العيطل: المرأة الطويلة. النصف: المتوسطة في العمر. النكد، الواحدة نكداء: التي لا يعيش لها ولد. المثاكيل: الثكالى.
(٦) رخوة الضبعين: سريعة حركة الزندين.
(٧) تفري: تشق. اللبان: الصدر. مدرعها: قميصها. رعابيل، الواحد رعبول: قطعة متخرقة.
(٨) بجنبيها: الضمير للناقة.

فقلتُ: خَلّوا سَبيلي، لا أبا لكُمُ ... فكـلّ مـا قدّرَ الرّحمنُ مفعولُ
كلُّ ابنِ أُنثى، وإن طالتْ سَلامَتُه ... يوْماً عـلى آلةٍ حَـدْباءَ مَحمـولُ
أُنْبِئْـتُ أنَّ رَسـول الله أوْعَـدَنـي ... والعفْوُ عنْدَ رَسولِ اللهِ مأمولُ

٤ـ الفرزدق يتحدث عن ناقته:

إليكَ، أميرَ المؤمنينَ، رَمَتْ بنا ... هُمومُ المُنى وَالهَوجَلُ المتعسِّفُ[١]
وَعضُّ زمانٍ، يا ابنَ مروانَ، لم يدع ... منَ المالِ إلاَّمُسحَتاً أو مُجلَّفُ[٢]
وماثِرَةِ الأعضادِ صُهبٌ، كأنّها ... عليهامنَ الأينِ الجسادُالمدوَّفُ[٣]
نهضنَ بنَا منْ سيفِ رَمل كَهيلةٍ ... وفيها بَقَايا من مِراحٍ، وَعجْرَفُ[٤]
فما وَصَلَتْ حَتى تواكلَ نَهْزُهَا ... وبَادَتْ ذُراها، والمناسمُ رُعَّفُ[٥]
وحتى مشى الحَادي البَطيءُ يسُوقُها ... لهَـا نحَضٌ دَامٍ ودَأيٌ مُجنَّفُ[٦]
وَحتى قتلنا الجهلَ عنها، وغودرَتْ ... إذا ما أُنِيخَتْ، والمدامعِ ذُرَّفُ
إذا ماأُنِيخَتْ قاتَلَتْ عن ظُهورِها ... حَراجيجُ أمْثالُ الأسِنَّةِ شُسَّفُ[٧]
وحتى بَعَثْناها، ومَا في يَدٍ لها ... إذاحُلّ عنْها رِمّةُ القيد مرسَفُ[٨]

---

(١) الهوجل: الدليل. المتعسف: الماشي عى غير هداية.
(٢) المسحت: المال المتلف. المجلف: الذي بقي منه بقية.
(٣) الأين: الإعياء. الجساد: الزعفران. المدوف: المخلوط.
(٤) السيف: الشاطىء استعاره للرمل. كهيلة: موضع. العجرف: النشاط.
(٥) تواكل: اتكل بعضها على بعض. نهزها: سيرها. المناسم: أخفافها. رُعَّفُ: تسيل دماً.
(٦) النحض: اللحم. الدأي: خرز الظهر. المجنف: المنحني.
(٧) الحراجيج، الواحدة حرجوج: الناقة الطويلة. الشسف: الضامرة.
(٨) المرسف، من رسف: مشى مشية المقيد.

إذا ما أريناها الأزمّةَ أقْبلتْ إليْها بحُرّاتِ الوُجوهِ، تَصَرَّفُ
ذرَعنَ بنا ما بَينَ يَبرينَ عرضَه إلى الشّام يلْقاها رِعانٌ، وَصَفْصَفُ[1]
فأفْنَى مِرَاحَ الذّاعريّة خوْضُها بنا اللّيْلَ، إذ نامَ الدَّثُورُ المُلفَّفُ[2]

ـ أبو دلامة والبغلة:

ومن باب الطرفة نختم الحديث عن وسائل السفر القديمة بهذه القصيدة الساخرة المضحكة يسخر فيها الشاعر من بغلته التي ما ترك عيباً وصفةً دنيئة إلاّ ألحقها بها وهي قصيدة طويلة لشاعر الفكاهة والسخرية «أبودلامة» ومنها:

أَبَعْدَ الخيل أركبها وراداً وشقراً في الرّعيل إلى القتالِ
رزقتُ بُغَيلة فيها وكالٌ وخير خصالها فرط الوكالِ
رأيت عيوبها كثرت وغالت ولو أفنيت مجتهداً مقالي
ليحصي منطقي وكلام غيري عُشير خصالها شرّ الخصال
فأهونُ عيبها أني إذا ما نزلت وقلت: امشي لا تبالي
تقوم فما تريم إذا اسْتَتَمَّتْ وترمحني وتأخذ في قتالي
وإني إن ركبت أذيت نفسي بضرب باليمين وبالشمال
وبالرجلين أركضها جميعاً فيالك في الشقاء وفي الكلال
تقطع جلدها جرباً وحكّاً إذا هُزلت وفي غير الهزال
وألطف من دبيب الذر مشياً وَتَنْحِطُ من متابعة السعال

---

(١) رعان، الواحد رعن: أنف الجبل. الصفصف: المستوي من الأرض.
(٢) مراح: نشاط. الذاعرية: نوع من الإبل. الدثور: المتدثر بردائه. يصف هنا شدة البرد.

وتُلقِي سرجها أبداً شماساً ... وتسقط في الوحول وفي الرمال
ويُهْزلُها الحمام: إذا خطاها ... ويدبر ظهرها مسُّ الجلال
وتضرط أربعين: إذا وقفنا ... على أهل المجالس للسؤال
فَتُخْرِس منطقي وتحول بيني ... وبين كلامهم مما تُوالي
وقد أعيتْ سياستها المكاري ... وبيطاراً يعقِّل بالشكال
حرونٌ حين تركبها لحضرٍ ... جموحٌ حين تعزم للغزال
وذئبٌ حين تدنيها لسرج ... وليثٌ عند خشخشة المخالي
وألف عصا وسوط كيف أمستْ ... ألذ لها من الشرب الزلال
وتصعق من صعاق الديك شهراً ... وتذعر للصفير وللخيال
إذا استعجلتها عثرتْ وبالتْ ... وقامت ساعةً عند المبال
فأما الإعتلاف فأدنِ منها ... من الأتبان أمثال الجبال
وأما القتُّ فَأْتِ بألف وقر ... كأعظم حمل أحمال الجمال
وإن عَطِشتْ فأوردها دجيلاً ... إذا أوردتَّ أو نهري بلال
وكانت قارحاً أيام كسرىً ... وتذكر تُبَّعاً عند الفصال
وقد قَرِحَتْ ولقمانٌ فطيمٌ ... وذو الأكتاف في الحجج الخوالي
وقد دَبَرتْ ونعمانٌ صبيٌّ ... وقبل فصاله تلك الليالى
وقد مرَّتْ بقرنٍ بعد قرن ... وأُخِّر يومها لهلاك مالي
فَأَبْدِلْني بها يارب طرفاً ... يزين جمال مركبه جمالي

[انظر جمهرة الشعراء لأبي زيد القرشي]

استراحة المسافر (١٠)

* تغدَّى رجلٌ اسمه أبوالسَّرايا عند سليمان بن عبدالملك وهو يومئذٍ وليُّ عهد، وأمامه جَديٌ (تيس) فقال له سليمان كل من كِلْيتيه فإنها تزيد في الدماغ فقال: لو كان هذا مثل ما تقول لكان رأسُ الأمير مثل رأس البغل.
* قال الحافظ: قال أبوكعب كنَّا عند عيّاش بن القاسم ومعنا سَيْنَويه القاصّ فجاؤنا بفالوذجة حارّة، فابتلع منها سَيْنَويه لقمة فغُشي عليه من شدَّة حرّها فلما أفاق قال: لقد مات لي ثلاثة بنين ما دخل جوفي عليهم من الحُرقة مثل ما دخل جوفي من حرقة هذه اللقمة.
* قال رجلٌ لرجل: بكم تبيع الشاة؟ قال: أخذتُها بستة وهي تُساوي سبعة وقد أعطيت بها ثمانية، فإن كانت حاجتُك إليها بتسعة فادفع لي عشرة وخذها.
* جاء رجلٌ إلى الأعمش فقال: يا أبامحمد: اكتريت حماراً بنصف درهم وأتيتك لأسألك عن حديث كذا وكذا، فقال له: اكتر بالنصف الآخر وارجع.
* دخل أبوعلقمة ـ وكان من المتقعِّرين والمتشدقين في الكلام ـ دخل على أعْيَن الطبيب فقال له: أمْتَعَ الله بك، إني أكلت من لحوم هذه الجَوَازِلِ فطَسِئْتُ طَسْأةً، فأصابني وَجَعٌ ما بين الوَابِلَة إلى دَأْيَة العُنقُ فلم يزل يَربُو ويَنْمي حتى خالط الحِلْبَ والشَّراسيفَ، فهل عندك دَوَاءٌ؟ فقال أَعْيَن: نعم، خذ خَرْبَقاً وشلفقاً وشِبْرِقاً فَزهْزِقْهُ وزَقْزِقه واغْسِلْه

بماء رَوْثٍ واشربْه؛ فقال أبوعَلْقمة: لم أفهمْ عنك؛ فقال أعيْن: أفهمتُك كما أفهمتَني. وقال له يوماً آخَرَ: إني أجِد مَعْمَعةً في بطني وقَرْقرةً؛ فقال له: أما المعمعةُ فلا أَعرِفها، وأما القرقرةُ فهي ضُراطٌ لم يَنْضَج.

الجوازل: فراخ الحمام. طسيَ: أتخم من الطعام. الوابلة: طرف العضد في الكتف. الدأية: فقرة العنق. الخلب: حجاب بين القلب وسواد البطن. الشراسيف: جمع شُرسوف وهو رأس الضلع مما يلي البطن. الخربق: ضربٌ من الأدوية ونبت كالسُّم يغشى على آكله ولا يقتله. الشبرق: نبت من جنس الشوك إذا كان رطباً فهو شبرق فإذا يبس فهو الضريع.

* قال الأصمعي: رأيت أعرابياً ماسكاً بستار الكعبة وهو يقول: اللهم أمِتْني ميتة أبي خارجة!

فقلت له: يرحمك الله، وكيف مات أبوخارجة؟

قال: أكل حتى امتلأ، وشربَ، ونام في الشمس، فمات شبعان ريّان دفيان.

مداعبة شعرية :

داعب «محمود غنيم» صديقاً له شاعراً، سُرقت محفظتُه فقال في ذلك :

هوِّنْ عليْكَ وجفِّفْ دَمْعَكَ الغَالِي ... لا يَجْمعُ الله بينَ الشعرِ والمالِ
مِنْ أينَ أصْبَحْتَ ذَا مالٍ فَتُسْلَبَهُ ... ياأشْبَهَ الناسِ بي في رقَّةِ الحالِ
فَيالَها صرَّةً من جَيبِكَ انطَلَقَتْ ... وأنتَ أحوجُ مَخْلوقٍ لمثقالِ
عوِّذْ نقودَكَ واعقِدْ حولَهَا عُقَداً ... وثيقةً تتحدَّى كلَّ حلالِ
قالُوا: خَلَتْ يَدُهُ من كلِّ ما مَلَكَتْ ... فَقُلْتُ: بل رأسُهُ من عقلهِ خالِ
يا لَيتَ شعريَ ماذا أنتَ صانِعُهِ ... أتزمعُ الصومَ حتَّى شهرِكَ التالي
أقسَمْتُ ما سَلَبَتْ تلكَ النقودَ يدٌ ... لكنَّها أبقَتْ من جيبِكَ البالي
الذِئبُ لا يشتهي لحمَ ابنِ جلدتِهِ ... فكيفَ أُوقعَ نشَّالٌ بنشَّالِ

من أخبار المسافرين (٥٣)

مسافر يطوي الأرض ليتُوب إلى ربّه

وإليك أخي المسافر قصة مما يَرْويه الصادق المصدوق ﷺ:

«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مُقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ـ أي حكماً ـ فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة» [متفق عليه]

وفي رواية في الصحيح: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر، فجعل من أهلها». وفي رواية في الصحيح: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له». وفي رواية: «فنأى بصدره نحوها».

السفر الأخير

من كان حين تصيب الشمس جبهته ... أوالغبارُ يخاف الشَّين والشعثا
ويألفُ الظلَّ كي تبقى بشاسته ... فسوف يسكن يومًا راغمًا جدَثا
في قعر مظلمة غبراء موحشة ... يطيل في قعرها تحت الثرى اللبثا
تجهَّزي بجهازٍ تبلغين به ... يا نفس قبل الردَّى لم تُخلقي عبثا

مهما كانت مشقة السفر، ومعاناة الطريق، وقطع الفيافي، وآلام الغربة، ومصارعة المخاطر، وسهر العيون، ومهما كانت لوعة الفراق ووحشة الغياب، وصعوبة الوداع، فإنَّ أصعب من ذلك كله، وأشدّ منه خطرًا، وأعظم منه حسرة، وأكثر منه هولاً، وأمرّ منه فجيعة، هو السفر الأخير الذي لا رجعة بعده، ولا لقاء معه، ولا عودة منه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

حكم المنية في البرية جارِ ... ما هذه الدنيا بدار قرارِ
جُبلتْ على كدرٍ وأنت تريدها ... صفوًا من الأقذار والأكدار
فاقضوا مآربكم عجالاً إنما ... أعماركم سفرٌ من الأسفار

إنَّ أسفارنا الدنيوية مهما آلمنا بعدها، وتجرعنا وعثاءها، واحتسينا عناءها، تهون مع ذٰلك السفر الرهيب، وتسهل مع تلك الرحلة المضْنِيَة.

ياساهيًا لاهيًا عما يراد به ... آن الرحيل وما قدَّمتَ من زاد
نرجو البقاء صحيحًا سالمًا أبدًا هيهات أنت غدًا فيمن غدا غاد

الحبيب متىٰ ودَّع حبيبه، والأليف متى فارق أليفه، والأنيس متىٰ افتقد

أنيسه، والصديق متى بكىٰ فراق صديقه، فإن حرارة الوداع، ومرارة الفراق يكون معها أمل العودة، والطمع في اللقاء مرة أخرى، مما يهوّن حرارتها، ويحلي مرارتها، لكن السفر الأخير لا أمل في اللقاء ـ في هذه الدار ـ بعده، ولا طمع في الوصال إثره.

والحقيقة أخي المسافر أن هذه الحياة بمجموعها عبارة عن سفرٍ وأيّ سفر.

لعمرك ما حيٌّ وإن طال سيره ... يُعدُّ طليقاً والمنون له أسرُ
وما هذه الأيام إلاَّ منازلٌ ... يحلُّ بها سفْرٌ ويتركها سَفْرُ
فلا تحسبن المرءَ فيها بخالدٍ ... ولكنه يسعىٰ وغايته العمرُ

إنها رحلة شاقة مضنية مليئة بالمخاطر، ومحفوفة بالمكاره، ومزروعة بالمصائب. إنها رحلة ابتلاء وامتحان. فالمسافر الناجح هو الذي يستطيع أن يَعْبُر بنفسه إلى شاطئ الأمان في ثقة وثبات وهمة وشموخ، وما ذلك إلاَّ بتزوّد المسافر بالزاد الحقيقي لهذه الرحلة وما هو يا ترى؟ ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

أعدَّ زاديك من قولٍ ومن عملٍ ... إن المقام إذا طال اقتضىٰ السَّفرا

* * *

فيا تائهاً بوادي الهوى، انزل ساعةً بوادي الفكر، يخبرك بأن اللذة قصيرة، والعقاب طويل، والموقف رهيب، والمطلع مهيب:

حتى متى تسقي النفوسَ بكأسها ... ريبُ المنون وأنت لاهٍ ترتعُ
أفقد رضيتَ بأن تعلل بالمنىٰ ... وإلى المنية كل يوم تدفعُ
أحلام نوم أو كظلٍّ زائلٍ ... إن اللبيب بمثلها لا يخدعُ

فَتَـزَوَّدنَّ ليـوم فقـرك واجتهـد واجمع لنفسك لا لغيركِ تجمعُ

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:

«الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ ترحالهم إلاَّ في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبنيٌّ على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يُطلب فيه نعيم ولذةٌ وراحة، وإنما ذلك بعد انتهاء السفر»اهـ.

لئن كان كثير من الشعراء والأدباء بكوا من آلام السفر وتبرموا من لحظات الوداع وشنعوا على يوم الفراق فإن هنالك كثيراً من الشعراء والأدباء والعلماء والحكماء بكوا هذا السفر الأخير وشكو من لوعة الفراق المرير، وخافوا هول المطلع على العزيز القدير، يقول البارودي:

متى يشتفي هذا الفؤاد المُفَجّعُ وفي كل يوم راحلٌ ليس يرجعُ
نميل من الدنيا إلى ظل مزنة لهـا بـارقٌ فيـه المنيـة تلمـعُ
وكيف يطيب العيش والمرء قائمٌ على حذرٍ من هول ما يتوقعُ
بنـا كـلَّ يـوم للحـوادث وقعـةٌ تسيـل لهـا منَّـا نفـوسٌ وأدمـعُ
فأجسادنا في مطرح الأرض هُمَّدٌ وأرواحنا في مسرح الجوِّ رُتَّعُ
ومن عجبٍ أنا نُساءُ ونرتضي ونـدرك أسبـاب الفنـاء ونطمـعُ
تسير بنا الأيام والموت موعدٌ وتدفعنا الأرحام والأرض تبلعُ
عفاءٌ على الدنيا فما لعِداتِها وفـاءٌ ولا فـي عيشهـا مُتَمَتَّـعُ

وقال آخر:

وشيب رأسي قبل حين مشيبه رعـود المنـايـا بيننـا وبـروقُهـا
رأيـت المنـايـا بـاديـاتٍ وعُـوَّداً إلى دارنا سهلاً إليها طريقُها

وقد قُسِّمتْ نفسي فريقين، منهما فريق مع الموتى، وعندي فريقها
فبينا ترجِّي النفس ما هو نازح من الأمر لاقت دونها ما يعوقها
وبينا تقول النفس أفعل في غد كذا وكذا فاستعلقته علوقها

خَطَبَ أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضوان الله عليه بالكوفة، فقال في كلام له:

سُبحانَكَ خالقاً معبوداً بحُسْنِ بلائِكَ في خلقك، خلقت داراً، وجعلت مأدبة ومطعماً ومشرباً، وأزواجاً وقصوراً، وخدماً وعيوناً وأنهاراً، ثم أرسلت داعياً إلينا، فلا الداعي أجبنا، ولا فيما رغَّبتنا رغِبنا، أقبلنا على جيفة نأكل منها، قد زاد بعضنا على بعض حرصاً عليها، وافتُضحْنا لما اصطَلَحْنا على حُبِّها، عَمِيَت أبصارُ صالحينا وفقهائنا فيها، ولها من في قلبهِ مرض، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذنٍ غير سميعة، وقد ملكت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه، وذهلت عليها نفسه، فهو عبدُها وعبدُ من في يديه منها شيء، حيثما زالت زال معها، وحيثما أقبلت أقبل إليها، لا يعقل ولا يسمع، ولا يزدجر من الله بزاجر، ولا يتعظ من الله بواعظ. قد رأى المأخوذين على الغرّة حيث لا إقالة ولا رجعة كيف فاجأتهم تلك الأمور، ونزل بهم ما كانوا يوعدون، وفارقوا الدور، وصاروا إلى القبور، ولقُوا دواهي تلك الأمور، فإذا نزلت بقلوبهم حسراتُ أنفسهم، اجتمعت عليهم خصلتان، حسرة الفوت، وسكرة الموت، تفطَّرت لها قلوبهم، وتغيَّرت ألوانُهُم، وتردد شهيقهم، وحرَّكوا لمخرج أرواحهم أيديهم وأرجُلَهم، فعرقت لذلك جباهُهُم، ثم ازدادَ الموتُ فيهم، فحيلَ بين أحدهم ومنطقه، وإنه لبين ظهراني قومه، ففكَّر

بعقلٍ بقي له: فيم فنى عُمُره، وفيم ذهبتْ أيامُه!!. اهـ.

فيا إخواني المسافرين على مطايا الأيام، لماذا تأخّرْنا وقد سار الركب، وتقهقرنا وقد جَدّ الخطب، يا مسافرين، مَنْ عزم السفر تزوَّد له، ويا راحلين من نوى الرحيل استعد له. ليت المحترز نجا فكيف المهمل، يا أقدام الصبر تحملي فقد بقي القليل، تذكَّري حلاوة الدَّعة، يَهُن عليك تعب السّرى، ومشقة الطريق.

قل للمؤمل إن الموتَ في أثرِكْ ... وليس يخفى عليك الأمر من نظرِكْ
فيمن مضى لك إن فكرت مُعْتَبر ... ومن يَمُت كل يوم فهو من نذركْ
دار تسافر عنها من غد سفراً ... فلا تؤوب إذا سافرت من سفركْ
تضحي غداً سمراً للذاكرين كما ... صارالذين مضوابالأمس من سمركْ

فيا مستأنساً بظلٍّ، وحريصاً على الهوى والموت عليه يحرص، تفكَّر فيمن أصبح مسروراً فأمسى وهو منغَّص، ولا يغرنَّك طول الأمل، ولا فسحة الأجل ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن

﴿رَبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٤٨ـ٥٨].

وهذا أبوالعتاهية ـ رحمه الله ـ يُذكِّر نفسه ويُذكرنا بحقيقة الحياة ووجوب تزود الإنسان ليوم الرحيل وأن لا يغترّ بطول الأمل:

المرء في تأخيرِ مدَّته ... كالثوب يخلق بعد جدَّته
وحياتُه نفسٌ يُعَدُّ له ... ووفاته استكمالُ عدَّتِهِ
ومصيره من بعد أُنسَتِه ... بالناس ظُلْمَةُ بيتِ وَحْدَتِهِ
من ماتَ مال ذوُو مودَّتِه ... عَنْه وحالوا عن مودَّته
عَجَباً لمحتجبٍ يُضيع ما ... يحتاجُ فيه ليوم رَقْدَتِهِ
أزِفَ الرحيلُ ونحنُ في لعبٍ ... لا نستعدُّ لهُ بعُدَّتِهِ
ولقلَّما تُبقي الخُطوبُ على ... أشَرِ الشَّبابِ وحَرّ وَقْدَتِهِ

* * *

إني أرِقْتُ وذكرُ الموتِ أرَّقني ... فقلتُ للدمع: أسْعدني فأسعدني
إن لم أُبَكِّ لنفسي مشعراً حزناً ... قبل الممات ولم آسف لها فمن
يا من يموتُ ولم تُحْزنْه موتَتُه ... ومن يموتُ فما أولاه بالحَزَن
لمن أثْمِّرُ أموالي وأجمعُها ... لمن أروح لمن أغدو لمن لِمَن
لمن سَيَرْفَعُ بي نعشي ويتركني ... في حفرتي ترب الخدين والذقنِ

وقال الآخر:

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له ... من الله في دار القرار نصيب
فإن تُعْجِب الدنيا أناساً فإنها ... متاع قليلٌ والزوالُ قريب

وقال الآخر:

أين أهلُ الديار من قوم نوحٍ ... ثم عادٌ من بعدهم وثمودُ
أين آباؤنا وأين بنوهم ... أين آباؤهم وأين الجدودُ
سلكوا منهج المنايا فبادوا ... وأرانا قد حان منا ورودُ
بينما هم على الأسرة والأنـ ... ـماط أفضت إلى التراب الخدود
ثم لم ينقض الحديث ولكن ... بعد ذاك الوعيدُ والموعودُ

مرَّ الإسكندر بمدينة قد ملكها أملاكٌ سبعة وبادوا، فقال: هل بقي من نَسْلِ الأملاكِ الذين ملكوا هذه المدينة أحد؟ قالوا: نعم، رجل يكونُ في المقابر. فدعا به فقال: ما دعاك إلى لزوم المقابر؟ قال: أردت أن أعزلَ عظامَ الملوك عن عظام عبيدهم فوجدتُ عظامهم وعظامَ عبيدهم سواء. قال له: فهل لك أن تتبعني فأحيي بك شرف آبائك إن كانت لك همة؟ قال: إن همَّتي عظيمةٌ إن كانت بُغْيتي عندك، قال: وما تبغي؟ قال: حياةٌ لا موتَ فيها، وشبابٌ ليس معه هرم، وغنىً لا فقر بعده، وسرور بغير مكروه، قال: لا، قال: فامضِ لشأنك ودعني أطلب ذلك ممن هو عنده ويملكه. قال الإسكندر: هذا أحكم من رأيت.

باحت بسري في الهوى أدمعي ... ودلت الواشي على موضعي
يا قوم إن كنتم على مذهبي ... في الوجد والحزن فنوحوا معي
يحق لي أبكي على زلتي ... فلا تلوموني على أدمعي

* * *

أخي المسافر، إذا صابرت مشقة الطريق انتهى بك السفر إلى جنات ونهر، عند مليك مقتدر.

كان آدم عليه السلام يبكي بعد هبوطه من الجنة بكاءً مريراً فكان جبريل يأتيه فيقول لِمَ هذا البكاء؟ ولسان حاله يجيب:

يا عاذل المشتاق دعه فإنه ... يلوي على الزفرات غيرَ مشاكا
لو كان قلبك قلبُهُ ما لُمتَه ... حاشاك مما عنده حاشاكا

يا جبريل ما تغيّر عليك أمر، وأنا نقلت من برد عيش إلى حر ما سكنت قط مسكني، ولا توطنت موطني، فاقرأ على ربعي سلامي، وقل له لا تنس أيامي.

أخي المسافر، يا من يرحل في كل لحظة عن الدنيا مرحلة، وكتابه قد حوى حتى قدر خردلة، ماذا أعددت لسفرك الطويل، وما هو زادك للرحيل.

تبني وتجمع والآثار تندرس ... وتأمل اللبث والأرواح تختلسُ
ذا اللب فكرفما في الخلد من طمع ... لابد ما ينتهي أمر وينعكسُ
أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... كانوا إذا الناس قاموا هيبة جلسوا
ومن سيوفهم في كل معترك ... تخشى ودونهم الحجاب والحرس
أضحوا بمهلكة في وسط معركة ... موتى وماشي الورى من فوقهم يطس
وعمهم حدث أو ضمهم جدث ... باتوا وهم جثث في الرمس قد حبسوا
كأنهم قط ما كانوا ولا خلقوا ... ومات ذكرهم بين الورى ونسوا
والله لو نظرت عيناك ما صنعتْ ... يد البلى بهمُ والدود يفترس
من أوجه ناضرات حار ناظرها ... في رونق الحسن منها كيف تنطمس
وأعظم باليات ما بها رمق ... وليس تبقى لهذا وهي تنتهس
وألسنٌ ناطقات زانها أدب ... ما شانها شانها بالآفة الخرس

عروا عن الوشي لما ألبسوا حللاً من الرغام على أجسادهم وكسوا
حَتَّام يا ذا النهى لا ترعوي سفهاً ودمع عينك لا يهمي وينبجس

قال ابن الجوزي رحمه الله: «إخواني خلقنا نتقلب في ستة أسفار إلى أن يستقر بنا المنزل: السفر الأول سفر السلالة من الطين، والثاني سفر النطفة من الصلب، والثالث سفر من البطون إلى الدنيا، والرابع من الدنيا إلى القبور، والخامس من القبور إلى العرض، والسادس إلى منزل الإقامة إما إلى الجنة أو إلى النار. وقد قطعنا نصف الطريق وما بعدُ أصعب».

يا ويحَ نفسي من تتابع حوبتي لو قد دعاني للحساب حسيبي
فاستيقظي يا نفس ويحك واحذري حذراً يهيج عبرتي ونحيبي
واستدركي ما فات منك وسابقي سطوات موت للنفوس طلوب
هذا رقيب ليس عني غافلاً يحصي علي ولو غفلت ذنوبي
أوليس من جهل بأني نائم نوم السفيه وما ينام رقيبي

* * *

خطبة مسافر إلى الآخرة

عن أبي سليم الهُذلي قال: خطب عمر بن عبدالعزيز فقال:

أما بعد، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً، ولم يدع شيئاً من أمركم سُدىً، وإن لكم مَعاداً فخاب وخسر من خرج من رحمة الله وحُرم الجنة التي عرضها السموات والأرض، واشترى قليلاً بكثير وفانياً بباق وخوفاً بأمن، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلُفها بعدكم الباقون؟ كذلك حتى تُردّ إلى خير الوارثين، في كل يومٍ وليلة تشّيعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل قد قضى نحبَه وانقضى أجلَه حتى تغيّبوه في صَدْع من الأرض، في بطن صَدْع، ثم تدعونه غير ممهَّد ولا موسَّد قد خَلع الأسبابَ وفارق الأحباب وسكن التراب وواجه الحساب مرتَهناً بعمله فقيراً إلى ما قدَّم، غنيًّا عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت، وايْمُ الله إني لأقولُ لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب ما أعلم عندي، وما يبلغني عن أحد منكم ما يسعَه ما عندي إلاَّ ودِدْتُ أنه يمكنني تغييره حتى يستوي عيشُنا وعيشه، وايْم الله لو أردت غير ذلك من الغضارة والعيش لكان اللسان مني به ذلَولاً عالماً بأسبابه، ولكن سبَق من الله عز وجل في كتاب ناطق وسُنَّة عادلة دل فيها على طاعته ونهى فيها عن معصيته.

ثم وضع طرف ردائه على وجهه فبكى وشهقَ وبكى الناس، وكانت آخر خطبةٍ خطبها.

من أخبار المسافرين (٣٦)

مسافرون أيقنوا بالهلاك

إليك، أخي المسافر، هذه القصة لثلاثة نفر من المسافرين القدماء ولكن يا ترى ما مدى صحة هذه القصة، من أخبرنا بها، من نقلها إلينا؟ هل هي من نسج الخيال ومن حكايات القصّاص؟ لا والله إنها قصة حقيقية صادقة صِدْق الرسالة المحمدية، ناصعة نصاعة الشمس البهية، تتجلّى فيها الرحمة الربانية، والعبرة الإيمانية، أما من رواها فهو أصدق إنسان عرفته الدنيا، إنه الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحىٰ، يرويها عظيم العظماء وسيد البلغاء، والفصحاء، وخاتم المرسلين والأنبياء، أفضل إنسان نطق، وأعظم مُحدِّث صدق، فأرْخ سمعك، وافتح قلبك، وأعْمِل عقلك:

«انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلاّ أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه. قال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إلي، وفي رواية: كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها

عشرين ومائتي دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها، وفي رواية: فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلاَّ بحقه، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبدالله، أدّ إليَّ أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبدالله لا تستهزئ بي! فقلت: لا أستهزئ بك. فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»

[متفق عليه]

معنى: لا أغبق: لا أقدم في الشرب قبلهما أهلاً ولا مالاً. والغبوق الشرب في العشي. معنى ألمت بها سنة: أي من السنين المجدبة.

المسافر والهدية

عودة المسافر إلى أهله سالماً غانماً هو الأمل الذي ينتظره أهل كلِّ غائب أن يعود إليهم مسافرهم وهو في صحة وسلامة، ولكن ما أجمل أن يعود وقد حمل إليهم الهدايا القيمة، والهبات الطيبة، والذكريات الخالدة، والهدية لها في النفوس وقع متميز، وأثر فريد، ولا يشترط أن تكون شيئاً مكلفاً ولا أمراً ثميناً؛ لأن الأساس هو في قيمتها المعنوية حيث تعتبر رمزاً للمحبة، ودليلاً على المودّة، ولذلك يقول صاحب الخُلُقُ العظيم ﷺ: «**لو أُهديت لي ذراع لقبلت، ولو دُعيت إلى كراع لأجبت**».

وقال الشاعر:

إن الهـــديـــة حلـــوةٌ كـالسحـر تجتلـب القلـوبـا
تدني البغيض من الهوى حتـــى تصيِّـــره قـــريبـــا
وتعيـدُ مضطغـن العـدا وة بعـــد نُفـــرتـــه حبيبـــا

وقال ﷺ: «**تهادوا تحابوا**» [حسنه الألباني في الإرواء من طريق أبي هريرة].

وإنك لتعجب لكثير من المسافرين يصرفون في أسفارهم أموالاً طائلة ويخسرون دراهم عديدة، ومع ذلك لا يوفَّق أحدهم في شراء هدية طيبة متواضعة يُدخل بها السرور على زوجته، أو يبهج بها قلب والدته، أو ينال بها رضا والده، أو يُطيِّب بها نفوس أبنائه وبناته.

وهذا أحد الشعراء يعمِّم موضوع الهدية ويرى أن أصحاب الرجل وإخوانه يفرحون بعودته من سفره إذا حمل إليهم الهدايا ويكرهون لقياه إذا أتاهم صفر اليدين فيقول:

وإذا المسافرُ آبَ مِقْلَى مُفْلساً صِفْـرَ اليـديـن مـن الـذي رَجَّـاهُ

وخلا من الشيء الذي يُهْديه للـ ... إخـوانِ عـند لِقـائهـم إيّـاهُ
لـم يفـرحـوا بِقُـدومـهِ وتَثقّلـوا ... بـوُرودهِ وتكـرّهُـوا لُقْيـاهُ
وإذا أتـاهُـم قَـادِمـاً بهـدّيـةٍ ... كَـان السـرورُ بقَـدْرِ مـن أهـداهُ

وإليك هذه الأبيات لأحد الشعراء يشنِّع فيها على بعض المسافرين الذين يذهبون للحج فيتلقاهم الناس بالترحاب والأطعمة الطيبة ثم هم يبخلون بالهدايا أو يأتي بعضهم بهدية رديئة من أحذية رخيصة أو غيرها. يقول:

سقـى حُجّـاجَنـا نَـوْءُ الثـريّـا ... علـى مـا كـان مـن بُخْـلٍ ومَطْـلِ
همُ جمعوا النعالَ وأحرزوها ... وسـدُّوا دونهـا بـابـاً بقُفْـلِ
فـإن أهـديـتُ فـاكهـةً وجـديـاً ... وعشـر دجـائـج بَعثُـوا بنعـلِ
ومِسْـواكَيْـنِ طـولُهمـا ذِراعٌ ... وَعُشْـرٍ مـن رِديء المُقْـلِ حُسْـلِ
فـإن أهـديـتُ ذاك ليحملـونـي ... علـى نعـلٍ فـدقّ الله رِجْلـي
أُنـاس تـائِهـون لهـم رُواءٌ ... تَغِيـم سمـاؤهـم مـن غيـر وَبْـلِ
إذا انتسبـوا ففـرعٌ مـن قـريـشٍ ... ولكـنّ الفِعـالَ فِعـالُ عُكْـلِ

عكل: قبيلة يقال إن فيهم غباوة وقلة فهم.

وهذا أحد المستهزئين بالهدايا، ويقال إنه بشار بن برد حيث أهدى إليه رجل شاةً هزيلة فقال:

وهبتَ لنا يا أخا مِنْقَرٍ ... وعِجْـلٍ وأكـرمَهـا أوّلاَ
عجوزاً أضرَّ بها دهرُها ... وأنـزلهـا الـذُّلُّ دارَ البلَـى
سلوحاً حسِبتُ بأنّ الرِّعاء ... سَقَوْها الغَرِيقَوْن والحنظَلا
وأجدبَ من ثور زَرّاعةٍ ... أصاب على جوعه سُنْبُلاَ
وأزهدَ من جِيفةٍ لم تَدَعْ ... لها الشمسُ من مَفْصِلٍ مَفْصلاَ
فأهوتْ يميني إلى جنبها ... فخِلـتُ حـراقيفَهـا جَنْـدَلاَ

وأهوتْ يَسَاري لعُرْقوبها ... فخلتُ عَرَاقيبَها مِغْزَلاَ
فقلت أبيع فلا مَشْرَباً ... تُؤدِّي إليَّ ولا مَأكلاَ
أمَ اجعلُ من جلدها حَنْبَلاً ... فأقْذِرْ بحنبلها حنبلا
إذا هي مرّت على مجلسٍ ... من العُجْبِ كبّر أو هلّلاَ
رأوْا آلةً خلفها سائقٌ ... يَحُثّ وإن هرولتْ هرولاَ
فكنتَ أمرتَ بها ضَخْمةً ... بشحمٍ ولحمٍ قد اسْتُكْمِلاَ
ولكن رَوْحاً عَدَا طَوْرَه ... وما كُنتُ أحسب أن يفعلاَ
فلولا مكانُك خَضّبتُها ... وعَلّقتُ في جِيدها جُلْجُلاَ
فجاءت لكيما ترى حالَها ... فتعلمَ أنِّي بها مُبتلَى
سألتُك لحماً لِصبياننا ... فقد زِدتَني فيهمُ عَيِّلاَ
فخذْها وأنت بها مُحسِنٌ ... ومازلتَ بي مُحسِناً مُجْمِلاَ

* * *

من أخبار المسافرين (٣٩)

مظلومة تسافر إلى المأمون

قال قحْطَبةُ بن حميد: إني لواقف على رأس المأمون يومًا وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدم إليه ـ وقد همَّ بالقيام ـ امرأة عليها هيئة السفر وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون إلىٰ يحيىٰ بن أكثم، فقال لها يحيىٰ: وعليكِ السلام يا أمة الله! تكلمي بحاجتكِ، فقالت:

يا خَيْرَ مُنْتَصَفٍ يُهْدَىٰ لهُ الرَّشدُ ... ويَا إِمَامًا بِهِ قَدْ أَشْرَقَ البَلَدُ
تَشْكُو إِلَيْكَ عَمِيدَ القَوْمِ أَرْمَلَةٌ ... عُدِي عَلَيْهَا فَلَمْ يُتْرَكْ لَهَا سَبَدُ
وابْتُزَّ مِنِي ضِيَاعي بَعْدَ مَنْعَتِهَا ... ظُلْمًا وفُرِّقَ مِنِّي الأَهْلُ وَالوَلَدُ

فَأَطْرَقَ المأمون حينًا ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دُون ما قلتِ زال الصَّبْرُ والجَلَدُ ... عنِّي وأُقْرِح منِّي القلبُ والكبِدُ
هذا أذانُ صلاَةِ العَصْرِ فَانْصَرِفِي ... وأَحْضِري الخَصْمَ في اليوم الذي أَعِد
فالمَجْلِسُ السَّبْتُ إِنْ يُقْضَىٰ الجلوسُ لنا ... نُنْصِفْك منهُ وَإِلاَّ المجلِسُ الأَحَد

قال: فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول ما قدم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليكِ السلام، ثم قال: أين الخصم؟ فقالت: الواقف علىٰ رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأت إلىٰ العباس ابنه، فقال: يا أحمد بن أبي خالد! خذ بيدي فأجلس معها مجلس الخصوم، فجعل كلامها يعلو كلام العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله! إنكِ بين يدي أمير المؤمنين وإنكِ تكلمين الأمير العباس فاخفضي من صوتكِ، فقال المأمون: دعها يا أحمد فإنَّ الحق أنطقها والباطل أخرسه، ثم قضىٰ لها بِرَد ضيعتها إليها وعاقب ابنه العباس بسبب ظلمه لها وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي ببلدها أن يوغر لها ضيعتها ويحسن معاونتها وأمر لها بنفقة.

اتق الله حيثما كنت

أخي المسافر بارك الله فيك ويسَّر لك الخير حيثما كنت وبارك فيك ورزقك الرزق الحلال وحفظك في نفسك وأهلك ومالك.

خف الله وانظر في صحيفتك التي ... حوت كلما قدمته من فعالكا
فقد خط فيها الكاتبان فأكثرا ... ولم يبق إلاَّ أن يقولا فذالكا
ووالله ما تدري إذا ما لقيتها ... أتوضع في يمناك أو في شمالكا
فلا تحسبن المرء يبقى مخلداً ... فما الناس إلاَّ هالك فابك هالكا

أرجوك أن تسمح لكليمات قليلات أن تنساب إلى قلبك، وأن تفتح لها صدرك وترخي لها سمعك كُليمات من القلب فعسى أن تصل إلى القلب أناديك نداء المحبّ، وأدعوك دعاء المشفق، وأرجوك رجاء الصادق، وأخاطبك خطاب الأخ المخلص، وأناجيك مناجاة الحريص عليك، أوجّه إليك هذا النداء أينما كنت فلعلك الآن تقرأ كلماتي وأنت في الطائرة معلق بين السماء والأرض، بين الحياة والموت، على جناح طائر، وقد تمرّ بك هذه العبارات وأنت في عُمق الصحراء، تطوي المسافات، وتقطع الفيافي، وربما اطلعت عليها وأنت في لُجِّ البحر، تصارع الأمواج، وتركب الأهوال إنني أناديك أخي المسافر في أي مكان أنت وعبر أي طريق اتجهت وعلى أية راحلة ركبت، أناديك وأذكرك فأقول لك:

اتق الله، اتق الله، اتق الله.

اتق الله في نفسك فالزمها بما يرضي الله.

اتق الله .. في أهلك فكن عند حسن ظنهم.

اتق الله .. في أبنائك فإن صلاحك صلاحٌ لهم، وطاعتك صيانة لهم.

اتق الله .. في وقتك فلا تصرفه في اللهو والعبث والضياع، فأنت مسئول

عنه.

اتق الله .. في مالك فلا تنفقه في الحرام، ولا تضيِّعه في الضلال فأنت مسئولٌ.

أناديك يا عبدالله فأقول لك: إلى أين تسافر ولماذا تسافر، هل أنت مسافر في طاعة أم راحل إلى معصية فإن كان سفرك طاعة لله بعيداً عما يسخط الله فالحمد الله وعلى بركة الله، وإن كان سفرك في معصية الله وفي غير طاعته ورضاه. **فاتق الله** .. واستح من الله فإنه ينظر إليك ومطّلع عليك ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾، ألا تستحي منه، وقد خلقك ورزقك، وأطعمك وكساك، وأعطاك وأغناك، أعطاك السمع، والبصر، والفؤاد، والجوارح وجعلك في أحسن تقويم فهل جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان. قال ﷺ لأصحابه: «**ألا تستحيون من الله حق الحياء**» فقالوا: يارسول الله إننا لنستحيي من الله حق الحياء. قال ﷺ: «**ليس ذلك، الاستحياء من الله: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكرالموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، من فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء**».

ياأيها المسافر الحبيب إن كنت تنوي المعصية في هذا السفر فإني أدعوك إلى الرجوع عنه أو تغيير هذه النية إني أدعوك إلى التوبة إلى الله تعالى إلى ربك الرحمن الرحيم مولاك، الذي خلقك ورزقك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

إن الخنا دَنَسُ النُّفُوسِ وإنني ... طَهَّرْتُ هَذِي النَّفْسَ من أدنَاسِهَا
ومَطَامِعُ الدُّنْيَا تُذِلُّ ولا أرَى ... شيئاً أعَزُّ لِمُهْجَةٍ مِنْ يَاسِهَا
مَنْ عَفَّ لَمْ يُذْمَمْ وَمَنْ تبعَ الخنَا ... لَمْ تُخْلِهِ التَّبِعَاتُ مِنْ أَوْكَاسِهَا

زَيِّنْ خِصَالَكَ بالسَّمَاحِ ولاَ تُرِدْ دُنْيَا تَرَاكَ وأنتَ بَعْضُ خِسَاسِهَا
ومَتَى رأَيْتَ يد امْرِىءٍ مَمْدُودَةً تَبْغِي مُؤَاسَاةَ الكَرِيمِ فَوَاسِهَا
خَيْرُ الأكُفِّ السَّابِقَاتِ بِجُودِهَا كَفٌّ تَجُودُ عَلَيْكَ فِي إفْلاَسِهَا

أخي الحبيب. . إن المسلم العاقل هو من أعمل فكره، واعتبر بغيره، فكم من أناس سافروا إلى بلاد معينة، لتوفر أسباب الحرام فيها، وسهولة اقتراف المعاصي بها، فكان جزاؤهم الخيبة والخسران، والنقمة من الديان، أُصيبوا بالأمراض الخبيثة، وانتقلت إليهم الجراثيم الفتاكة، بما كسبت أيديهم، وبما عصوا باريهم. المعصية لذّة ساعة، وعذابٌ يوم تقوم الساعة. فاتق الله والزم الطاعة، فإنها نعم البضاعة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾.

أخي المسافر أحذرك مما حذرنا الله منه ورسوله:

* أحذرك الشرك بالله فإن الشرك ظلم عظيم، وخطر جسيم، وهو الخطر الأكبر والذنب الذي لا يغفر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾.

«أكبر الكبائر الإشراك بالله وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور».

لا تخف إلاَّ من الله، لا ترجو إلاَّ الله، لا تدعو إلاَّ الله، لا تسافر إلى القبور والأضرحة، ولا تدعو أحداً من دون الله. .

* واحذر الرياء فإنه محبط للعمل، مغضبٌ للرب **«من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»** فإذا سافرت لطلب العلم فأخلص النية لله تعالى، وإذا سافرت للحج أو العمرة أو غير ذلك من أسفار البر والطاعة فاقصد بها وجه الله وإلاَّ كانت عليك حسرة وندامة ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾.

* احذر الزنا فإنه من أقبح الأمور، وأعظم الشرور ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾، يورث الفقر والمرض، ويؤذن بالغضب والسخط، ويعرض للمقت والهلاك. قال ﷺ: **«إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»**، **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»**.

* احذر الرِّبا، فهو حرْبٌ على الله، وتعرضٌ لسخطه، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾.

وقال ﷺ: **«إن أبواب الربا اثنان وسبعون باباً أدناه كالذي يأتي أمه في الإسلام»**، **«لعن الله آكل الربا، وموكله، وشاهده، وكاتبه»**.

* احذر الخمور والمسكرات، فإنها خراب الدين، ودمار العقل، وإتلاف الصِّحة، بغيضةٌ إلى الرحمن، رجسٌ من عمل الشيطان، نقصٌ في الدين والإيمان، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ **«إن ا لله لعن الخمر، وعاصرها ومعتصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومشتريها، وآكل ثمنها»**، **«ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً: الديوث، الذي يرضى الخبث في أهله، ولا يغار عليهم، الرَّجُلة من النساء، ومدمن الخمر»**.

أخي المسافر.. لا تتعامل بالحرام ولا تتاجر فيه، ولا تدخل إلى جوفك إلاَّ ما كان حلالاً قال رسول الله ﷺ: **«ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يرفع يديه إلى السماء ومأكله حرام ومشربه حرام وغُذي بالحرام يقول: يارب، يارب فأنَّىٰ يُستجاب له»**.

احذر من حب الكفار والمشركين أو الإعجاب بهم ولا يخدعنك ما

تراهم فيه من حضارة أو فنّ أو زينة أو بهرج ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

أخي المسافر.. لا تسافر مع الذين أترعت قلوبهم بحب الشهوات، ولا ترافق الذين خلت أفئدتهم من مراقبة ربِّ الأرض والسموات ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

أخي المسافر.. لا تسع إلى حتفك بظلفك فتسافر بأبنائك وبناتك إلى البلاد المتحللة من الفضيلة، المتجردة من الحياء ظناً منك أنك تسعى إلى تسليتهم وترفيههم، وأنت إنما تسعى في ضياعهم وتدميرهم. إذا أردت أن تروح عنهم فليكن ذلك في البلاد التي تعينك وإياهم على الطاعة، وتحفظ عليك أخلاقهم وأدبهم وسلوكهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

إنهم أمانة في عنقك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وقال ﷺ: «**كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول**».

وأخيراً أخي المسافر، الله الله في الصلاة فإنها عمود الإسلام، والركن الثاني منه، الله الله في الصلاة لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر. وهي أول ما يُسأل عنه المرء. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾،

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾.

الصلاة هي الفارق بين المسلم والكافر. «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**» الصلاة لأنها تكفر الذنوب وتذهب الخطايا، وتطهر القلوب وتزكي الأنفس «**أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء**» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**» [متفق عليه].

يقول الأستاذ مصطفى الرافعي عن الصلاة:

«بالانصراف إلى الصلاة وجَمْع النيّة عليها، يستشعر المسلم أنه حطم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخرج منها إلى روحانية لا يُحَدُّ فيها إلاَّ بالله وحده.

وبالقيام في الصلاة يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كلِّه ليمتزج بجلال الكون ووقارِه، كأنه كائن منتصبٌ مع الكائنات يسبِّح بحمده.

وبالتولي شطْر القبلة في سَمْتها الذي لا يتغيّر على اختلاف أوضاع الأرض، يعرف المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة؛ فيحمل قلبه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبية الدنيا وقَلَقِها.

والركوع والسجود بين يدي الله، يُشعِر المسلم نَفسه معنى السُّمو والرِّفعة على كل ماعدا الخالق من وجود الكون.

وبالجلسة في الصلاة وقراءة التحيات الطيبات، يكون المسلم جالساً فوق الدنيا يحمد الله ويُسلم على نبيِّه وملائكته ويشهد ويدعو.

وبالتسليم الذي يخرج به من الصلاة يُقْبِل المسلم على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً من جهتي السلام والرحمة.

هي لحظاتٌ من الحياة كلَّ يوم في غير أشياء هذه الدنيا؛ لجمع الشهوات وتقييدها بين وقتٍ وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة، ولتمزيق الفناء خمس مراتٍ كلَّ يوم عن النفس؛ فيرى المسلمُ من ورائه حقيقة الخلود، فتشعر الروح أنها تنمو وتتسع. هي خمس صلوات، وهي كذلك خمس مرات يفرغ فيها القلب مما امتلأ به من الدنيا، فما أدق وأبدع وأصدق قوله ﷺ: «**جعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة**» وقد كان النبي ﷺ يستبطئ الصلاة وقد جاء وقتها، من شدة شوقه إليها فيقول: «**أرحنا بها يا بلال**» ولا أفصح ولا أدق في تصوير نفسيته وأشواق روحه العالية من قوله أرحنا بها. فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه»اهـ.

وأخيراً. . أخي المسافر أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك، أسأل الله أن يحفظك في حلك وترحالك وأن يعيدك إلى أهلك سالماً غانماً فائزاً رابحاً موفقاً ناجحاً إنه سميع مجيب.

من أخبار المسافرين (٤٠)

من معاناة العلماء

إليك هذه القصة العجيبة حدثت لبعض علماء هذه الأمة الأجلاء والذين كانوا يعانون أشد المعاناة في سبيل العلم والبحث عن المعرفة ويتعرضون للمخاطر والمهالك، ومع ذٰلك لا يثنيهم خطر ولا يفلّ عزائمهم عارض.

القصة يرويها الإمام الحافظ أبومحمَّد عبدالرَّحمن بن أبي حاتم عن والده الإمام الحافظ أبي حاتم الرازي الذي كان من بحور العلم وممَّن طوَّفوا البلاد وقد برع في المتن والإسناد وجمع وصنَّف وجرح وعدَّل، وصحَّح وعلَّل، وقد ولد في سنة خمسٍ وتسعين ومائة وهو من نظراء البخاري ومن طبقته ولكنه عُمِّر بعده أكثر من عشرين عامًا.

وقد سُئل ولده عبدالرَّحمن عن كثرة سماعه لأبيه وكثرة سؤالاته له وطلبه للعلم علىٰ يديه فقال: ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء فأقرأ عليه.

وإليك الآن القصة التي يرويها عبدالرحمن بن أبي حاتم عن والده أبي حاتم محمَّد بن إدريس حيث يقول:

سمعتُ أبي يقول: خرجْنا من المدينة، من عند داود الجعفري، وصرنا إلىٰ الجار وركبنا البحر، فكانت الريح في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر، وضاقت صدورنا، وفني ما كان معنا، وخرجنا إلىٰ البر نمشي أيامًا، حتىٰ فني ما تبقى معنا من الزاد والماء، فمشينا يومًا لم نأكل

ولم نشرب، ويوم الثاني كمثل، ويوم الثالث، فلما كان يكون المساء صلَّينا وكنا نُلقي بأنفسنا حيث كُنَّا، فلما أصبحنا في اليوم الثالث، جعلنا نمشي علىٰ قدر طاقتنا، وكنا ثلاثة أنْفُسٍ: شيخٌ نيسابوري، وأبوزُهير المرورُّذِي، فسقط الشيخ مغشيًا عليه، فجئنا نحركه وهو لا يعقل، فتركناه، ومشينا قدر فرسخ، فصعفت، وسقطت مغشيًا عليَّ، ومضىٰ صاحبي يمشي، فبصر من بعد قومًا، قرَّبوا سفينتهم من البرِّ، ونزلوا علىٰ بئر موسى، فلما عاينهم، لوَّح بثوبه إليهم، فجاؤوه معهم ماءٌ في إداوة. فسقوه وأخذوا بيده، فقال لهم: ألحقوا رفيقين لي، فما شعرت إلاَّ برجل يصبُّ الماء علىٰ وجهي، ففتحتُ عيني، فقلتُ: اسقني فصب من الماء في مشربة قليلاً، فشربتُ، ورجعتْ إلىٰ نفسي، ثم سقاني قليلاً، وأخذ بيدي، فقلت: ورائي شيخٌ مُلْقى، فذهب جماعةٌ إليه، وأخذ بيدي، وأنا أمشي وأجُرُّ رجليَّ، حتىٰ إذا بلغْتُ إلىٰ عند سفينتهم، وأتوا بالشيخ، وأحسنوا إلينا، فبقينا أيامًا حتىٰ رجعت إلينا أنفسنا، ثم كتبوا لنا كتابًا إلىٰ مدينة يقال لها: راية ـ محلة عظيمة بفسطاط مصر ـ ، إلىٰ واليهم، وزوَّدونا من الكعك والسويق والماء. فلم نزل نمشي حتىٰ نفِدَ ما كان معنا من الماء والقوت، فجعلنا نمشي جياعًا علىٰ شط البحر، حتىٰ دفعنا إلىٰ سلحفاة مثل التُّرس، فعمدنا إلىٰ حجرٍ كبير، فضربنا علىٰ ظهرها، فانفلق، فإذا فيها مثل صفرة البيض، فتحسَّيناه حتَّىٰ سكن عنَّا الجوع، ثم وصلْنا إلىٰ مدينة الرَّاية، وأوصلنا الكتاب إلىٰ عاملها، فأنزلنا في داره، فكان يقدِّم لنا كلَّ يوم القرْعَ، ويقول لخادمه: هاتي لهم اليَقْطين المبارك. فيُقدِّمُه مع الخُبْزِ أيَّامًا، فقال واحدٌ منَّا: ألا تدعو باللَّحم المشئوم؟! فسمع صاحب الدَّار، وأتانا بعد ذٰلك باللَّحم، ثم زوَّدَنا إلىٰ مِصر.

ابتسم

أخي المسافر أدعوك إلى ابتسامة مشرقة تطرد بها أحزانك وتُذهب بحلاوتها همومك، ازرع البسمة على محيّاك، وارسم البهجة على جنبيك، إيّاك والحُزن أو العبوس، احذر اكفهرار الوجه وتقطيب الجبين. فإنك بذلك تقتل نفسك وتدمّر قلبك.

ابتسم للحياة، اضحك في وجه الأيام، يقول عبدالله بن الحارث: ما رأيت أحداً كان أكثر تبسُّماً من رسول الله ﷺ. إذا كثرت همومك فابتسم، إذا زادت غمومك فابتسم، إذا قست عليك الأيام فابتسم، إذا اعترضتك الصعاب فابتسم، إذا اضطررت لفراق الأحباب والبعد عن الأصحاب فابتسم، فإن الحزن والانقباض، والبكاء والعويل لن يردّ من ذلك شيئاً، حارب اليأس، أحسن الظن، توقَّع الخير، أمِّل الفلاح، وترقب النجاح، فالزهر باسم، والغابات باسمة، والبحار والأنهار والسماء والنجوم والطيور كلها باسمة.

قال: «السماءُ كئيبةٌ!» وتَجهَّما ... قلتُ: ابتسمْ يكفي التجهُّمُ في السما!
قال: الصِّبا ولَّى! فقلت له: ابتسمْ ... لن يَرجعَ الأسفُ الصِّبا المتصرِّما!
قال: التي كانتْ سمائي في الهوى ... صارتْ لنفسي في الغرام جهنَّما
خانتْ عهودي بعدما مَلَّكتُها ... قلبي، فكيف أطيقُ أن أتَبسَّما؟
قلت: ابتسمْ واطرَبْ فلو قارنتها ... قَضيَّتَ عمرَكَ كلَّه متألّما!
قال: التجارةُ في صراعٍ هائل ... مثلُ المسافرِ كادَ يقتلهُ الظما
أو غادةٍ مسلولةٍ محتاجةٍ ... لدم، وتنفثُ، كلما لهثتْ دما!
قلتُ: ابتسمْ ما أنتَ جالبُ دائها ... وشفائها فإذا ابتسمتَ فربَّما..
أيكونُ غيرُكَ مجرماً، وتبيتُ في ... وجل كأنكَ أنت صرتَ المجرما؟

قال: العدى حولي عَلَتْ صيحاتُهُمْ ... أأُسَرُّ والأعداءُ حولي في الحمى؟
قلتُ: ابتسمْ لم يطلبوكَ بذمِّهمْ ... لو لم تَكُنْ منهمْ أجلَّ وأعظما!
قال: المواسمُ قد بَدَتْ أعلامُها ... وتعرَّضتْ لي في الملابس والدُّمى
وعليَّ للأحباب فرضٌ لازمٌ ... لكنَّ كفي ليس تملكُ درهماً
قلتُ: ابتسمْ، يكفيك أنَّكَ لم تزلْ ... حيًّا، ولستَ من الأحبَّةِ مُعْدما!
قالَ: الليالي جرَّعتني علقماً ... قلت: ابتسم ولئن جرعت العلقما
فلعلَّ غيرَكَ إنْ رآكَ مرنِّماً ... طَرَحَ الكآبَةَ جانباً وتَرَنَّما
أتُراكَ تغنمُ بالتبَرُّم درهماً ... أم أنتَ تَخسرُ بالبشاشةِ مغنما؟
يا صاحِ، لا خَطَر على شَفتيكَ أن ... تتثلَّما، والوجه أن يتحطَّما
فاضْحكْ فإن الشهبَ تضحكُ والدجى متلاطمٌ، ولذا نحبُّ الأنجما!

إيليا أبوماضي

وبعد فإني أسأل الله تعالى أن يحفظك أينما كنت وأن يُزودك التقوى ويعمر قلبك بالإيمان، ويديم عليك نعمة الإسلام، ويكفيك شرّ المعاصي والآثام. أسأل الله تعالى أن يردّك إلى أهلك سالماً غانماً، وأن يعيدك إلى أبنائك، وأحبابك وإخوانك صحيحاً معافىً، وقد تحقّقت أمالك، وتيسّرت أمورك، وظفرت بمرادك، وحصلت بغيتك فيما يرضي خالقك بارك الله فيك وسدّد خطاك وأعانك في جميع أمورك. أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك. وإن كان لي من وصية إليك فإني أقول لك لا تنسنا من دعائك يا أخي.

مسك الختام

أوحشتني خلواتي بك من كل أنيس
وتفردت فعاينتك بالغيب جليسي
ودعاني الوجد والحب إلى المعنى النفيس
فبدا لي أن مهر الحب أنفاس النفوس
فكتبت العهد للحب على طرس الطروسي

اللهم لك الحمد على توفيقك وإحسانك وجودك وامتنانك.

اللهم إني أسألك أن تجعل ما قدمت ذخراً لي في صحائف الأعمال، ونوراً لي إذا انتهت الآجال، وأنيساً لي إذا ألقيت عصا الترحال.

اللهم اغفر به وزري، وارفع به قَدْري، وأعلِ به ذِكْرِي إذا انقطع من الدنيا خبري، ومُحيَ من الأرض أثري، وانتهى إليك سفري.

اللهم إني أقصد به وجهك، وأطلب به عفوك، وأستجدي به جودك، وأستدرُّ به عطفك، فاغفر زللي فيه واقبل منه ما كان صائباً، ولا تردني محروماً ولا خائباً.

اللهم إني أحبك وأحب من يحبك وأحب نبيك وكتابك وشرعك حبًّا لا يجارىٰ ولا يُبارىٰ، فاغفر لي فإنك كنتَ غفَّارا.

إني أحبك حباً ليس يبلغه همِّي ولا ينتهي فهمي إلى صِفتهْ
أقصىٰ نهاية علمي فيه معرفتي بالعجز منيَ عن إدراك معرِفته
الأنسُ ذِكْرُك، والسلوةُ طاعتُك، والسعادةُ حبك، والفلاح شرعك.

اللهم اعمر أيامي بطاعتك، وأوقاتي برضاك، وساعاتي بذكرك، ياأنيس المسافرين والحاضرين، ويا حبيب الطائعين، وسلوة المحزونين، ويا منفس كرب المكروبين، ومفرِّج هم المهمومين، نفِّس كربنا، وفرِّج

همَّنا، واغفر ذنبنا، وبلغنا فيما يرضيك آمالنا.

يارب إن ذنوبي قد أحطتَّ بها علماً وبي وبإعلاني وإسراري
أنا الموحد لكني المِقرُّ بها فهب ذنوبي لتوحيدي وإقراري

اللهم يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمائر الصامتين، يا من ليس معه ربٌّ يدعى، ولا إله يرجىٰ، ولا فوقه خالقٌ يخشىٰ، ولا وزير يؤتىٰ، ولا حاجب يرشىٰ، يا من لايزداد على السؤال إلاَّ كَرَماً وجوداً وعلى كثرة الحوائج إلاَّتفضلاً وإحساناً، نسألك اللهم العتق من النار، والفوز بالجنة.

تفيضُ نفوسٌ بأوصابها وتكتم عوّادها ما بها
وما أنصفت مهجةٌ تشتكي هواها إلى غير أحبابها

اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي لساني نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن خلفي نوراً، واجعل في نفسي نوراً، وعظِّم لي نوراً، ربِّ اشرح لي صدري، ويسر لي أمري.

اللهم إني أسألك الهدى التقى والعفاف والغنى.

اللهم احفظنا في حضرنا وسفرنا، وإقامتنا وظعننا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين يا أرحم الراحمين، يارب العالمين.

وَلَمْ أقْدِرْ عَلَى إخْفَاءِ حالٍ يَحُولُ بِهَا الأسَى دُونَ التَّأسِّي
وحُبُّكَ مَالِكٌ لَحْظِي وَلَفْظِي وإظْهَارِي وإضْمَارِي وحسِّي
فإنْ أنْطِقْ، فَفِيكَ جَمِيعُ نُطْقِي وإن أسكُتْ فَفِيكَ حَدِيثُ نَفْسِي

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

أخوكم ومحبكم/ **د. ناصر بن مسفر الزهراني**
مكة المكرمة ـ جامعة أم القرى

أهم المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم.
٢ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي.
٣ـ اختبر معلوماتك، أيمن الإسكندراني.
٤ـ أدب الرحلة عند العرب، د. حسني محمود حسين.
٥ـ أعلام النساء، عمر كحالة
٦ـ الأغاني، أبوالفرج الأصبهاني.
٧ـ البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي.
٨ـ البيان والتبيين، الجاحظ.
٩ـ تهذيب سيرة ابن هشام، عبدالسلام هارون.
١٠ـ تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، اختصره محمد نَسِيب الرفاعي.
١١ـ جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر.
١٢ـ الجليس الصالح، لأبي الفرج الحريري.
١٣ـ جمهرة أشعار العرب، أبوزيد القرشي.
١٤ـ جواهر الأدب، السيد أحمد الهاشمي.
١٥ـ الحنين إلى الأوطان حتى نهاية العصر الأموي، محمد إبراهيم
١٦ـ الدواوين الشعرية
١٧ـ رحلة ابن بطوطة
١٨ـ رحلة ابن جبير، ابن جبير.

١٩ـ رهبان الليل، سيد بن حسين العفاني.
٢٠ـ رياض الصالحين، لأبي زكريا يحيىٰ بن شرف النووي الدمشقي.
٢١ـ زاد المعاد، ابن القيم.
٢٢ـ سلة المعلومات، دار طويق للنشر والتوزيع.
٢٣ـ سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.
٢٤ـ السيرة النبوية، أبوالحسن الندوي.
٢٥ـ شاعرات العرب، عبدالبديع صقر.
٢٦ـ شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي.
٢٧ـ شعراء هجر، عبدالفتاح الحلو.
٢٨ـ صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، عبدالفتاح أبوغدة.
٢٩ـ صفة الصفوة، ابن الجوزي.
٣٠ـ صيد الخاطر، ابن الجوزي.
٣١ـ الطب محراب الإيمان، د. خالص جلبي.
٣٢ـ طرائف ونوادر، نايف معروف.
٣٣ـ عجائب الدنيا وغرائب البشر، محمد رفعت.
٣٤ـ عيون الأخبار، أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.
٣٥ـ الفرج بعد الشدة، التنوخي.
٣٦ـ فيض الخاطر، أحمد أمين.
٣٧ـ في ظلال القرآن، سيد قطب.
٣٨ـ الكتب الستة.

٣٩ـ كل شيء عن النجوم، آن تري هوايت، ترجمة إسماعيل حقي.
٤٠ـ كل شيء عن البحر، فرديناند لين، ترجمة د. محمود محمد رمضان.
٤١ـ كل شيء عن الصحراء، سام ـ وبريل إبشتين، ترجمة د. مصطفى بدران.
٤٢ـ الكوكب المنير، أبوإبراهيم المصري.
٤٣ـ لسان العرب، ابن منظور.
٤٤ـ مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، ابن الجوزي.
٤٥ـ مجلة الأدب الإسلامي العدد الأول.
٤٦ـ مجلة الرسالة.
٤٧ المدهش، ابن الجوزي.
٤٨ـ موسوعة الثقافة والمعلومات، مهدي سعيد رزق كريزم.
٤٩ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان.

الفهرس

لماذا أنيس المسافر ٣
المقدمة ٥
أول سفر في تاريخ البشر ١١
من فوائد السفر ١٣
المسافر والطبيعة ١٨
الصحراء ٢٢
وصف الشمس ٢٥
استراحة المسافر (١) ٢٨
شهيد الحب ٢٩
آيات للتدبر ٣٠
من أخبار المسافرين (١) أبونواس يسافرإلى مصر ٣٢
ابن دراج يعارض أبانواس ٣٣
مسافر في القطار ٣٦
ديار وقطار ٣٧
القروي والقطار ٣٨
الترمواي في الآستانة ٣٨
من أقدم أسفار البشرية ٤٠
من أخبار المسافرين (٢) بلقيس تسافر إلى سليمان ٤٥
أدعية السفر ٤٨
دعاء الركوب والسفر ٤٨

الدعاء إذا خاف ناساً أو غيرهم ٤٩
ما يقول إذا نزل منزلاً ٤٩
ما يقوله إذا أقبل الليل ٥٠
من أخبار المسافرين (٣) مسافرون صدقوا ما عاهدوا الله عليه ٥١
استراحة المسافر (٢) ٥٤
الحمار المسروق ٥٥
الخيبة الكبرى ٥٦
من وصايا المسافرين ٥٧
من أخبار المسافرين (٤) الفضيل ينصح الرشيد ٦٠
الغربة والحنين إلى الأوطان ٦٣
من أخبار المسافرين (٥) الغريب ٧٧
البارودي والغربة ٧٨
الصلة بين الغرباء والحمام ٨٠
الأصبهاني وحمام الأيك ٨٤
المرأة والحنين إلى الأوطان ٨٦
رامة بنت حصين الأسدية ٨٦
زينب الضبية ٨٧
وجيهة بنت أوس ٨٨
ميسون بنت بحدل ٨٨
أسماء المرية ٨٩
الإبل تشارك في الحنين ٩١

ذم السفر والاغتراب ٩٤
معاناة مسافر ٩٦
من أخبار المسافرين (٦) أشعر الناس ٩٨
المبرد يحكم بين الشعراء ٩٩
السياحة في القران والسنة وأقوال العلماء ١٠١
معنى السياحة ١٠٢
أقوال المفسرين في معنى السياحة ١٠٤
الرأي المختار ١٠٥
تفيسر السياحة بالمعنى الحقيقي ١٠٧
الإمام الطاهر بن عاشور ١٠٨
الإمام عبدالرحمن السعدي ١٠٨
العلامة محمد القاسمي ١٠٨
الإمام محمد رشيد رضا ١٠٩
الأستاذ سيد قطب ١١٠
من لطائف المفسرين في السياحة ١١١
١ـ القاسمي ١١١
٢ـ الإمام محمد رشيد رضا ١١٤
السياحة في السنة ١١٧
من نفائس العلماء في السياحة والسفر ١٢٠
وصايا للسياح ١٢٦
الوصية الأولى: دعاء السفر ١٢٦

الوصية الثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٢٧
الوصية الثالثة: شكر النعم ١٢٨
الوصية الرابعة: توثيق المودة ١٢٩
الوصية الخامسة: إدخال السرور على الأهل ١٢٩
رسائل المحبين ١٣٣
من أخبار المسافرين (٧) المتنبي يسافر إلى شيراز ١٣٦
استراحة المسافر (٣) ١٣٨
الدخان في دورة المياه ١٣٨
التشاؤم في السفر ١٤٠
كذب المنجمون ولو صدقوا ١٤١
المملكة العربية السعودية في سطور ١٤٤
من أخبار المسافرين (٨) عبدالله بن المبارك ١٢٨
سفره للحج ١٤٩
ابن المبارك يلغي سفره ويعود ١٤٩
السفر في التومبيل ١٥١
شاعر يهجو سيارته ١٥٣
من أخبار المسافرين (٩) عروة والمصائب العظيمة ١٥٥
آيات للتدبر ١٥٨
المسافر والشمس والقمر ١٥٩
إبراهيم يناظر قومه ١٦٥
من عجائب الكون ١٦٩

سفر الهجرة ١٧٠
الرفيق قبل الطريق ١٧٨
رحلة ١٨٢
المسافر والجبال ١٨٦
الجبل ١٨٩
أعجب سفر في تاريخ البشر (المعراج) ١٩١
حديث الإسراء والمعراج ١٩٢
من أخبار المسافرين (١٠) المجرمون يعترضون طريق زينب ١٩٥
المسافر والبحر ١٩٩
أسطول معاوية في البحر ٢٠٨
مسافر في البحر ٢١٠
حافظ إبراهيم يسافر في البحر ٢١١
يونس في البحر ٢١٢
بعض الدروس المستفادة من قصة يونس ٢١٤
أنا والبحر ٢١٧
استراحة المسافر (٤) ٢٢١
من أخبار المسافرين (١١) دعاني من هو خير منك ٢٢٣
مسافر في الطائرة ٢٢٤
شوقي يصف الطائرة ٢٢٦
تحطم طائرة ٢٢٨
من أخبار المسافرين (١٢) يا أبا بكر لا تسافر ٢٣٤

عجائب من سفر العباد ٢٣٦
من أخبار المسافرين (١٣) موفق ومخذول ٢٣٨
أحكام السفر ٢٣٩
من أخبار المسافرين (١٤) مسافر ينجو من الأسد ٢٤١
استراحة المسافر (٥) ٢٤٣
العشاق قبل الزواج وبعده ٢٤٤
الراكب شيطان ٢٤٦
من أخبار المسافرين (١٥) الأعشى يلغي الممشى ٢٤٨
مسافرون في طلب العلم ٢٥٠
صفوان بن عسال يسافر إلى النبي ﷺ ٢٥٢
مسافر إلى أبي الدرداء ٢٥٢
جابر بن عبدالله يسافر شهراً كاملاً ٢٥٣
خير خلف لخير سلف ٢٥٤
أبوالعالية الرياحي ٢٥٤
سعيد بن المسيب ٢٥٥
عامر الشعبي ٢٥٥
مكحول الشامي ٢٥٥
الإمام أحمد ٢٥٥
ابن أبي حاتم ٢٥٦
أبوسعد السمعاني ٢٥٧
أبوالعلاء الهمذاني ٢٥٨

محمد بن طاهر المقدسي ٢٦٠
ابن عساكر ٢٦٢
الأديب الرحالة ٢٦٤
من أخبار المسافرين (١٦) موسى عليه السلام
يرحل في طلب العلم ٢٦٧
آيات للتدبر والتفكر ٢٦٩
من أخبار المسافرين (١٧) البغدادي وعقد اللؤلؤ ٢٧٠
المسافر والنهار ٢٧٢
من أخبار المسافرين (١٨) مسافر من تركيا ٢٧٤
من أخبار المسافرين (١٩) الموصلي يسافر إلى وزير مصر ٢٧٦
المسافر والليل ٢٧٧
أيها الراقد ٢٨٦
في الليل ٢٨٨
عابد ليل ٢٨٩
من أخبار المسافرين (٢٠) مسافر على بساط الريح ٢٩٠
استراحة المسافر (٦) ٢٩٢
شيخ الحارة ٢٩٢
ساعة الوداع ٢٩٤
وداع في محطة القطار ٣٠٢
محاورة بين بنت وأبيها المسافر ٣٠٣
وداع وشكوى ٣٠٤

بكاء لفراق الحليلة ٣٠٦
محب يحب الفراق ٣٠٩
من أخبار المسافرين (٢١) مسافر يترك السفر عطفاً على زوجته ٣١١
آيات للتدبر والتفكر ٣١٢
وداع لا رجعة بعده ٣١٣
ضحايا القطار ٣١٥
أبوالحسن الأنباري يرثي وزير عز الدولة ٣١٧
عائشة التيمورية تودع ابنتها ٣١٩
البارودي يبكي زوجته في الغربة ٣٢١
ولدي ٣٢٣
من أخبار المسافرين (٢٢) مسافرة تبحث عن زوجها ٣٢٨
استراحة المسافر (٧) ٣٢٩
من مآسي المعددين ٣٣٠
سفر إلى أعماق النفس ٣٣٤
آيات للتدبر والتفكر ٣٤٢
من أخبار المسافرين (٢٣) مسافر يرثي نفسه ٣٤٤
من أخبار المسافرين (٢٤) المصطفى يسافر إلى تبوك ٣٤٨
نظرة على الغزوات ٣٥٣
من أخبار المسافرين (٢٥) مسافر من دوس ٣٥٥
المسافر والحدائق الغناء ٣٥٩
من أخبار المسافرين (٢٦) قاضي واسط يتأوه ٣٦٢

من أخبار المسافرين (٢٧) ابن محلّم الخزاعي ٣٦٣
وقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ٣٦٥
آيات للتدبر والتفكر ٣٦٨
من أخبار المسافرين (٢٨) الفاروق يسافر إلى بيت المقدس ٣٦٩
لامية الطغرائي ٣٧٣
من أخبار المسافرين (٢٩) التجارة الرابحة ٣٧٥
إن مع العسر يسراً ٣٧٦
المسافر والسماء ٣٧٨
إلى السماء ٣٨٢
آيات للتدبر والتفكر ٣٨٦
من أخبار المسافرين (٣٠) مسافرة تختطف من زوجها ٣٨٧
دعوة للسياحة في الأرض ٣٨٩
من أخبار المسافرين (٣١) الخارجي والصداق الشاق ٣٩١
استراحة المسافر (٨) ٣٩٢
الرحالة العرب ٣٩٤
من رحلات العرب العجيبة ٣٩٨
أسامة بن منقذ ٣٩٨
عبداللطيف البغدادي ٣٩٨
رحلة ابن جبير ٣٩٩
أهوال البحر ٤٠٠
الملك العادل ٤٠١

رحلة ابن بطوطة ٤٠٣
مقتطفات من رحلة ابن بطوطة ٤٠٤
أهل مكة ٤٠٤
غامد وزهران ٤٠٥
نهاية الرحلة ٤٠٦
ابن خلدون ٤٠٦
رحلات جغرافية ٤٠٩
ابن حوقل ٤٠٩
المقدسي ٤١١
الإدريسي ٤١١
القزويني ٤١١
الحموي ٤١٢
المسعودي ٤١٣
من أخبار المسافرين (٣٢) القاضي المالكي ٤١٥
استراحة المسافر (٩) ٤١٥
مرثية التيس ٤١٦
الشعراء على باب عمر بن عبدالعزيز ٤١٧
من أخبار المسافرين (٣٣) مسافر يحبه الله ٤٢١
آيات للتدبر والتفكر ٤٢٢
من أخبار المسافرين (٣٤) ابن وهب يسافر للحج ماشياً ٤٢٤
مهاجر من هجر ٤٢٥

من أخبار المسافرين (٣٥) مسافر يهرب من الحجاج ٤٣٢
أدباء العالم والسفر ٤٣٤
أسفار عديدة من أجل السلام والموت ٤٣٥
السفرة الطويلة والأخيرة ٤٣٦
السفر هدف لذات السفر ٤٣٧
السفر رمز لكل تغير وتطور ٤٣٨
من أخبار المسافرين (٣٦) حليمة تسافر باليتيم ٤٤٠
وقفة مع اليتيم ﷺ ٤٤٣
من وسائل السفر القديمة ٤٤٦
امرؤ القيس يصف الفرس ٤٤٨
النابغة الذبياني يصف ناقته ٤٥٠
كعب بن زهير يصف راحلته ٤٥٢
الفرزدق يتحدث عن ناقته ٤٥٥
أبودلامة والبغلة ٤٥٦
استراحة المسافر (١٠) ٤٥٩
مداعبة شعرية ٤٦١
من أخبار المسافرين (٣٧) مسافر يطوي الأرض ليتوب إلى ربه ٤٦٢
السفر الأخير ٤٦٣
خطبة مسافر إلى الدار الآخرة ٤٧٢
من أخبار المسافرين (٣٨) مسافرون أيقنوا بالهلاك ٤٧٣
المسافر والهدية ٤٧٥

من أخبار المسافرين (٣٩) مظلومة تسافر إلى المأمون ٤٧٨
اتق الله حيثما كنت ٤٧٩
من أخبار المسافرين (٤٠) سفر المهالك ٤٨٦
ابتسم ٤٨٨
مسك الختام ٤٩٠
أهم المصادر والمراجع ٤٩٢
الفهرس ٤٩٥